أ. ج. سوانسن كوبر

رحلة في البلاد العربيّة الخاضعة للأتراك

من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣م

ترجمة : صادق عبد الركابي



رحلة في البلاد العربية الخاضعة للأتراك

من البحر المتوسط إلى بومبي

من طريق مصر والشام والعراق والخليج العربي في ١٨٩٣م



الأهليّة للنشر والتوزيع

e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : ٨٢٤٢٠٣ / ٠١ – مقسم ١٩

رحلة في البلاد العربيّة الخاضعة للأتراك

من البحر المتوسّط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربيّ في ١٨٩٣م.

أ. ج. سوانسن كوبر

ترجمة :

صادق عبد الركابي / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٤

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

لوحة الغلاف :

عبد القادر الرسّام / العراق

الصف الضوئي : **إيمان زكريّا خطّاب ، عمّان ، هاتف ٠٧٩/٥٣٤٩١٥٦**

أ.ج. سوانسن كوبر

رحلة في البلاد العربيّة الخاضعة للأتراك

من البحر المتوسط إلى بومبي عن طريق مصر والشام والعراق والخليج العربيّ في ١٨٩٣م

ترجمـــة : صـادق عبــد الركابــي



الأهلية

إهــــداء

إلــى...

مضيفي السيد حسن حكيم زاده الكربلائي

أ. ج. سوانسن كوبر

مقدمة المؤلف

▣ هذا الكتاب هو تسجيل مبسّط لرحلة انفرادية من البحر المتوسط إلى الخليج العربي عبر وادي دجلة والفرات وهما النهران العظيمان في غرب آسيا. وعلى القارئ أن يدرك، وهنا أجلب انتباهه بأن لا يتوقع أن يكون الكتاب سردًا لاكتشاف علمي أو رحلة خيالية كالتي تزيّد كتب المؤلفين الرحالة. لذا فإنني هنا أرد بتواضع نقد من يقول أن الكتاب تعوزه قوة الملاحظة المنظمة أو إنه يفتقر إلى الأسلوب.

على حد علمي، لقد تم وصف ما يسمى بطريق القوافل على نهر الفرات من حلب إلى بغداد مرّة واحدة فقط في كتاب حديث للرحلات الإنكليزية هو كتاب السيدة آن بلنت الممتع "قبائل الفرات البدوية". وبالنسبة إلى الوادي نفسه، فلدينا مؤلفات علمية إحصائية هي ثمرة جهود "بعثة وادي الفرات" في عام ١٨٣٦م. إلا أن هذه المؤلفات، ولكون البعثة قد استخدمت النهر في خط سيرها، لم تصف الطريق البري، وليس لها أي تأثير، وكما كان يتوقع منها في ذلك الوقت، في كشف الوادي أمام

الرحالة الإنكليز، لهذا ولغاية هذا اليوم ظل الفرات وما يحيطه عمليًا أرضًا مجهولة، دون اي ادب وصفي شعبي عنه باستثناء ما ذكر آنفًا.

واسباب ذلك واضحة. فالمسافر الذي يرغب ان يشق طريقه من البحر المتوسط إلى بغداد او الخليج العربي، يجد طريقًا اسهل واكثر متعة بسلوك طريق أورفه - ديار بكر او ماردين والموصل. صحيح ان هذه الطرق ليست دائمًا ذات شمس مشرقة كما هو الحال مع طريق الفرات ما خلا منتصف الشتاء، إلا انه ما يعوض عن هذه الميزة السلبية، هو ما يتداول من قصص عن اخطار غزو القبائل العربية في شمال الصحراء العربية، والتي تكفي لثني اي مسافر عن سلوك هذا الطريق.

وفي الواقع ان هذه الأخطار قد بولغ بها كثيرًا، إلا ان هذا غير معروف بشكل عام إذ انه لا يمكن تجنب هذه الصعوبة المفترضة بواسطة السفر عن طريق مياه النهر حيث لا يصلح الجزء الأكبر من النهر بين مسكينة والفلوجة لأي نوع من الملاحة. الاعتراض الجوهري الآخر على سلوك هذا الطريق هو ندرة المؤن إذ أن طريق الفرات من الناحية العملية هو رحلة صحراوية ما خلا انه يتوفر فيها تجهيزًا كبيرًا من المياه. ومرة اخرى ينطلق المغامر بعد أن يعامله "الغزاة" اللصوص العرب بازدراء مع مؤنته الصغيرة، بشكل متواصل من دمشق سالكًا طريق البريد القديم او طريق تدمر، وإذا ما قامت عنزة او غيرها على الطريق بتسليبه، فإنه لا يهتم كثيرًا لأن امتعته ضئيلة او معدومة، وستحيطه مغامرته، عند عودته للحضارة إلى حد ابعد، بهالة من الرومانسية والشهرة كاحد الرحالة الشرقيين.

لهذه الأسباب، خضت مغامرة نسخ ذلك القسم من يومياتي التي تتعلق بهذا الجزء من رحلتي، والتي ربما تكون ذات تفاصيل مملة إلى حد ما. وعلينا ان نتذكر ان

امام هذا الوادي مستقبلاً مهمًا، إذا لم يكن بسبب كونه يمثل طريقًا لسكة الحديد الهندية - الأوروبية، فإنه على اية حال يمثل طريقًا لمرور السفن.

رغم انني مدرك جيدًا انه مع التقدم المضطرد للرحلات العلمية الذي نعيشه اليوم، فإن هذا الكتاب لا يمكن ان يحظى إلا باهتمام قليل، إلا انني متأكد ان موضوعه سيكون ذا فائدة للآخرين. واجازف في التفكير بأن اليوميات المدونة عن الطرق بين حلب وبغداد وبين الأخيرة وبابل وكربلاء ستكون ذات فائدة. فإضافة إلى الملاحظات الجغرافية العلمية، فإن هذه اليوميات الدقيقة المدونة بالساعات لها قيمة كبيرة للمسافرين على طرق القوافل الشرقية القديمة.

إن رفيق السفر على هذه الطرق التي ذكرتها آنفًا هو السيد (ا. ج. جيْ كوننكام من ليسنتر ريجمنت) وهو الآن لسوء الحظ في الهند، بعد رحلة دامت (١٨) شهرًا في بلاد فارس وآسيا الوسطى، لهذا فإني لا استطيع ان اقدم إليه قبل النشر، كما كنت اتمنى، هذه الصفحات التي تتناول تلك الفترة القصيرة، إلا انها مثيرة من الرحلة التي قمنا بها معًا.

إن الرحلة من بغداد إلى بومبي، تمر بالطبع بمناطق ذات طابع متحضر، وهي معروفة إلى حد كافٍ، إلا انني امل ان يجد القارئ فيها شيئا من المتعة.

بالنسبة إلى تهجئة اسماء الأماكن، حاولت ان اكون متوافقًا قدر استطاعتي مع ما ذكرته الجمعية الجغرافية الملكية. مع ذلك، فإنه فيما يتعلق باسم بغداد (Bagdad)، لم اتبن حرفي (gh) اللذين يستخدمان بشكل عام لتمثل الحرف العربي (غين)، لأنه عند تلفظ هذا الاسم، ليس هناك شيئا من الخشونة التي ترافق عادة هذا

الحرف كما هو الحال على سبيل المثال في كلمة (غزو) (ghazu) حيث يكون الحرفان الإنكليزيان (rg) اصدق تمثيلاً لصوت الحرف.

وفيما يتعلق بعنوان الكتاب (Through Turkish Arabia) اتفقت مع السيد ولفرد بلنت وآخرين بأن الخط الوهمي الممتد من خليج العقبة إلى ثغر شط العرب لا يمثل الحد الحقيقي لشمال الجزيرة العربية - على العكس من ذلك، فإن كل الصحراء شرق وغرب الفرات والتي يسكنها بدو يتحدثون العربية هي عربية محضة كحضرموت في اليمن. صحيح أن الأتراك يسيطرون على الفرات وأن بغداد والبصرة هي مدن تحت السيطرة التركية، إلا أن ضواحي هذه المدن هي عربية صرفة وأن الرحلة من أبواب حلب إلى حيث يتدفق تيار المياه الداكن إلى البحر عند رأس الخليج العربي، هي في كل خطوة فيها تكون عبر البلاد العربية الخاضعة للأتراك.

لقد انهك قواي سوء حالتي الصحية بقدر اكثر من اللازم مما اضطرني إلى التخلي عن الكثير من الخطط، التي لو كان قد تم تنفيذها، فإنها ستضيف متعة أكثر إلى الرحلة، كالسفر إلى مشهد علي ونهر الكارون الذي تمّ افتتاح خط ملاحي فيه مؤخرًا. ربما يكون قدري ان ازورها يومًا ما في المستقبل.

هوكشيد

تشرين الأول ١٨٩٣

ا. ج. اس. كوبر



مقدمة المترجم

▣ يقدم هذا الكتاب وصفاً لرحلة قام بها المؤلف عام ١٨٩٣م. وقد بداها من الإسكندرية والقاهرة في مصر ثم ميناء الإسكندرون وحلب ودير الزور وابو كمال في سوريا ثم القائم وعانة وهيت والرمادي والفلوجة وبغداد والحلّة وكربلاء والبصرة في العراق، ويواصل رحلته بحرًا عن طريق الخليج العربي ليصف موانئه كالمحمرة وبوشهر وبندر عباس والبحرين وهرمز ليصل إلى بومبي ومنها يعود إلى بلده إنكلترا.

يتضمن الكتاب وصفاً للأوضاع الاقتصادية والسياسية والتاريخية للمناطق التي مرّ بها في ذلك الوقت دون ان يغفل عن ذكر القرى والقبائل والمجمعات العربية البسيطة والمواقع التاريخية والآثار المنتشرة في المنطقة وكذلك النباتات والحيوانات البرية فيها ويصف أزياء السكان وعاداتهم ويعطي إحصانيات عن اعدادهم والجاليات المتواجدة بين ظهرانيهم. يعطي الكتاب تصورًا عامًا عن احوال البلاد في تلك الفترة. وهو لا يخلو من المتعة والفائدة للقارئ الاعتيادي أو للقارئ المتخصص.

واخيرًا ارجو من القارئ الكريم ان يمنحنا العذر لأي خطأ او سهو، فالكمال له وحده، وقد حاولت ان اكون دقيقًا قدر المستطاع في نقل ما اراده المؤلف وفي إعادة الأسماء او الكلمات الواردة في الكتاب إلى اصلها ووضعت بعض الشروح في هوامش الكتاب زيادة في التوضيح.

وفي الآخر، اتقدم بالشكر الخالص إلى كل من مدّ إلي يد العون والمساعدة واخص بالذكر منهم صديقي الوفي علاء العبادي واخي العزيز علي حسين الخطاط ورفيقة دربي سامية واولادي سارة وعمر وهمام واكثم.

المترجم / المحامي صادق عبد علي الركابي

* * *

موضوعات الكتاب

الفصل الاول

من لندن إلى الإسكندرون

خططي - الطرق - الاستعدادات - التجهيزات وسرير ليفنج - الكوليرا والانفلونزا - الرحيل نحو الشرق - في البحر المتوسط - القاهرة - ضريح الخديوي - مولد ستي زينب - المغادرة نحو سوريا - يافا - بيروت - الاقتراب من الاسكندرون

بعد قضاء شتاء سعيد في عام ١٨٨٩-١٨٩٠م على النيل وفي القاهرة، اتخذت قرارًا، عند عودتي إلى الوطن، بزيارة المدينة العظيمة الأخرى في الشرق الناطقة بالعربية، وهي بغداد، بغداد الكُتاب الأوائل، بغداد الرومانسية، لأني كنت ارى، لحين ما ازالت عدة دراسات بعض الأوهام التي كانت تتملكني، انه لابد ان هناك الكثير من المتعة التي ينبغي مشاهدتها وانه لابد ان هناك الكثير من الأشياء التي ساتعلمها من زيارتي لمدينة كانت تعلب في السابق دورًا عظيمًا في عالم الشرق.

وعند محاولتي قراءة كتابات الرحالة المتاخرين، وجدت انني كنت مخطئًا، فقد استنتجت ان اهمية بغداد تقع فقط في ماضيها التاريخي، وهذا الربط الرومانسي مع "الف ليلة وليلة"، ووجدت ايضًا ان الوصول إليها ليس امرًا سهلاً إلا إذا جرت الرحلة بالكامل عن طريق البحر، وهي رحلة تستغرق حوالي خمسة اسابيع، إن الطريق الذي

يكسبنا المزيد من المعرفة رغم أنه من المؤكد أكثر صعوبة هو النزول في أحد الموانئ السورية ثم شق الطريق برًا إلى بغداد، وهو شكل من السفر لم تكن لديّ تجربة مسبقة فيه، والذي يتبين من دراستي لكتب الرحلات ان اقل ما يقال عنه انه تكتنفه المصاعب بالنسبة لعديم التجربة.

مع ذلك، اتخذت قراري، وعليّ الالتزام به وتحمل نتائجه. ليس لدي اي فكرة عن السفر بحرًا إلى البصرة، لأن جميع اشكال السفر بحرًا تفضي إلى عدة مثالب، اذكر منها ثلاثة فقط: اختلال الصفراء والبدانة والجهل. لهذا بقي عليّ التفكير بالطرق البرية، من بين هذه الطرق، من الضروري في هذه المرحلة تحديد اثنين منها فقط هما طريق بيروت ودمشق والآخر طريق الإسكندرون او الإسكندريتا وحلب.

لم يحز الطريق الأول اهتمامي طويلاً. رغم ان سلوك هذا الطريق إلى بغداد يتضمن مشاهدة آثار تدمر الشهيرة، إلا انه يستلزم ركوبًا مرهقًا على الجمل لعدة ايام، على الأقل لقطع الصحراء من ذلك المكان إلى الفرات وهي تجربة لم تكن لدي الرغبة في خوض غمارها، رغم انني كما اثبتت الأحداث لم اقتنع تمامًا بتبني الطريق الآخر، لذلك قررت ان اشق طريقي للوهلة الأولى إلى حلب، واترك الموضوع للقدر لأقرر هناك فيما إذا كنت ساسلك طريق الفرات المباشر او ان اشق طريقي إلى الموصل ودجلة.

لم تكن استعداداتي وتجهيزاتي كبيرة، فقد اشتريت خيمة صغيرة بابعاد ٨×٦ قدم من السادة Piggott، وهي مربعة الشكل لها رافدتين منتصبتين ورافدة أفقية، وعندما تطوى يكون وزنها الكامل ٦٥ باون، ولا تاخذ الروافد الثلاثة سوى حيزًا صغيرًا كونها تدخل في تجاويف داخل الخيمة المطوية. كذلك اشتريت شيئًا غريبًا يعرفه المطلعون بانه سرير ليفنج Leving. وهو يتكون من كيس من الكتان مربوط في نهايته المفتوحة بستارة طويلة للحماية من البعوض، وهو اختراع عبقري يمكن

توسيعه ليكون غرفة صغيرة محترمة باستخدام عيدان الخيزران المحنية، يمكن الدخول إلى الكيس عن طريق رقبة من الكتان، ويمكن غلق فمها باشرطة، وعلى مستخدم الكيس سحب هذه الرقبة إلى داخل الكيس بعد دخوله والرقود عليها وبذلك يتم الحصول على نوع من الأمن المقبول ضد كافة اشكال الحشرات الزاحفة او الطائرة. يربط اعلى ستارة الموسلين بمسمار او رافدة. ورغم ان هذا اعظم اختراع يستخدم في الخانات والنزل في الشرق حيث توجد جميع اشكال الهوام والحشرات، والذي عليّ ان اعترف باني مدين له بالنوم العميق في العديد من الليالي، والذي لا يمكن تحقيقه بدونه، فإنه يجب الإقرار انه عند المبيت في خان بقرية عربية بدائية وربما متعصبة دون قفل على بابك، فإنه من الممكن ان يكون اي شيء عدا ان يكون شعورًا سارًا بان تحس بنفسك مربوطًا بإحكام في حقيبة حيث يكون التحرر منها في حالة الطوارئ امرًا مستحيلاً تقريبًا في اقل من دقيقة او دقيقتين. وفي اوقات السلم، يتطلب الخروج من سرير Leving بامان دون تمزيقه حضورًا ذهنيًا وبصيرة وحدّة إدراك. وتحت تاثير اخطار الرحلات فإني اشعر بالفزع من التفكير بمصير سيئ الحظ لشاغل السرير.

كانت امتعتي عبارة عن لفافه من البطانيات، وملاءة (شرشف) مضاد للماء وحقيبتين جلديتين كبيرتين تحويان حاجياتي الشخصية وحقيبة كلادستونية تنفتح من وسطها إلى قسمين متساويين. وعندما جهّزت جميع اشيائي، ذهبت إلى الريف لقضاء عيد الميلاد، على امل ان اغادر إنكلترا في ١٤ كانون الثاني على باخرة الشرق Orizaba.

ويبدو ان الكوليرا، والتي كانت متفشية بشكل سيئ في دمشق وحلب والتي كانت تشكل اكثر من مرّة تهديدنا بتغيير خططي، من خلال الصحف، آخذة بالانحسار بحيث لا تشكل اي عائق امام الرحلة. إلا انني قد تعرضت خلال حفلة عيد

الميلاد إلى هجمة شرسة من الأنفلونزا التي كانت في ذلك الوقت بأسوا حالاتها. ونتيجة لذلك، اضطررت لتغيير سفري ليكون على متن الباخرة Orient والتي تبحر في ٢٩ من نفس الشهر. لقد قررت ان اذهب اولاً إلى القاهرة حيث كنت امل ان اتحقق من الميناء السوري الذي جرى الحجر عليه، وكذلك للحصول على معلومات مؤكدة عن خطوط سير البواخر التي تعمل على طول الساحل السوري.

لهذا وفي يوم ٢٩ كانون الثاني، وجدت نفسي اقف في قمرة على ظهر السفينة Orient، واخذت الأنفلونزا تشتد باكثر من السابق واخذ كل مسافر ينظر بتوتر إلى رفاقه في القمرة للتحقق مما إذا بدت على اي منهم اعراض المرض. كان رفاقي في القمرة محام إيرلندي شاب وبحار كبير السن، وكان الأخير في حالة من الانهيار التام بسبب تناوله الخمر والحزن على فراقه لعائلته والهجمة الأخيرة للمرض. كان يبدو نصف إنسان بسبب المرض. وفي الواقع بسبب مشاعر القلق التي تنتابه وقد امضى معظم اول فترة بعد الظهر بين النوم على الأريكة وشرب الخمر والاعتذار مني. وعندما لا يكون مشغولاً، فإن دموعه تنهمر كالطوفان. ولأنه يبقي الباب مغلقاً ويتناول جميع وجباته في القمرة، فإننا لم نجد فيه رفيقاً متنوراً. ولحسن حظنا فإنه قد انتقل إلى مكان آخر في اليوم التالي.

تعتبر بواخر خط الشرق، كما يعرف الجميع، من بين اجمل البواخر التي تسير بين إنكلترا واستراليا، ورغم انه خط جديد نسبياً، إلا انه ادنى من بواخر P & O من حيث اللوازم والتجهيزات. لقد تمت صناعة الباخرة Orient على وفق متطلبات دار إمارة البحر لصناعة السفن، والتي يمكن تحويلها في حالة الحرب إلى سفن مسلحة، وفي الواقع هي الأقدم من بين ثمانية سفن تبلغ حمولتها اكثر من ٥,٠٠٠ طن. تبلغ قوتها الحصانية ٦٠٠٠ وحمولتها المسجلة ٥٤٠٠ طن. وهي تحمل اربعة صواري ومدخنتين

وطولها ٢٧ قدمًا. وتتميز غرف الجلوس والموسيقى والتدخين وغرف السيدات، رغم انها ربما ليست بنفس الأبهة التي تتميز بها السفن الأخرى على نفس الخط، إلا انها في قمة الراحة. ويشكل سطح الباخرة متنزها ساحرًا وميدانا لمباريات رائعة للكريكت على سطح السفينة.

لقد سلك خليج بسكاي سلوكًا حسنًا لم نكن نتوقعه. فقد كان مجمل اذاه رعدًا خفيفًا وساعة من الضباب، وعند عبورنا له وجدنا انفسنا في مناخ معتدل رغم ان ذلك كان في بداية شهر شباط بحيث اننا استطعنا الجلوس على منصة السفينة حتى الساعة العاشرة او الحادية عشرة ليلاً دون اي خوف من نزلة برد. لقد كان للسان البري الممتد داخل البحر في منطقة سانت فنسنت وساكر اثرًا في حشد جميع المصورين الهواة الموجودين في السفينة لالتقاط الصور لهذه الألسنة البرية الجميلة. ويبدو الأخير خصوصًا بشكل جيد من البحر مع كهوفه وجرفه الحادة ومحطة الإرسال البيضاء القائمة على قمته.

اجتازت السفينة Orient مسافة حوالي نصف ميل. وامام قارب صيد جميل ذو شراع مثلث رُسمت على افواسه عين كبيرة، تهادت سفينتنا بمرح على الأمواج الخضراء. وقد وقف الصيادون البرتغاليون امامنا ليرونا سمكة كبيرة، من الواضح انها سمكة الجريت. لقد كان يومًا رائعًا بنسيمه في منطقة جبل طارق، لهذا ذهبت إلى الساحل وزرت المدينة الإسبانية، والتي يمكن التغاضي عن قذارتها من اجل مناظرها الرائعة. عند المغادرة، كانت هناك ريحًا عاصفة في مؤخرة السفينة والتي تعتبر مدعاة للسرور في ذلك الجزء، إلا انها تكون غير مريحة للغاية لو كانت امامها.

في ٧ شباط، وجدنا انفسنا نبحر ببطء في خليج نابولي وكان يلف المدينة ضباب كثيف كون الطقس كان دافئا، وكانت تغطي بركان فيزوف غيوم كثيفة

بيضاء. وعند الساعة السابعة والنصف، تم إنزال مرساة السفينة، وسرعان ما غمرت انوفنا رائحة نتنة تكفي لإيقاظ الميت.

في نابولي، فقدنا الكثير من ركابنا اللطاف، هذا هو قانون البحار إذ سرعان ما تتشكل صداقات حميمة، ولكن حكم الضرورة ينهيها وربما إلى الأبد. مع ذلك، اعتقد انه تتشكل نسبيًا في البحر صداقات دائمة اكثر مما على اليابسة. فقد قضيت مع مجموعة من ثلاثة اشخاص يومًا بطوله على الساحل نزور مدينة رومانية قديمة. ونجدد معارفنا بعجائب بومباي والمتحف والأوبرا.

كانت سماء جزيرة سترومبولي صافية. في مضايق مسينا، كان الساحل الإيطالي يستحم بالشمس المشرقة في حين يقبع الجانب الصقلي بالضباب والغيوم. في بركان (إتنا) التقطنا نظرة خاطفة على غروب الشمس كون معظم الجبل تغمره غيوم سوداء كثيفة. في ١١ شباط، وصلنا إلى ميناء بور سعيد في الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي، وصلنا إلى الإسماعيلية، حيث وجدت في الفندق طباخي القديم يعمل كنادل. وفي مساء يوم ١٢ شباط كنت اقف في فندق النيل بالقاهرة.

وحالما وصلت، بدأت اتحقق عن طريق وكالات البواخر والوكالات السياحية عن حالة الكوليرا في سوريا والموانئ التي جرى الحجر عليها. كان الإجابات التي حصلت عليها متضاربة تمامًا. لا يبدو ان شخصًا ما يعرف ما يجري. فقد أبلغت انه لا بواخر الخديوي ولا بواخر لويد النمساوية تصل إلى ميناء الإسكندرون. وفيما يخص خط شركة Messageries، اكدت لي شركة كوك اند سونز ان بواخرها قد وصلت بالفعل إلى هناك في حين بالمقابل ابلغتني شركة Gaze انهم لم يصلوا هناك.

وبشعور من الياس، اتصلت بصديقي السيد آر. جي. موسى من الإسكندرية الذي اعلم بالتجربة ان معلوماته عن مثل هذه المواضيع تعادل بجودتها كرمه وضيافته، وسرعان ما استلمت جوابًا منه بان بواخر Messageries تصل فعلاً إلى ميناء الإسكندرون.

وبموجب ذلك، حجزت لي مكانا على ظهر الباخرة Senegal وغادرت الإسكندرية في ٢١ شباط، لا استطيع ان اؤكد اي شيء بخصوص الكوليرا. فقد اقرت الوكالات السياحية وموظفيها واي شخص بجهلهم التام عن الموضوع. يفترض انه لا تزال الكوليرا باقية في المكان إلا انه ربما بشكل ضعيف جدًا ولا يحتمل ان تنتشر خلال هذا الوقت من السنة. من العبث محاولة الحصول على معلومات حاسمة عن الموضوع، لهذا ابعدته عن تفكيري وقررت مواجهة القضية عندما يحين وقتها.

عندما كنت في القاهرة، كنت محظوظًا بحضوري شعيرة دينية مميزة ومثيرة للانتباه. فقد توفي محمد توفيق باشا خديوي مصر في ٧ كانون الثاني، ووفقًا لعادات هذا البلد، ينبغي توزيع وجبة طعام تتكون من الخبز واللحم إلى الفقراء لمدة اربعين يومًا. وقد سمعت ان هذه الشعيرة تستمر ليوم او يومين على الأكثر، لهذا وفي ١٤ كانون الثاني توجهت سيرًا على الأقدام نحو اضرحة الخلفاء حيث تم دفن سمو الخديوي. وقد لازمني فتىً صغير لحوح صاحب حمار وابقيته معي كدليل. وبعد صراع مع الأوحال شرق المدينة باتجاه اضرحة الخلفاء، وصلنا إلى موقع خلف الجامع الجميل لضريح قائد بك. وعندما وصلنا، تجمعت حولنا زمر من الناس الفقراء الذين جاءوا لتلقي الكرم المعتاد. مرت ايضًا عدة عربات تحمل أوروبيين او من سكان البلاد الأثرياء في طريقهم لزيارة الضريح. عند وصولي، وجدت بناءًا مبهرجًا غاية في القبح حيث قادني مرافقي الفتى نحو بابه. وحول هذا الباب الرئيسي المغطى بالستائر، وقف

عـدة جنود احـنوا رؤوسـهم بإجلال مهيب عند دخولي للمبنى. وعند الدخول، وجدت نفسي في ممر مفروش، يتدلى من فوقه قماش، وهناك على الجهة اليمنى منه كراسي يشغلها بضعة افراد، معظمهم من الإنكليز. وعند الجانب الأيسر من الممر، قبالة الكراسي، يوجد باب يمثل المدخل نحو ضريح الخديوي الأخير. قدّم لي احد الموظفين كرسيًا للجلوس وسرعان ما تقدمت إليّ السكائر الفاخرة وفنجان من القهوة التركية. وبعد توقف قصير، طلبوا مني تسجيل اسمي في سجل تم إعداده لهذا الغرض، تم إرشادي إلى بناية الضريح. وتتكون هذه البناية من غرفتين، يقع في وسط الأولى، ضريح كبير، بشع وقبيح كالمبنى، تغطيه الزهور، حيث يجلس بقربه بعض الرجال المشغولين في ترتيل حزين، أعتقد انه من القرآن. وفي هذه الغرفة ومن يسارها دخلت إلى الغرفة الثانية التي كان فيها النوع الاعتيادي من الضريح الملكي مرسوم عليه زخارف على الطراز التركي، وقد سمحوا لي بالمرور حوله ومشاهدته. كانت الزينة في الغرفة سوقية ومبتذلة ومعلقٌ فيها عدة ثريات زجاجية. وكان في هذه الغرفة ايضًا ثلاثة رجال يرتلون.

بعد مشاهدتي لذلك، خرجت، وبعد سيري حول البناية، وصلت إلى باب بهو كبير حيث يتم فيه توزيع الطعام. تقع هذه الإجراءات تحت مسؤولية جنود وعدد من الأفندية. وبعد الدخول، وقع نظري على منظر غير اعتيادي. فقد جلست في ساحة كبيرة، مجاميع من الناس، كل مجموعة مؤلفة من عشرة اشخاص، مشكّلة ازدحامًا كبيرًا من العرب المترقبين. وقد قدرت عددهم بحوالي الف شخص. شغل الرجال الجانب الأيسر بشكل كامل، في حين كانت النساء على الجانب الأيمن. كان هناك ايضًا العديد من الأطفال، ومن الواضح ان جميعهم كما يتضح ذلك من ملابسهم المهلهلة أنهم من طبقة فقيرة جدًا. في البداية، تم تقديم الخبز والخضراوات في أواني معدنية كبيرة، كل مجموعة امامها إناء، وسرعان ما اختفت محتويات الإناء. وفي

حالات عديدة يتم تقديم وجبة إضافية. بعد ذلك، تم تقديم وجبة اللحم (المكونة من لحم الضأن والبقر) بنفس الطريقة. فقد تم تقطيع اللحم بقطع غليظة قصيرة، واحدة لكل شخص، وما يترك أثرًا في النفس إلى حد ما أن نرى الطريقة التي تقبض بها أيادي الأطفال السمراء النحيفة حصصهم المخصصة من اللحم. مع ذلك، جرى كل شيء بنظام، ولم يكن هناك نهم او سطو او سرقة من حصة الجار او اي شجار من اي نوع، رغم انه يرافق مثل هذه الترتيبات عادة قسطًا كبيرًا من الضوضاء. وقد شهد عدد غير قليل من الإنكليز عمل الصدقة هذا كونه يجري بآخر يومين من الأيام الأربعين.

قضيت يومي متمشيًا نحو قمة جبل المقطم، يرافقني خادمي الفتى الذي الحّ بان اذهب في اليوم التالي على حماره إلى ما يسميه هو "الغابة المتحجرة" إلا انني رفضت.

المنظر المتميز الآخر الذي شهدته خلال إقامتي القصيرة في القاهرة هو الاحتفال او ما يسمى (بمولد ستي زينب)، ابنة علي وفاطمة وحفيدة محمد، يقع الجامع في الحي الجنوبي الغربي في المدينة قرب الخليج وفي نهاية (درب الجماميز). وقد ذهبت إلى هناك بعد الغداء في نفس يوم زيارتي لقبر الخديوي. وعند اقترابنا للحي، كانت الشوارع قرب الجامع مظلمة وفارغة، وبدا يظهر فيها جانبًا اكثر حيوية، حيث اخذت الإضاءة والرايات الحمراء الصغيرة تظهر في الشوارع. كانت الحوانيت مفتوحة خاصة تلك التي تعرض حلوى ملونة غير اعتيادية. ورغم ان هذه الحلويات تباع في احتفال ديني، إلا انها كانت في الغالب بشكل هيئات بشرية وبذلك تنتهك الأوامر القرآنية بحرمة تصوير الحياة وحتى أن تصاميم بعضها، رديئة للغاية، وفي الجامع نفسه، كان الازدحام كبيرًا إلى حد ما ولم ترينا اللمحة الخاطفة التي استرقناها عبر الباب سوى وهج من الضوء.

تجري في الداخل مراسيم الذكر. كانت إضاءة الشوارع وفي المحيط المباشر لها ساطعة، وكانت تعلق في الشوارع بالإضافة إلى الرايات أشرطة من الكرات الملونة

الزجاجية العديدة واعداد من الثريات الزجاجية. وبعد مرورنا بهذا الطريق، دخلنا في (باب ستي زينب)، وقد كان المنظر في الخارج بهيجًا إن لم يكن اكثر روعة مما هو قرب الجامع. وقد كان على جانبي الطريق سقائف وخيم منصوبة عديدة. وكان هناك في البداية اراجيح ودوامات ببناء مختلف، تشبه إلى حد كبير مما نشاهده في المعارض الإنكليزية. جلس على مصطبة اثنان من الموسيقيين يعزفون على آلاتهم للموسيقية البدائية، ويبدو انهم ينشدون قصة عربية رومانسية. وخلف ذلك، كانت هناك سقيفة كبيرة تشبه السيرك كما استطعنا ان نتبين ذلك ونحن على ظهور حميرنا. وعلى الجانب المقابل من الطريق، هناك خيمة منصوبة استطعنا ان نرى داخلها فتاة ترقص، وبالقرب من هذه الخيمة، هناك خيمة اخرى يرقص فيها راقص ذكر. وفي اسفل اليسار، رأينا رجلاً يرتدي خوذة رومانية وسيفًا بيده، وقد جذب تهريجه وهزله الفظ جمعًا كبيرًا مولدًا الكثير من المرح. وخلف هذا مرّة اخرى كانت هناك ايضًا خيمًا وسقائف صغيرة، في كل منها شيئًا من التسلية او العروض المسلية. وقد وقف امام كل عرض من هذه العروض حشد من الناس (الذين كان من بينهم العديد من الأقباط)، وقد كان الطريق مزدحمًا للغاية وقد واجهنا صعوبة كبيرة في العودة. كانت الأراجيح والدوامات تدور جميعها ورغم ان الضوضاء هنا كانت كبيرة، إلا ان النظام واعتدال المزاج يسودان المكان. وعند عودتنا إلى المنزل، مررنا على بيت تجري فيه طقوس الذكْر وقد توقفنا لمشاهدتها من خلال الشباك المفتوح، وقد خرج مالك الجدار وقدّم لنا قدحين صغيرين من شراب متبّل لا اعرف اسمه.

وفي ٢٠ من الشهر صعدت على ظهر الباخرة Senegal في الإسكندرية حيث افهموني بأني الراكب الوحيد في الحجرة. إلا أن ذلك لم يشكّل مفاجأة سارة لي، حيث وجدت ان حجرتي مكتظة بدزينتين او ثلاثة من الركاب الآخرين من البعوض الاسكندراني، والذي ازعجني للغاية في الليلتين الأوليتين بحيث ان راسي قد بدا كأنه

تمثالاً نصفيًا لدراسة شكل الجمجمة. بعد ذلك، استخدمت سرير ليفنج، وبذلك استطعت تجنب لسعات هذه الحشرات الصغيرة البغيضة.

ورغم ان الباخرة السنغال قد اعلنت انها ستغادر في يوم (٢٠) من الشهر، إلا انها لم تغادر إلا في صباح اليوم التالي، وعند الضحى كنا قد غادرنا منارة روزيتا، كانت المياه عند (مصب النيل) مضطربة وبنية وكانت مصر كما نشاهدها من البحر ليست سوى شريطًا من رملٍ اصفر خالٍ من الجمال او البهاء او المتعة. وقد اتضح ان هناك قليلاً من الركاب، ولم يكن من بينهم على اية حال اي راكب إنكليزي. إلا انه كان من بينهم راكب إيطالي. وقد اخبرني انه متجه نحو الإسكندرون وحلب. وقد اكد لي أن هناك عربة خيول تعمل بين هذه الأماكن، وهو شيء لم اسمع به من قبل. وقد كنا نتحدث بالإضافة إلى لغتينا الوطنيتين، بقليل من الفرنسية والعربية، لهذا كان حديثنا، والذي جرى بخليط من هذه اللغات، محدودًا للغاية. وقد مكثنا في ميناء بور سعيد مدة عشرة ساعات للتزود بالفحم وتحميل البضائع، وعندما غادرنا وجدنا على ظهر الباخر مجموعة من السياح الأمريكيين المتجهين إلى يافا والقدس.

وصلنا إلى يافا في اول صباح يوم ٢٢ من الشهر، وبعد الإفطار نزلت إلى الساحل مع رفيقي المسافر الإيطالي، الذي تملكه الذعر حالما نزل إلى الساحل حيث كان يخشى من ان البحر سيضطرب وستواجهنا المصاعب عند عودتنا إلى سطح الباخرة لهذا عدنا في الحال. وعليّ أن اعترف ان الدخول إلى الميناء الشهير فيه الكثير من الأخطار. في الطقس الهادئ، يبرز حاجز نصف دائري لصد الأمواج وهو عبارة عن صخور طبيعية امام رصيف الميناء، ويتم الدخول إلى المياه الهادئة عبر ممر عرضه حوالي مرتين عرض زورق تجذيف عريض. ومن السهولة ملاحظة انه لابد ان يكون المرور في هذا الممر خطيرًا جدًا في الطقس السيئ. ورغم ان رفيقي قد الح عليّ بان المدينة ليست جميلة وهي لا تستحق المشاهدة، إلا انني وجدتها رائعة للغاية.

اول شيء يفاجا به القادم من مصر هو اختلاف الزي. حيث يشاهد اللباس الأوروبي اقل بكثير مما يشاهده في الموانئ المصرية، رغم انني لاحظت بشيء من الاشمئزاز احد ملاحي الباخرة التي نقلتنا وهو يضع اطرافه السفلى في بنطلون إسكتلندي الطراز - يشكل هذا الزي مع الكوفية زيا فاتنا للغاية. ويشاهد لباس الراس هذا مع عصابة من وبر الجمل لدى العديد من السكان، لأنه ليس كما يفترض بشكل شائع بانه خاص بعرب الصحراء، بل هو شائع جدًا في أوساط جميع الطبقات في سوريا وفي البلاد العربية الخاضعة للأتراك كذلك يشاهد بكثرة الطربوش الطويل جدًا والقبيح للغاية في الموانئ السورية وحلب، ويقتصر لبسه بشكل رئيسي على المسيحيين المحليين.

قمت بجولة في المدينة مع احد ملاحي الباخرة وزرنا بساتين البرتقال خلفها. كانت الشوارع ضيقة ومزدحمة ومسقفة، وفوق السقوف هناك بيوت سكنية. كانت معظم الشوارع خاصة القريبة من الميناء شديدة الانحدار وكانت الأسواق الصغيرة مليئة بالمشاهد السورية المتميزة. وقد اكملت نزهتي بجولة فاتنة في بستان للبرتقال خلف المدينة وإلقاء نظرة على سهل شارون وقد التقيت في احد الشوارع برجل إنكليزي وسررت لأنه كان قادمًا إلى الباخرة السنغال في طريقه إلى اسطنبول.

تمتلك شركتي كوك وكيز وكالات وفنادق هنا كون هذه المدينة تمثل نقطة البداية للرحلة إلى الأرض المقدسة. تقع الوكالة التابعة لشركة كيز قرب بساتين البرتقال خلف المدينة ويبدو عليها انها مؤسسة مريحة صغيرة ونظيفة. وهنا تعرفت لأول مرة على العملة التركية والتي معظمها قليلة القيمة. ليست لديّ اي فكرة عن عدد فئات هذه العملة، ولا اعتقد ان هناك اجنبي معين يلم بالموضوع. لقد عشت في تركيا مدة ثلاثة اشهر بكاملها، ولا اعتقد انني قد قمت بتعامل تجاري لم يجر

تسليبي فيه بدرجة كبيرة أو صغيرة. وحتى أصحاب الحوانيت، عندما يجرون عمليات شراء لحوانيتهم فإنهم في الغالب يجدون من الضروري استخلاص مبلغ صغير وتثبيته في ورقة، وبعد ذلك فإنه بشكل عام يعتبر من المستحيل، ورغم العدد الكبير من الفئات النقدية أن يكوّنوا المبلغ المضبوط أو أن يحصلوا على المبلغ الصحيح للتعريف.

تبدو يافا من البحر شيئا أشبه بقطعة صغيرة من مالطا، فكل ما يحيطها هو رمال صفراء، إلا أنه على مسافة منها تقع سلسلة من الجبال الزرقاء التي تضيف جمالاً على المنظر الطبيعي.

ونتيجة لرفع الحجر الصحي الأخير والذي استلمنا إشعارًا منه في يافا، وجدنا أنفسنا في صباح اليوم التالي (٢٤) من الشهر في بيروت. يعتبر خليج بيروت بشكل ما جميلاً كخليج نابولي، الذي سرعان ما تتذكره عند مشاهدتك لخليج بيروت. ومن البحر نشاهد جبل لبنان العظيم خلف المدينة مع جبل (سفين) المهيب كسيده والذي يكسوه الجليد. وفي الأمام وعلى الجهة اليمنى على البحر تقع المدينة المزدحمة والتجارية (رغم أنها شرقية)، كون أهالي بيروت لسبب معين متفوقين تمامًا على معظم الشرقيين، وبقي جزء صغير فقط من المدينة محافظًا على سمته الشرقية القديمة. وهذا يعود بالطبع بشكل رئيسي إلى كونها ميناء فلسطين الذي له تماس دائم مع التجارة المتوسطية والحضارة ويقع في نهاية طريق دمشق. فندق صغير حسن جدًا يديره مواطن من أهل البلاد حيث تناولت فيه وجبة رائعة. وبالقرب منه جلست على نتوء صخري صغير لتدخين الغليون، ولكني لم أكد أفعل ذلك عندما مرت امرأتان من أهالي البلاد أمامي ثم جلسن القرفصاء على الصخور بالقرب مني وبدأن بالإيماء عليّ بشكل غريب. في البداية، لم أكتشف ماذا يردن حتى جاءتني إحداهن وحسب ما استطعت أن أفهم وأشعرتني بأن عليّ المغادرة كونهن يردن الاستحمام. وبعد تناولي

الغداء، دخلت في الأسواق المزدحمة الضيقة ثم خرجت إلى فضاء فسيح على الجانب الأيسر يعرف بموقع (كانون). وهنا، وفي ركن احد الشوارع، شاهدت رجلاً ممددًا على ظهره في الطريق، يرتدي بنطلون مرقّع مع صدرية مهلهلة مرفوعة إلى الوراء كاشفة عن صدره وبطنه كان هناك اسفل اضلاعه مباشرة عدة جروح عميقة في جسده تتخللها قطعًا من الخيوط او الصوف. كانت تظهر من عيونه وانفه وفمه وآذانه كميات من الدم وكان راسه غارقًا في بركة من الدماء المتخثرة. وخلال فترة قصيرة، كان يئن ويصارع مبعدًا عنه ذراعيه ورجليه كما لو انه يحتضر او على الأقل يمر بمعاناة قاسية. تجمع حوله حشد صغير من الناس، وكانوا ينظرون ببرود إلى هذا المشهد غير السار، إلا ان اصحاب الحوانيت في المكان المجاور واغلب المتفرجين لم يبدون اي اهتمام يُذكر. كان هناك رجلاً شابًا يدور حول الناس ويجمع الصدقات في طربوش، شاهدت فيه عندما جاءني عددًا قليلاً من فئات العملة المعدنية. وضعت صدقة صغيرة فيه، ثم سالت احد المتفرجين ما الخطب؟ إلا ان معرفتي بالعربية لم تكن كافية لفهم جوابه. وفي جواب لسؤال آخر، ابلغت انه ليس إلاّ درويشًا. كان المنظر مؤلمًا ومثيرًا للاشمئزاز. ولا اعلم الآن فيما إذا كان الرجل يمر بنوبة مخيفة من المرض او ان الموضوع برمته هو مجرد حيلة لدرويش دجال. على اية حال كان منظرًا غريبًا في مدينة متحضرة. غادرت المكان وسلكت طريق دمشق الذي كان على جانبيه بالقرب من المدينة حوانيت للحيّاك. وبعد انتهاء صف البيوت، قمت بجولة جميلة بين اشجار الصنوبر خلف المدينة حيث شاهدت من هناك منظرًا ساحرًا لسلسلة جبال لبنان والخليج الواقع بين المدينة ونهر الكلب. وعند عودتي اخذت السلسلة تختلفي تدريجيًا.

تمتلئ بيروت بالمدارس والبعثات التبشيرية، والتي إن لم تكن قد هذبت الأخلاق الإسلامية، فإنها قد غيّرت بنجاح الآثار الأخيرة للحياة الشرقية في المدينة يبدو ان

السلعة التجارية الرئيسية في الوقت الحاضر هي الأثاث الخشبي، وتشاهد الحوانيت مليئة بالأثاث المصنوع محليًا على الطراز الفرنسي.

وصلنا إلى طرابلس في صباح اليوم التالي ثم اللاذقية في نفس اليوم بعد الظهر، إلا ان فترة مكوثنا في هذه الموانئ كانت قصيرة لا تسمح لي بالنزول إليها. ابلغونا باننا سنكون في الإسكندرون صباح اليوم التالي. كان يقصد هذا الميناء بالإضافة لي إبنة القنصل الإنكليزي الأخير في حلب وعائلة فرنسية وسيدتان مسيحيتان من اهالي البلاد وجميعهم متوجهون إلى حلب. وقد غير الإيطالي الذي سبق ذكره، رايه في الدقيقة الأخيرة لسبب اجهله، وبدلاً من ان ينزل في الإسكندرون، ظل على ظهر السفينة واتجه إلى اسطنبول.



الفصل الثاني

من الإسكندرون إلى حلب

الاسكندرون - فندق سوري - طقس سيئ - عربلي والاربعة - بيلان - جليل - خان كرا - سهل انطاكية - سيدات سوريات - العمق - حمام - خان افرين - القنصل اليوناني ورفاقي في غرفة النوم - بداية قارسة - الوصول إلى حلب

ذكر ولي براند من اولدنبرغ، الذي قام برحلة في القرن الثالث عشر ان الإسكندريتا، التي تسمى الآن من قبل اهالي البلاد (الإسكندرون او سكندرون)، قد اسسها الإسكندر المقدوني لاستراحة خيوله. وسواء كان ذلك حقيقة ام اسطورة، إلا انه لاشك ان اصول اسم الإسكندرية الصغيرة يعود بنحو ما إلى الإسكندر الكبير. ويخبرنا ايضا روشيتيه في كتابه "تاريخ المستعمرات الإغريقية" بان ملوك ارمينيا قد حصنوا هذا الموقع، إلا انه لا توجد حاليًا اية تحصينات فيه. تقع المدينة على خليج واسع هو خليج الإسكندرون الحديثة ومدينة اسوس القديمة. وعلى سهل تكثر فيه المستنقعات وتنعدم فيه الظروف الصحية، وإلى الشرق منها، ترتفع جبال امانوس المهيبة وجبال اخرى، تختلف اسماؤها الحالية عما هو وارد في الخرائط، مما يشكل إرباكًا كبيرًا في تعيينها.

وقـد وصـف رحالـة آخـر هـو موريسـون الـذي قـام بـرحلة هـنا في عـام ١٥٩٦م الإسكندرون بأنها قـرية بائسة مبنـية جميعها مـن الطـين القش باستثناء بيوت بعض العمـال المسيحيين المبنية من الخشب والطين... إن الـهواء الخانق لـهذا المكان هو السبب في عـدم استقرار اي مـن العُمّال فـيه. كـون هـذه القرية محاطة من جهاتها الثلاثة بسهل تكثر فيه المستنقعات بينما يقع الجانب الرابع منها على البحر.

وفي الجانـب الشـرقي خلف المستنقع ينتصب جبل عالي جدًا يمنع وصول الشمس إلى الإسكندرون، ولوجود الكثير من المستنقعات في المنطقة، فإن البخار الفاسد يغمر المكان مـن جميع الجهات. وفي الجانـب الآخر نحو الشمال (كما اتذكر) في الطريق المؤدية إلى اسطنبول، يقـع سـهل مسـتنقعي آخـر، وجبال، والتي رغم انها ابعد قليلاً، إلا انها لا تـمنع وصـول الشـمس، ونتيجة لانبعاث الأبخرة الفاسدة من هذه الأرض المستنقعية، اصبحت الإسـكندرون سيئة الصيت في مـوت المسيحيين، ويخبرنا ايضًا فان إكمونت، الذي جاب المـنطقة عـام ١٧٥٩ "إن هـناك اقـل مـن ستين بيتًا في هذه المنطقة، إلا ان للبيـت الإنكليزي مظهـرًا جمـيلاً فـيها، ويوجـد بالقـرب منه مستودعات ضخمة قامت الشـركـة التركية ببـنائها"، وذكـر ايضًا: "إن معظـم قـاطني الإسـكندريتا هم يونانيون، ويقيم فيها ايضًا اسقفًا يونانيًا، وهناك ايضًا دير لآباء الأرض المقدسة".

وفي صـباح يـوم ٢٦ مـن الشـهر، وجدنا انفسنا نـرقد في خليج الإسكندرون الجميل. كـانـت هـناك امطـارًا غزيـرة في الـليل، وكـانـت تـرتفع عـلى سلسـلة جـبال طـوروس العظـيمة غـيوم سوداء هائجة. وفي الأسفل على المنحدرات بشير الجليد المتلألئ ان الصيف لم ياتي بعد، واننا ربما سنذوق طعم الشتاء في رحلتنا إلى حلب. وفي البحر تشكل سلسلة الجبـال المهيـبة مـع مـنظر المدينة الصغيرة في وسط السهل منظرًا جميلاً جدًا. وفي الساعة

العاشرة نزلنا إلى الساحل، وبعد دفع حصيف لقليل من البقشيش لإخراج امتعتنا من الجمارك، وجدت نفسي في ذيل صف طويل من العتالين ذوي الأحذية الحمراء، واحاول ان اشق طريقي، بينما تنغرز اقدامي في الوحل والماء، للوصول إلى مكتب شركة بلفانت وكاتوني حيث يعمل الأخير كنائب للقنصل البريطاني. مع ذلك لم يكن الأخير موجودا إلا ان السيد بلفانت قد ابدى لي كل اللطف في مساعدتي على إجراء التحضيرات لرحلتي إلى حلب. وقد وجدت ان الكلام صحيح بان هناك حاليًا طريقًا جيدًا للعربات، ورغم انني كنت ارغب ان امتطي الخيل، إلا ان الانهمار المتواصل للمطر البارد مؤخرًا قد دفعني لتاجير عربة ذات سقف، والتي ستكون جاهزة لي صباح اليوم التالي مع اربعة خيول. وبعد تناولي الغداء مع السيد بلفانت، شرعت بتاجير غرفة لي لقضاء الليل وذلك في مبنى بائس يسمونه فندقًا يديره رجل شرقي. وطالما ان هذه الغرف تحوي اسرة وكراسي واثاث، وان المضيف الكفء يتولى تقديم الطعام إليك، فإن هذا المبنى ربما يستحق ان تطلق عليه تسمية فندق. إلا ان الوصول اليه يمر عبر مستنقع من الأقذار، وغرف النوم متسخة ويمكن ان تطلق عليها اي شيء عدا انها جميلة، ومن الواضح أن السرير قد جرى استخدامه لفترة ليست بالقصيرة دون أن يجري تغيير الملاءة الضرورية الموجودة عليه. ولحسن الحظ فإن لدي لوازمي الخاصة للنوم. وعندما طلبت من الرجل العجوز المسؤول عن الفندق ترتيب الغرفة، طلب مني رسومًا باهضة. إلا انه طالما انني لا استطيع ان اضع فراشي في البرك الموحلة القذرة في الخارج، ولكون السيد بلفانت يقيم في مسكن للعزّاب وليس لديه اية مستلزمات إقامة ليقدمها لي، اضطررت للرضوخ إلى طلبات العجوز بعد ان بينت له رايي في سلوكه. ولحسن الحظ فإن كرم السيد بلفانت قد انقذني من وجوب تناول طعامي في هذا "الفندق" لهذا فإني ممتن له حقًا. وقد قضيت فترة بعد الظهر اتجول في الجو الماطر، لشراء تجهيزات للرحلة ومشاهدة معالم المدينة. وحقًا يبدو ان الإسكندرون لم تتطور منذ ايام

موريسون والشريف فان إكمونت. لم افلح بمشاهدة بناية واحدة لها مظهر جميل، في حين تجعل الطرق غير المعبدة او نصف المعبدة الغارقة في المياه والأوحال من التنقل بين الأسواق والحوانيت تجربة غير سارة تمامًا. مع ذلك وجدت حانوتا واحدًا او اثنين جيدين يعودان ليونانيين، وكان يرافقني في الجولة صاحب الفندق. وقد اشتريت للرحلة دجاجتين ونصف آفة من البسكويت وحضيمة من السمك المقدد، وجبن وخبز وبرتقال. من المؤكد ان العباءات الحمراء المطرزة واحذية الفلاحين الطويلة الساق وقوافل الجمال التركمانية خشنة الوبر تشكل شيئا من المتعة للغريب القادم حديثا، ولكن عدا هذا لا شيء يخفف من الرتابة التامة للإسكندرون. مع ذلك، فإن راي السير بلفانت هو ان المدينة اكثر صحية مما كانت عليه سابقًا. وبعد تناول الغداء مع هذا الرجل، عدت اتمشى إلى الفندق وانا اتلمس طريقي عبر البرك بنور الإضاءة المستمرة وبالموسيقى التي تعزفها ملايين الضفادع التي تنق في المستنقع المحيط. وسرعان ما أصبحت مريضًا بكل معنى الكلمة بسبب الإسكندرون، بحيث اني قد تقت إلى مغادرتها.

وبعد ليلة ماطرة على نحو مخيف، كنت جاهزًا للمغادرة في الساعة التاسعة وهو الموعد الذي تم الاتفاق عليه مع صاحب العربة. إلا ان السماء كانت تمطر بشكل متقطع، ورغم انني قد ارسلت إلى المالك باني جاهز، إلا ان العربة لم تصل بعد، وفي الآخر، وبشعور من اليأس اتجهت للبحث عن الإسطبل واستعجال الآخرين بنفسي. كان المالك رجلاً ارمنيا موسرًا ذا بنية قوية، يرتدي الزي الأوروبي وكان قبل يوم يود بشكل خاص بان أستاجر عربته ليس إلى حلب بل إلى بغدد، وهو مقترح اثار استغرابي لأنه كما اعرف لا يوجد طريق منظم إلى بغداد، إلا انه قد اوضح انه قد فعل ذلك من قبل وايده السيد بلفانت.

وبعد طول عناء وجدت هذا الشخص واصطحبته إلى الإسطبل وتم إخراج العربة وربطها على الخيل امام ناظري. كانت العربة متداعية وقديمة وربما كانت تعمل في السابق في بيروت او الإسكندرية. وقد تم تجديد العجلات بخشب غير مصبوغ ربما في حلب وقد جرى صبغ الأجزاء الأصلية بعجالة. لا يبدو انه قد جرى تنظيفها لسنوات عدة، وكان هيكلها متزعزعًا بحيث انني كنت اشك في انها قد قامت بهذه الرحلة سابقًا. تم إخراج الخيول الأربعة وكانت صغيرة كستنانية اللون وتم ربطها جنبًا إلى جنب كالمركبات الرومانية حيث تتطلب عملية ربط عُدة الخيل مقدارًا كبيرًا من الحبال والخيوط وفي الآخر تم حزم امتعتي المكونة من ثلاث حقائب كبيرة وخيمة ولفة من البطانيات ووضعها بشكل امين في مقدمة ومؤخرة وداخل العربة. وفي الساعة العاشرة كان كل شيء جاهزًا، وبعد تسديد حسابي لمضيفي وتوديعي للسيد بلفانت، اتخذت مكاني في العربة التي دارت في الوحل باتجاه الجبال.

الآن شعرت حقًا ان رحلتي قد بدات، فالإسكندرون الميناء المتوسطي، البائس وغير المتحضر يمثل حلقة الاتصال بين الحضارة الغربية وآسيا الحديثة شبه المتخلفة. وإلى الخلف مني يمتد البحر المتوسط الأزرق اللون ببواخره وسواحله الباسمة، وتمتد امامي تركيا الآسيوية بطرق قوافلها ومدنها البائسة. وعليّ ان اعترف انه عندما سحبت الشباك المتداعي للعربة اتقاءًا للوابل الجليدي وبعد ان طويت نفسي في الزاوية واشعلت غليوني الحميم، ساورتني بعض الشكوك عن مدى عقلانية القيام بمفردي برحلة برية تستغرق فترة شهر بكل متاعبها وإزعاجاتها دون هدف محدد سوى مشاهدة هذه البلاد.

كان الطريق محاطًا بمتسع فسيح من الأهوار التي تتصاعد منها رائحة عفن الأبخرة والتي جعلتني اقترب من الشباك الآخر وانفث غليوني بطاقة مضاعفة. ولحسن

الحظ، اخذ الطقس بالتحسن، ورغم ان الجو نديّ وبارد، إلا ان الشمس تصارع للظهور من بين الغيوم وتدفئ بدرجة ما هواء السهل المشبع بالرطوبة. في حين لا تزال تقبع على الجبال امامنا غيوم كثيفة وجليد.

كانت حال الطريق الممتد امامنا على السهل جيدة، فعرضه حوالي ست ياردات، وعندما يصعد المرء الجبل، تقطع الطريق بعض الأحجار، ومن الواضح انها في هذه الحالة نوعًا من الحجر الطيني. ويلاحظ ايضًا ان مرور القوافل على هذا الطريق يعتبر امرًا شاقًا، وهناك الكثير من الأشياء التي ينبغي مشاهدتها على هذا الطريق حيث تشاهد غالبًا جمالاً بعدد (٦٠-٧٠) وهي تجتاز الطريق في غضون عشرة دقائق. وبالإضافة إلى الجمال، تشاهد قوافل من البغال والحمير التي ترن اجراسها على نحو منفر، مع قطعان الأغنام ورعاتها الجفاة وهي تمشي بجهد جهيد على طريق شديد الانحدار، ويلاحظ ان العديد من سالكي الطريق كانوا يعانون من برد الرياح القارس. وقد لاحظت بين هؤلاء رجلاً ومعه رمح طويل. وبعد الدوران حول جوانب الجبل وصلنا إلى قرية كبيرة تدعى بيلان. وتقع هذه القرية، التي يتردد عليها اهالي الإسكندرون وحتى اهالي حلب في المواسم الحارة كنوع من المنتجعات الصحية، قرب القمة والتي تصل إلى ١٥٨٠ قدم فوق مستوى البحر. وقد تم بناؤها على منحدر جبلي على جانبي وادي صغير ضيق، وتقع البيوت احدها فوق الآخر، وتبدو القرية وكأنها نوع من عش الزنابير الكبير، وبالنسبة إلى القادم من مصر وفلسطين، فإنه يفاجأ بحقيقة أن جميع البيوت مسقفة بالآجر، مما يبين كما يتضح من تجربتي السابقة، ان في هذه المنطقة هطول مطر غزير، ويقال ان هذه القرية هي الممثل الحالي لبينارا في بلني وبنولي وممثلة إيرانا في سيسيرو.

وقـد توقفـنـا في بـيلان لإراحـة خيولـنـا، وقـد انـتهز سائق العـربة الفرصة فتناول القهوة والخبز في حانوت احـد اصدقائه. وذهبت لأرى فيما إذا كان بالإمكان الحصول على قـدح مـن الحليـب، كونـي قـد نسيت بـبلاهة ان اجلب معـي اي نـوع مـن انـواع المشروبات، إلا ان الـناس كانوا يـبدون مـتجهمين ومـنطوين عـلى انفسهم وغير مبالين لـتقديم اي شـيء لـي. فـبعد تهذيـب المصـريين الباعـث للسـرور، وصـلنا إلى مكـان يمـثل تغـييرًا نحـو الأسـوأ، إلا ان سـكان بـيلان ربمـا يكونـون عـلى الأكـثر مـن دمـاء نصـف تركمانـية ونصـف سورية مـع قـليل مـن السمات الجيدة للعرب الأذكياء المتحضرين. يقـال انـه يوجـد هـنا خـان جـيد إلى حـد مـا إلا انني لم اره. ويشاهد في الممر الضيق الذي بنيت عليه المدينة آثار ما يعتبر تحصينات وقنوات رومانية.

وعـندما كـنا في بيلان، وصلت عربة اخرى قادمة من الإسكندرون تحمل عائلة فرنـسية. وعلى صندوق العربة جلس فتىً ظريف من اهالي البلاد وعلى راسه طربوش ولكـون ملابسـه الخفـيفة لا تـشكل سـوى وقـايـة بائسـة ضـد البرودة القارسة، فسحت لـه مجالاً في عـربتي لـيجلس فـيها. وقـد سُرَّ لتغـيير الخطـوط هـذا وبدأ برباطة جاش تامة يسالني بالفرنـسية عـن اسمـي ومهـنتي والـهدف مـن رحـلتي. وبعـد ان ارضـيت فضـولـه عرفـت ان اسمـه جلـيل وانـه في الـرابعة عشـرة مـن العمـر وانـه مـن عـائلـة كـاثوليكـية سورية إلا ان والد امه رجل فرنسي. وقد كان في بيروت لبعض الوقت لغرض العلاج اولاً ولغـرض التعليم ثانيًا وهو الآن عائد إلى عائلته في حلب. ولكونـه لا يستطيع ان يستاجر عـربة لوحـده، فإنـه قـد دفـع ثـلاث مجيديات مقـابل ان يشغل مقعـدنا شـاغرًا في إحدى العـربات. كـان جلـيل يستطيع الـتحدث بالفرنـسية والإيطالـية والعـربية وقـدرًا كـبيرًا مـن التركـية والأرمنية وهو قادر تمامًا على الاعتـناء بنفسه. وقد اخبرني ان لديه اثنان مـن اشقائه في مصر، احدهما جندي في اسوان. وعـندما كـان يجلس قـبالتي وهو يمتص بـرتقالة ويـرمقني بعيـنـيه السـوداويـتين الدائريـتين الكـبيرتين كـان يـبدو مـثالاً حـيًا

للاتكالية الشرقية على الحظ. طلبت منه ان يحدثني بالعربية فقط، وسرعان ما اصبحنا اصدقاء سفر حميمين جدًا.

وبعد هنيهة وصلنا إلى قمة الممر الجبلي (الشغب)، الذي يبلغ ارتفاعه اكثر من (٢٠٠٠) قدم فوق مستوى البحر، وحالما بدانا بالنزول، هبت على الجبل عاصفة هوجاء من البرد. كان الطريق على هذا الجانب اقل انحدارًا من جانب بيلان، ثم اتخذنا طريقنا إلى الأسفل بسرعة معقولة. كانت المنحدرات مزروعة بالأشجار بشكل جميل. وعند الساعة الثالثة انتهينا من الجبال واصبحنا بمستوى سهل إنطاكية. وبعد ساعة وربع، اجتزنا قرية صغيرة غريبة مكونة من اكواخ مبنية من الحجارة وجذوع الأشجار وتقع عند حافة نهر هادر. كان هناك خانين، وقد اخذت القرية اسمها من احدهما وهو (خان كرا)، والذي يبعد عنها مسافة حوالي (١٥٠) ياردة. وقد دخلت العربة الفرنسية اولاً ثم دخلنا بعدها. يقع خان (كرا) في أسفل الجبال التي اجتزناها توًا والتي لا تزال تلفها الغيوم، وامامها يمتد سهل العمق والهور الذي يمتد شمال شرق بحيرة إنطاكية. وإلى الشمال وشمال شرق السهل، يمكنني ان اتبين سلسلة واطئة من الجبال الأرجوانية.

يتكون الخان الذي ذهبت إليه من ساحة مربعة الشكل يحيطها سور واطئ وإسطبل قذر في إحدى جهاته وعلى الجهة المواجهة للطريق هناك بناية خشبية من دورين. يتكون الجزء السفلي من هذا المبنى من غرفتين يسكنهما (الخانجي) أو صاحب الخان وبينهما ممر تدخل منه القوافل من الطريق إلى الخان. وفي الأعلى، الذي تصعد إليه بسلم خارجي هناك غرفتان أو ثلاثة لاستقبال المسافرين. كانت الغرفة التي قدمها لي بالطبع خالية من اي اثاث إلا انها كانت نظيفة ومريحة. وقد جلب لي الخانجي قطعة من الحصير لأضع فراشي عليها ومجمرة فحمية لتدفئة الغرفة. وبناءًا

على طلبي، جلب أيضًا شيئًا من اللبن الفاخر، وهو أحد مشتقات الحليب الذي يشبه اللبن الزبادي كذلك جلب لي كرسيًا ومنضدة صغيرة ووضعها في مكان كالشرفة خارج غرفتي وقد تناولت غدائي الأول براحة نسبية. إن هذا الخان وخان أفرين الذي توقفت فيه الليلة التالية، هما الخانان الوحيدان اللذان تتوقف بهما دائمًا العربات الذاهبة والقادمة منذ تأسيس خط العربات، ونتيجة لذلك، كان هذان الخانان متطوران نوعًا ما وتجهيزاتهما أفضل من تجهيزات الخانات الواقعة على طريق القوافل الاعتيادي.

أثناء ما كنت أشعل غليوني الوحيد بعد غدائي المبكر، جاءني رجل وأخبرني أن العربة التي تحمل الآنسة B والسيدان من أهالي البلاد قد وصلت وأنهم واقفون الآن في الخان الآخر. فقد بقيت الآنسة B مع السيدة كاتوني في الإسكندرون، ونتيجة للعاصفة الصباحية، فإنها قد تأخرت عني ساعتين. اتجهت نحوهن لأعرب لهن عن تحياتي وأسألهن عن تعب النهار، وبعد مروري بغرفة مظلمة كبيرة حيث يجلس فيها حشد من سائسي البغال وسائقي العربات، أدخلوني إلى غرفة أكثر بؤسًا من غرفتي حيث وجدت السيدات الثلاثة. كانت جميع السيدات (من ضمنهن الآنسة B) يجلسن على وسائد بسبب عدم وجود كراسي ويرتشفن قهوتهن لما بعد الغداء. تعرفت على السيدتين السوريتين. وقد بذلت جهدي للدخول في حديث معهن. كانت الكبيرة امرأة عجوز ذات وجه مليء بالتجاعيد وكانت طيلة فترة زيارتي تدخن النرجيلة بحرارة. بينما الأصغر (وأعتقد أنها ابنتها المتزوجة) فكانت امرأة شابة ذات منظر حسن وتبدو أينما دارت وجهها، وكأنها سيدة إنكليزية، فقد كانت ملامحها منتظمة وتبعث على السرور وعيونها كبيرة ومعبّرة، إلا أن هيئتها كانت متينة وغير رشيقة. كانت السيدتان تلبسان نوعًا من الزي الأوروبي المهجن والذي ربما يعتبر في حلب قمة الأزياء الأوروبية في وسط المسيحيين السوريين. كان زوجيهما في بغداد أو البصرة، وهما

عائدتان من رحلة إلى هذه الأماكن. حيث ذهبن وعدن عن طريق البحر. وقد دهشن كثيرًا لسماعهما بأن في نيتي الذهاب إلى بغداد برًا ولم يفهما لماذا أخترت الطريق البري بدلاً من القيام برحلة طويلة إلا انها مريحة عبر البحر، وقد ازدادت حيرتهما اكثر عندما اخبرتهما من خلال الآنسة B انني اريد (التفرج) فقط او رؤية البلاد، وقد اقتنعتا بانني لابد ان اكون رجلاً ثريًا ولاشك انهما كانا في غاية الأدب بعدم القول بانني مجنون ايضًا بأن اقوم بمثل هذه الرحلة من اجل المتعة فقط. وحسب رايهما فإن بغداد والبصرة هما جنتان حيث فيهما التمر "كثير، كثير"، وحيث الإنكليزية هي اللغة الرئيسية وأن البواخر النهرية التي يقودها ربانية إنكليز هي من الكثرة كبواخر التايمز في (شارنك كروس)، ومع غليون وكوب قهوة فاخر قضيت ساعة ممتعة من الدردشة. وعندما اتجهت في طريق عودتي إلى الخان الذي اقيم فيه، وجدت الخبر منتشرًا بين جميع سائسي البغال باني هو ذاك الرجل الإنكليزي الذي سيغادر إلى بغداد، وقد حاول واحد او اثنان منهم جاهدين تقديم خدماتهم لي للقيام بالرحلة. وقد رافقني احدهم خلال طريق سيري وكان يبدو متحمسًا بشكل خاص في تقديم طلبه بأن علينا هو وانا ان نقوم بالرحلة (سوا، سوا) اي معًا، وفي نفس الوقت كان يضع سبابتيه جنبًا إلى جنب للإشارة إلى السيد وخادمه، وهي إشارة شائعة الاستخدام جدًا لدى العرب عندما يودون ان يقدموا خدماتهم.

وبعد قضاء ليلة في نوم هادئ، وعندما دخلت إلى الحمام استعدادًا لبداية الرحلة، رأيت من الشباك مرور العربة التي تحمل العائلة الفرنسية، وبعد ذلك مباشرة اندفع نحوي جليل، وبيده قطعة خبز واخبرني بنفس مقطوع ان الوقت قد حان للمغادرة. ورغم انني لم ادعه للدخول إلى عربتي هذا اليوم، إلا انه كان يعرف المكان المريح، لهذا قرر أن يرافقني. دفعت فاتورة حسابي لليلة واحدة وكانت بمبلغ (٢) فرنك وبعد

شرب كوب صغير من القهوة، غادرنا في الساعة السابعة ونحن نمضغ الخبز والبيض المسلوق كإفطار. كان صباحًا جميلاً، وكان يظهر سهل إنطاكية تحت اشعة الشمس جميلاً للغاية، وهو يبدو بحساب غير دقيق ان عرضه حوالي ثمانية اميال وطوله ربما (١٢) ميلاً. وعند الساعة ٨:٣٠ توقفنا في قرية تقع بين الأهوار التي يقطعها هنا ممرًا وعدة جسور طويلة مبنية بعناية وبالقرب منها روابي كبيرة يتضح انها مواقع قديمة. وفيما يتعلق بذلك، كتب فان إكمونت في عام ١٧٥٩ "يسمى هذا جسر مراد على اسم كبير الوزراء الذي قام ببنائه، يبدأ هذا الممر بجسر وثلاثة اقواس ويستمر بطول مسير نصف ساعة بشكل سلسلة من اقواس صغيرة منخفضة، وقد كان الجسر عسيرًا جدًا على الخيول كونه لم يمد بشكل جيد في البداية ولم يجر اي إصلاح له".

ويقطع هذا الطريق الذي شقه مراد نهر المياه السوداء او (كاراسو) التي تتدفق عبر الهور. وقد قام في عام ١٨٣٥ بالملاحة في زورق في النهر لغاية هذا المكان. وقد لاحظ أن الرابية القريبة منه تسمى (كل باشي). وفي الوقت الحاضر، لا يبدو ان الجسور تقطع شيئًا عدا السهل المستنقعي وهذا دون شك يعود إلى ان النهر قد غيّر مجراه وايضًا لأنه قد تلاشى في الهور. ويقال ان هذه الأعمال قد حلت محل اخرى مشابهة لها في زمن الرومان، وربما لا يزال موجودًا جزءًا من البناء الأول. تشاهد ايضًا اعدادًا كبيرة من طيور الماء في السهل المحيط ويمكن تمييز البجع الضخم من حجمه من بينها. وعند هذه الاستراحة، كانت جميع العربات التي غادرت الإسكندرون في اليوم الماضي متوقفة معًا، وكان عددها لا يقل عن اربعة. كانت هناك عربة تقل القنصل اليوناني في حلب وشخصنا "افندي" و"كواس" وكذلك عربة الآنسة B والسيدتين السوريتين،

وعربة العائلة الفرنسية، واخيرًا عربتي. كان في كل عربة سائقها الخاص وخادم كالعفريت يعمل سائسًا للخيل، لهذا اصبحنا نشكل قافلة كبيرة.

وبعد المغادرة، انتهينا من المسير في السهل ودخلنا في روابي معشبة هادئة على جانب الطريق الشرقي. وعند الساعة العاشرة والنصف وصلنا إلى خان الحمّام، حيث توقفنا جميعًا لإراحة خيولنا لساعة واحدة ولتناول وجبة اساسية. وعندما كانت تجري التحضيرات لذلك ونقوم بتهيئة مائدة صغيرة وعدد من الصناديق للجلوس عليها، أسرعت راكضًا إلى قمة تل مجاور ذي ارتفاع كبير. كان بالقرب من الخان عينا كبريتية ساخنة غريبة، حيث اخذت في ذلك اليوم لأول مرة حمامًا منعشًا (رغم انه ذو بخار كثيف ورائحة كريهة). بعد ذلك التحقت بمجموعة المادبة البهيجة التي تمثل الأمة الإنكليزية والفرنسية والسورية واليونانية والتركية. وقد تم نشر لحم طيور الماء والكبة (وهي شكل من النقانق الصلبة بشكل يشبه البيضة) والخبز والزبدة والجبن، والبرتقال والتمور. كان لدى المجموعة ثلاثة سكاكين وشوكات.

ومن الحمام انطلقنا برحلة طويلة متعبة إلى نجد، وعند الساعة الثالثة والنصف وصلنا إلى نهر صغير ربما يكون رافدًا لنهر افرين. وبعد ساعة ونصف اخرى اصبح الطريق سيئًا اكثر، والحقيقة اننا قد سرنا لبعض الوقت في ارض محروثة رغم انه قد تم افتتاح طريق جيد. لا زال السهل ممتدًا على يسارنا ولكن كانت هناك بعيدة على اليمين سلسلة خفيفة من تلال كلسية. وعند الساعة السادسة، دخلنا إلى فناء خان افرين الواقع على الضفة اليمنى لنهر صغير يحمل نفس الاسم. كان الخان يشبه إلى حد كبير خان كرا إلا انه اكثر قذارةً. كان هناك في اعلى السلّم الخشبي المتداعي ثلاث غرف لإقامة النزلاء. شغلت إحدى هذه الغرف العائلة الفرنسية، والأخرى الآنسة B والسيدتين السوريتين، ووجدت نفسي في الغرفة الثالثة مع القنصل اليوناني

والأفندي والكوّاس ورجل تركي مسن ومتسخ سبق ان شاهدناه عدة مرات في اليوم وهو يعدو الهوينا على فرسه البلقاء ويضع نظارات شمسية زرقاء على عينيه ومظلة كبيرة فوق راسه.

وقد فرش القنصل وصديقه بادب شرقي جم فرشهما على الدكة المرتفعة المعدة لهذا الغرض والمزودة بحصير، وقد تركوني كالخنزير اضطجع على الأرض القذرة. وبناءًا على الدعوة الكريمة من السيدتين اللتين استضفنني في خان كرا اشتركت معهما في العشاء وسمعت اننا سنواصل الرحلة مبكرين، لهذا عدت إلى غرفتي وآويت إلى فراشي. لا يبدو مظهر غرفتي مشجعًا على النوم. صحيح ان الأفندي قد آوى إلى فراشه، ولكن عند حافة الدكة وامام المجمرة، جلس القنصل اليوناني بمعطفه الكبير من الفرو وبعينيه الكبيرتين القلقتين وشعره المنتصب "كجزة نيص مشاكس"، ويبدو انه لم يتناول عشاءه بشكل حكيم بل بإفراط وقد امتلأت الغرفة برائحة العرق. لقد حياني بثلاث كلمات بالإنكليزية وذلك عندما وجّه كلامه إليّ بصوت اجش لحظة دخولي: "هل انت نعسان؟" ثم اخبرني بالفرنسية بأن علينا ان نواصل رحلتنا في الساعة الثانية من صباح اليوم التالي، واقترح عليّ انه طالما ان الوقت المتبقي لا يستحق الذهاب إلى الفراش خلاله، فإن عليّ مرافقته إلى غرفة مجاورة حيث لديه بعض المأكولات الخفيفة. ثم هجع بعد ذلك تلاه الكواس، وجلست امام المجمرة أدخن غليوني. بعد ذلك مباشرة، دخل احد خدم العربات واوما لي بان اتبعه وكان في نفس الوقت يقوم بإشارات بأن هناك بالقرب منا الكثير من الشراب. إلا اني آويت إلى فراشي، وبعد العديد من الأمور التي تقطع النوم، كضوضاء رفاقي المعربدين، والقطة التي تلح على فتح الباب وهبوب تيار هواء جليدي، بدات النوم. لم اكد انام فترة عشرة دقائق حتى ايقظني القنصل ورفيقه باستعدادهما للرحيل، وقد هزّ الكواس قدمي برفق

لإيقاظي. إن الساعة لم تكن تبلغ الثانية فقط، وقد اعتبرت ذلك مقلبًا من طرف رفاقي الصاخبين وغطمت في نوم عميق. إلا انه وبعد ذلك مباشرة جاء السائس العفريت الذي يخدم خيلي وسحب إصبعي ايضا وبدا ينقل امتعتي. وبلحظة واحدة كنت خارج الفراش ووجدت حقًا ان كل شخص قد اجرى استعداداته للرحيل. ورغم يقظتنا المبكرة، إلا ان الرحلة لم تبدأ إلا في الساعة الرابعة والربع، وقد قضي كل هذا الوقت في مراقبة ربط الأمتعة بترو على العربات في ريح بالغة البرودة. وفي الآخر انطلقنا في الظلام، وعند بزوغ الفجر في الساعة السادسة، وجدت نفسي متجمدًا بسبب البرد بحيث اضطررت إلى الخروج والمشي على طول التل لأدفئ نفسي. ورغم اني قد صعدت التل بمعطفي الكبير، الا اني وجدت من الصعوبة استعادة جريان الدورة الدموية. كان العشب مغطىً بالصقيع وكانت برك الماء عبارة عن جليد صلب. يمر طريقنا إلى اليسار من جبل سيمون، ومن هذه الأرض المرتفعة يرى منظرًا جميلاً للتلال التي يكسوها الثلج والتي مررنا عليها في اول يوم لرحلتنا. يقودنا الطريق الآن إلى بقعة ارض مقفرة كالصحراء. وعند الساعة التاسعة والنصف توقفنا في خان بجانب الطريق لتناول القهوة حيث ادى لنا ثلاثة موسيقيين متجولين يبدون كالبدائيين عزفًا موسيقيًا. كان هذا مثيرًا للغاية لمشاعر خدم العربات الذين كانوا، بسبب شراب الليلة الماضية، يمرحون ويعبثون في كل نقطة توقف، بحيث انهم قد شكّلوا حلقة وبداوا يرقصون بحماس على انغام الموسيقى. وبعد مغادرتنا للمكان، اجتزنا رابية مخروطية الشكل، ربما يكون ارتفاعها ثمانون قدمًا، وباقل من ساعة كنا في قرية تل الفطر بمقبرتها الكبيرة، ولهذا المكان سمات مشابهة تمامًا لقرية مصرية.

من هنا يبدو مظهر البلاد اكثر صحراوية وفي الساعة الثانية إلا ربعًا استطعنا ان نرى قلعة ومنارات حلب الواقعة في ارض منخفضة. وفي مدخل المدينة بالقرب من الطريق هناك اثنان او ثلاثة من البيوت المبنية بشكل جيد على الطراز الأوروبي.

فالمسافر الذي يصل المدينة تخدعه هذه البيوت ويعتقد انه يدخل إلى مدينة قد اشرق فيها نور الحضارة الأوروبية، إلا انه مخطئ في ذلك، إذ باستثناء هذه البيوت فإن المدينة برمتها شرقية خالصة. لقد بنى هذه البيوت واحد أو اثنان من الباشوات القدامين، وهي الآن فارغة او يقيم فيها العمال فقط. وبعد المرور بتلك البيوت، صعدنا فوق جسر يحدث صريرًا على نهر حلب او (كويك سو)، وبعد استدارتنا إلى اليسار دخلنا إلى ضاحية العزيزية حيث نزلنا في خان تحت مستوى الأرض يسمى زيفًا بفندق العزيزية.



الفصل الثالث

في حلــب

فندق العزيزية - هزة ارضية في السرير - جليل - الطبخ التركي وشرب العرق - القنصلية البريطانية - الطرق الى بغداد - الخدم في حلب - قصة طالب - اتخاذ القرار بسلوك طريق الفرات - اللغة رواد - للخير وغضب - استعدادات وتجهيزات - المزيد من المشاكل - شراء مركبة المطران - التذاكر وجوازات السفر

بسبب العديد من أسباب التاخير غير المتوقعة، مرّت عشرة ايام قبل مغادرتي لحلب، وقد قضيت هذا الوقت في التجوال في المدينة بهذا اجلت ملاحظاتي التي تصف هذا المكان والتي استطعت تكوينها إلى فصل لاحق وخصصت صفحة أو صفحتين لبعض الأحداث التي واجهتني خلال مدة إقامتي هناك، والتي تعطي الرحالة الذي يريد زيارة الشرق فكرة عن الصعوبات التي تعترض طريق من يقوم برحلة سياحية إلى سوريا.

يقع فندق العزيزية، الذي اتخذته مقرًا لإقامتي، في ضاحية جديدة تحمل نفس الاسم وتقع في غرب المدينة. يدير الفندق رجل ارمني، ورغم ان الفندق لا يستحق ان نطلق عليه الاسم الأوروبي فندق او (هوتيل)، إلا انه كان مريحًا. يدخل المرء من

الشارع مباشرة إلى فناء صغير يوجد فيه بئر، وعلى اليمين واليسار هناك مبنىً مؤلف من دورين. كان في الطابق العلوي، الذي اضيف مؤخرًا، حوالي اربعة غرف، مفتوحة كل منها على شرفة تمتد امامهن ويجري الصعود إليهن بسلم يبدا في الفناء. وفي الطابق السفلي تقع مرافق الدار والصالة العمومية وغرفة الطعام. كانت الغرف عند وصولي مشغولة باستثناء واحدة، وكانت نظيفة ولطيفة، إلا انها لم تجهز بالأثاث بعد، وعند وصولي ارسل المالك في الحال شخصًا إلى المدينة وجلب سريرًا حديديًا انيقًا وبعض المستلزمات الضرورية لراحتي. وقد تم نصب السرير عندما كنت مشغولاً في المدينة، حيث هجعت إليه مبكرًا بعد عناء رحلتي الطويلة مؤملاً نفسي بليلة سعيدة في سريري الصغير المريح وفراشي النظيف. ولكن لسوء الحظ، لم يثبّت خادم الفندق الأرمني بسبب العجلة او الإهمال، نهايات الألواح الحديدية التي تحمل الفراش والنائم، لهذا كنت استيقظ بعض الأحيان ليلاً شاعرًا بعدم الراحة والتف كالربيان حيث تكون قدماي وراسي في وضعهما الصحيح بينما ينزل باقي جسدي إلى الأرض، من مركز السرير، وذلك بسبب انهيار الألواح وقوة ما يعرف بالجاذبية حيث ينخسف السرير برفق وهدوء. وعندما كنت اتقّصى السبب الحقيقي، سررت لاكتشافي أنني قد وصلت في الوقت المناسب لتكرار الهزة الأرضية في حلب لعام ١٨٢٢م، فسندت وضعي في النوم باقصى ما استطيع وامضيت ليلة مريحة إلى حد ما، كان معظم المقيمين الآخرين في فندق العزيزية هم من الأتراك، وكان هناك ايضًا اثنين من الأطباء العسكريين وعدد من الأفندية ذوي الطرابيش، واحد او اثنان منهم يتعاطون التجارة في حلب تناولت غدائي وعشائي مع هؤلاء السادة في الطابق الأرضي، اما الإفطار فهو وجبة متنقلة، يتم تناولها مشاركة في غرفة النوم، وعندما سالني الخادم ماذا اتناول في الإفطار، اجبت: "قهوة وخبز وزبدة وبيض". في هذا الزمن لم يكن البيض المسلوق طبقًا معروفًا في المطبخ الأرمني لهذا اكتشفت ان البيضات الخمسة التي جلبها لي لا

تزال بمحتوياتها السائلة كما هي عندما اشتريتهن لأول مرة. وقد احتججت بعد ذلك على الخادم الكفء، إلا انه لم يسبق له مطلقًا ان قام بسلق بيضة، وكانت احتجاجاتي غير مجدية. للعرب مفردة خاصة تدل على التدخين فهم يتحدثون عن شرب الغليون وشرب النارجيلة او (التبغ)، لهذا رغم اني اعترض بشدة على البيض السائل البارد، إلا اني كنت اشرب بيضاتي الخمس المخصصة للإفطار صباح كل يوم في حلب. ربما لم اكن استطيع ان اغير طبخ الخادم إلا إذا وقفت بجانبه والمجمرة في الفناء وساعة في إحدى يدي وسيف مسلول في اليد الأخرى.

ورغم اني قد تعلمت بعض المفردات العربية في السنتين الماضيتين في مصر وتلقيت دروسًا في العامية السورية في لندن، فإني وجدت أن لهجة حلب مختلفة تمامًا بحيث ان معرفتي القليلة بالعربية كانت دون الفائدة المتوقعة. وكان الناس في الفندق ايضًا يتحدثون بالكامل تقريبًا بالتركية والأرمنية، لهذا كنت مسرورًا عندما ظهر جليل الصغير مبديًا رغبته لتقديم خدماته لي كخادم في رحلتي إلى بغداد. وبالطبع لا يحتاج الأمر للتفكير لأخذ فتىً صغير غر كجليل في رحلة بطول ثمانمائة او تسعمائة ميل برًا، إلا اني وجدته ذا فائدة كبيرة لي خلال إقامتي في المدينة، فقد كان مسليًا وفتىً صغيرًا المعيًا ممتلئًا باللهو والمرح إلا انه مزعج فيما يتعلق بفضوله وجشعه الذي لا ينتهي. فهو قد يتفحص بعناية سترتي النورفولكيه[1] وبنطلوني النيكربوكرز[2]، وهو زي ربما لم يشاهد في حلب، وقد يسألني، "كم كلفة هذه الملابس يا سيد كوبر؟" وهو سؤال قد يتبعه في الحال سؤال آخر، "هل تعطيني شيئًا اتذكرك به عندما تسافر إلى بغداد يا سيد كوبر؟". ان نتصور جليلاً بعينيه السوداوين الكبيرتين

(١) السترة النورفولكيه هي سترة فضفاضة ذات صف واحد من الأزرار. (المترجم).

(٢) البنطلون النيكربوكرز هو بنطلون قصير واسع مرموم عند الركبة. (المترجم).

ووجه الشرقي الماكر وهو يرتدي بنطلونا (نيكربوكرز) وسترة (نورفولكيه) وطربوشًا احمرًا فإنه امر مثير للضحك كثيرًا، ولو كان هناك خياطًا إنكليزيًا في المدينة، فإنني كنت سأفصّل له زيًا كهذا.

كان جليل يكذب ايضًا - كذبًا ذو حسن ووداعة لا تجدها إلا لدى الصبية الشرفيين الحاذقين. سألته مرة إن كان يستطيع قراءة كتابة بالعربية القديمة مكتوبة على بئر عربي قديم. ودون لحظة تردد، اخذ يتفحص الكتابة بنظرة جادة، وهي كتابة عمرها اربعمائة سنة تقريبًا، ثم اخبرني بوقار بان هذه الكتابة هي اسم السلطان عبدالحميد خان، الملك الحاكم حاليًا.

كان الغداء والعشاء في فندق العزيزية في الساعة الثانية عشرة والسادسة على التوالي، وبالتوقيت التركي، وهو ترتيب مربك لأي اوروبي، كون التوقيت التركي يبدأ من شروق الشمس، لهذا تكون الوجبات مبكرة قليلاً كل يوم. كان الطبخ تركيًا، جيدًا بنوعيته، حيث ان الأطباق الرئيسية هي البيلاق[1] والكباب واللبن. وبالطبع لا نشرب الخمور على المائدة باستثنائي وطبيب يوناني، إلا ان الأفندية كانوا غالبًا يقيمون جلسة مشتركة صغيرة لشرب العرق قبل العشاء مباشرة حيث يظهرون في هذه الوجبة مرحين ومبتهجين بشكل غريب. والسؤال هو فيما إذا كانت عادتهم بالقدوم إلى المائدة وهم جذلين افضل من عادتنا بالانتهاء من المائدة ونحن جذلين. سألني رجل تركي شاب فيما إذا سبق ان شربت العرق. اجبته: "كلا، اليس هو نوعًا من الخمر؟" وقد اصابه الهلع بشيء من التقوى من ذلك واخبرني بوقار إنه جعة مرّة او إلى حد ما حسب ما نسميه في إنكلترا شرابًا نافعًا للمعدة ومساعدًا على الهضم. ولكون

(١) البيلاق هو طعام مكون من لرز ولحم وتوابل. (المترجم).

الدار مشغولة باتراك من المدرسة الجديدة، فإنها تتباهى بأن فيها منضدة وكراسي وسكاكين وشوكات وملاعق رغم ان الأخيرة قليلة إلى حد ما. كان فراش المائدة هو اسوا شيء في مستلزمات الضيافة، كون كل ضيف يمد يده إلى الطبق ليخدم نفسه، وبفعل ذلك يسقط جزءًا من الطعام على فراش المائدة الذي ارى انه لم يغسل منذ افتتاح الفندق، وقد وجدت كياسة الرجال الباكوات والأفندية تلح دائمًا عليّ بان اخدم نفسي من كل طبق اولهم. وكان واحد او اثنان منهم يتحدثون الفرنسية.

لم اعمل اي تنظيم للمصاريف عندما ذهبت لفندق العزيزية، وقد كانت الفاتورة بمبلغ ثمانية فرنكات في اليوم تشمل الطعام والسكن. ولاشك اني لو كنت قد اجريت تنظيمًا لكان المبلغ اقل من ذلك.

احد الأشياء التي فعلتها عندما وصلت حلب هي الاتصال بالقنصل السيد جاكو، حيث ادين لعطفه وكرمه هو وزوجته بالشيء الكثير. وفي الواقع أن السيد جاكو قد وضعني في الطريق الصحيح لإجراء استعداداتي للرحلة وخلال العديد من النزهات الجميلة التي اجريناها معًا داخل وحول المدينة، زوّدني بالكثير من المعلومات المثيرة عن الولاية. كانت القنصلية عبارة عن دار جميلة مبنية من دور واحد قريبة من حي العزيزية وتنتصب في حديقة جميلة تابعة لها، وهناك ايام قليلة فقط في الأيام الإحدى عشر التي بقيت خلالها في حلب لم أقضي فيها ساعة رائعة في القنصلية.

وقد شعرت بالسرور عند وصولي لأجد ان الكوليرا، التي كانت متفشية في حلب، هي الآن في نهايتها. كانت هناك في السنة السابقة (٩٠٠) وفاة بسبب المرض و(١٤٠٠) في السنة التي قبلها. في حين ان الأنفلونزا التي كانت تدمر إنكلترا عند مغادرتي لها، تتواجد بشكل غير حاد في حلب، وهي تسمى على نحو مضحك من قبل الأهالي باسم (ابو الركب)، لأن المريض يشعر بعد إصابته بالمرض بوهن في أطرافه. وقد اخبرني

السيد جاكو باني المسافر الأوروبي الوحيد الذي وصل إلى حلب خلال الستة اشهر الماضية، وهذا يبين كيف ان المدينة بعيدة تمامًا عن طرق المسافرين. ورغم إقامة عوائل من معظم الجنسيات الأوروبية في حلب، إلا أن إنكلترا لا يمثلها سوى القنصل واسرته وارملة وابنة القنصل الذي سبقه. يقيم معظم الأوروبيين في ضاحية العزيزية رغم انه لا يوجد حي إفرنجي مميز لهم.

وقد اخذني السيد جاكو في اليوم الأول لزيارة رجل إيطالي يدعى ستانو يعمل حاليًا في إدارة شركة التبغ الحكومية. كان السيد ستانو يعرف جيدًا معظم الطرق الممتدة بين حلب وبغداد، وفي الحال اشترك باسلوب ودي في مناقشة خططي، ابلغني ان هناك ثلاثة طرق للوصول إلى بغداد:

١- طريق وادي الفرات، ويتضمن السفر بقافلة من الجمال او العربات إلى النهر ثم السير مع مجرى النهر إلى نقطة تقع مقابل بغداد، حيث يتم الوصول إلى هذا المكان بالسير مسافة قصيرة عبر الجزيرة، يستغرق هذا الطريق ١٩-٢٥ يوم.

٢- طريق بيرجك - اورفه - ماردين - إلى الموصل ومن هناك بواسطة الكلك (الطوف) إلى بغداد على نهر دجلة.

٣- طريق بيرجك - ديار بكر ومن هناك بواسطة الكلك إلى الموصل وبغداد.

اعتراضي على الطريقين الأخيرين، هو انه ربما عليّ أن أواجه بردًا قارسًا وفي حالة الطريق الثالث، هناك ممرًا جبليًا ربما يكون مغلقًا بسبب الجليد. وهذا يمثل عقبة كبيرة أمامي، كوني بالكاد قد استعدت قواي بعد إصابتي القاسية بالأنفلونزا. كما ان هناك حقيقة ان الناس على هذين الطريقين يتحدثون بمعظمهم التركية والأرمنية، التي لا اعرف كلمة واحدة من اي منهما، ويبدو من غير المحتمل العثور على

مترجم امين في حلب لمرافقتي. في حين يكون الطريق الأول مشرق الشمس على طول الطريق ويمتد بمعظمه عبر الصحراء على حافة الفرات. سيكون هناك بالطبع القليل من المتعة على هذا الطريق إن لم تكن المؤن كثيرة جدًا. كما قد تكون هناك مخاطرة باحتمال قيام عرب الصحراء بتسليبنا، إلا انه لا السيد جاكو ولا السيد ستانو سبق ان سمعوا أن مسافرًا إنكليزيًا قد سلك هذا الطريق. مع ذلك، يبدو من الضروري ان آخذ معي واحد أو اثنين من الدرك المحمول على خيل (الضابطية).

وبعد تسليمي بهذه المعلومات الأولية، بدات بإجراءات طلب خادم لمرافقتي وإذا كان ذلك ممكنًا، خادم يستطيع التحدث بالإنكليزية. كان الشخص الأول الذي قدّم نفسه رجلاً يونانيًا اسمرًا ذكي المحيا يرتدي ملابس اوروبية ويتحدث الإنكليزية بطلاقة. وقد اخبرني انه كان مترجمًا لطاهٍ في دمشق وانه يعرف جميع طرق السفر في الشرق. وعندما سالته عن معارفه هنا، اجاب ان الجميع في دمشق يعرفونه وقد اشتكى من أن ليس لديه شيئًا يفعله هنا، إلا انه لم يوضح لي لماذا لم يعد إلى عالم الطبخ. واخبرني ان السيد والسيدة جاكو يعرفانه جيدًا، حيث اكتشفت لاحقًا ان هذه كذبة سافرة. وقال لي ايضًا ان القنصل اليوناني سيكون مستعدًا لتزكيته لي. وقال مرّة اخرى انه سيتصل سلكيًا بالطاهي في دمشق ليرسل له تزكية، وانه سيتصل بي في اليوم التالي. إلا انه لم يحافظ على موعده، وعلمت انه قد وصل في وقت ما في السابق إلى حلب دون اية أوراق، والقت به السلطات في السجن. وبالطبع، لا يعني ذلك شيئًا في تركيا، حتى قام القنصل اليوناني بإنقاذه من هذا السجن الحقير، إلا أن الرجل لم يقدم لي ايًا من معارفه، وكان الراي في غير صالحه. لهذا كان يبدو من الأفضل لي ان اسافر دون خادم على ان يرافقني شخصًا مجهولاً كهذا، كان للتقدم الآخر شابًا ارمنيًا يدعى (بوغوص) ذو عينان غائرتان جذابتان. ابلغني انه لا يعرف الطبخ مطلقًا (وهو الشيء الوحيد الذي طلبت الخادم من اجله) إلا انه يستطيع التحدث بكلمات قليلة (حوالي

دزينة) باللغة الإنكليزية التي تعلمها في مركز بعثة امريكية. وقال: "إذا احببت، خذني معك" وعندما سالته كم تطلب لمرافقتي في رحلة من ثلاثة اسابيع، اجاب: "نابليون واحد"[1]، حيث طلب اليوناني مبلغ (١٠) باونات والذي اعتبرته مبلغا كبيرًا جدًا إلا ان مبلغ (نابليون واحد) قد اذهلني. وقد علمت فيما بعد انه كان شخصية سيئة للغاية، وفي الواقع يكون من الصعب السفر معه بامان. وبعده جاءني طاهٍ محترف يتحدث العربية والتركية فقط وكانت ملامحه كريهة بحيث اني قد ابعدته دون حتى الاستفسار منه.

بعد هذا، اخبرني الطبيب العسكري اليوناني الواقف في الفندق، انه يعرف رجلاً ممتازًا، يتحدث الإنكليزية بطلاقة وذو شخصية رائعة. جاءني في اليوم السادس ورغم انه لا يبدو ذكيًا بشكل خاص، إلا انه كان ذو وجه امين. كان يعرف عددًا متناثرًا من الكلمات الإنكليزية، وقال انه يعرف الطبخ قليلاً. عرضت عليه (باونا واحدًا) في اسبوع الرحلة وباونين لمصاريفه لدى عودته إلى اهله من بغداد إذا اراد العودة. كان يبدو ميالاً لقبول العرض، إلا ان سيده قد دخل إلى الفناء في هذه اللحظة ودعاه للتحدث معه. بعد ذلك اخبرني انه لا يستطيع ان يتقاضى اقل من (١٠) باونات قائلاً انه سيفقد وظيفته الحالية لأجلي. تحققت بعد ذلك عن وظيفته هذه وتبين ان اجرها (٣٠) شلن في الشهر. في نفس الوقت يبدو ان هناك قصة لهذا الشاب. حيث يبدو انه كان يعيش في اسطنبول كطالب. ثم بعد ذلك عرض افندي طبيب على هذا الشاب نتيجة عوز الأخير الشديد ان يوفر له وظيفة معينة مقابل بقشيش قدره حوالي (١٥) باون. باع هذا الشاب جميع ممتلكاته الدنيوية لهذا الغرض، إلا ان سيده الأفندي لسبب معين لم

(١) النابليون عملة فرنسية ذهبية تساوي عشرين فرنكًا، (المترجم).

يبر بوعده. لم يكن الأفندي يستطيع او لا يريد ان يعيد لهذا الشاب امواله، لهذا كان الشاب غارقا في الدين. وإذا كانت هذه القصة صحيحة، فإنها قد تدفعني بان اعرض عليه اجرًا افضل، إلا انه من جهة اخرى لم يكن يعرف شيئا عن الطبخ، وفي الحقيقة انه لم يكن خادمًا مطلقًا. وطالما يبدو من الميئوس منه العثور على رجل جدير بالثقة فقد ارسلت إليه بعد ذلك خبرًا باني سازيد عرضي، واستلمت جوابًا بان مستخدمه الجديد قد رفع اجوره إلى (٣) باونات شهريًا، وانه قرر عدم الذهاب معي، لهذا كنت على اية حال سببًا في تحسين وضع هذا الشاب سيئ الحظ.

ولاحقًا بعد ان اتخذت قراري بسلوك طريق الفرات، واخذت اقوم باستعداداتي لهذه الرحلة، كنت في احد الأيام اسير داخل المدينة، عندما بادرني بالكلام رجل طويل وسيم ذو منظر طيب قائلاً انه يرغب ان يكون خادمي. كان يتحدث القليل من الفرنسية ولا يعرف الإنكليزية، إلا انني شعرت بالثقة من خلال وجهه بانه رجل ممتاز. اخبرته ان يرافقني إلى القنصلية، وفي الطريق التقينا بالسيد جاكو، الذي تبين انه يعرف الرجل جيدًا واثنى على شخصيته الممتازة. يبدو انه كان طباخًا لدى القنصلية الفرنسية. لقد اتضح أن فكرته هي انني ساخذه معي إلى إنكلترا وانه قد يصبح جنديًا إنكليزيًا. وعليّ ان اعترف انه سوف لن يلحق الخزي بلباس الجندية ولكن عليّ أن أبلغه انه ربما لا يمكنني ان ابقيه خادمًا لي بعد مغادرتي بغداد. مع ذلك فقد عرضت عليه مبلغا مقداره (باون واحد) في الأسبوع طالما بقي في خدمتي ووعدته بأن اعطيه ما هو ضروري لعودته إلى حلب، وهو مبلغ تتم تسويته في القنصلية ببغداد. ورغم حزنه لانهيار احلامه الوردية، فقد عبّر عن رغبته في السفر معي بهذه الشروط، وتم الاتفاق على اللقاء في القنصلية في اليوم التالي لتوقيع العقد. شعرت بالسرور لتغير الأحوال كوني شعرت ان هيئة الرجل وامانته الواضحة تساوي كل إنكليزية الآخرين. إلا انني محكوم عليّ بخيبة الأمل. عاد جورج وهذا هو اسمه بشكل عاجل في اليوم التالي، وبعد

قراءة العقد له، همهم ودمدم وبدا يخلق المصاعب. عندما طلبنا منه التوقيع، قال ان المبلغ المعروض عليه غير كاف. فقد اراد كالآخرين عشرة باونات. كان هذا امرًا لا يحتمل. إذ يتضح كما هي القضية دائمًا ان هناك حلقة تتكون ضدي ولا احد يريد ان يذهب معي بهذا المبلغ. فقد تمت رشوة جورج الأمين، لهذا رفض عرضي، الذي يعتبر مغريًا، كون اجور الخدم في تلك الأماكن رخيصة للغاية، سوف لن اخضع لهذا الأسلوب لهذا تم إبعاد جورج. والحقيقة هي انه قد انتشر في كل انحاء المدينة خبرًا مفاده ان الرجل الإنكليزي الذي وصل مؤخرًا ويريد السفر إلى بغداد، لا يسافر من اجل إجراء عمل تجاري بل من اجل المتعة. وبموجب ذلك اعتبروني رجلاً في قمة الثراء. لو كنت قد اشعت باني تاجر إنكليزي، لاشك ان الأمر سيكون مختلفًا. عشْ وتعلم.

ظهر شخص آخر قبل ان اغادر مباشرة وعرض ان يذهب معي بست باونات إلا انني كنت في هذا الوقت قد قررت ان اسافر دون خدم ورفضت ان اتفاوض معه.

لقد ذكرت انني قد قررت سلوك طريق الفرات، هناك عدة أسباب لاتخاذي لهذا القرار. من بينها الطقس الجميل وحقيقة ان اللغة العربية التي اعرف شيئًا منها هي اللغة الوحيدة المطلوبة، في حين ان السفر دون مترجم سيخلق لي صعوبة كبيرة بين الناس الناطقين بالتركية والأرمنية على الطريقين الآخرين. هناك ايضًا اعتبار آخر هو ان هذا الطريق هو اقصر الطرق وان تاخير اسبوع واحد او حوالي ذلك سيضعني امام جرعة من الرياح الموسمية في الخليج والمحيط الهندي عند عودتي إلى اوروبا. وفي الآخر، ظهرت حبة مؤلمة في جانبي شكلت تهديدًا بقلب كل خططي راسًا على عقب كونها قد جعلتني لا اصلح تمامًا للقيام بركوب طويل ومجهد على الخيل. وامام هذه الصعوبة، جاء السيد جاكو لإنقاذي باقتراحه بان عليّ ان اسافر في تخت روان وهو نوع من المحفات التي يستخدمها عادة الفرس وتتكون من صندوق خشبي مربع له ابواب

وشبابيك في كل جانب وزوج من الأعمدة امامه وخلفه حيث يجري بواسطة هذه الأعمدة حمل التخت بواسطة اثنين من البغال او الحصن القوية. استطيع الجلوس او الرقود في التخت على سرير او فراش حسب رغبتي وسوف لن اخشى المطر او حرارة الشمس.

اخذ السيد ستانو يبحث لي عن بغال وسائقين لها. يعتمد معدل إيجار حيوانات القافلة على السعر السائد للعلف في البلاد. ومن خلال وكالة السيد ستانو استاجرت اخيرًا ست بغال وتخت روان من حلب إلى بغداد بمبلغ (٩٠) مجيدي او دولار تركي. من المقرر ان يرافق القافلة ثلاث خدم هم سائق البغل (وهو الكترجي بالتركية، والمكاري بالعربية) واثنين من السائسين او (الأكم). وفي الآخر اشتريت التخت وكان سعر الإيجار اقل من سعر الشراء بخمس مجيديات. وفي اليوم الرابع ابلغني السيد ستانو بهذه الترتيبات، وعرفني برجل يوناني وهو طبيب في الجيش كان ينتظر لبعض الوقت في حلب ويبغي الحصول على بغال للسفر إلى بغداد وقد ابلغني ان قافلة او عددًا من القوافل تستعد للمغادرة في ٧ او ٨ أو ٩ من الشهر واقترح عليّ ان نبدأ الرحلة معًا في ذلك التاريخ. وفي يوم (٧) سمعت ان احد الباشوات قد وصل إلى الفندق قادمًا من اسطنبول وبعث إليّ الطبيب خبرًا بان علينا ان نبدا السفر معًا في يوم (٩). لم اشاهد اية علامات عن وجود باشا في الفندق باستثناء خيمة مطوية في الفناء، وكانت الإضافة إلى مجلسنا البهيج هو شابًا هزيلاً غريبًا قيل انه صهر الباشا ومعاونه. وفي اليوم التالي ذهبت إلى السوق برفقة السيد يوسف وهو تاجر مسيحي كلداني من حلب كان مقيمًا في بغداد وكان يعمل في وقت ما باحد بيوت التجار الإنكليز هنا وهو يعرف كلمات متناثرة من الإنكليزية. كانت له خبرة كبيرة في تجارة القوافل مع بغداد، لهذا كان ذو فائدة كبيرة لي عند إجراء استعداداتي. كان رجلاً ذو طلعة بهية يرتدي زيًا اوروبيًا وهو الوحيد ذو المظهر غير الشرقي. اخذني إلى عدة حوانيت واشتريت خزينًا كبيرًا من

المستلزمات الضرورية للرحلة، كالشموع، واللحم المعلب والشوكولاته والقهوة والرز وملء كيس من البسكويت الصلب بشكل حلقا يسمى (كعكًا) وزبدة وسكر وبسكويت وبراندي (في حالة المرض) وخزين كبير من التين والتمور، إضافة إلى هذه، اشتريت الكثير من القدور والمقالي لأغراض الطبخ وقنينة ماء جلدية كبيرة تسمى (مطارة) وخرج سرج كبير لحمل كل هذه المؤن. والأخير المزود بقفل ومفتاح قد اشتريته من السيد يوسف نفسه. عندما كدست هذه الأشياء على شكل كدس في غرفتي، شعرت بانني رجلاً ذو ممتلكات وادركت لأول مرة انني سادخل إلى الصحراء.

وبعد ظهر نفس اليوم جاءني جليل وقال ان الباشا سوف لن يشرع برحلته حتى يوم السبت (١٢) من الشهر. عند سماعي لذلك كنت ميالاً في البداية إلى ان اصدر الأمر لبغالي بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي ولكن بناءًا على نصيحة السيد جاكو والسيد ستانو قررت أن أتحقق فيما إذا كانوا فعلاً سيبداون الرحلة في ذلك اليوم، وإذا كانوا كذلك، فعليّ الانتظار. شعرت أنه قد يكون من الأفضل من نواحي معينة لو سافرت بمفردي، ولكن من جهة اخرى، فإن مرافقة احد الباشوات امرًا لا يمكن الاستهانة به. وفي اليوم التالي جاءني المكاري والأكم يطلبون مقابلاً كونهم لم يبداوا السفر في اليوم المحدد. وهذه ببساطة كانت مجرد اختبار وعندما رفضت غادروا فرحين تمامًا.

وفي اليوم العاشر ازدادت مصاعبي ثانية ودخلت الأمور مرحلة اخرى. اولاً تأكدت ان الباشا سوف لن يسافر فعلاً في ذلك الأسبوع، لهذا ارسلت في الحال على رجالي بالاستعداد للرحيل في اليوم التالي. وبعد حصول مشكلة بخصوص التخت العائد لي، قمت في الحال والقيت نظرة ووافقت على تخت آخر وهو بناء على شكل غرفة قوي الصنع بحيث أني قد تحققت بالتجربة باني استطيع الرقود عليه بطولي الكامل. إلا انه اتضح الآن ان التخت الذي يريدون إرساله لي مختلف عن الأول. وبسرعة طلبت ان اراه، حيث كان معروضًا في ساحة وملقى امام حائط وكانت صناعته قديمة مخلعة

ومتزعزعة وذو شبابيك وابواب مفككة، واصغر بكثير من التخت الأول الذي رايته. وبسرعة اعتبرت القضية خديعة واخبرت يوسف انه إذا لم يرسلوا إليّ التخت الأول الذي تم الاتفاق عليه في البداية، فإني سوف لن أسافر مطلقًا ويجب ان تعاد إليّ الأموال التي دفعتها مقدمًا حالاً. كانت الترجمة تبدو كذلك.

كان التخت الجيد الذي رايته في البداية يعود إلى بطريرك إحدى الكنائس المسيحية المحلية في الموصل. كان الأسقف الثري قد سافر فيه إلى حلب، وتركه هناك لغرض البيع. وعندما دخلت بمفاوضات مع يوسف حول الموضوع، وجد لي يوسف صاحب بغال يرغب في شراء التخت عندما يقلني إلى بغداد ويحاول هناك بيعه حيث من المحتمل ان يحقق ذلك ربحًا، كون التخوت تستخدم بكثرة على طريق الحج إلى كربلاء. إلا ان صاحب البغال هذا كما يعرفه يوسف شخصًا سيئ السمعة، لهذا ذهب إلى شخص آخر يملك التخت الرديء ولم يبلغني بتغييره لرايه. سالت بعد ذلك إن كنت أستطيع شراء التخت الأفضل، حيث نجح يوسف في شرائه لي بمبلغ (٤) نابليونات، وهو سعر رخيص لعربة الأسقف الشخصية.

وقد حصلت من خلال السيد جاكو على عدد من الوثائق الضرورية للسفر. منها اولاً التذكرة او جواز السفر التركي وهي ورقة غريبة مرسوم فيها الطريق الذي ساسلكه ومختوم بستة اختام مختلفة، وثانيًا رسالة تعريف عام، ولا شك انه مفيد جدًا في السفر عبر بلاد كثيفة السكان إلا انه في الفرات الأسفل يفقد "حلاوته في هواء الصحراء" لأنه لا يمكن تقديمه لأي شخص عدا بدو عنزة، وابناء الصحراء هؤلاء لا يهتمون بكتب التعريف ولا يستطيعون في الواقع قراءتها إذا ما قدمت إليهم. واخيرًا تذكرة ذات ابعاد اصغر من الأولى تسمح لي بحمل مسدس. وبعد ان تسلحت بهذه الوثائق اصبحت مستعدًا للرحيل.

* * *

الفصل الرابع

شيء عن حلب

التاريخ - المركز الانكليزي - الوصف - الابعاد - الاسوار والبوابات - المدينة من الداخل - الشوارع والبيوت - الاسواق - الجوامع - القلعة - زيارلي لها - خان الوزير - الابهة - الضواحي - المقابر - الابار - شيخ بكر - خليط السكان في حلب - التهذيب في حلب - خفوت التعصب - الزي - المناخ - حبة حلب - حياة الشارع

لدى الحلبيين قصة عن اصل اسم مدينتهم. تفيد القصة ان إبراهيم قد توقف على هذا التل الذي هو الآن قلعة حلب، عندما كان في طريقه إلى ارض كنعان. ولا يزال ينتصب عند اسوار القلعة اجزاء من الجامع الذي يخلد ذكراه. ويقال انه في ساعات معينة من اليوم، يقوم الشيخ الجليل بتوزيع الحليب على القرويين المتجمعين من الأراضي المجاورة. يتجمع هؤلاء الناس عند اسفل التل، وتنتشر بينهم عبارة "إبراهيم حلب" او "إبراهيم حلب الشهباء" اي ان إبراهيم قد اخذ يحلب البقرة المبقعة، ومن هنا جاءت كما يقولون تسمية حلب التي حولت إلى الإنكليزية منذ أمد بعيد إلى اليبو.

تمثل حلب مدينة (Beroea) بيروا[1] القديمة، التي يفترض ان مؤسسها هو السلوقي نيكاتور[2]، مؤسس إنطاكية وسلوقية[3] قرب بابل. وقد توقف الإمبراطور المرتد جوليان في هذا المكان وهو في طريقه من إنطاكية لتنفيذ حملته الحاسمة ضد الفرس في القرن الرابع. وفي عام ٦١١م، استولى الملك الساساني خسرو الثاني، الزاحف من (هيرابوليس اي المدينة المقدسة) على المدينة وحرقها، رغم انه قد عجز عن اقتحام القلعة. وفي عام ٦٣٦م، حاصر المدينة المسلمون بقيادة ابو عبيدة وخالد "سيف الله". وقد ذكرت بعض الأخبار ان المقاومة كانت ضعيفة، بينما ذكرت اخبار اخرى، ان حامية المدينة قد تكبدت خسائر بشرية تقدر بـ (٣٠٠٠) رجل، إلا انها ظلت صامدة. وفي الآخر، وبعد حصار دام عدة اشهر، تم الاستيلاء على المدينة بخدعة حربية غريبة. فقد حمل رجل عربي جبار يدعى (دامس) عدد من رفاقه على كتفيه، وبهذه الوسيلة تم الدخول عنوة إلى القلعة حيث ذبح الحراس وفتحت الأبواب أمام المحاصرين. وبعد ذلك اصبحت المدينة عاصمة السلاطين الحمدانيين. وفي القرن العاشر، سقطت بأيدي البيزنطيين، إلا انها اثبتت قوتها ولم يتم الاستيلاء عليها. وفي عام ١١١٤م، دمرت الهزات الأرضية المدينة التي كانت تحيلها دومًا إلى انقاض. وبعد عشرة سنوات حاصرها الصليبيون بقيادة بالدوين، إلا انه حصل ارتفاع مفاجئ في مياه النهر مما أدى إلى إغراق معسكر المحاصرين الذين اضطروا إلى التراجع إلى إنطاكية. وفي الأعوام ١١٣٩م و١١٧٠ دمرت هزات أرضية عنيفة أخرى المدينة، حيث أعاد نور الدين بناء المدينة. وفي

(١) هو الاسم اليوناني لحلب والذي ورد ذكره في الإنجيل، (المترجم).

(٢) هو السلوقي الأول للأسرة السلوقية من ملوك سوريا القديمة توفي عام ٢٨٠ق.م، وكان احد قادة الإسكندر الكبير في حروب خلافته، (المترجم).

(٣) مدينة قديمة من مدن بلاد الرافدين تقع على دجلة جنوب بغداد، اسسها السلوقي الأول نيكاتور عام ٣١٢ق.م. وحلت محل بابل كمدينة رئيسية في المنطقة. بعد ذلك بنى الفرس البارثيون مدينة طيسفون في الجهة المقابلة من النهر. دمر الرومان سلوقية عام ١٦٤ بعد الميلاد، (المترجم).

عام ١١٨٣م، استولى على المدينة المقدام صلاح الدين، واورثها عند وفاته إلى ثالث ابنائه الملك الظاهر. وفي عام ١٢٦٠م و١٢٨٠م دمّرها المغول، حيث تم في عام ١٢٦٠م تنفيذ مذبحة لمعظم اهالي المدينة من قبل القائد المتعطش للدماء هولاكو. وفي السنة الأولى من القرن الخامس عشر، نهبت قوات المنتصر تيمورلنك المدينة. وفي عام ١٤٢٧م تم إعادة بناء التحصينات، وفي عام ١٥١٦م، اصبح السلطان التركي سيد حلب وفي الآخر استطاع دحر التفوق المملوكي.

يقول فان إكمونت، الذي ساح في المنطقة في منتصف القرن الثامن عشر: "تعتبر المدينة مشهورة إلى حد ما بكونها مسقط راس تسفي ابن بائع الطيور الذي ادعى في القرن الماضي انه ("المسيح" الحقيقي).

وفي نهاية القرن السادس عشر، افتتح تجار الشركة الشرقية التركية محطة او مركزًا في حلب للمتاجرة برًا مع بلاد فارس والهند. وقد اسس الفرنسيون وتجار البندقية دورًا مماثلاً في وقت سابق. بعد ذلك تم تعيين قنصلاً إنكليزيًا في المدينة واعترف به السلطان، ويدعى اول قنصل تم تعيينه في المدينة بعد عام ١٥٨٣م مباشرة (باريت).

وخلال فترة وجود هذا المركز، كانت هناك بالطبع جالية إنكليزية صغيرة مقيمة في حلب. كان يبلغ عدد افرادها في عام ١٦٠٥م ثلاث عوائل، بضمنها القنصل الذي كان في ذلك الوقت تاجرًا. وفي عام ١٧٣٨م، اخبرنا بوكوك (Pococke) ان عدد بيوت التجار الإنكليز هو ستة او سبعة، واشار إلى ان المركز كان في ذلك الوقت واهنًا جدًا بسبب رخص وجودة السلع الفرنسية. وفي عام ١٧٤٠م كان المركز يتكون من القنصل وعشر تجار وقس وسكرتير وطبيب، وفي عام ١٧٥٣م، ذكر ان عدد البيوت

هو ثمانية عدا بيت القنصل. يقول فان إكمونت في عام ١٧٥٩م: "يملك التجار الإنكليز عشرين بيتا ويبلغ راتب القنصل (٤,٠٠٠) باون إلا ان عليه ان لا يمارس اي عمل تجاري". ربما يكون مخطئنا فيما يتعلق بعدد البيوت لأنه في عام١٧٧٢م قلّ عددها إلى اربعة. وقد ساهم افتتاح طريق راس الرجاء الصالح في تسديد ضربة قاضية للمركز.

كان موظفو المركز في زمن السير رُسل هم القنصل والقس والسكرتير والطبيب وموظف يطلق عليه "Chause"[1]، الذي يتمشى امام القنصل حاملاً عصا ذات راس من الفضة. وهناك ايضًا اثنان من المترجمين او الأدلاء واثنان من الإنكشارية. "عند الذهاب إلى مقابلة رسمية مع شخص ذي مقام رفيع او عند إجراء مواكب مماثلة لذلك في الشكل، يتمشى الدليلان الشرقيان مباشرة خلف جنود الإنكشارية، اثنان خلف اثنين، ويمشي امام المذكورين الوكيل. يمشي الأدلاء الرسميون بعد ذلك مباشرة وبعدهم يسير القنصل يتبعه جميع الرجال تحت الحماية البريطانية".

وقد بيّن السيد رسل ايضًا ان المقيمين الأوروبيين في زمنه في حلب هم من الإنكليز والهولنديين ومن البندقيين. كانت الإيطالية تسمى في ذلك الوقت اللغة

---

(١) على ذكر هذا اللقب، اود ان اضيف مقتطفًا من عمود للموسوعي السيد صلاح الذي يكتبه لسبوعيًا إلى صحيفة (Sunday Times)، «المفردة Chause» اصلاً غريبًا جدًا لا يبدو ان الكاتب في صحيفة Daily News يدركه. كانت المفردة في السابق تكتب بشكل chiaus او chiauz او chaous، وجميعها ترجمة خاطئة للمفردة التركية التي تعني رسول او وكيل او مترجم. فقد حصل ان خدَع تاجر تركي في لندن ايام حكم جيمس الأول بعض التجار الإنكليز المتعاملين مع تركيا وحصل على مبالغ كبيرة من الأموال، وبسبب ارتباط الكلمة بهذه الحادثة اصبحت تعني الخداع او الاحتيال واشتق منها الفعل (chouse).

وقد ذكر بن جونسون المفردة chiaus في كتابه «الكيميائي». (المؤلف).

الإفرنجية. كانت هناك في عام ١٦٠٥م خمس عوائل فرنسية و(١٤) عائلة من البندقية إضافة إلى عائلة القنصل، في عام ١٧٥٣م، كان عدد البيوت الفرنسية المشتغلة بالتجارة تسعة ثم قلت في عام ١٧٧٢م واصبحت ستة او سبعة بيوت[1]. يذكر فان إكمونت (الذي ربما لا يكون موثوقًا جدًا) قصته التي لا تعتبر سوى انها مشرّفة للإنكليز إذا كانت صحيحة. فقد قتل جندي إنكشاري سكير خادمًا ارمنيًا لتاجر إنكليزي. يقول فان إكمونت ان الإنكليزي قد اعطى رشوة إلى القضاة مقدارها (١٠٠٠) سكوين[2] للاستعجال في الحكم عليه حيث تم تنفيذه في الآخر بشنقه يدويًا امام القلعة. "لقد كلف هذا الأمر الإنكليزي بضعة آلاف من القروش (البيزو)". ربما كان فان إكمونت يصدق هذه القصة او لا يصدقها، إلا انه من المحتمل ان قدرًا كبيرًا من الغيرة الوطنية هي التي دفعته لتضمين القصة بكتابه، إلا ان تجربتي قد علمتني ان ثلث القصص التي تسمعها في حلب صحيحة، ومن المحتمل جدًا ان تكون هذه القصة محرّفة.

وفي عام ١٨٢٢م، هزّ المدينة مرّة اخرى زلزالاً فاجعًا، دمّر جزءًا من المدينة ودفن آلاف السكان تحت الركام. وقد قيل ان ثلث عدد السكان وثلثي البيوت قد دُمّرت. كذلك حدث زلزال آخر في عام ١٨٣٠م، ولكن اقل حدة. وفي السنة التالية، فتح إبراهيم باشا سوريا، وبقيت حلب تحت الحكم المصري حتى عام ١٨٣٩م، حيث عادت سوريا ثانية، بعد تدخل إنكلترا، كجزء من الإمبراطورية العثمانية وعادت حلب مدينة تركية.

---

(١) وفي وقت متاخر في عام ١٨٥٠م، ذكر رحالة إنكليزي ان هناك عددًا قليلاً جدًا من التجار الإنكليز هناك. (المؤلف)

(٢) السكوين هو نقد ذهبي تركي او إيطالي قديم. (المترجم)

تقع حلب في وسط قفر قاحل هو في الواقع الزاوية الشمالية للصحراء السورية الكبرى، بنيت المدينة على عدد من الهضاب الصغيرة التي يبين رسل ان عددها ثمانية. وإلى الغرب منها ترتفع سلسلة من التلال الحجرية المتعرجة التي يخترقها المسافر القادم من الساحل قبل ان يصل إلى المدينة. وفي اسفلها يتموج نهر حلب (كويك سو) والذي ذكره زينوفون[1]، وهو نهير بطيء يخترق بساتين الدردار والقبقب والحور وباقي الأشجار. لم يمتلئ هذا النهر كثيرًا مطلقًا بالمياه وغالبًا ما يكون فارغًا في فصل الجفاف من السنة كون معظم المياه تسحب لأغراض الري. وما هو غريب، انه ليس للنهر منفذًا للتصريف سواءًا للبحر او لنهر اكبر، إلا انه ينتهي في الآخر في مستنقع يقع على مسافة مسير ساعتين جنوب حلب. يعج النهر وبعض المستنقعات المليئة بالمياه قربه وإلى جوار حلب بالضفادع، التي تخلق في الأمسيات ضجيجًا لا يصدق لمثل هذه الكائنات الصغيرة. وعند اقتراب اي شخص منها، فإنها تتوقف عن النقيق ومن العسير ان تشاهد ايًا منها. لهذا اتخذت وضعًا مناسبًا لإلقاء نظرة عليها، ولم يظهر انها اكبر حجمًا من النوع الإنكليزي. يقول رسل ان النهر قد أخذ تسميته (كويك) من هذا الضجيج، وهي كلمة مشابهة لنقيق الضفادع، ولتعزيز هذا الرأي استشهد بنشيد "الضفادع" لأرستوفان[2]. وكذلك يعج النهر بالسمك، وهو من صنف واحد حيث اخبرني الأوروبيون في حلب انه سمك الجلكا الذي يسميه الأهالي (سمك إنكليز) او السمكة الإنكليزية. وقد ذكر رسل هذه الحقيقة وحدد ان السمك من صنف عديم الزعانف وهو يختلف تمامًا عن سمك الجلكا. كان رسل عالمًا جيدًا بالطبيعيات ولكونه كان طبيبًا في المستشفى الإنكليزي هناك، فقد كانت لديه فرصًا كثيرة للتحقق مما يتوصل إليه، بحيث انه لا يساورني الشك بصحة ما يقوله. إن الاسم المحلي غريب جداً

(١) مؤرخ يوناني اثيني عاش من ٤٣٠ق.م-٣٥٥ق.م. (المترجم).

(٢) مؤلف مسرحي يوناني (٤٥٠-٣٨٨ق.م) يعتبر اعظم شعراء الكوميديا في الأدب الإغريقي في القديم. (المترجم).

ولا شك انـه قـد اطلق علـى هـذا السـمك لأن اعضـاء المركـز الإنكليزي كانوا ينظرون إلـيه بـتقدير خـاص، والآن وبعـد ان اصبح القنصـل البريطاني هـو الوحـيد الـذي يمثل بلدنا هنا، فإن المسافر يصاب بالدهشة لسماعه سمكًا يحمل هذا الاسم[1].

وإلى الشـمال والجـنوب يقـع وادي هـذا الـنهر الصـغير المـزدحم ببسـاتين الفاكهـة، ولكـن تقع إلى الجانب الشرقـي سلسلة من المرتفعات والروابي التي تمتد بعيدًا حتى تصل الفـرات. وقـد تمـت زراعـة مسـاحات كـبيرة مـنها في السنوات الأخيرة بحيث يمر المسافر مـن حلـب إلى مسكينة عبر مساحات مزروعة متناثرة على طول الطريق تقريبًا، وعند إلقـاء المسـافر القـادم مـن الساحل نظرة شاملة على المدينة، فإنه يفاجأ بالحال - إذا كان معـتادًا عـلى زيـارة المـدن الشرقـية - بانعدام وجود المنارات على نحو غير اعتيادي، حيث تضـفي هـذه السـمة جمـالاً وجـلالاً على معظم المدن الإسلامية المهمة. فلو كان في حلب ولـو جـزءًا مـن هـذه المـباني الجمـيلة كمـا تـتـباهى بذلـك القاهـرة، لكان مـن ينظر من الأعـلى يرى جمالاً ليس بالقليل رغم المحيط القاحل البسـيط. هناك سمة وحيدة تعطي للمديـنة نـبلاً وتذكّـر المسـافر انـه يـنظر إلى واحـدة من المدن التاريخية في الشرق. تلك هـي التلة الشديدة الانحدار التي تـرتفع في وسط المديـنة وتحوي اجزاءًا من حطام وانقاض القلعـة المحصـنة. ولكن من ينظر إلى هذه القلعة من مسافة معينة لا يرى سوى خرائب وهـذا يعـود إلى الهـزات الأرضـية العنـيفة والمـتكررة والـتي بالطـبع قـد دمّـرت المـنارات، وبسـبب تكـرارها جعلت الأهالي يـدركون انه لا جدوى من بناء العديد من هذه المباني. ويعـزى إلى نفس السـبب ايضًا نـدرة وجـود بقايـا المباني لجميع العصور في حلب بعد ان

---

(١) عند كتابة السطور اعلاه اكد لي مقيم سوري في لندن ان (الحنكليز) هو لفظة عربية صرفة لسمك الإنقليس او الجريث وهي لا تشير إلى الأمة الإنكليزية. والحلبيون يدغمون كلماتهم مما ادى لظهور هذا الخطأ. (المؤلف).

نضـع في الاعـتـبار السـمة المـتكررة والتدميرية لـهذا العقاب الإلـهي، ويبدو من العجائب إلى حد ما ان تكون حلب مدينة موسورة ومزدهرة كما هي في الوقت الحاضر.

لقـد "اتفق جميع الكُتاب عـلى ان يختلفوا" فـيما يـتعلق بـتقديرات ابعاد المدينة والإحصـائيات عـن عـدد سـكانها. فالدكـتور بوكـوك يوضـح في عـام ١٧٢٨م ان محيط المدينـة مـع ضـواحيها لـيس اقـل مـن خمسـة امـيال. في حـين يعلـن الدكـتور رسـل ان محـيطها هـو حوالـي سـبعة اميال، إلا ان محيط المدينـة (باحيائها المسوّرة) هو فقط ثلاثة امـيال ونصـف. ويعطـي فـان إكمونـت (الذي عاش قبلهم بقليل) تقديرات عن المحيط الكـامل للمديـنة، بانهـا مسيرة ثلاثـة سـاعات. بيـنما جعـل "دلـيل مـوراي" محيطها اقل بقليل مـن تقديـر رسـل. وطالمـا ان تقديـر فـان إكمونـت الـبالغ مسيرة ثلاث ساعات لا يمكـن ان يمـثل اقـل مـن تسـعة او عشـرة اميال، فلابـد ان تكـون المدينة قد تضاءلت إذا كانـت إحصـائيات الـرحالة صـحيحة باجمعهـا. ولكـن طالما انه قد اوضح ان عدد سكان المديـنة كـان في ذلـك الوقـت بشـكل عـام هـو (٢٠٠٠٠٠) شـخص، وهـو رقـم يحتمل ان لا يصله عـدد السكان - ومـن المؤكـد انـه لم يصـل إلـيه في زمـنه - فمن المحتمل ان تكون تقديـراته عـن ابعـاد المديـنة مـبالغا فـيها. ومـع مديـنة تتعرض باستمرار لـهزات ارضية ويعـاد بـناؤها، يعتـبر مـن العسير جـدًا (لأنـه لـيس هـناك خـرائط قديمة يمكن الرجوع إلـيها) معـرفة ابعادهـا في فـترات مختلفة. تبين الخريطة المعروضة في كـتاب رسل موقعا اصـغر بكـثير ممـا هـو الآن، حيـث لم تظهـر ضـاحيتي العزيـزية والكـتاب والضـواحي الجنوبـية إلى الوجـود بعـد. فالعزيـزية هـي في الواقـع حديـثة تمامًـا. وتـبين خـريطة يادكـر في كـتابه (سوريا) ضـاحيتين إلى الجنوب. اللتان تـبدوان لي انهما مبالغا بهما بشـكل كـبير، ورغـم انـي عـلى ايـة حـال، قـد زرت جانـبًا واحـدًا من المدينة، حيث ربما اكـون مخطئـا هـنا، إلا انـني ميّال إلى الاعـتقاد بـان بعـض المـرتفعات الموجودة على هذا

الجانـب مـن الأسـوار تـمثل ضواحي دمرتها الزلازل ولم يعاد بناؤها. ورغم انـي قد طفت بنفسي سيرًا علـى الأقـدام عـلى كـامل محيط المدينة، إلا انني قد نسيت تثبيت الوقت الدقـيق الـذي اسـتغرقه السير، واعتقد انه قد استمر اقل من ثلاث ساعات. لقد علمنا ان التحصينات قـد أعـيد بـناؤها في عـام ١٤٢٧م، بعـد تدمير تيمورلنك للمدينة، وربما يعود جـزء مـن الأسوار الحاليـة للمديـنة إلى ذلـك الـتاريخ. ولكون هـذه التحصـينات متهدمة تمامًا وكونها إلى حد بعيد تمتد بين الضواحي الآخذة في الاتساع في المدينة، فليس من السـهل اقـتفاء اثـرها وبالنتـيجة مـن الصـعب معـرفة طـريقة بـنائها. لاشـك ان حالـتها الراهـنة تعـود إلى الهـزات الأرضيـة الـتدميرية الـتي دمرت المدينة عدة مرات. كـتب فان إكمونـت ان هـذه التحصـينات (في وقـتـه) كـانـت بحالة متهدمة. فقد تم تعـزيز السور باوقات متكررة بابراج كما تحمى المدينة من الخارج بخندق بعرض كبير. وقد ذكر رسل قائمة بأبواب المدينة وكما يلي:

بوابـة قنسرين، وتسـمى احـيانا بـاب السـجن، ويفـترض ان بـناؤها قـد تم في زمن سـيف الدولـة ابـن حمـدان نهايـة القـرن العاشـر، واعيد بناؤها في عام ١٣٤٤م، في زمن الملك الناصـر. وتقـع هـذه البوابة في الزاوية الجنوبـية - الغربـية مـن السـور ومـنها جـاء اسمها كونهـا إلى طـريق قنسـرين الـتي تسـمى احـيانا حلـب القديـمـة. تحـتل قنسـرين موقـع كالسيس[1] القـديمـة. يمكـن مشـاهدة بقايا هذه البوابة حاليًا، وقد سنحت لي الفرصة لمشاهدتها مـع اثـنين آخـرين، وهـي تتكون من برجين عظيمين وبينهما غرفة. والسمة الخاصـة فـيها هـي ان المدخـل إلـيها لا يكـون مـن وسـط المبـنـى بل يكون في الجانـب الأيمن للبرج.

(١) كالسيس مدينة يونانية قديمة. (المترجم).

باب المقام وتسمى بوابة دمشق، وقد بدأ بناؤها أيام الملك الظاهر وانتهى في زمن ابنه العزيز. وهي بوابة حلب في أقصى الجنوب لكونها تقع على مسافة قصيرة شرق بوابة قنسرين ويمتد السور بينهما إلى الأمام. وهي كالأخيرة على نفس التصميم. تقع مقابل هذه البوابة تلال كبيرة، يبدو أنها جزئيًا على أية حال أنقاضًا اصطناعية. ينتصب على هذه التلال ضريح الشيخ علي الذي توجد عليه العديد من الشعارات والرموز الغريبة التي سنعود إليها لاحقًا. تقطع هذه التلال الوادي الطبيعي الصغير الذي يؤدي مباشرة إلى البوابة. لو لم تكن هذه التلال موجودة، والتي لا يمكن أن تكون جميعها اصطناعية، لظهر أن هذا الوادي يضم طريقًا للوصول إلى حلب ويعين موضع هذه البوابة، من المحتمل أن هذه التلال تمثل بعض المباني الواقعة خارج أسوار المدينة وقد حطمتها هزة أرضية. يوجد في هذا الوادي عدد كبير من الكهوف والأغوار الكلسية وبعضها بطول كبير. يشغل العديد منها حاليًا نساجو الحرير. من الصعب تخمين أصلها، كون جميعها تقريبًا اصطناعية، فربما تكون هذه الكهوف أو الأغوار مقالع للحجارة.

باب النريب، والباب الأحمر، وكلاهما على الجانب الشرقي، وباب الحديد في الزاوية الشمالية الشرقية، وباب النصر وهو إلى الشمال وقد أعاد بناؤه الظاهر.

باب الفرج ويسمى أيضًا باب الفراديس أو العبارة، وقد بناه أولاً الظاهر. ويقع على الجانب الشمالي الغربي، والأثر الحالي له هو عبارة عن مبنى مهدم. وعلى الجانب الغربي تقع بوابات الجنائن وإنطاكية. وعلى هذا الجانب من المدينة يقع أفضل الأقسام من بقايا السور، فهناك سبعة أو ثمانية أبراج مربعة قوية، وقد لاحظت أن الثالث أو الرابع منها من الشمال مزود بتماثيل لأسود تمشي ورأسها إلى الأمام ويدها مرفوعة إلى الأعلى.

من الواضح أن جميع الأبراج التي شاهدتها كانت أعلى بكثير مما هي عليه الآن، وفي العديد منها هناك أواوين ضخمة. وأعتقد أن الباب الخامس كما أستطيع أن أرى، كون السور يمتد داخل المباني الحديثة بحيث أنه من الصعب اختفاؤه، هو باب إنطاكية وله نفس تصميم باب قنسرين، وفيه عدد من التماثيل والكتابات. وقد تم بناء سوق بمواجهته، حيث أصبح من المستحيل ملاحظته بالتفصيل. وإلى الجنوب أكثر نحو باب قنسرين، كانت الأبراج هزيلة وصغيرة. كما ذكر رسل بوابتين في الضاحية الشمالية بأسماء الجديدة والعريان.

كان تصميم المدينة داخل الأسوار مربعًا تقريبًا، إلا أن الضواحي التي أحاطتها قد أعطتها شكلاً غير نظامي. وقبل البدء بوصف المدينة، أقتبس جزءًا من إحصائيات فان إكمونت، التي ربما تكون كمياناته السابقة مبالغًا بها كثيرًا. فهو يقول: "إن المدينة مقسمة إلى اثنين وسبعين حيًا.هناك اثنان وعشرون منها داخل المدينة وخمسون في الضواحي. ويقدر أن هذه الأحياء تحوي (١٧٢) مسجدًا و(٦٨) خانًا و(٦٤) حمامًا، و(٣٧) مطحنة تديرها البغال وتكيتان للدراويش وثمانية مدارس وثلاثة دور للمرضى عقليًا، وسجن واحد، وأربعة دور لصناعة الصابون، وثماني مجازر لذبح الحيوانات وست دور للصباغة وخمس كنائس وسبعة وسبعون سوقًا وأكثر من خمسة آلاف دار سكنية.

يعتبر الجانب العام لداخل المدينة شيئًا جوهريًا لأي مدينة شرقية. فالشوارع مرصوفة بحجر ممتاز وبطراز أنيق والمباني متجاورة مع بعضها بشكل جميل. إلا أن الشوارع باستثناء شوارع بعض الأسواق، كثيرة الانحناءات، وضيقة بالطبع رغم أن هناك شارع أو اثنان يمكن أن تدخل العربة منهما إلى السوق.

كانت معظم الطرق معبدة بشكل جيد، وعلى العموم فهي نظيفة بشكل معقول. كانت بيوت الأهالي تبدي امتدادًا مملاً قبيحًا لأسوارها المواجهة للطريق، باستثناء بعض البيوت في الأحياء غير المسلمة. وجزء كبير من بيوت الأهالي عبارة عن مباني من دور واحد فقط، فقد علمتهم التجربة خطر إقامة صروح عالية في مدينة تخضع للهزات الأرضية. إلا ان بعضنا من هذه المباني ذو دورين. وكقاعدة عامة يحيط المبنى فناء صغير جميل نوعًا ما، تطل عليه شبابيك هذا البناء. وفي بعض البيوت القديمة، تلاحظ الواح صغيرة جميلة من الأرابسك (زخرف عربي) على الشبابيك وعلى باب المدخل. وفي بعض الأحيان تقطع الشبابيك بحجارة هندسية او زخرفية وهذا يترك انطباعًا جميلاً. وفي الفناء يوجد عادة بئر.

تكون السقوف عادة مستوية حيث يقضي الأهالي فوقها قسطًا كبيرًا من وقتهم. ويقال انه بالإمكان المرور على الجزء الأكبر من المدينة دون الدخول إلى اي شارع وذلك بالمرور فوق السطوح.

وبالنسبة إلى المسافر الذي يريد زيارة احد بيوت الأهالي، سواءًا اكان بيت مسلم ام مسيحي، فإن إجراءات الزيارة مربكة إلى حد ما. فالباب مزود عادة باداة للطرق، هي في العديد من الحالات عبارة عن سلعة مستوردة فرنسية على شكل يد سيدة مصنوعة من الحديد أو البرونز. وعند استخدام هذه الأداة، لا احد يفتح الباب كما قد يتوقع الأوروبيون، ولكن بدلاً من ذلك يسمع صوت حاد على مسافة من الباب يقول (مين)، وهو سؤال تعوزه اللياقة إلى حد ما إلى المسافر الذي تكون عربيته ليست جيدة.

ليس هناك حيًا أوروبيًا في حلب وبالنتيجة ليست هناك حوانيت اوروبية. مع ذلك، هناك شارع واحد تكثر فيه بشكل خاص المحلات التي تبيع السلع الإفرنجية

ومعظمها تعود لشرقيين، هناك محل واحد يمكن الحصول منه على العديد من الأشياء الجيدة الخاصة بالرحلات كالمؤن المعلبة أو البسكويت وغيرها من الأشياء المماثلة.

والأسواق كثيرة هناك، رغم انها قياسا بأسواق القاهرة أدنى حالة منها، إلا انها افضل من الأسواق التي نشاهدها حاليًا في بغداد الأكثر شهرة. فهي كقاعدة عامة ذات اتساع معتدل، لها اقواس او انها مسقفة، والحوانيت تكون عادة اكبر، رغم انها اقل تميزًا من حوانيت القاهرة. (والحوانيت عبارة عن غرف يجلس فيها التجار وسط بضاعتهم). يمكن مشاهدة قطن واقمشة مانشستر في كل مكان، حيث حلّت هذه الصناعات القبيحة رغم كونها رخيصة وعملية، محل الأقمشة الحريرية القديمة الجميلة ذات الصناعة المحلية. وبالطبع لا تزال صناعة الحرير جارية في حلب والأماكن الأخرى، ويمكن شراء اشياء جميلة، إلا ان ما يحزن ان هذه الصناعة آخذة في الانقراض. وهناك ايضا اسواق منفصلة تبيع سلعا بعينها. ويستطيع المسافر المتطفل ان يجد أسواقًا تبيع الصوف او القطن او الجلود او ان يتمشى عبر ازقة طويلة معلق فيها اشرطة متدلية تحمل اخفافًا حمرًا او كوفيات حريرية. وقد قمت بالعديد من الجولات على هذه المناظر الرائعة كان دليلي فيها السيد جاكو. وما يبين حجم الأسواق هو انني قضيت في عرض البحر نفس الفترة التي قضيتها في الأسواق بجولتي الأخيرة، ولكن هل توجد الآن اسواق فان إكمونت السبعة والسبعين ام لا؟ ليس لدي الوسيلة لمعرفة ذلك.

يعتبر دكان الحلاق في حلب شيئا متميزًا جدًا، فهو عبارة عن غرفة مربعة تحيطها دكة خشبية مقسمة بأذرع إلى مقاعد منفصلة. تتميز هذه الدكة بأنها عالية جدًا بحيث تكون اقدام الشخص الذي يخضع لعمل الحلاق مرتفعة عن الأرض مسافة حوالي (١٢) إنج. وبذلك يتخذ وجه هذا الشخص المستوى المناسب لعمل الحلاق.

ويوجد في وسط المكان خزان يؤخذ منه الماء، الذي يرمى على الأرض الحجرية بعد الاستخدام. يكون خدم الحلاق عادة من الأولاد الذين يستخدمون عادة نعالات خشبية عالية تختلف حسب طولهم. حيث يحتذي الولد الصغير نعالاً بارتفاع قدم كي يساعده على الوصول إلى المستوى الصحيح.

لم أشاهد في جوامع حلب سوى المظهر الخارجي لأنه ليس من المعتاد السماح للأوروبيين بالدخول، يسمى الجامع الكبير الواقع في الجزء الغربي من المدينة، جامع زكريا أو الجامع الأموي، ويفترض انه يضم ضريح زكريا[١] وقد حلّ محل كنيسة مسيحية. السمة المميزة له هي منارته المربعة الجميلة المقسمة من الخارج إلى خمسة مراحل ذات طبقات متسلسلة، تتميز الطبقتان العلويتان بأنهما معقودتان بقناطر ناتئة. باقي المبنى هو عبارة عن فناء مربع محاط بصفوف من الأعمدة. يقال ان الجامع قد احرق مرتين واعيد بناؤه، لهذا وبسبب الحرائق والهزات الأرضية، لا يحتمل وجود البناء القديم للجامع. إلا ان البرج الذي يقال انه يحمل تاريخ ١٢٩٠، قد حافظ على حالته الجيدة. بعض الرحالة يؤكدون على ان هذا البرج هو نفسه برج الجرس في كنيسة زكريا نفسها التي أدمجت مع الجامع الإسلامي. يقال ان هذه الكنيسة قد بنتها الإمبراطورة (هيلينا) (انظر اللوحة).

هناك جامع جميل إلى حد ما رغم صغره يقع على الجانب الجنوبي من القلعة مقابل البوابة الكبرى. يسمى هذا الجامع بالسلطانية ويطلق عليه المشرقيون أو الإفرنج (الجامع الجاثم) وهو الآن لا يستخدم، وابوابه مقفلة، لهذا لم اتمكن من الدخول إليه، في مقدمته قوس مستدق طويل جداً، أسفله بوابة الجامع الرئيسية. وإلى يسار المشاهد من الباب ثلاثة أواوين مربعة طويلة ذات نقوش كلسية في اعلاها. وتمتد على طول

---

(١) هو ابو يوحنا للعمدان، (المؤلف).

القوس الكبير، الذي هو في الواقع نفس ارتفاع البناية في الوقت الحاضر. يحتوي كل إيوان على فتحة مربعة قرب الأرض وفوقها شباك صغير مستدق الطرف. وعلى يمين الباب هنالك ثلاثة أواوين مشابهة أخرى، إلا أنها ليست قريبة من بعضها كما هي الأواوين التي على اليسار. وترتفع فوق المبنى منارة ثمانية وقبتين صغيرتين.

هناك رسوم لشعارات على الباب الذي سبق وصفه وعلى الجانب الشمالي من البناية مرسومة على خط عريض افقي يقطع كاسا، وهناك رسومات أخرى في القاعدة.

تعتبر القلعة إلى حد بعيد المكان الأكثر اهمية وإثارة في المدينة. وهي تقع إلى حد ما إلى الشرق من مركز المدينة المسوّرة وعلى الأرض الأكثر ارتفاعا داخل الأسوار. يعتبر التل الكبير الذي اقيمت عليه التحصينات القديمة دائريًا تقريبًا ويحيطه خندقًا عميقًا وواسعًا. يبلغ محيطه من حافة الخندق حوالي ثلاثة أرباع الميل. ويبلغ ارتفاع التل أو الرابية حوالي (٢٠٠) قدم، ورغم انه يقال باستمرار ان هذا التل مصطنع، إلا ان الاحتمال الأكثر هو انه مصطنع جزئيًا وكما يشير رسل انه قد تم العثور على كتلة من الأحجار الطبيعية قرب القمة. ومن المحتمل ايضا ان القلعة تشغل جزءًا وربما كل موقع بيريا القديمة، كما أنها تشبه بعض التلال الكبيرة التي تنتشر في أنحاء السهول الكبيرة لشمال سوريا وبلاد وادي الرافدين. ويذكر المؤلفون العرب القدامى رواية متناقلة بأن هناك الفان من الأعمدة يقوم عليها التل، وهذه ليست سوى خيالاً شرقيًا، أو ربما ترجع أصولها إلى اكتشاف بنايات وأعمدة قديمة عندما كانت حصنًا للفاتحين المسلمين. وفي الواقع كما يقول الدكتور بوكوك انه قد ابلغ بالعثور باستمرار على أعمدة رخامية في باطن الأرض إلى الجانب الشمالي الشرقي من القلعة. وقد حصل لي السيد جاكو على إذن بزيارة المكان ورافقني بنفسه خلال هذه الزيارة.

ذهبنا إلى المدخل الرئيسي في الجانب الجنوبي وكان إلى حد بعيد اجمل شيء في المبنى. لقد لاحظت أن بناءًا يُواجه منحدر التل تمامًا، وهذا يثبت أنه حتى لو كان التل طبيعيًا بجزء منه، إلا انه قد جرى تشذيبه وتعديله بمهارة، لأن الغاية من هذا البناء دون شك هي الحيلولة دون انزلاق التربة. كان وضع البوابة كما يلي: جرى بناء بوابة مربعة ضخمة بحجم كبير على قمة وسفح التل حيث يؤدي إلى جسر صخري ذي ستة أقواس مستدقة يقطع خندقًا ويؤدي إلى مدخل أصغر او حصن امامي موجود داخل او قرب الحافة الخارجية للخندق. ومرّة أخرى، يمتد من هذا الحصن نصف قوس على جدار الخندق الخارجي مكملاً المجموعة المتقاطعة (انظر لوحة البوابة).

يعتبر الحصن الأمامي بناءًا جميلاً بتصميم مربع وزوايا دائرية. بابه غير مزخرف يعلوه قوس مقرنص بسيط، وفي كل جانب من جانبيه هناك شباك صغير. وفوقه مباشرة ثلاث كوّات. لإطلاق النار تستخدم لأغراض الدفاع. حيث يوجد في القمة جدارًا ذو فتحات لهذا الغرض اما المدخل الكبير فهو بناء مهيب على شكل مربع تقريبًا مبني على سور القلعة. يجري الدخول إليها عبر قوس مستدق عالي، ترتفع فوقه إلى القمة الحالية للمبنى فجوة طويلة ذات زوايا قائمة مزخرفة بمواد ملونة وتنتهي في القمة بنقش كلسي من الأعلى. وفي كلا جانبي المدخل عند بداية القوس الذي يمثل حوالي نصف الارتفاع الكلي للمبنى، ثلاثة مجاميع من الكوات، قسم منها ذات زوايا سداسية والأخرى ثلاثية. وأسفلها كتابة طويلة بالخط الكوفي التي يقال انها تحمل اسم الملك الظاهر ٦٠٥ب.هـ. وفي كلا جانبي الفجوات المربعة شبابيك صغيرة وفي واجهة المبنى رسوم نافرة دائرية متعددة وبعضها محفور، لا يشغل القلعة في الوقت الحاضر اي شخص باستثناء عدد قليل من الجنود كون القلعة من الداخل مهدمة تمامًا. يعتبر باشا او والي حلب رجلاً يحب بشكل خاص ان يضفي مظهرًا جميلاً عسكريًا على

الأشياء العسكرية في المدينة إلى اي اوروبي خاصة الإنكليز الذين يزورون المدينة والذين يقودهم فضولهم إلى التدقيق والسؤال بأية طريقة عن مثل هذه المسائل.

عند وصولنا إلى البوابة الكبرى، جرى استقبالنا من قبل حرس من اربعة رجال بامرة ضابط صغير او نقيب تقدموا برشاقة نحو الحضور اثناء وصولنا. كان مترجم القنصل حاضراً، وقد لفت الضابط انتباهنا إلى عدد كبير من الثقوب في السور الخارجي، حيث اخبرنا أن هذه الثقوب هي بسبب السهام والنبال واضاف أن العديد من رؤوسها لا تزال مطمورة في الحجارة. هناك بالفعل ثقوب، إلا انه من الصعب التصديق بأن سهمًا قد اطلق من قوس يدوي اعتيادي له من القوة والاختراق ليشق طريقه ويفتح ثغرة بعمق إنجين او اكثر في حجارة صلبة. الأكثر احتمالاً أن هذه الثقوب قد حدثت بفعل الرصاص، ولكن إذا كانت رؤوس السهام كما اوضح الضابط، لا تزال موجودة في هذه الثقوب، فلابد ان تكون هناك ماكنة قوية جدًا قد استخدمت لإطلاقها على الأسوار. وبعد مرورنا من اسفل القوس الكبير، وجدنا انفسنا داخل صالة عالية الارتفاع تحمي جميع جهاتها الثلاثة كوّات جرى بناؤها بنفس المستوى وهي في الواقع امتداد لخط الكوّات التي شاهدناها من الخارج. يتم الوصول إلى داخل القلعة من هذا المكان عن طريق سلم دوّار طويل ذو عرض كبير ومعقود من الأعلى بارتفاع عالي. يدور هذا السلّم في البداية نحو اليمين إلى خارج الصالة المقوّسة. بعد ذلك يدور عدة دورات في كل اتجاه قبل ان ينتهي إلى مستوى سور الحصن، تجري حماية القلعة في فترات معينة بأبواب حديدية قوية، واعتقد ان عدد هذه الأبواب هو ثلاثة فقط، رغم انني هنا اتحدث معتمدًا على الذاكرة فقط. الباب الخارجي غير مزخرف إلا ان الأبواب الداخلية مزينة بطراز غريب إلى حد ما حيث قُسّم السطح المعدني إلى مربعات صغيرة يوجد في مركز كل واحد منها حذوة حصان مصنوعة من حديد مطروق. وعلى احد هذه الأبواب ايضًا كتابة في نفس السطح المعدني. وفي الدورة الأخيرة قبل

الوصول إلى الحصن، هناك على اليمين أضرحة اثنين من الرجال الصالحين، لا استطيع تذكر اسميهما. وهذه الأضرحة مزينة برايات بالية.

وفي داخل البوابة مباشرة، هناك بقعة مسوّرة مشبكة إلى الأرض، تضيء غرفة تحت الأرض، وقد اوضحوا لنا انها تمثل شباكًا لسجن القلعة القديم، وبالقرب منها، لفت انتباهنا خزانا كبيرًا للمياه، تقول الروايات المتناقلة أنه الوعاء نفسه الذي يحفظ فيه إبراهيم حليب البقرة الشهباء ذاتها التي كرّمت بإطلاق اسمها على حلب. ومن هنا المكان، توجهنا عبر خرائب مقفرة نحو الجانب الشمالي من التل، حيث لا تزال تنتصب هناك منارة مربعة وهي الأثر الوحيد الباقي من جامع القلعة. وهنا جلبوا لنا كراسي للجلوس عليها، وظهر ضابط آخر، برتبة اعلى، يشرح لنا جمال الموقع، في نفس الوقت جلبوا لنا قهوة واقداحًا من ماء القلعة. تم سحب هذا الماء من بئر يقال ان عمقه يبلغ (١٥٠) باردة ويسمع في قاعه صوت هدير جارف، وهو خبر تم استقباله ببرود تام، وبدلاً من ذلك حاولنا ان نبدو باننا نبتلعه بنفس السهولة التي نبتلع فيها الماء الاعتيادي كان المنظر من قمة المنارة رائعا جدًا. فعند قدم المرء، تمتد المدينة، التي تعتبر بذاتها غير مثيرة إلى حد ما باستثناء مشاهدة فناءات الجوامع وسقوف البيوت. ولا يلاحظ المرء سوى نصف دزينة من المنارات وعدد قليل من القباب. كما يختلف ذلك عن المنظر الرائع الذي يكشف نفسه عند قدم المرء عندما ينظر من قلعة القاهرة. في نفس الوقت يدرك المرء من هنا لأول مرة الحجم الكبير لحلب وتدل الضجة المتصاعدة من المدينة بأنها واحدة من المدن التي تزخر بعدد كبير من السكان. وعلى مسافة في الاتجاه الشمالي الغربي تقع الجبال التي تحيط قرية بهلان والتي عبرتها قبل ايام قليلة، وعلى مسافة كبيرة إلى الشمال يقع جبل آخر منخفض ضارب إلى الزرقة، الذي لابد ان يكون قريبًا نوعًا ما من عنيتاب، وبنفس الاتجاه أسفل اقدامنا يقع السراي، بينما تقع خارج المدينة مباشرة قباب الشيخ بكر، وهو مبنى للدراويش ويعتبر موضعًا مدهشًا، وبالقرب

منها سلسلة قبيحة من الثكنات، وإلى الشرق تمتد صحراء قاحلة، لتصل الفرات، ويمكن أن نرى على الجانب الجنوبي الشرقي المنخفض الذي تقع فيه بحيرة جببول الملحية الكبيرة، في حين شاهدنا في الجانب الغربي والجنوبي الغربي السهل الأزرق الذي يتلوى النهر في بساتينه من اشجار الفاكهة. وإلى الغرب ترتفع نحو السماء القمم الجليدية لإنطاكية.

وبعد مغادرتنا للمنارة، توجهنا نحو بئر القلعة، حيث يتم رفع الماء منه بواسطة حصان واداة رافعة، ويبدو من الصوت الناتج من إلقاء حصاة فيه، انه عميق جدًا. وطوال ما كنا ندور حوله، كان الجنود يتحركون هنا وهناك وبأيديهم الكراسي لوضعها اسفلنا عندما نتوقف. وبعد ان شاهدنا المواقع، ظهر ضابط ثالث، وكان اكثر حيوية من زملائه السابقين، ويبدو انه قد تم حجبه عنا وإظهاره في الآخر كنوع من المعاملة الخاصة وعلامة على التكريم. وقد دخلنا معه إلى غرفة صغيرة داخل الأسوار مؤثثة بالأرائك ويظهر انها تستخدم لاستقبال الضباط الكبار عند زيارتهم إلى القلعة. ولم نكد نجلس حتى قدمت القهوة إلينا تلاها بعد ذلك اقداح عديدة من عصير البرتقال. تتطلب اصول الضيافة أن تشربها جميعًا وهذا ما فعلناه، حيث انتفخت بطوننا من هذه العملية. تلا ذلك احاديث متقطعة، ثم غادرنا بعد ذلك بالمزيد من الانحناء والتحية ورفع القبعات ودفع البقشيش، وغني عن القول ان الأخير يقدم إلى حرس الشرف المكوّن من اربعة رجال يقودهم النقيب، حيث تقدموا بفخامتهم نحو "الهدية" بحماس مضاعف عند مغادرتنا للمبنى.

وقد اخبرني السيد جاكو أن عرض الاستقبال غير التقليدي هذا، هو عرض غير اعتيادي لمناسبة زيارة الأوروبيين للقلعة. إذ انه بشكل عام يقوم جندي واحد بمرافقة المسافر في انحاء المكان.

تم تعزيـز السـور المحـيط بالقلعـة باوقـات مـتعددة إلا ان وضـعه الآن مخـرب بمجملـه. هنـاك ايضا واحد او اثنان من التحصينات الخارجية تاخذ شكل ابراج مبنية في الخندق وترتبط بالحصن الرئيسي بواسطة الأسوار.

وغـني عـن القـول، ان القلعـة قـد لعبـت دورًا مهمًـا في تقلبات الأحوال المتعددة التي شهدتها حلب والتي تم ذكرها مسبقًا. في عـام ١٦٣٠م قام السلطان مراد الرابع بتجريد القلعـة مـن المدفعـية الـتي كانـت تملكهـا للاستفادة منها في محاصرة بغداد. ويخبرنا فان إكمونـت ان القلعـة كانـت تحتـوي في وقته على حوالي (٢٥٠) دارًا سكنية، يبلغ تعداد سكانها عادة (١٢) الف مواطن ويبلغ تعداد حاميتها (٣٥٠) شخص حيث لم يباشر الجنود الإنكشارية في الحامـية بالقـتال في حالـة طارئـة، وإذ ذاك يعـيش الفـرد في القلعـة ويموت بتلك الخدمـة كما انـه "لا يبدو ان القلعة مزودة بمدفعية او ذخائر عسكرية". يقال ان بعض القبوهات تضم حاليًا كمية من النبال والسهام وباقي الأسلحة القديمة.

ولكونـنا نـتحدث عن امور عسكرية، اود ان اذكـر ان القوات الوحيدة التي سنحت لـي الفرصـة بمشاهدتها في موكـب عسـكري بحلـب هي خمس بطاريات مدفعية مرّت صباح احـد الأيـام عـبر حـي العزيـزية، بطريقها إلى السهل خـارج المديـنة حيـث تمارس تدريـباتها. كانـت مدفعيـتها مـن نـوع كـروب (Krupp) بحالـة جيـدة وبعـض الجـياد كانـت بحالـة ممتازة. إلا ان الرجال كانوا قـذرين وكانت اطقم وسروج الخيل رديئة وغـير نظيفة، وكانـت الأخيرة كما علمت في وقت لاحق سلعًا رديئة تم شراؤها بثمن بخس بعد الحرب الأهلية الأمريكية.

هـنـاك عـدة خانـات في حلـب، يجـري فيها في الواقـع حتـى هذا اليوم عقد الكثير من الصـفقات التجارية للمدن الشرقـية، وإن فنـاءاتها الكبيرة تضم بشكل عام اكوامًا كبيرة

من البضائع. بعض هذه الخانات ذات بناء جميل، تعيد إلى الذاكرة قصص الف ليلة وليلة. يسمى أحدها وربما اجملها في حلب خان الوزير ويقع في غرب المدينة. يتم الدخول إليه عن طريق بوابة رائعة، بنيت في الجانب المواجه إلى الشارع وبصفوف من اللونين الأبيض والأسود الموضوعة بالتبادل. في المقدمة لوحات نقش ومنحوتات بارزة بشكل أسود. اما الجانب الداخلي من البوابة فهو بشكل قوس مستدق تدعمه اعمدة ذات تيجان كلسية. وبعد المرور عبر هذه البوابة، وجدت نفسي في مربع كبير في وسطه حوض ماء، لهذا فإن للمبنى مظهر قريب جداً إلى جامع قديم. كانت مبانيه الرباعية من دورين، كان الدور الأسفل بسيطاً، فيه ابواب يتم الدخول إليها من الفناء، في حين كانت مقدمة الطابق العلوي عبارة عن ممرات مقنطرة مفتوحة على جميع الجهات باستثناء الجهة التي يكون فيها المدخل. تتميز صفوف الأعمدة بشكل عام بالبساطة كونها عبارة عن اقواس بسيطة تستند على اعمدة مربعة، إلا انه في موضعين فقط وبالتحديد في النهاية اليسرى في الضلع إلى يسار الدخول، وقسم في نفس نهاية الضلع مقابل المدخل، هناك تشكيلة من القناطر فيها الكثير من الزخارف وفيها اقواس محنية في جانبيها ومعكوسة قرب الذروة تستند على اعمدة عربية مصنوعة من حجر الكلس أو قد تكون بتيجان مزخرفة، كنت في البداية ميالاً إلى الاعتقاد ان هذا يشير إلى اختلاف في التاريخ، إلا انه، حيث تم دمج الأسلوبين، فقد نشأ عمود هجين يتكون من دعامة مربعة مع نصف عمود مبني إلى جانبها، يحتمل ان تكون كل البناية قد جرى بناؤها بتاريخ واحد وربما تم ذلك قبل مائة وخمسين سنة خلت. تتضمن العديد من الشبابيك المطلة على الفناء زخارف عربية جميلة عليها. جرى إسناد حوض الماء ايضا بأعمدة لها نفس سمات الجزء المزخرف من الممرات المقنطرة.

سبق ان ذكرت وجود رموز وشعارات غريبة على بنايات قديمة مختلفة. كانت جميع هذه الرسوم متشابهة جدًا[1]. وهناك العديد من هذه الشعارات موجودة على الجوامع المصرية وفي بعض الأحيان على اشياء صغيرة كالمصابيح الزجاجية للجوامع التي صنعت في القاهرة في القرن الرابع عشر والخامس عشر في زمن الأسرة المملوكية. وقد كتب عن هذا الموضوع السيد ئي، تي. وروجر زبيك الأخير ونشر في "نشرة المعهد المصري" عام ١٨٨٠م. ولم تسنح لي الفرصة لمراجعته، إلا ان هناك بعض الملاحظات القيّمة حول نفس الموضوع في كتاب فن جنوب كنسنغتن. الفن الشرقي في مصر الذي كتبه السيد ستانلي لين بول. وقد تعلمت منه ان الشعار رقم (١) ادناه هو مزيج شائع وان الشعار رقم (٢) قد استخدم فعلاً من قبل السلطان قائد بك في مصر واستخدمه ايضًا احد ضباطه المدعو عامر جنبلاط الذي اصبح سلطانا فيما بعد. أعتقد ان استخدام القدح يشير إلى ان حامله مسؤول عن سقي السلطان وتوجد في القاهرة ايضا رموزًا اخرى مشابهة، كزوج من عصي البولو، التي تشير إلى دائرة (الجوكندار) او رئيس البولو، ومفاتيح الحاجب.

---

(١) فيما يلي قائمة بنماذج فيها:

١. هناك قدح او كاس على شريط كالعصابة وفي قاعدته قدح اخر. وهذا موجود في جامع السلطانية.

٢. على شريط كالعصابة بين اثنين من الأوعية القرنية الشكل وافواهها إلى الأسفل، هناك قدح، في اعلاه معين وفي قاعدته قدح آخر. وهذا يوجد على حوض ماء عربي قديم جميل او مكان للإرواء في الجانب الشمالي من المدينة قرب الشيخ بكر. وتكون الشعارات كالمعتاد على شكل رسوم نافرة من الجدران. هناك ايضًا في المنتصف نقوش لكتابات دينية وهناك ايضا رسوم اخرى نافرة على الجدران مع نقوش كتابية اخرى.

٣. شعارات كما ورد في المادة (٢) اعلاه. وهذه موجودة ايضا على قبر ما يسمى بشيخ علي خارج باب المقام.

٤. على شريط كالعصابة بين الرمز الهيوغليفي [رموز] وعلى الجهة اليمنى واليسرى منها هناك قدحًا في اعلاه معين واسفله قدح اخر. وقد شاهدت هذا المزيج الغريب على جزء من سور في الجانب الغربي من المدينة. (المؤلف).

أما الشكل الرابع، فهو رمز لافت للنظر، حيث يوجد فيه الرمز الهيروغليفي [رمز هيروغليفي] ، رغم انه جاء باشكال مختلفة من المزج على تروس حكام المماليك المصريين في القرن الرابع عشر. وهذا الشكل الهيروغليفي شائع في الآثار المصرية القديمة ويمثل (إله البلاد العليا والسفلى)، كان راي السيد روجريك انه باعتبار ان المماليك استخدموا هذا الرمز، فلابد انهم قد فهموا معناه، إلا ان السيد لين بول يرى ان هذا الرمز الخاص ربما كان يعرفه الأقباط، او ان المماليك قد استنتجوا دون فهم له ومن خلال كثرة تكراره، إنه لقب شرفي. اما وجوده في شمال سوريا فلا يزال امرًا جديرًا بالملاحظة اكثر.

هناك آثار قليلة في حلب ينبغي مشاهدتها. فقد جرى بناء السور حول بوابة إنطاكية كنوع من السواتر، حيث المستوى في الداخل اعلى بكثير من المستوى في الخارج. وفي نقطة هنا من الداخل، ولكن على مستوى قمة السور، لاحظت بناية غريبة فيها العديد من اجزاء الأعمدة البازلتية والكرانيت القديمة. ومبني ايضا ضمن سورها حجر غريب فيه نحت مع ما قد نعتبره كتابة. إنه خرب ويبدو وكانه مقلوب راسًا على عقب. كان العمل الفني مقسمًا إلى نصفين ويبدو بكونه يتالف من اشجار واشكال بشرية. واشك في ان احدًا يستطيع فك رموزها.

تتالف ضواحي حلب من الجديدة في الشمال والعزيزية في الغرب والكتاب في الجنوب الغربي والفردوس في الجنوب. هناك ايضًا ضواحي كثيرة في الجانب الشرقي لم استطع ان اتحقق عن الأسماء التي اطلقت عليها. ربما تكون هذه اقدم احياء المدينة الواقعة خارج اسوارها.

يسكن الجديدة والعزيزية بشكل رئيسي المسيحيون. كانت الضاحية الأولى موجودة في زمن رسل إلا انها قد توسعت في هذا الوقت. اما العزيزية فإنها ضاحية حديثة ويفصلها عن المدينة حزام من المقابر التي تحيط المدينة. إن ابنيتها ممتازة

وشوارعها عريقة وبيوتها مبنية من دورين وهي في الحقيقة ذات طراز أوروبي، وشبيهة ببيوت للدينة حيث يحيط المبنى فناءا، ولكونها مبنية بمجملها للمسيحيين، ففيها ايضا شبابيك كبيرة مواجهة إلى الشوارع، وفيها ايضا بشكل عام اجزاء ناتئة تشبه (المشربيات) في القاهرة ولكن بالطبع تعوزها الأناقة. ويحيط العديد من الشبابيك اجزاءا حديدية مطروقة جميلة إلى حد ما، وكلها يجري عملها في حلب تنتشر في الأبواب بشكل عام مسامير حديدية مزودة بصفائح من نفس المعدن.

رغم ان الكثير من أسواق وشوارع المدينة مسقفة، فإن طريقة البناء هذه اصبحت حاليًا غير قانونية. بالقرب من الفندق، هناك شارع جديد، كل ما فيه يعود لمالك واحد. ولكونه يرغب بتسقيفه على الطراز القديم، فإنه قام بسخاء بتقديم البقشيش للسلطات وحصل على ما يريد بسرعة، فنصب السقالات (السكلات) في الليل وعند الصباح باشر مائتي رجل في العمل لنصب الأقواس. ولسوء حظ هذا المغامر، فقد وصل الأمر إلى مسامع السلطات الأعلى، اعتقد انه الوالي، الذي هد كل التحضيرات بلحظة وانهاها. وظلت الأسوار غير منجزة واجزاؤها التي تستند عليها الأقواس ثابتة.

وكما قلت، تحيط المقابر بحلب من جميع الجهات. ومعظمها بالطبع مقابر إسلامية، ولكن إلى الشمال تجد للقابر الأوروبية الأرمنية واليهودية. والأولى قريبة من حي العزيزية وتضم العديد من الكتابات المنقوشة تخليدا لذكرى التجار الإنكليز والأوروبيين الآخرين الأعضاء في المراكز التجارية خلال المائتي سنة الماضية. كنت اود، لو كان لدي الوقت الكافي، ان انسخ جميع الكتابات الإنكليزية. إنها بمعظمها بسيطة للغاية، كالمثال التالي:

"جارلس روبرت تومسون - مقاطعة وابتهافن - في إنكلترا - توفي في حلب في ٢٠ ايلول ١٨٦٥".

وبعضها، التي من المحتمل ان تكون لأجانب، مزينة بشعارات منمقة، وجميعها تقريبا، لسوء الحظ في حالة سيئة من العطب.

لقد سبق ان ذكرنا موضوع النهر والبساتين الجميلة المحيطة به. وتعتبر حلب بالطبع بعيدة إلى الشمال مما لا يسمح بنمو النخيل رغم وجود اعداد قليلة جدا، واحدة أو اثنتين من النخيل المتوقف النمو في الحدائق الخاصة، ويحتفظ به كشيء نادر. كذلك لا نرى اشجار البرتقال في المنطقة لأن المناخ بارد جدا بحيث لا يسمح بنموها. إلا أن اشجار الدردار والحور والجوز تنمو بشكل جيد هنا. وهناك اشجارا لفواكه مختلفة. نشاهد ايضا بساتين التين والزيتون، إلا ان هذه توجد بمعظمها على المنحدرات في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة. وإلى الشرق من حلب هنالك مزارع كبيرة لأشجار الفستق. والواقع ان جوز الفستق الحلبي يعد من افضل ما موجود في العالم. تتم عمليات الري بشكل رئيسي بواسطة دولاب الماء الفارسي او ما يسمى بـ (الناعور) الذي يستخدم على امتداد نهر الفرات ولغاية التقائه بنهر دجلة، هنالك ايضا قناة قديمة لسحب المياه من مكان قريب يدعى هيلان الواقع على مسافة معينة إلى الشمال. يقول رسل انه يفترض ان هذه القناة قديمة قدم المدينة، وقد اعيد إصلاحها من قبل الإمبراطورة هيلينا. وهناك في بعض المواقع في ضواحي حلب آبارا وملاجئ التي تعتبر دون شك اعمالاً خيرية لبعض الأمراء او افراد اثرياء آخرين. لقد سبق ان ذكرنا واحدا من هذه الأماكن الواقعة شمال المدينة قرب مبنى الدراويش الذي يدعى الشيخ بكر حيث توجد عليه اداة مبتكرة نحتية. وقد شاهدت مكانا آخرا على النهر بنفس الاتجاه. إنه يتكون من مجرد بناية صغيرة ذات صالتين مقوستين، إحداهما تضم بئرا او خزانا للوضوء والأخرى محرابا للمصلين باتجاه مكة. لهذا يعتبر الموقع بئرا لعابر السبيل الفقير للتوقف فيه ومحلاً للعبادة.

يتميز مبنى الدراويش في شمال حلب المسمى الشيخ بكر بميزة لافتة للنظر إلى حد ما كونه يقع على ارض مرتفعة. ليس فيها من الخارج سوى منارات معمارية قليلة تتسم بالجمال إلا ان لقبابه الخمسة ومنارته الوحيدة أثرا شرقيا حقيقيا مثيرا للسرور. كذلك تضيف الأشجار العالية المحيطة بالمبنى جمالاً آخرا على مظهره. اعتقد ان هؤلاء الدراويش ليسوا من الذين يدورون او يرقصون. إحدى اجمل النزهات التي قمت بها في هذه المنطقة هي عبور النهر والتسلق إلى قمة الأرض المرتفعة الواقعة إلى الجانب الجنوبي - الغربي. يمر الطريق في جزء منه وسط بساتين الزيتون الجميلة بعد ذلك مررنا ببنايتين كبيرتين تقعان إلى اليمين تحت منحدر صخري. وقد قيل لي اكثر من مرّة ان هذه البنايات هي جوامع ومباني دراويش واعتقد ان كونها جوامع امرًا صحيحًا رغم انها تبدو غير مستخدمة تقريبًا. ومن هذا المكان انعطفنا نحو الأرض المرتفعة حيث يمكن إلقاء نظرة جميلة عن بُعد على حلب.

يعتبر سكان حلب خليطًا متعددًا من الأجناس، الجزء الأكبر منهم سوريون بالطبع، إلا ان هناك العديد من الأرمن واليهود والأتراك وعددًا كبيرًا متناثرًا من البدو شبه المستقرين والذين يقيمون على الجانب الجنوبي من المدينة في زرائب خربة وقسم منهم في اكواخ وخيم. هناك ايضًا العنصر الأوروبي، الذي يتكون بشكل رئيسي من اليونانيين والإيطاليين مع عدد قليل من الفرنسيين والروس والإنكليز، ويمثل هذه الأمم بشكل رئيسي ممثلين من القناصل، وهؤلاء يقيمون بمعظمهم في حي العزيزية. اللغات المتداولة هي العربية، والتركية، والأرمنية، ولا يتحدث بالعربية المسلمون السورين فحسب، بل المسيحيين السوريين ايضًا. ويتم التحدث بالتركية بشكل واسع في الأسواق. اما عدد السكان، فقد قُدرت له ارقامًا مختلفة. فالكُتاب العرب القدامى يحصونهم بانهم حوالي (٢٥٠٠٠٠) شخص، بينما قدرهم M.D. Arvieux في عام ١٦٨٣م بانهم (٢٠٥٠٠٠) ويقول فان إكمونت في عام ١٧٥٩ بانهم عمومًا (٣٠٠٠٠٠) ويخبرنا

الدكتور رسل في عام ١٧٩٤ بانهم (٢٣٥٠٠٠) منهم (٣٥٠٠٠) من المسيحيين و(٥٠٠٠) من اليهود. ويقول محرر "دليل موراي إلى فلسطين" انه من المحتمل ان جميع هذه الأرقام مبالغ فيها ومن المحتمل ان عدد السكان لا يزيد عن (١٥٠٠٠٠). ليس هناك إجماعا حاليًا يمكن الاهتداء به، إلا ان عدد السكان حاليًا يتراوح بين (٧٠٠٠٠-٩٠٠٠٠) منهم (١٦٠٠٠) او (١٨٠٠٠) ربما يكونون من المسيحيين و(٣٥٠٠) او (٤٠٠٠) من اليهود[1]، ومن غير المحتمل أن المدينة قد شغلت مساحة اكثر من الأرض إذا كان هذا قد حدث فعلاً، كما تشغلها الآن، ويشير فان إكمونت، الذي اعطى بعض الإحصائيات الغريبة عن عدد البيوت، التي انتقلت إلى مكان ما، إلى الآتي:

"يقال ان ستمائة راس غنم يتم ذبحها يوميًا لأغراض اللحم".

يفتخر الحلبيون او اهالي حلب دائمًا بالكياسة في سلوكهم وتهذيبهم العالي. وهذا ربما يكون صحيحًا في الطبقات العليا للمسلمين، إلا انه من الصعب تصديق ذلك كونه لا يعدو ان يكون سوى امرًا سطحيًا فقط في مجتمع يطغى عليه الفساد الذي يقال انه يعم جميع الطبقات في كافة أنحاء حلب. قد لا يصادف المسافر الاعتيادي الذي يلتقي الطبقات الدنيا في الأسواق والشوارع بما يتفق وهذا السلوك. يبدو لي من خلال تجربتي واستطيع ان احكم ان اهالي البلاد ومن جميع الأجناس في حلب هم من النمط الفظ، السيء الخلق، والمخادع. فعند الخروج من مصر، يفتقد المرء تحضر الفلاحين المتسم بالابتسام والواقع انه في كلا المكانين، يتعرض المرء للنظرات وللملاحقة، إلا انه في حلب هناك عدوانية في طريقة اداء ذلك والتي لا يجدها المرء في مصر. وبالطبع يمكن تفسير ذلك جزئيًا ان منظر الأوروبي هنا هو امر غير اعتيادي

---

(١) في زمن بنيامين التوديلي (القرن الثاني عشر) كان هناك ١٥٠٠ يهودي، (المؤلف).

اكثر. إلا انه دون شك لا يزال هناك تعصبا كبيرا، وكراهية للعادات واللباس الإفرنجي الذي رغم أنه لا يتضح كثيرا إلا انه موجود. لا يستطيع اي رجل إنكليزي ان يمر عبر العديد من الشوارع الشرقية في حلب دون ان يواجهه الأطفال بالصياح وترديد كلمة "فرنجي"، وفي إحدى المرات وبينما كنت جالسا إلى الجانب الشمالي من المدينة بين بعض القبور لرسم تخطيط لها، قامت كثير من الفتيات فجاة بعد أن لاحظوا وصولي برشقي بالحجارة بعد ان كمنوا لمهاجمتي خلف عدد من شواهد الأضرحة، وبالطبع حالما انطلقت وراءهم وفي يدي عصا غليظة من شجر البلوط، تفرقوا، إلا ان هذه القضايا الصغيرة تبين المزاج الكامن للشعب.

يحمل مسلمو حلب دائما سمة التعصب وعدم التسامح، حتى في الوقت الحاضر فإنه يقال بشكل شائع إنه لا يستطيع اي اوروبي ان يدخل الجوامع دون إفلات من العقوبة. إلا ان هذه بالطبع حالة عامة للأمور في المدن التركية البعيدة عن خط سير السائح[1].

ونفس الأمر ايضا سيحصل في بغداد، حيث منعت من صعود منارة وحيدة كان جامعها قد اختفى. يخبرنا فان إكمونت حول موضوع التعصب في حلب ما ياتي:

"هناك قصة متداولة هنا بان تركيا ثريا قد قرا شيئا من القرآن، لم يكن يفهمه جيدا، ولكونه يرغب في الاستزادة بالمعرفة، فقد ذهب إلى القاضي يساله عن معنى ما

(١) وبالطبع لا شيء يحصل غير المتاعب من دخول الجوامع الاعتيادية، إذا كان المسافر حريصا. فقد دخل السيد تروت دراك إلى الجامع الكبير وبعض الجوامع الأخرى في حلب ويبدو إلى حد ما انه استطاع الدخول لأنه قد ابلغ مسبقا ان المسيحيين لا يمكنهم الدخول. ولكن لا يسير الأمر هكذا دون متاعب بالنسبة للمسافر قليل التجربة إذا ما فعل ذلك.

قراد، حيث اجاب القاضي: "اتبعني وسوف اشرحها لك". وقاده إلى غرف اخرى وفجاة سلّ سيفه وقطع راسه". وقصة اخرى: "ان هناك تركيان يلعبان الشطرنج، وقد توقف احدهما وقتا طويلاً قبل ان يقوم بالنقلة، وقال له الآخر: "العب، لخاطر ابي بكر"، ولأن الأول كان مستغرقا في التفكير باللعب، ولا يرغب ان يقطع تفكيره شخص آخر، اصدر كلمة سباب متعجلة على ابي بكر، قام رفيقه بإبلاغها للقاضي، واستنادًا على هذه الشهادة الصريحة، حُكم على هذا الرجل بقطع راسه، ونفّذ الأمر بموجب ذلك في اليوم التالي".

يخلّف المسيحيون الحلبيون من جميع الطوائف انطباعًا في نفس الفرد بالفكرة العامة بانهم "حريصون على مصالحهم الخاصة إلى حد يؤثر على نزاهتهم". ومن بين الأرمن، يمكن مشاهدة حوالي (٢٠٠٠) شخص منهم ذوي ملامح جذابة. يعتبر غالبية المسيحيين هم من اليونانيين، إلا ان هناك ايضًا عدد لا باس به من المارونيين وبعض السوريين الكاثوليك. وتشكل البعثات الأمريكية جالية بروتستانتية صغيرة في المدينة.

تعتبر الأزياء التي نشاهدها في حلب متعددة، ففي أوساط سكان المدينة ربما يعتبر الطربوش اللباس الأكثر شيوعًا. وله عدة اشكال. فهناك النوع القاسي الذي يكون ارتفاعه احيانا منافيًا للمعقول، مما يضفي على مرتديه مظهرًا مثيرًا للسخرية. واحيانا يكون لونه اسود بدلاً من الأحمر. يلف عادة حول الطربوش الناعم الذي يركّب على الراس بإحكام، منديلاً صغيرًا كمحاولة لجعله كالعمامة. كذلك تشاهد في حلب العمامة المميزة والأكثر وقارًا، إلا انها قد فسحت المجال كثيرًا إلى الطربوش، يلبس عرب الصحراء والقرويون وسكان الريف في كافة انحاء شمال سوريا، الكوفية، ليست الكوفية الحريرية البهية، المطرزة بالخيوط الذهبية، بل منديلاً من صنع مانشستر ذو

نموذج بسيط لكن ليس قبيحا، وهو شائع الاستخدام من الساحل السوري إلى الخليج العربي، حيث توضع بشكل حر على الراس، (ويكون اسفلها وعلى الراس مباشرة قلنسوة ضيقة بيضاء) ويتم تثبيت الكوفية بعصابة مزدوجة من وبر الإبل او الصوف. وتختلف هذه العصابات بشكل كبير. بعضها يكون بشكل لفّة سميكة قاسية كالسجق (العوسج) الألماني بطول ثلاثة اقدام، وبعضها يصنع من خيوط سائبة تجمع بين مسافة واخرى بخيوط حريرية ذات الوان زاهية. وقد اشتريت مجموعة مختلفة منها من اسواق بغداد وباسعار ونماذج مختلفة. والوانها هي الأسود والبني والأبيض، والأخير هو الأكثر روعة فيها.

يشوّه الآن عدد كبير من الحلبيين الزي الشرقي المحترم وذلك بارتدائهم معطفًا اسودًا طويلاً قبيحًا مفصلاً على الطراز الأوروبي بدلاً من الجبّة او العباءة التي يجب ان تشكل اللباس الخارجي للتركي او العربي. ويمثل هذا الزي الذي يشاهده المرء باستمرار مع الطربوش الطويل لدى سكان المدينة في حلب، ارتدادًا حزينًا للعمامة المحترمة والجبة للتركي من المدرسة القديمة ويرتدي بعض الأفندية القاطنين في حي العزيزية اللباس الإفرنجي باستثناء الطربوش.

الجو في حلب جميل، جاف، ويثير النشاط، ويقال ان حرارة الصيف غير مفرطة، والشتاء رغم انه قاسي قليلاً إلا انه غير شاق، يعتبر الجليد مالوفًا هناك إلا انه لا يبقى طويلاً. توجد لدى المقيمين الأوروبيين بالطبع مواقد إلا انني اعتقد ان الأهالي يعتمدون بشكل تام على مجمرة الفحم للتدفئة. وكمعظم المدن في هذا الجزء من آسيا، تمر المدينة بأدوار سيئة من الكوليرا، إذ انه وبرغم انها تبدو انظف من المدن الأخرى في هذا الجزء من تركيا إلا انه وبنفس الطريقة تكون الشروط الصحية غير فعالة. وتعتبر دون شك حبّة حلب او (حبّة العمر) التي تصيب المقيمين في المدينة احد

الأسـباب الـتي تـؤدي إلى زيـارة عـدد قـليل فقـط مـن السياح إلى عاصـمة شمال سوريا. لا يقتصر هذا المرض على حلب، فهو ينـتشر جنوبًا في وادي دجلة والفرات، وينـتشر كثيرًا في بغـداد حيـث تسـمى هـناك (حبّة العمر). لقد كتب الكثير عن هذا الموضوع، إلا انه لا احـد يفهـم سـبب او طبـيعة المـرض، الـذي هـو بالتـاكـيد وبـاء في الـبلاد. فهو عبارة عن واحدة او اكثر من القروح المؤلمة المشوهة التي تظهر في حلب في اشهر الشتاء وتبقى لسنة كاملـة. لا يوجـد علاج لـها، رغم ان بعض الأطباء قد اكتشفوا ان هذا المرض يمكن ان ينـتقل مـن جزء مـن الجسـم إلى جـزء آخـر. وفي حالـة الأطفـال، الذيـن يعتـبرون اكـثر عرضـة لـه، تظهـر القـروح بشـكل عـام على الوجه والساقين. لقد شاهدت ستة او سبعة من الأطفـال الأوروبـيين وعـلى وجوههـم ثلاثـة او اربعـة مـن النـدب المشوهة وعدد آخر مـمـاثل في الـورك بـاعـلى الفخذيـن. لا اعـتقد انه من المبالغة القول بانه توجد على وجوه نصـف الأطفـال بعمر من خمسة إلى عشرة سنوات في شوارع حلب بثورًا وندبًا. قد ينجو الكـبار من الأوروبيين الذين يأتون إلى حلب او يعيشون سنوات دون الإصابة به، ولكن إذا مـا هـاجمهم المـرض، فإنـه يكـون عـادة عـلى السـاعد. مـع ذلك، ليس هناك قاعدة عامة لذلـك، فقـد شـاهدت سـيدات إنكـليزيات كـنّ اقمـن فـترة قصـيرة نسـبيًا قـرب الخلـيج العـربي، وهـناك "حـبّات العمـر" عـلى وجوههن. وقـد يظهر على المسافرين الذين يمرون بهـذه الولايـة علامـات المـرض عـند عودتهـم إلى اوروبا. لقد جرى إرجاع اصل المرض إلى اسـباب مخـتلفة. فالفكـرة الـتي تـرجع السـبب إلى المـاء الفاسـد، فكـرة تستحق الاهتمام لو كـان المـرض يقتصـر عـلى حلـب. ولكـن طالما ان المرض ينـتشر بـنفس الطريقة في وادي دجلـة والفـرات ذي المـياه العذبـة فإنـه يمكـن استبعاد هذه النظـرية. يمكن إرجاع السبب إلى الافـتراض بـان سـبب المـرض هـو نـوع من الذبـاب. وقـد اخبرني السـيد جاكـو في الواقع بـان هـناك نوعًا من الحشرات واعتقد انه يظهر في كانون الأول وبعد ذلك بوقت قصير

تظهر علامات المرض بشكل عام. والمرض هو غير معدي وغير خطير إلا أنه ذو طبيعة مزعجة مما يستحق بحثا مستفيضا.

يقول فان إكمونت: "هناك حديث شائع مفاده أنه إذا جاء شخص ما إلى حلب وهو بحالة صحية جيدة، فإنه سرعان ما يصيبه المرض، ومن الناحية الأخرى، إذا كان فيه مرضا كامنا، فإنه سرعان ما يكشف عن نفسه".

ربما تكون السمات التي ليست دائمًا جميلة من مظاهر العادات والحياة الشرقية واسعة الانتشار في حلب كما هي في المدن الشرقية الأخرى. مع ذلك، في القرن التاسع عشر هنا وفي هذه المدينة الكثيفة السكان والتي لا تبعد سوى سبعين ميلاً عن البحر المتوسط، فقد رأيت درويشا مجنونا واقفا يرتجف بكل ما في الكلمة من معنى مقابل سور الجامع في قلب السوق وفي وضح النهار وتحت أنظار السلطات التركية المتنورة، وتتدلى من على كتفيه جدائل سوداء طويلة، ويطلب بصوت متهدج الصدقات من العابرين. يشاهد عدد من الأفراد مثل هذه الشخصية في الأسواق حتى الوقت الحاضر. وما هو غريب، يبدو أن إحدى أيام الاحتفالات في حلب هو يوم الأحد. إنه بالطبع عطلة المسيحيين، وينتهز المسلمون هذه الفرصة للقاء بأصدقائهم المسيحيين لغرض الدردشة. ففي أيام الأحد تزدحم المقاهي قرب مدخل المدينة بمدخني النارجيلة وتزدحم الطرق بكافة أجناس البشر. ومن بين هذا الخليط المزدحم، لا يشاهد المرء، مع الأسف، سوى القليل من الأتراك من أتباع المدرسة القديمة. حيث يحتك الأفندية واليونانيين والأرمن واليهود بعضهم ببعض في فوضى وعلى جانبي الطرق تشاهد الشباب من الرجال وهم يعدون على ظهور خيولهم بنشاط، وهذه فكرتهم الوحيدة عن معنى الفروسية. ويشاهد بين الخيول هنا وهناك الجواد العربي الأصيل ولكن معظمها خيولاً من فصيلة رديئة.

* * *

الفصل الخامس

على الطريق

بدء الرحيل - البقشيش - جبرين - القرية المزدحمة - القسوة في معاملة حيوانات القوافل - السبخ - البحيرة الملحية - الوصول الى دير حفر - الخان - حديث الدرك - البراغيث - اللخت روان - نظام السير - خدمي - السحلية المزعجة - لصوص الاغنام البدو - المنظر الاول للفرات - مخيم عنزة - مسكينة - بالس - شيخ فنى - إبو هريرة وقلعة جابر - اللقاء بعم رجالي - الدرك التركي - اللمور وزبدة اللبن

في صباح يوم ١١ آذار، استيقظت نشيطًا بأمل البدء مبكرًا بالرحيل، ولأنه كان يوم جمعة، فقد اخبرت سائقي البغال، استجابة لطلبهم، بان أؤخر الرحيل حتى انتهاء صلاة الظهر، كوني لم اكن ارغب في التدخل بطقوسهم الدينية وساكون راضيًا تماما إذا ما كان كل شيء جاهزًا عند الظهيرة. حفر حجي محمد كبير السائسين او (الأكم) الذي اتفقت معه بان يطبخ لي قليلاً حسبما اريد، وقال لي ان كل شيء سيكون جاهزًا في هذا الوقت. ولكن بعد الغداء مباشرة، ظهر الكترجي او (المكاري او سائق البغال) وابدى تجاهله التام لعزمي المباشرة بالرحيل في هذا اليوم. وقد تطوع احد كواسي القنصل الذي جاء للاستفسار عن موعد رحيلي، للذهاب مع المكاري لملاحظة كون التخت والبغال جاهزة سريعًا لغرض الرحيل. اخذت أتمشى بعد ذلك

نحو القنصلية، وعند حوالي الساعة الثانية، وردني خبر بان الكل جاهزون. اخذ السيد جاكو يتمشى نحو الفندق ليرى بدء رحلتي حيث وجدنا الشارع الضيق مزدحمًا ببغالي وامتعتي. وكان على مسافة قصيرة يقف التخت العائد لي بهيًا بالوانه الأزرق والأحمر ومثبتا على ظهور اثنين من البغال القوية والنشيطة. عند الساعة الثانية والنصف. كانت جميع امتعتي مربوطة بإحكام بطريقة معينة على ظهور الحيوانات، وعندما كانت تتحرك إلى حيث يوجد التخت، جلب رنين الأجراس الكبيرة للبغال جميع الناس إلى الشارع لمشاهدة رحيل قافلة الإنكليزي. وقد صعد رجل الدرك المرافق لي، والذي كان يجلس تحت حائط مقابل الفندق منذ الساعة الثامنة وهو يدخن السكائر ويتحدث مع حصانه الصغير البدين، على ظهر هذا الحيوان بجُهد، ومعه بندقيته ومسدسه وحذائه العسكري، وتحرك إلى الأمام، وقد جلبوا لي كرسيًا ووضعوه امامي لأصعد فوقه نحو عربتي، وبعد مصافحة ودية مع القنصل الكريم، صعدت بعجلة وغادرنا. وقد التحق بنا عدد قليل من سكان المدينة لغاية وصولنا إلى الضواحي وعادوا إلى بيوتهم. لم نكد نصل إلى منطقة خالية من البيوت، حتى ظهر احد سائقي البغال امام باب عربتي وطلب بقشيشنا لرئيسه او الكترجي باشا أو رئيس سائقي البغال. لم اكن افهم في البداية ان هذا من اجل رئيس سائقي البغال، المقيم في حلب، وبعد ان شاهدنا قد غادرنا الأراضي التي توجد فيها مباني، فإنه الآن على وشك العودة. ربما تكون تلك عادة ان تعطي شيئًا إلى هذا الشخص بهذه المناسبة، إلا انني لم اكن اعرف شيئًا عن ذلك، لهذا رفضت بشكل تام، وقلت اني سوف لن ادفع بنسًا واحدًا كبقشيش حتى نصل بغداد. لهذا غادر الكترجي باشا بحنق شديد وبعد ان نظرت من خلال الشباك، لاحظت الحاج محمد يخرج شلنًا من جيبه ويعطيه له، بينما كان الكترجي باشا من جانبه يشتم ويسب والقى الشلن في الطين، حيث التقطه محمد واستأنفنا سيرنا.

كـان يومًا جميلاً ذا نسيم عليل، ويمتد الطريق عبر سهل فسيح مشابه للسهل الـذي وصـلنا مـن خلالـه حلب مـن الجانـب الغـربي. إلا انـه هـنا اقـل حصًى وجزءًا منه مـزروع. وفي غضـون سـاعة مـررنا عـلى يمـين قـرية تدعـى الديـر مبنـية مـن اكـواخ مخروطية الشكل تبدو من مسافة كانها مجموعة من الخلايا. وفي غضون ساعة اخرى وصـلنا إلى قـرية اخـرى مشابهة لـلأولى تمامًا، حيث اصبحت محطة استراحتنا إذ تكون دائمًا المـرحلة الأولى من الرحلات بهذا الوصف قليلة. لقد شعرت بالسرور في هذه القرية الـتي يسـميها رجالي بجبرين لاكتشافي انـه لا توجـد فـيها غـرف او خـان للمبيـت لـهذا خيمنا في مرج اخضر مربع وسط القرية. يحيط بهذا المرج المربع من ثلاث جهات اكواخ مخروطـية بيـنما كـان الجانـب الـرابع مفـتوحًا باسـتثناء وجود بناية صغيرة ذات فناء وجـرس ولـها شـكل الخـان، إلا ان حجـي محمد يقول انها جامع. ورغـم وجود عدة مئات مـن هـذه الأكـواخ، إلا انـه مـن الصـعوبة بمكـان ان تشـاهد شخصًا واحدًا ولم يبدي اي شخص اهتمامًا ولو طفيفًا بوصولي، كـان هناك بئرًا صغيرًا في المرج المربع يستخرج منه الماء لاستخدام القوافل.

تم تثبيـت حـبل بوتـد عـلى الأرض ليشـكل ثلاثة اضلاع من مربع، حيث ربطت بغـالي بـه لقضـاء الليل، وتركـت سـروجها الكـبيرة فـوق ظهورهـا، لقـد ادت هـذه العادة السيئة والقاسية بان تعاني جميع حيوانات القوافل في الشرق بشكل فاحش من قروح في ظهورهـا نتـيجة الأحمـال الثقـيلة والعمـل الشـاق وبشـكل خـاص نتـيجة السـروج الثقـيلة اللعيـنة الـتي توضـع عليها بطـريقة سيئة. مـن المستحيل ان تقنع سائق البغال ان ينـزل هـذه السـروج لـيلاً، لأن هـناك عـادة ممـتدة إلى الماضـي البعـيد تقضـي بترك هـذه السروج فـوق ظهورها، ومن المستحيل ايضًا إقناعه بان اي تـرتيب آخر هو الأفضل. وجوابهم هو ان لـدى هـذه الحـيوانات قـروحًا على ظهورها، وان نـزع سروجها سيصيبها بالبرد. وهكذا توجـد القـروح عـلى ظهورها إلا انها تعود إلى السروج، فلو تم إنـزال هـذه السـروج من على

ظهورها كل ليلة منذ بداية الرحلة، فإن ظهورها ستصبح اصلب والقروح بطيئة في التكوّن. وعند اقتراب نهاية الرحلة، اصبحت ظهور بعض بغالي سيئة الحظ متقرحة جدًا بحيث شعرت باني شيطان من القسوة لو واصلت استخدامهن. إلا انه لا حل لذلك. فليس هناك حيوانات اخرى يمكن شراءها ولا استطيع ان اخيّم مدة اسبوعين في الصحراء لحين تحسنها.

لا يفكر رجال القافلة البتة في هذا الموضوع، فهم معتادون جدًا على المنظر بحيث اني اعتقد انهم لو راوا بغلاً او حمارًا دون قرحة في ظهره، فإنهم يعتقدون انه صنف جديد من الحيوانات.

تم نصب خيمتي بعد ذلك قرب البغال، وبعد تناولي لوجبة طعام اقتصادية مؤلفة من الدجاج والخبز والتمور، ذهبت إلى النوم، ورغم الرنين غير المنقطع لأجراس البغال ونباح كلاب القرية، حصلت على نوع من الإغفاءة.

وعند الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي، وعندما كنت أحضر لنفسي كوبًا من القهوة، سمعت صوتًا خشنًا خارج باب خيمتي يقول: "ياالله، صاحب". كانت هذه إشارة حجي محمد لنا بالرحيل، وبعد ان سمعت ذلك مباشرة بدات بفك حبال خيمتي استعدادًا لتقويضها. وبعد ذلك طويت فراشي في حين هب الرجال لرزم خيمتي وارتشفت قهوتي بينما كانوا يحملون الحيوانات ويربطون التخت الثقيل على البغال.وعند الساعة السادسة والنصف كان الجميع جاهزين وانطلقنا. كان هناك في الليل وابلاً كثيفًا من المطر بينما كان الصباح مليئلاً وغائمًا، ولكن كان كل شيء يبدو لطيفًا وجميلاً اثناء سيرنا عبر السهل. كان الريف الذي نمر به الآن مشابه إلى مثيله الذي مررنا به في اليوم السابق، وعلى مسافة، استطعنا أن نميز تلال ابنية منخفضة. كان يتواجد في بعض هذه التلال الاصطناعية التي تميز المواقع الأثرية

القديمة المنتشرة هنا وهناك والقرى المشابهة لسمات قرية جبرين، قطيع من الأبقار او الأغنام المبقعة، وتمر فيها بشكل عرضي قافلة من الجمال تواصل مسيرها إلى حلب، وطيور كبيرة قليلة تشبه مالك الحزين الضخم، كانت هذه الأشياء هي الوحيدة التي تكسر رتابة الطريق. كان احد هذه التلال ذا حجم كبير جدًا، وهو لا يقل عن حجم تل القلعة في حلب، وعند الساعة العاشرة مررنا بالقرب من قاعدته، وفي الحادية عشرة والنصف عبرنا نهرين صغيرين متجهين نحو الجنوب. وعلى بُعد اميال قليلة على يميننا يوجد منخفض تقع فيه بحيرة الملح التي تسمى السبخ او كما يسميها رسل سبخة الجبول، وجبول هو اسم القرية التي تقع على حافته. وقد وصف هنري موندرل، القس التابع لمركز حلب في نهاية القرن السابع عشر هذا المكان الغريب في ملحق إحدى كتبه عن الرحلات بقوله: "إنه بعرض مسيرة ساعتين او ثلاثة وذو مستوى واحد ويبدو من مسافة كانه بحيرة من المياه.. تجف المياه في حرارة الصيف، وعندما تسفح الشمس الأرض، تتخلف طبقات من الملح، حيث يتم جمعها وتكديسها بأكوام متعددة حسب درجة نقاوتها، بعضها يكون ناصع البياض، واخرى يشوبها الوحل.. وعلى طول احد جوانب الوادي باتجاه جبول، هناك شفير صغير بعمق قامة رجلين تكوّن بسبب الاستخراج المستمر للملح من هذا المكان.. في جيبول، يتم الاحتفاظ بمستودعات الملح، حيث تجد كما يمكن ان اقول، جبالاً كبيرة من هذه المادة جاهزة للبيع. وهذا الوادي مقطع باللزمة لصالح سكنور الكبير (Grand Signor) بمبلغ قدره ١٢٠٠ دولار في السنة. واعتقد بانه ياتي من جيبول جميع الملح الوارد إلى حلب في الوقت الحاضر.

وعند الساعة الثانية والربع وصلنا إلى دير الحفر وهي قرية تقع في أسفل تل اثري قديم وفي وسط سهل عبارة عن مرج اخضر ناعم. وإلى الغرب قليلاً من القرية،

هـناك دار ذات مـنظر جميل وبالقرب منها قليل من الأشجار تبدو كالصفصاف. وهذه الـدار هـي مقـر إقامـة عـدد مـن اهـالي حلب الموسرين. وكانت ترعى نصف دزينة من المهور امام القرية.

نزلنا في خان بانس، حيث خصصت لي غرفة، كان فيها مفتاح وقفل إلا انها من جوانـب اخـرى اسوأ مـن بيت إنكليزي للأبقار. كانت هناك فراغات في الشبابيك، إلا ان جمـيع لـوازم الغـرفة غـير موجـودة، وكانـت تقـيم في السـقف الخـرب والقـذر مستعمرة كـبيرة لطـيور السـنونو. إلا ان السـكان هـناك، كـانوا متحضـرين وكـرماء، وعـندما طلبـت بعـض الحليب، جلـب لي فروي شاب ذو وجه حسن شرابًا منعشًا رفض ان يأخذ مقابلـه اي مال. ونتـيجة تحسبي لفطور اليوم التالي، اشتريت ببيزا واحدة (٢ بنس) تسع بيضـات، حيث جعلـت محمـد يسلقها جيدًا بحضوري في زريـبة صـغيرة تمـثل مطبخًا للخان.

وبعـد ان تناولـت طعامي، اخذت اتمشى مع "الدرك" المرافق لي حيث تبادلت معه احاديـث قصـيرة. كـان رجـلاً مضحكًا ذو وجـه كـثيف الزغـب، وهـو بملامحـه اشبه بقوزاقـي مـنه إلى عـربي، ويـرتدي كمعظـم هـؤلاء الـرجال زيًـا نصفه بـالي والنصف الآخر مدني. وعلى راسه بالطبع، الكوفية المعتادة. لقد وجدته رجلاً بسيطًا، نمطًا طيبًا مـن الشـباب، إلا انـني لم أفهـم مـن عربيـته إلا القليل، حيث بعثرت جميع مفاهيمي التي اعـرفها عـن هـذه اللغـة. فهو يلفظ "كـثير" بصورة (جتير) و"كـلب" بصورة (جلب). إلا انـني قـد وجدتـه بارعـا جـدًا في اسـتعمال يديـه لإفهـامي بالإشارات. لقد اخبرني بانه قد رافـق إنكليزيًا ومترجمه في هذه البلاد قبل عدة سنوات. كـان الإنكليزي رياضيًا ورجلاً مدهشـا لأنـه اصـطاد اربعـة خـنازير بـرية بإطلاقـة واحـدة، حيـث مـرت الرصاصـة بسـرعتها في رؤوس هـذه الحيـوانات. واضـاف "الـدرك" انـه كان لديه كلب صيد اسود

انطلق بسرعة وجلب الصيد. ولغرض توضيح هذه القصة لي، وضع اربع من الحصى الصغير بخط مستقيم ليمثل الخنازير، وركلهما فجاة جميعا بعصاه ليمثل قتلها في وقت واحد على يد الرياضي.

وعند عودتي، ولعدم وجود شيء آخر يمكن ان افعله، جلست مع غليوني، اراقب ما يدور في فناء الخان. كانت بغالي الستة مشغولة بعلفها وهي مربوطة بحبال، وكان الفلاحون الخشنو المظهر منشغلين برعاية خيولهم ذات القروح المؤسفة على ظهورها. ومن المطبخ الزريبة، حيث يُعد الطعام البسيط لرجالي، تصاعد دخان اسود كثيف، جعل هواء الفناء مزعجًا اكثر، رغم اني كنت آمل ان يفعل هذا الدخان مفعول المخدر لبعض الحشرات التي اتوقع ان تكون في غرفتي. وعندما دخلت الغرفة في الليل، وجدت ان ظنوني كانت صحيحة، ولم اكد استلقي لمدة لا تزيد عن عشرة دقائق حتى كان عليّ النهوض ونشر بودرة كيتنكر المضادة للحشرات بالجملة. لم اجد هذه البودرة فعّالة جدًا وقضيت ليلة دون نوم. وفي الواقع، لم انظف فراشي من هذه الحشرات طيلة فترة اسبوع تقريبًا، وباستثناء ليلتين في مدينة الدير، لم انم في خيمتي طول الفترة المتـ قية من رحلتي إلى بغداد.

قبل ان اواصل الحديث عن رحلتي، قد يبدو من الممتع ان اعطي وصفًا للتخت روان العائد لي ونظام السفر الذي حظيت به. التخت روان هو عبارة عن صندوق مربع الشكل بطول ستة اقدام وبعرض ثلاثة اقدام وتسع إنجات. مصبوغ باللون الأزرق باستثناء السقف، حيث كان احمرًا. فيه شبابيك زجاجية من جميع الجهات تحميها من الخارج قضبان حديدية نحيفة، ضرورية للغاية عندما يشق المرء طريقه عبر اشجار الطرفاء الخفيفة على حافة النهر وفيه بابين، باب واحد في كل جانب. وفي الداخل عند الطرف الذي يلي البغل الرئيسي، هناك رف، يمكن وضع التبغ او وجبة خفيفة او

كتاب او كتابين عليه، واسفل الرف هناك فراغ كاف يمكن وضع سلة او حقيبة فيه. وفي كل طرف من الخارج هناك زوج من الأعمدة تنتهي بحلقات كبيرة. تكون البغال التي تحمل التخت مزودة بسروج كبيرة، هناك في كل جانب منه كلابًا كبيرًا. لغرض وضع التخت على الحيوان، يتم رفع التخت من قبل اثنين من الرجال ويوضع الحيوان بين العمودين وتلقى الحلقات في الكلاليب، وهكذا يتم تعليقه. ثم تثبيته بعد ذلك بحبل مربوط في احد الأعمدة ويمر فوق السرج ويربط بالعمود المقابل بإحكام.

جرى صنع التخت بمتانة عالية وصلابة سخيفة ووزن قاسي على هذه الحيوانات المسكينة. إن تصميمه ليس سيئا، إلا انه يمكن صناعة عربة مشابهة وبنفس المتانة ولكن بنصف هذا الوزن.

كان نظام اليوم كالتالي، عند بزوغ اول بصيص للفجر، يوقظني حجي محمد، واثناء إعدادي لقهوتي أو لشراب الكاكاو، تقوض الخيمة، ويطوى الفراش، ويرزم كل شيء على ظهور البغال، يعلّق التخت بعد ذلك، ثم يقدّم الحجي لي ركبته كي اصعد إلى داخل التخت ثم ننطلق وقت اول بزوغ للشمس بصورة عامة. وفي الداخل، احاول ان اتخذ وضعا مريحًا قدر الإمكان طيلة النهار. وُضع على ارضية التخت لحافًا محشوًا كي تكون الأرضية اكثر يسرًا، وعند ظهري كانت هناك لفّة فراشي. كانت معي ايضا حقيبتي الكلاوستونية وفيها بعض دفاتر الملاحظات والكتب. من الضروري بالطبع موازنة التخت، كي لا يكون الوزن الأكبر على احد جوانبه دون الآخر بشكل غير منتظم. وبعد اتخاذي لوضع الجلوس المريح، انهي إفطاري المكوّن من الخبز والبيض المسلوق وربما التمر ايضا، ثم اضم نفسي إلى ركبتي التماسا للدفء ومعي غليوني ودفتر ملاحظاتي، وبين القراءة والكتابة وربما الإغفاءة، ارتاح قليلاً حتى الساعة

العاشرة او الحادية عشرة عندما اخرج لأتمشى لساعتين. وعندما اعود، افتح سلتي واتناول غدائي من لحم الدجاج البارد (إذا كان لدي منه شيئا) والكثير من التمر. وفي وقت معين بعد الظهر، بحدود الواحدة او الثانية بشكل عام، نصل إلى مكان نصب خيامنا حيث تنشر وتنصب الخيمة، وبعد اخذ حمام باذخ في ماء الفرات المضطرب اتمشى قليلاً قبل العشاء، الذي اتناوله بحدود الساعة الخامسة، يتكون عشائي الذي يطبخه موضع الثقة الحجي، من الرز او الشعرية والخبز والتمر والدجاج إذا كان لدي شيئا منه. لقد استطعت الحصول على النعيم الأخير اي لحم الدجاج خمس او ست مرات خلال الرحلة، ففي هذه المناسبات بشكل عام، اشتري اثنين او ثلاثة واطبخها جميعا مرة واحدة. وبعد العشاء، ادخن غليوني ثم اذهب إلى فراشي بحدود الساعة السابعة والنصف او الثامنة.

إن حركة التخت ليست سيئة كما قد يتصور البعض. من المؤكد انه يتمايل إلى حد كبير (حيث يشعر الأوروبيون الذين يصعدون فيه لأول مرة احيانا بدوار البحر) لكن باستثناء السير على ارض وعرة، ليس هنالك ذلك الارتجاج الذي يحصل في العربة ذات العجلات، ولكون المرء يستطيع ان يستلقي فيه بكامل طوله فإنه يكون مريحا اكثر. ورغم وزنه الكبير إلا ان البغال لم تعثر مطلقا ولكن عند عبور الأنهار او صعود المنحدرات الحادة فإن الارتجاج يكون سيئا للغاية. وإذا كان الطقس حارا، فإني افتح الأبواب والشبابيك واسحب الستائر، وإذا كان باردا، كما يحصل ذلك احيانا في بداية الصباح، فإني اغطي نفسي بدثار غليظ واغلق جميع الأبواب والشبابيك. اما نظام السير فهو الآتي: تسير البغال الأربعة التي لا تحمل التخت بل امتعتي الثقيلة واكياس العلف في المقدمة باعنتها المزينة بالقواقع والأصداف الصفراء المخيطة عليها باشكال معينة.كان هناك بغلاً رماديا صغيرا يسير دائما خلال الأسبوع الأول من الرحلة في مقدمة الجميع بمسافة مائة ياردة. وإذا ما سبقه الآخرون، فإنه ينطلق بهرولة

لاستعادة اسبقيته على الجميع، إلا ان المسكين الصغير قد اكتشف حماقة ما يقوم به، وفي غضون عشرة ايام كان متزويًا كباقي الحيوانات. لا تتبع البغال المحملة بالأمتعة اي نوع من الأنظمة وغالبًا ما تتجه إلى مسافة معينة يمينًا او يسارًا عندما تشاهد بقعة جميلة من العشب لتلتقطها. ثم يأتي واجب سائق البغال لحثها على الإسراع. عادة ما يمتطي هذا الشخص حمارًا صغيرًا ينظم سرعته واتجاه سيره باستخدام إبرة رزم كبيرة يحملها معه متدلية من حزامه. ويعتبر مهماز إبرة الرزم هنا شائع الاستخدام جدًا لدى سائقي البغال والحيوانات الأخرى في تركيا، وقد يبدو استخدامه لهذا الغرض فيه شيء من الوحشية للوهلة الأولى بالنسبة لنا. ومن المؤكد انها ليست اكثر من مهماز او منخس ولا استطيع القول انني قد رايتها استخدمت بشكل مفرط. لا ريب ان شيئًا من هذا القبيل ضروري لدفع الحيوانات المتعبة لتلحق بالقافلة.

بعد ان تصل البغال وسائقيها إلى "عربتي الرسمية" بكل فخامتها، يتقدم السائسين إلى مقربة من رؤوس البغال حيث يقوم "الدرك" المرافق لي بإنهاء العملية وهو ينفث سيكارته متلفعًا بعباءة وشال كما لو انه في المناطق القطبية الشمالية.

ربما تكون شخصية وزي رجالي مثيرة لبعض من الاهتمام. فبخيت، سائق البغال هو رجل نحيل إلا انه قوي ووسيم من الطراز العربي الخالص، الذي ربما لم يتخلى اسلافه عن الحياة البدوية للصحراء منذ زمن طويل. وبشكل عام هو رجل طيب جدًا وراضي عن مهنته ككترجي قوافل (مكاري)، ولكن كما هي الحالة دائمًا عند السفر مع خدم من العرب، فإن الرئيس هو الذي يخلق كل المشاكل. كان يرتدي كوفية هي عبارة عن منديل من صنع مانشستر بلون وردي وابيض، مثبتة على الراس بعصابة بنية داكنة (عكال)، ويرتدي ايضًا قميصًا ازرقًا مفتوحًا من الأمام من جهة الصدر ومثبت عند الخصر حيث تتدلى منه سكينًا وإبرة الرزم، للقميص اكمام تمتد

إلى الرسغ وتحت قميص داخلي بني. وعلى هذا القميص الأزرق، يرتدي بخيت سترة حمراء جميلة مفتوحة على طولها من الأمام وتصل إلى الركب. اكمام هذه السترة قصيرة تصل إلى المرفق فقط، وهي مطرزة بشكل رائع بخطوط من الألوان الأصفر والأبيض والأزرق والأخضر. كان لون الجانب الداخلي من هذه السترة المقابل للجسم ابيضا. وهناك تطريز مشابه ايضا على ظهر هذا الرداء يمتد إلى الأسفل ليصل إلى نقطة معينة، وكذلك على الصدر ايضا على شكل اشرطة تمتد إلى الأسفل. ويكمل هذا الزي الرائع زوج من الأحذية الحمراء الكبيرة.

إن اسم بخيت هو تصغير لـ (بخت) وتعني (الحظ الصغير او القليل) ولا استطيع القول ان هذا الاسم ينطبق تماما على سائق البغال هذا.

كان حجي محمد، كبير السائسين وخادمي الخاص، رفيقا ممتازا. له ملامح طفولية تنم عن الصراحة والشرف، شرف الشرقي في كل مجال. لديه شجاعة الأسود وتحمل بغل من بغاله. كان فخورا جدا بكونه قد زار مكة، وهو في الواقع رحالة كبير، يعرف جيدا جميع طرق القوافل في تركيا وفي آسيا. لقد خدمني بإخلاص طيلة الأسابيع الثلاثة ولم يخدعني مطلقا بأكثر من خلطه للرز العائد لي الذي كان ذا نوعية جيدة بالرز العائد لهم ذي النوعية الرديئة لإعداد وجبة (بيلاف) كبيرة وإعطائي حصتي من هذا الخلط. لهذا إن افعال حجي محمد وجميع ما قام به تستحق كتابته في الفصول التالية لأنها تكشف عن جزء من رحلتي إلى بغداد. يتكون لباس حجي محمد من ملابس داخلية مشابهة إلى ملابس بخيت. وسترته بنية ذات اكمام مطرزة وفيها أشرطة بيضاء وزركشة حمراء. والتطريز الذي عليها اكثر غزارة من تطريز سترة سائق البغال. وامام كل كتف من اكتافها ثلاثة اشكال صغيرة على شكل وردة بالوان احمر واصفر وازرق واسفلها تماما ثلاثة اخرى مشابهة لها. وهو

يرتدي ايضًا سروال داخلي أزرق طويل تدخل أطرافه السفلى بجوارب زرقاء مطرزة يلبس عليها الخف الأحمر المعتاد. كما يلبس كوفية زرقاء وعقالاً ابيضًا.

كان حمادي، مساعد السائس عربيًا صغيرًا بسيطًا مسالمًا، وميزته الحسنة إذا كانت تلك ميزة حسنة هي جزله المستمر الذي يدفعه دائمًا إلى الانطلاق باغنية تطوعية. وتسبب هذه الأغنية التطوعية التي تثير دون شك في نفس كل من يفهمها عاطفة رقيقة عميقة إلى حد ما في بعض الأحيان إزعاجًا لي كونها تتواصل دون انقطاع على مدى ساعات الليل والنهار. لا يبالي حمادي إذا ما مشى تحت حرارة الشمس اللافحة وسط الصحراء لثمان او تسع ساعات، ثم يجلس بعد ذلك طيلة الليل أمام نار المخيم ويسلي رفاقه باغانيه المطربة والمبهجة والتي يبدو لي انها تمتد من شروق الشمس إلى غروبها. وهو يرتدي سترة بنية غامقة فيها خط اخضر في الباقة مع شريط ازرق يمتد إلى اسفل خط الالتحام على الكتف. وهناك ايضًا اشرطة بيضاء في المقدمة تمتد إلى الأسفل امام الأكتاف وتحت الذراعين. وهو يرتدي ايضًا قميصًا اسوذا وسروالاً ابيضًا وكوفية تشبه كوفية بخيت.

كان الصباح الذي غادرت فيه دير الحفر مثاليًا. فالسهل كان زاهيًا باعشاب ذات زهر اصفر (الحوذان)، وتؤدي القبرات ترنيمات جميلة بينما تثب السحالي النشيطة في كل الاتجاهات على المرج. وحالما اجتزنا القرية، عبرنا نهرًا صغيرًا وبعد ساعتين دخلنا في سهل تمت زراعة قطع صغيرة فقط منه. وبعد ذلك بوقت قصير، مررنا بجانب تلال كبيرة يسميها (الدرك) المرافق لي بـ (مادوم). ثم تتضاءل الأراضي المزروعة شيئًا فشيئًا حتى نجتازها جميعها وندخل في سهل شعبي متموج قليلاً، الذي هو في الحقيقة الركن الشمالي لما يسمى بشكل عام بـ (الصحراء السورية).

وبيـنما كنـت اتمشـى صـباحًا كالمعتاد، نخسـت بعصـاي زاحفًـا رماديًـا صـغيرًا، كنـت اعـتقد مـن خـلال الوضـع الـذي يـتخذه انـه ميـت. كانت سحلية صغيرة بطول حوالي ستة إنجات وننب كذنب الجرذ وسيقان طويلة إلى حد ما وفم ذو عرض كبير قياسًا بحجم الحيوان[1]. ولدهشتي الكبيرة، فإنـه بـدلاً مـن ان يسرع للدخول في مغارتـه، فإنـه اسـتدار واخـذ يهاجم عصـاي بحنق شـديد، ويقفز بوثبات طائرة بارتفاع ستة إنجات وهـو يعضّ في كـل مـرة الحلقـة المعدنـية المطوقـة لطـرف العصا؛ ويتوقف لثانـية علـى الأكـثر بـين كـل وثـبة واخرى. وإذا ما رفعت طرف العصا بعيدًا بحيث لا يتمكن مـن الوصـول إلـيه، فإنـه يجـثم محملقًا بغضب، وينتظر حتى اقرّب منه العصا، كـي يثـب علـيها. وبعـد ان وجـد انـه لم يؤثـر على العصا، استدار على حذائي. إن إقدام هـذا الحـيوان الصـغير هـو حقًا لافـت للنظر، وقد حاولت تصويره بآلة التصوير اليدوية التي احملها، إلا ان النتيجة كانت فاشلة.

وبعـد ذلـك ظهـر فجاة ثلاثة من البدو على قمة تل، يركضون باقصى طاقتهم وبحالـة شـديدة مـن الهياج. قالوا شيئًا معينًا لرجالي ثم مضوا. وبعد ذلك مباشرة راينا شيئًا اسودًا ملقىً علـى السهل، وبعـد ان ركض حجي محمد باتجاهه، عاد إلينا سريعًا بحَمَـل جمـيل جـرى ذبحـه تـوًا. كان الرجال الذين مرّوا علينا هم من لصوص الأغنام الذيـن تمت مباغتتهم وهم متلبسين بالجرم المشهود. قام رجالي، (سائق البغال والدرك) بمتابعـتهم في الحـال، وبعـد ذلـك بوقـت قصـير عـادوا ومعهـم المـتهم الـذي ارتكب الفعل. كـان شـابًا عربيًا وسيمًا بعمر الثامنـة عشرة الذي يشير قميصه الأبيض الرث وجدائلـه المظفـورة انـه احـد افـراد قبـيلة بـدويـة صـغيرة تقـوم باعمـال السلب. كان وجهه ويداه وملابسـه ملطخة بدم الحَمَل. وعندما جلبوه إلى التخت حيث اجلس، انفجر بفيض من

---

(١) الظاهر انه من صنف ابو بريص. (المؤلف).

الدموع، حيث كان يظن أني سأصدر الأمر بإعدامه فوزا. بعد ذلك ذهبنا إلى الفلاح الذي تعرضت قطعانه إلى السرقة، وسلمناه المتهم وغنيمته في يديه. كانت هذه المرة الأولى التي رأيت فيه أساليب وعادات الصحراء.

وعند الظهيرة، ألقينا أول نظرة على الفرات الكبير، وبعد صعودنا ومرورنا على بعض المرتفعات، وصلنا بعد نصف ساعة إلى الوادي الكبير. يتميز خط الحدود الفاصل هنا بين الصحراء التي قطعناها ووادي النهر الذي وصلنا إليه توًا، بوجود سلسلة من المنحدرات الطباشيرية، التي لا تعتبر بشكل عام شديدة الانحدار. يتراوح عرض السهل الذي نقف عليه من المنحدرات إلى النهر من ميلين إلى ميلين ونصف الميل، وهو مغطى على مدى البصر بالخيام السوداء وقطعان الأغنام والجمال والخيل التي تعود إلى القبيلة العربية الكبيرة عنزة، التي وصلت مؤخرًا قادمة من مضاربها الشتوية في الجزيرة العربية للانتشار في مراعيها الصيفية في الصحراء جنوب وشرق حلب. كان المنظر بالتأكيد مؤثرًا للغاية، وهو يذكّر بشكل حي بمشاهد ومقاطع من العهد القديم. وبعد نزولنا إلى السهل، سرنا على طوله، محتفظين بقربنا من المنحدرات وبجوار مخيم عنزة الكبير. انطلق (الدرك) بعدو سريع نحو إحدى الخيام، وعاد إلينا سريعًا بوعاء كبير من الحليب الطازج، يكفي لكل مجموعتي. كان هذا ترحيب العرب بقدومي إلى النهر الكبير. وبالطبع، لم يطلبوا أي مقابل، وإذا ما تم عرضه عليهم فإن عنزة سوف لن تأخذه، تعتبر عنزة أقوى قبيلة إلى حد بعيد بين وادي الرافدين وسوريا وتعتبر غاية الكرم[1]. كان العديد منهم يعدون على ظهور خيولهم وبأيديهم عصي من الخيزران بطول (١٥) قدم، وهم أفراد سمر نحيلين لكن أقوياء ذوي جدائل سوداء مظفورة. وقد

---

(١) للحصول على المزيد من المعلومات المثيرة عن عرب عنزة وبقية القبائل في وادي الرافدين والبلاد العربية الخاضعة للأتراك، انظر القبائل البدوية في وادي الفرات للسيدة آن بلنت. تقدر السيدة بلنت أن عدد أفراد عنزة يبلغ (٣٠٠٠٠) خيمة أو (١٢٠٠٠٠) شخص.

لاحظت بعض الطيور الكبيرة التي تحلق حولنا ويبدو لي انها نوارس. ولا اعلم فيما إذا كانت هذه الطيور قد جاءت من البحر المتوسط ام صعدت على طول النهر من الخليج، وتلك قصة غريبة.

وبعد ذلك مباشرة، انعطفنا على ركن منحدر لنجد انفسنا على مقربة من عدة مباني يسميها رجالي (مسكينة) حيث قالوا ان فيها خانا وحصنا صغيرًا يتمركز فيه عدد قليل من الجنود او الشرطة، تقع مسكينة بالقرب من النهر وتعتبر الميناء المفترض لحلب إذا ما افتتح خط ملاحي في النهر. يقول رجالي، ان عليّ إما الذهاب إلى الخان او ان اضرب خيامي بالقرب من النهر. وقد اخترت الخيار الثاني، وسرعان ما تم نصب خيمتي على بُعد ربع ميل تقريبًا من الفرات وبالقرب من خيمتين عربيتين تعودان لقبيلة رعوية. وبعد كوب من القهوة وحمام، اخذت اتمشى على ضفة النهر. يبدو لي ان عرض النهر هنا لا يزيد عن نصف ميل، والتيار سريع جدا، والماء شديد الاضطراب. هذه هي حالة دجلة والفرات على امتداد جريانهما في السهل العظيم. لقد وجدت الماء عذبًا، ولكن لكي تحصل على شيء صاف منه، من الضروري إخراجه وتركيده لبعض الوقت قبل الاستعمال. واعتقد انه سيترسب من الوحل الأسمر الناعم كمية تملأ ثمن إنج في قدح. واسفل المكان الذي اقف فيه، يمتد لسان بري يقلل من عرض النهر إلى النصف. لا توجد منحدرات في هذا الموقع في جانب بلاد وادي الرافدين، بل إن الأرض مستوية قرب النهر وتعود لتتموج بعد ذلك. ويمكن مشاهدة سلسلة من التلال على خط مستقيم. واثناء ما كنت واقفًا انظر إلى النهر، قدم راع شاب لإرواء قطعانه. ليس لديه كلب، بل كان يتمشى امام حيواناته وهي خلفه تتبعه ويوجه تحركاتها باصوات مختلفة يبدو انها تفهمها. حاولت ان اتحدث معه، ووجدته يريد معرفة الأمة التي انتمي إليها وإلى اين اتجه. وقد اخبرني حسبما استطعت ان افهم انه من قبيلة فلاحية تدعى شاهر، وهو اسم لم اجده في قائمة السيدة بلنت للعشائر.

اشـتريت بعـض البـيض والحليـب مـن رجـل مـن الخيمـتين المجاورتين. وفي المساء نهضت فجاة عـلى صوت شجار كبير خارج خيمتي بين رجالي وهذا الرجل وزوجته وابـنه. انطلقـت إليهم ووجدت بخيت متربعًا منفرج الساقين على الفتى سيئ الحظ وهو يوالـي ضربه كالباخرة، في حين يومئ الرجل وزوجته إليّ ويصرخان ويستغيثان طلبًا للعـدل. تـبدو المعـركة والقـتل والموت المفاجئ عـلى وشـك الحدوث، وتدخلت بموجب ذلـك. كان النزاع حول سعر البيض، ولكني لم استطع ان اقدّم او اؤخر شيئًا في الموضوع، وكنت مسرورًا عندما اخذ الشجار يهمد وقام العرب بالرحيل.

وفي اليـوم الـتالي اجتزنا بعد ساعة من بداية السير، آثار بالبس او قلعة بالبس التي تـبدو بـارزة عـلى قمة المنحدر. كل ما استطعت ان اراه من على مسافة ميل تقريبًا هو قلعـة عالـية ومـنارة عربـية مثمـنة مهيـبة. كانت بالبس في السابق مكانا مهمًا وميناءً لسـوريا (وهــي نفسـها "باربـار يــبوس" في زمــن بطلـيموس و"بارباليسـوس" في الــواح ثـيودوروس). ويقـال أن السهل المحيط بها هو جنينة او متنزه المرزبان الفارسي لباليس الـتي دمّـرها سابروس الأصـغر. ويعيـنها بنـيامين الـتودو لـي بانهـا (بيـثور او يـثورا) المذكـورة في سفر العدد وسفر التثنية، وعندما زارها في عام ١١٦٣م، كانت تضم عشرة مـن الـيهود. وقـد فـتح الصليبيون بقيادة تانكـرد المديـنة في عـام ١١١١م. والآثار الموجودة حالـيًا هـي عـبارة عـن مـزيج مـن البـناء الـروماني والعـربي. يجـري الـنهر الآن عـلى بُعد بضـعة اميالٍ من المنحدرات الـتي تقع عليها هذه الآثار، ولكن من الواضح ان قاعدة هذه الأرض المـرتفعة كـان يغسـلها في زمـن مـا الـنهر او الأكثر احتمالاً كما يرى إينسورث فـرعًا مـن النهر، يرتبط ثانية بالمجرى الرئيسي للنهر في نقطة تقع إلى الجنوب من ذلك. وعلى هذه الأرض المستوية، شاهدت آثار عدة قنوات قديمة.

وبعـد اجتـيازنا لبالـيس، سـرنا عـلى طـول السـهل، احـيانا تحـت المـنحدرات الطباشيرية مباشرة واحيانا اخرى على مسافة بعيدة منها. شاهدت على قمة المنحدرات طبقة مـن الحصى القاسي او الصخور المشظاة، وفي موقـع او موقعين من سطح المنحدر هناك حفـريات لـها مظهـر القـبور القديمـة. كانـت هـناك طيور عديدة - كالغربان والصقور الكبيرة ونسـر او نسـرين - ترفـرف حولـنا او تحـط غالبًا قرب القمة. يوجد في السهل الذي نسير عليه اعـداد كـبيرة مـن الشجيرات الخفـيفة كنـبات الطـرفاء الـذي سارى منـه الكـثير قبل ان اصل إلى مقصدي. وبعد حوالي ثلاث ساعات ونصف، اختفت المـنحدرات وحـلّ محـلها ارتفـاع طفـيف للسـهل الـذي يجـري فـيه الـنهر عـن الأرض الصحـراوية. وهـنا تـركـنا الـنهر، وبعـد قطع مسافة من الصحراء لتفادي انحناءة النهر، دخلـنا ثانـية إلى الوادي وبعد ذلك بوقت قصير ضربنا خيامنا لقضاء الليل في مكان رائع بجانـب تـل قديـم يسـمى الشـيخ غـني ومقـابل جزيـرة تقسـم الـنهر وتظللـها شـجيرات خفيضة.

وفي اعـلى الـتل القـيم حصن من الطين بنته الحكومة التركية ووضعت فيه عدد قليل مـن الشرطة او الجنود، إلا ان هـؤلاء اخذوا يشغلون خيمة قرب قاعدة التل. وقد اشـار لـي الـرجل الكبير المكلّف بالاعتناء بالمكان من على قمة التل للنظر نحو قلعة جابر، وهـي قلعـة ومـنارة تكلـل راسًـا بريًا شديد الانحدار في الجانب المقابل من النهر وتقع هذه عـلى بُعـد مسافة شرق الشـيخ غـني، ويجـري الـنهر هـنا بذلـك الاتجاه وقال لي أنه على الضـفة اليمـنى خلـف بعـض المـنحدرات يقـع اثـر ابو هريرة. وقد اشتريت من هذا الرجل الوقـور حمـلاً قدمـته لـرجالي، حيـث جهـز لـي حجـي محمـد منـه عشاءًا مناسبًا من الرز وراس الحمـل (وهـو وجـبة طعـام شـهية بـنظر العـرب). اخـذ الجـو يتـغير في الحال، فكان الـنهار دافـئا والمساء الآن جميلاً. وكـان القمـر عنـد ارتفاعه ذا لون بـرتقالي عميق ويظهر مشوّه الشـكل بشـكل غـريـب، وعـندما كـان يـرتفع تدريجيًا ملقيًا بظلالـه القاتمـة على

تلال الصحراء ومنيرًا النهر الهادئ، كان المنظر جميلاً ومهيبًا إلى حد غريب. كان الصوت الوحيد المسموع هو العواء الكئيب لمئات من ابناء آوى في الجزيرة على الضفة المقابلة وصوت الغوص المتكرر لسمكة كبيرة في النهر. لقد مرّ وقت طويل منذ ان تركنا مخيم عنزة، والآن تعتبر العلامة الوحيدة للحياة البرية إضافة إلى مخيمي الصغير، هما الخيمتين المنصوبتين قرب قاعدة التل.

وفي الصباح التالي، بعد نوم ليلة هادئة، غادرنا في الساعة السادسة نشق طريقنا عبر سهل مزروع هنا وهناك على شكل قطع متفرقة. وبعد مسيرة ساعة، وصلنا ثانية إلى منحدرات هي الآن من الجبس والمرل (طين غني بكربونات الكالسيوم)، يُشاهد على قمتها برجًا مستديرًا، ربما يكون الأثر الوحيد المتبقي من جامع مهدّم، واعلى منه قليلاً هناك اثر آخر. وهذا الموقع هو ابو هريرة الذي رايته في اليوم السابق من منطقة الشيخ غنى. ربما تكون الزراعة التي رايتها من اعمال (ولد العرب) كما يذكر إينسورث. إلا ان السيدة آن بلنت قد شاهدت هنا آثار اكواخ طينية، بنيت على انها من اعمال احد الباشوات الرواد الذين ارادوا حث بعض افراد عنزة للتوطن هنا كفلاحين. ويبدو ان التجربة قد فشلت.

وفي خلال نصف ساعة، سررت بإلقاء نظرة على القلعة الجميلة المسماة قلعة جابر على الجانب الواقع في بلاد وادي الرافدين. لهذا الأثر، مظهر لافت للنظر فهو يحتمل منحدرًا منعزلاً مربع الشكل كما قد اراه، بينما يكون الجانب المقابل إلى النهر شديد الانحدار عند القمة. تعلو المنارة العالية فوق التحصينات وتقع بين قاعدة المنحدر والنهر غابة من الأشجار الخفيضة.

لقد ذكر كل من بنيامين التودولي عام ١١٦٣م وابو الفداء في القرن الرابع عشر قلعة جابر. ويبدو ايضًا انها ذكرت بتواريخ متعددة بأسماء مثل دوسر ودوسرا من

قبل (ستيفن البيزنطي) ودوسوس ودابانـاس. لقد ارتبطت عدة احداث تاريخية بهذا المكان، ويذكر إينسورث ان هذه المقاطعة تضم قلعة جابر واثر ابي جابر القريب منها ودير المحارز (الذي يذكره بنيامين التودولي باسم سبلا مدبارا ويصفه بانه يضم في زمنه ٢٠٠٠ من اليهود) وابي هريرة الذي كان في وقت معين مركزا لتجمع سكاني كبير.

وبعد انعطافنا حول قاعدة هذه المنحدرات، دخلنا إلى الصحراء تاركين النهر بنزولنا إلى وادي فسيح، والواضح انه كان في اوقات معينة مجرى لسيول جارفة، واثناء مروري في هذا المكان، شاهدت ركائز حجرية مستديرة وشبه مستديرة كالتي نصادفها في الأرياف التي تكثر فيها المستنقعات بشمال إنكلترا او اعتقد ان عمرها يمتد إلى عصور سحيقة في القدم. من غير المحتمل ان تكون هذه الركائز ذات اصل عربي، ولكن عمرها واستخدامها مسالة تقديرية. ثم مررنا عبر ركن من الصحراء، والذي كان صخريا ووعرا جدا وهناك القليل من الشجيرات النامية فيه وفي غضون ساعة ونصف عدنا ثانية إلى السهل الذي يمر به النهر حيث حصلنا ثانية على الحليب بكرم من مخيم لبعض العرب الذين يدعون انفسهم بعرب (الرايح). فهناك عدد كبير جدا من الأغنام حول خيامهم، إلا اننا لم نشاهد اي خيول.

كنا نمر خلال النهار بين الحين والآخر بعدد قليل من القرويين. وقد حيا رجالي الثلاثة بحرارة احد الرجال الذي كان يرافق مجموعة صغيرة من الرجال مع بغال قليلة، ويبدو ان هذه المجموعة هي عبارة عن مسافرين متجهين إلى حلب، حيث عانقوه رجالي وقبلوه على خديه مخاطبين إياه على انه عمهم. وهو يشبههم من حيث انه عربي يعمل مع القوافل، وهو من اهالي بغداد. وبالقرب من هذا المكان، رايت على الجهة اليمنى على ارض مرتفعة، رجلين يبدو لي من خلال زيهما انهما من الأوروبيين.

ولسوء الحظ، كنت اسير في جزء سيئ من الطريق بحيث لا استطيع ان اترجل عن تختي او حتى إيقافه، لهذا تركناهم خلفنا في الحال. على اية حال، علي أن اعترف بأني قد ارتكبت خطأ إذ اني لم التقي باي قافلة على الطريق.

يقع الجزء الأخير من مسير هذا اليوم في أرض صخرية وعرة حيث يمتد الطريق عبر روابي وتلال تكسر استواء الصحراء عند حافة السهل النهري. إن السير بتخت على هذا النوع من الأرض يعتبر امرًا غير سار، حيث يتدحرج شاغله سيئ الحظ بدقيقة واحدة إلى مؤخرة العربة، ثم تجده بدقيقة اخرى ينزلق إلى الأمام بقوة عندما تصعد البغال مرتفعًا صغيرًا وتنزل من منحدر حاد على الجانب المقابل. ويشبه تناول الغداء داخل التخت تحت مثل هذه الظروف تناوله والمرء يسير في خليج بسكاي باستثناء انه لا توجد في التخت أدوات لوقاية الأواني من الانزلاق عن المائدة كما هي في السفن. وعند الساعة الواحدة والنصف، تم نصب خيمتي في مكان جميل بالقرب من النهر يسمى (الحمام) رغم اننا لم نشاهد امامنا لا خيمة ولا بناية من اي نوع. تاخذ الأرض من هنا بالارتفاع بشكل منتظم بينما تكون حافتها الأخرى الواقعة على مسافة قصيرة من النهر عبارة عن منحدر منخفض. وقد وجدت اثناء تجوالي على الأقدام العديد من احجار الصوان المصنوعة دون إتقان (ربما تكون من آثار ذلك العصر الحجري المدهش الذي يبدو انه موجود في كل مكان)، وكانت الأرض مغطاة بازهار السحلب الزرقاء الجميلة وعند عودتي، جاءني (الدرك) جميل الذي رافقني من حلب، قائلاً انه سوف لن يرافقني خلال ما تبقى من الطريق، وقد جلب لي بديله، وعريف لا اعرف من اين، إلا إذا ظهرت الشرطة التركية في الصحراء كالعفاريت، وقد اثرت اهتمامهم جميعًا بعرض خرائطي ومسدسي امامهم. يحمل الشرطة انفسهم مسدسات جيدة رغم ان جميعها من صنع امريكي. كان الرجل الجديد شيخًا عربيًا وسيمًا، دون اثر لزي رسمي عليه ويبدو مظهره باستثناء المسدس الذي يحمله اكثر شبهًا بإبراهيم او هارون منه

بـرجل شـرطة. كانـت خـزانة حفـظ اللحوم العـائدة لـي فارغة ولا شيء من الدجاج أو اللـحم يمكـن الحصول عليه في الطريق، لهذا عليّ ان اقنع نفسي بمعلبات سمك السلمون للعشاء. لا شـيء في العـالم قـابل للأكـل اكـثـر بغضًا من معلبات سمك السلمون، إلا انني اكلـت مـا استطيعه ثـم ضيعت مذاقـه بشرب جرعة من اللبن، حيث استطعت لحسن الحظ أن أشـتري إنـاءًا منه. يعتبر اللبن شرابًا منعشًا ورائعًا بعد مسيرة طويلة في يوم حار. كانـت خطـتي دائمًا أن أشـتري إنـاءًا مـنه قـدر المسـتطاع، وبعـد ان اضـع جانـبًا ما يكفي لاحتـياجاتي الآنـية، اصب المتبقي منه في منديل واعلقه في حبل الخيمة، كي أترك الماء يسيل. والنتـيجة تكون حصولي على بديل ممتاز من الزبدة يجعل مذاق الخبز الجاف غير المستساغ والـذي تم خـبزه قـبل اكـثـر مـن اسـبوع، مذاقًا لذيـذًا مستسـاغًا. تشكل التمور وزبدة اللبن غذاءًا غنيًا يليق بملك.

* * *

الفصل السادس

تـواصـل الرحلـة

رحيل عرب عنزة - الهودج - الزي والسلاح - مشاهدة الرقة - العرب على الجلود المنفوخة - المدير افندي - عويل درويش - زوار غير مرحب بهم - الاستحمام في المياه العكرة للنهر وحصول نتائج سيئة - ضرب الخيام في منطقة اللصوص - الوصول الى الدير - الخان - وصف المدينة - فقرها - زراعتها - روه - السكان العرب - اهميتها السياسية - ظهور رجل انكليزي - لقبيمه لنفسه ومزاياه - جمع وقود الخشب - ظهور شخص يدعى اللون - الصحراء المروعة - الزوار - وصول الباشا - بطن حجي محمد المنلفخة - صلابة سائقي البغال

لأن مسيرة اليوم التالي هي مسيرة طويلة، لهذا قوضنا مخيمنا وبدانا الرحيل في الظلام عند الساعة الرابعة والنصف. حاولت ان اعد لنفسي كوبًا من القهوة، ولكوني نصف نائم، فقد قلبته في الظلام على سريري، وحالما غادرنا، ارتديت معطفي ولففت بطانية حولي، سرعان ما غطت في النوم ثانية، وبعد استيقاظي من نوم ساعة، وجدت اننا نسير في جزء مرتفع ومستو من الصحراء. وفي غضون ساعة اخرى دخلنا الوادي ثانيةً. وقد سرنا مدة خمس ساعات عبر سهل قاحل وفسيح جدًا، وعلى مسافة معينة على يميننا كانت هناك المنحدرات الكلسية. إلا أن مسيرنا لم يكن مضجرًا، كون السهل يعج بحركة دؤوبة لعنزة وهي ترتحل. حيث تمر من حولنا بتواصل

مجاميع من الخيالة على ظهور خيولها العربية النشيطة وتجري عند كعوب العديد منها مهورها، وهم يحملون على اكتافهم رماحًا، ويسوقون امامهم قطعانا كبيرة من الجمال غير المحملة. ثم تاتي بعد ذلك اثنان او ثلاثة من الجمال الكبيرة التي تحمل الهودج المثبت على ظهورها كبناء فوقي كبير يشبه عارضة الشراع في السفينة حيث يمكن تركيب واقي من الشمس عليه في الجو الحار، يجلس في هذه الهوادج النساء والأطفال. تلبس النساء، والتي يتسم بعضهن بالجمال الفائق، حلقات في انوفهن ويصبغن شفاههن السفلى بلون ازرق غامق او اسود. وجميعهن غير محجبات. وقد اشبعت غروري بالاهتمام الكبير الذي ابدينه بخصوص معداتي الخاصة بالسفر. لم يكن هناك اي تقييد لحريتهن من اي نوع، ورغم انهن يعشن حياة عمل قاسية بين قطعان الحيوانات، إلا انهن يشعرن بالسعادة والرضا وفي جميع الأحوال تقريبًا كن يتسمن بالبساطة. تعتبر بنية جميع الرجال صغيرة، إلا انهم نشطاء كالقطط، ولديهم قدرات كبيرة على التحمل. والوانهم في بعض الأحيان سمراء إلى حد ما، إلا انه تضيء وجوههم اسنان ذات بياض باهر. ولأنهم لا يستخدمون منظفات الأسنان الخاصة بالحضارة الحديثة وغذاؤهم هو من النشويات إلى حد كبير، من الصعب معرفة كيف يحافظون على مثل هذا الترتيب الجميل، لدى العديد من هؤلاء الرجال جدائل مظفورة طويلة تتدلى على جانبي وجوههم وجميعهم يرتدون كوفية مانشستر. وازياؤهم مختلفة. العديد منهم يرتدي فقط اسمالاً سوداء قليلة، بينما يمتلك آخرون العباءة البغدادية المطرزة. ويحمل العديد منهم بنادق ذات زناد حصوّن ومسدسات مثبت عليها نقوش من الفضة وسيوف ذات مقابض كالصليب. وآخرون يحملون فاسًا صغيرة غريبة الشكل، لها طرف كالكلاب على الجانب المقابل للشفرة او النصل او يحملون قضيبًا مكونا من عصا مستقيمة ذات عقدة ثقيلة من القار المركب على طرفها الذي يضرب به الخصم. ولا يعتبر اي من السلاحين سلاحًا مخيفًا. إلا ان الرمح

يعتبر السمة المميزة للقبيلة العربية الكريمة، بينما يكون انتشار استخدام البندقية بينهم اقل مما هو لدى القبائل الأصغر على ضفاف الفرات.

ورغم انني لم اكن اعلم بذلك، فقد مررنا في وقت معين من هذا الصباح بآثار سورية وهي مدينة (Thipsach) او (Thapsachus) او كما يصفها إينسورث (ممر الموت) ولأن الموقع الذي ضربت فيه خيامي يقع على بُعد عشرين ميلاً شرق قلعة جابر، فقد تصورت انه نتيجة سيرنا المبكر، لابد ان نمر من امامها قبل ان ينكشف الظلام. يقال انه لم يبقى سوى القليل من هذه المدينة القديمة التي اعطانا السيد إينسورث موجزًا رائعًا عن تاريخها. يقود طريق ذكر في الواح ثيودوس واوغسطان من (Auranitis) ثم تدمر إلى هذا الموقع، وعلى الجانب الآخر من مخاضة النهر، فإنه يستمر إلى Edessa (اورفه) عن طريق حران (Carrhae). يشير إينسورث إلى السلسلة الغريبة من الكوارث التي تلت عبور هذه المخاضة من النهر من قبل العديد من الحملات مثل حملة زوكسيز الأول وسايروس الصغير وداريوس كودومان، وحملة الإسكندر الكبير نفسه الذي وجد (Nicephorium) الرقة الحالية على مسافة قصيرة إلى الجنوب مع النهر. وسار في إثرهم كراسوس وجوليان وكالربوس وكورديانوس، وفي كل حالة كان يعقب عبور المخاضة عاجلاً ام آجلاً كارثة كبيرة. كان قدرًا غريبًا، فبعد عبور بعثة وادي الفرات هذا الموقع، تحطمت الباخرة دجلة بإعصار وغرقت وفقد (١٩) شخصًا في هذه الكارثة.

وعند الساعة التاسعة، وصلنا إلى الرقة على جانب بلاد وادي الرافدين من النهر. إنها تقع قرب مصب رافد الفرات المسمى نهر بالك وقد اسسها الإسكندر الكبير باسم (نسفوريوم) واصبح اسمها كالينيكوس عندما كانت تحت سيطرة الرومان والرقة الاسم الشهير عندما كانت تحت سيطرة المسلمين. كانت حصنًا لهارون الرشيد، الذي

بنى هناك قلعة وقصرًا ومباني اخرى. والمكان حاليًا هو عبارة عن اطلال ومنذ سنوات قليلة فقط، كان سكانها هم من العرب الذي يعيشون في الخيام. مع ذلك لا تزال أجزاء قليلة من العمارة الشرقية قائمة.

وعندما كنا نسير على امتداد السهل، شاهدت آثار قناة قديمة، وبعد مشاهدتنا للرقة بوقت قصير، راينا امامنا مباشرة تلاً منعزلاً غريبًا، يسميه رجالي (منخر)، وهو مؤشر في خارطة كيبرت بانه (تل المناخر) ويقع على الجانب المقابل من النهر. ولأنه منعزل تمامًا ويتمتع بارتفاع اعلى مما يجاوره، فإنه يشكل معلمًا بارزًا على بعد اميال للمسافرين. يتجه المجرى العام للفرات من بضعة اميال غرب قلعة جابر إلى الرقة نحو الشرق، بعد ذلك يتخذ اتجاهًا جنوبيًا شرقيًا،ويحافظ على هذا الاتجاه مسافة حوالي (١٥٠) ميلاً، استدلالاً بطيران الغربان، ثم ينعطف شرقًا ثانية حتى يصل إلى مدينة عانة. قضينا فترة بعد الظهر ونحن نسير في ارض وعرة ذات تلال وعدد لا يحصى من الوديان الصغيرة المشابهة للجزء الأخير من رحلتنا في اليوم السابق. حاولت ان اتناول غدائي من سمك السلمون المعلب وقد افلحت في إراقة الزيت الموجود في العلب على كل ملابسي، مما ولد عليها رائحة سمك وزيت جعلتني اشعر بالغثيان. وعند الساعة الثالثة وبعد مسيرة شاقة وطويلة لمدة عشرة ساعات ونصف، توقفنا لقضاء الليل في مكان يدعى الشيخ قريب من حصن للشرطة ذو ابعاد اكبر مما سبق ان رايته. وقد حاول رجالي نصب خيمتي دون إشرافي، حيث خلقوا فوضى كبيرة، واضعين الأوتاد في المكان غير الصحيح واحنوا المسامير الكبيرة في اعلى الأعمدة. والعربي اخرق بشكل غير طبيعي لأي نوع من العمل يكون جديدًا عليه.

يكون تيار النهر في هذا المكان سريعًا جدًا، وقد شاهدت لأول مرة رجالاً يطوفون في النهر على جلود اغنام منفوخة بنفس الطريقة التي مثلتها المنحوتات الآشورية

القديمة. ونتيجة لسرعة التيار، ينطلق هؤلاء الملاحون أسفل النهر بسرعة مدهشة، ومن الصعب مشاهدة كيف يستطيعون تحت مثل هذه الظروف الاحتفاظ بسيطرة كافية لقيادتها. وقد زارني عند وصولي المدير افندي، رئيس الشرطة هنا، كان تركيا كبيرًا ذا منظر هادئ. وقد وجدت حديثي معه صعبًا بسبب قلة معرفتي بالتركية، إلا انني قد اثرت اهتمامه بعرضي عليه بعض الصور لبواخر إنكليزية كنت احملها معي. وبعد العشاء رددت زيارته بزيارة من قبلي له. كان محل سكنه عبارة عن زريبة مهدمة في الحصن الطيني والتي اعتبرها لا تليق بحصان جيد. إلا ان الرجل الوقور قد اكرمني واستضافني بتهذيب عالي لتركي من المدرسة القديمة. وقد اعد لي بعناية قهوة بيديه وعندما غادرت رافقني لغاية وصولي إلى خيمتي، وقد وجدت انه ارسل لي هدية للترحيب بي عبارة عن نصف دربنة من البيض الطازج. كان لطفه العالي شيئا استثنائيًا لدى افراد الشرطة التركية الذين اتصلت بهم على طول الطريق.

وقبل العشاء مباشرة، جلب انتباهي ضجيج غريب على بُعد مسافة خلف خيمتي وعند النظر إلى الخارج لمعرفة السبب، وجدت اثنين من الرجال راكعين باتجاه مكة. كان احدهم، وهو رجل بائس كانه فزاعة مهلهلة، درويشا يصرخ ويولول، وكل جسده يترنح بقوة من جانب إلى آخر، كان يكرر اسم الله بنوع من اللهاث الأجش مع كل تارجح لجسده. وقد اتخذ لنفسه وضعًا بحيث ان اي تكرار لاسم يجعل كل جسده يهتز بعنف. واخذ لهاثه يرتفع تدريجيًا إلى صوت يشبه نباح الكلب ثم اخذ ينخفض تدريجيًا إلى نوع من قباع الخنزير المحتضر، وعندما أرهق بالكامل، اخذ يمشي على قدميه مترنحًا رغم انه غير قادر على الوقوف، ثم تلاشى، بمساعدة رفيقه، وهو لا يزال يلهج لاهثا بالاسم المقدس، في ظلام الصحراء.

وعند الليل زارني ضيوف غير مرحب بهم بشكل قطط، فقد ايقظتني الأولى من وضع الاستلقاء الذي اتخذه، كي تفتش سلتي، التي كانت تحوي بعض لحم الدجاج البارد وهو غدائي لليوم التالي. وعندما راتني استيقظ في فراشي، رحلت بحذر. والثانية وهي قطة كبيرة، اطلقت حال دخولها صوت (ياو) عند شمّها لرائحة الطعام. وفي الحال امسكت عصاي، التي كانت لحسن الحظ تحت متناول يدي، وسددت إليها ضربة عنيفة على الراس حيث فرّت مسرعة معتذرة عن زيارتها في الوقت غير المناسب. والثالثة اكتشفت فجاة انها واقفة على اقدامها الخلفية وراسها في سلة اخرى، وهي تلحس المنديل الذي يحتوي زبدة اللبن. وقد صحت عليها بقوة، ورغم ان قوة صوتي لم تصبها بالذعر كما في المثال السابق إلا ان اللص اختفى ولم يظهر ثانية.

هطل في الليل مرّة او مرتين وابلاً غزيرًا من المطر، وعندما غادرنا في الساعة السادس إلا ربعًا كان الصباح غائمًا. كان رجالي لسبب اجهله مبتهجين جدًا واستمروا بمزاجهم وغنائهم ولعبهم كفريق من الأطفال الكبار. كان الطريق طيلة النهار رتيبًا للغاية، كونه يمر كل الوقت وسط سهل مستو، والجزء الذي مررنا به في بداية الصباح مكسو بقصار الشجر بينما كان الجزء الآخر من السهل خاليًا، في الجزء الأول من الطريق صادفنا مجموعات كبيرة اكثر من عنزة وهي ترتحل. واثناء سيري، جاءت ثلاث بدويات من بعض الخيام التي مررنا بها، واسترقن النظر بفضول من شباك التخت حيث طردهن محمد بعيدًا وهن يقهقهن. كن يعتقدن ان في التخت سيدة اوروبية، ليس لدى الفتيات الصحراويات ادنى خجل لأي شيء من الحياء الزائف الذي تتمتع به نساء المدينة. إنهن اكثر تحررًا من الفتيات الإنكليزيات.

توقفنا عند الساعة الواحدة بالقرب مما كنت اعتقده الفرات، إلا انـي قد اكتشفت بعد ذلك انه مجرد ماء راكد. وقد حصل شجار مع رجالي الذين اصروا على

نصب الخيمة عـلى قـمـة تـل قـرب حصن من الطين. كان المكان قذرًا، ولم تتوقف فيه قوافـل اخـرى، وعـنـدما امـرت الرجال بنقل المخيم على حافة الماء، رفضوا وبسبب مقنع هـو ان المـاء راكـد وان النوم عند حافته سيؤدي إلى خطر الإصابة بالملاريا، إلا ان هـذا لم اكـن اعـرفه في حيـنه، لذلـك اخـذت اسب واشـتم الـرجال لعدم طاعتهم لي. بعد ذلك، ذهبـت واسـتحممت في المـاء متصورًا انـه جـزء بطيء الجريان من النهر. وقد ادى ذلك في الصباح الـتالي إلى إصابتي بهجمـة ابتدائـية مـن مـرض الديـزنتريا، والـذي قُـدّر علي ان اعاني مـنه بقسوة قـبل وصولي إلى بغـداد. وبعـد الحمام، اخذت اتمشى نحو ربوة على الصحراء المرتفعة خلفـي. وهـنا لاحظت في الحال ان الماء لم يكن جزءًا من الفرات بل ماء راكـد لا يرتـبط في ذلـك الوقـت مـع الـنهر، ولكن عـندما يصل الأخير إلى اعلى ارتفاع لـه فإنـه قـد يرتـبط بـه. اعتقد ان كـيبرت قد اشار إلى ذلك باسم (بحيرة مكلـه)، ويبـدو لي ان اصـلها اصـطناعيًا ولـيس طبيعـيًا. وخـلال تجوالي رايت بالقرب مني لأول مرة زوجًا مـن القطـا الجمـيلة. وقـد شعرت بالأسف انه لم يكـن معـي بندقـية، إذ انـه بالرغم من التاكـيدات بانـه يمكـن الحصول عـلى اي كمـية مـن المؤن في الطريق، إلا انني في الأيام السـتة الأولى مـن الـرحلة لم اسـتطع شراء سوى دجاجة واحـدة. وعـند النظر من هنا إلى الاتجـاه الشـمالي الغـربي، فـإن جـبل مـنخر لا يـزال يشكل علامـة بـارزة، وعـلى يساره، شاهـدت دخانا كثيفًا يرتفع من السهل، ولم استطع معرفة سبب ذلك.

خـلال الـليل، كـان علـيّ الاسـتيقاظ والطلـب مـن محمد بان يرفع هذه الأجراس عـن الـبغال لأن ضجيجها المتواصـل لم يدعـني آخـذ قسطًا مـن الـراحة، وعـندما غادرنـا مخيمـنا بحلول الفجـر، وجـدت نفسي بحالة سيئة، مع الم داخلي حاد، وغير قادر تمامًا عـلى الأكل. وقد عزى رجالي سـبب ذلك إلى الاستحمام، ولم اصدق هذا في حينه لأنهم قـد اكـدوا لي انه ماء صالح للشرب، ولتعرضي لإصابة قاسية ومطولة بالمرض بعد ايام قليلة مـن استحمامي في الفـرات، فإنني اخذت اميل إلى تصديقهم، واحذر هنا المسافرين

من الاستحمام في مياه الفرات الباردة قبل حلول الليل وبعد مسيرة يوم حار وطويل.
وعند الساعة التاسعة حاولت ان اقوم بجولة قصيرة على قدميّ، وقد وجدت اننا في
جزء مجدب لكن جميل من الصحراء، وفيه بعض التلال المرتفعة اكثر مما اراه على
اليسار، وعلى اليمين تتكسر الأرض إلى منحدرات واطئة. ومن بين النباتات القليلة
النامية هناك، توجد العديد من نباتات الخشخاش الحمراء الجميلة، التي لها اثر فاتن في
الصحراء. وبعد ذلك بوقت قصير، كنا نسير ثانية في السهل ذو الشجيرات الخفيفة وعلى
يميننا منحدرات واطئة من الحجر الرملي، يمتد الحجر الرملي هنا على ارض من
الحجر الطيني الكثير الحصباء وهو يقع في اماكن هشة جدًا. وبعد شعوري بالتحسن
بعد الظهر، قمت بجولة قصيرة اخرى على قدمي. وبينما كنت في الخارج، سقط بقوة
إلى الأرض البغل الصغير الجريء بفعل الحرارة وحمله الثقيل، وكان علينا إنزال
حمولته قبل ان يستطيع الوقوف ثانية على قدميه. وقد اجفلت مرّة اخرى الكثير من
طيور القطا، ولكوني لا احمل بندقية، لم استطيع ان املأ خزانتي لحفظ اللحوم كونها
فارغة الآن تمامًا. وعند حوالي الساعة الواحدة، وصلنا إلى موقع قررنا التخييم فيه،
وهو مكان شاعري جميل على منعطف من النهر واسفل راس بري ذي منحدرات
صحراوية رمادية. وتتخلل هذه المنحدرات الممتدة إلى النهر عدد من الوديان الصخرية
المليئة بالشجيرات الخفيفة، واحدها يمتد مفتوحًا ليصل بالقرب من خيمتي. ليس
هناك علامة لأي نوع للاستيطان البشري في هذا الموقع، إلا ان المنطقة مكتظة بالعرب،
ولا يسمح لي رجالي بالقيام بنزهة قصيرة في المنحدرات خلفنا، حتى وعدتهم باني
سوف لن أذهب بعيدًا وبيّنت لهم باني احمل معي مسدسًا. ومن على القمة شاهدت
هناك منظرًا رائعًا. فالجزء الذي انظر له من النهر له اتجاه عام نحو الجنوب، إلا انه
يتخذ في مجراه عدة انعطافات كبيرة، ليشكل دائرة كاملة تقريبًا إلى حد ان
الانحناءات في بداية ونهاية الحلقة ترتبط مع بعضها تقريبًا. وبعيدًا عن النهر، وفي غيوم

بيضاء مهيبة، تمتد سلسلة من جبال وادي الرافدين، يومض فوقها اثناء حلول الليل ضياء غير منقطع. وخلفي، على جهة الجزيرة العربية، تمتد سلسلة اخرى على مسافة معينة. كان المشهد كله مقفرًا وكالحًا إلى حد بعيد. وعند عودتي وجدت عددًا من العرب المسلمين بالكامل ويبدون كالبدائيين، وهم يستفسرون من رجالي الذين كانوا يرغبون في التخلص منهم. وقد اخبرني حجي محمد ايضًا في اليوم التالي، انه لم يجرؤ على النوم وقضى الليل بطوله يطوف حول المخيم للنظر في محيطه، وهو كلام استقبلته بما يستحقه من الشك. وقالوا ايضًا انه طالما ان علينا ان نصل الدير في اليوم التالي، فمن الضروري تمامًا ان نبدا بالرحيل مبكرين. ولأنه ليس لدي فكرة عن المسافة إلى المدينة وكونهم قد اخبروني انها تستغرق مسير (١٠) ساعات، فقد اذعنت إليهم بالطبع، وبعد نوم لحوالي اربع ساعات، تم تقويض الخيمة وغادرنا سريعًا بعد منتصف الليل. وقد اكتشفت بعد ذلك ان مسيرنا الفعلي كان ست ساعات فقط، وان تلك كانت مجرد حيلة لقضاء كامل اليوم في الدير. كان هذا درسًا لي لأرفض جميع الرحلات المبكرة السخيفة في المستقبل. وتلك بالطبع العقبة الرئيسية امام اي اتفاق مع سائق بغال ليقلك من مكان لآخر في الشرق. إذا لم يلزمه اي اتفاق مسبق، فإنه يعتقد انه يستطيع ان يملي عليك زمان وسرعة السير اثناء السفر، وفي الواقع يكون ميالاً لمعاملة المسافر الذي يقله وكانه بالة بضائع. عندما يكون لديك قرارًا حاسمًا وتصميمًا، فمن المؤكد انه سيذعن إليك بدرجة معينة، ولكن إذا كان المسافر قد اشترى او استاجر الحيوانات على اساس اليوم او الأسبوع، فإنه سيجد نفسه سيدًا لسائق البغال وحرًا في اختيار زمان وسرعة السير وان يمكث في الزمان والمكان والكيفية التي يرغبها.

لهذا جرى معظم الرحلة إلى الدير في الظلام، ولشعوري بلننا نسير فوق ارض وعرة عرفت اننا نسير معظم الوقت في الصحراء. وعندما انبلج الضياء وجدت احد بغالي المسكينة يمشي اعرجًا، ولم يكن عليه اي حمل سوى الخرج. وعند حوالي الساعة

السادسة، دخلنا إلى شوارع الدير الضيقة والبائسة ونزلت في خان قرب مركز المدينة، وهو مبنى صغير متوسط الجودة من طابقين يحيطه فناءا داخليًا. ليس في هذا الخان محلاً أو طعامًا للحيوانات، لهذا ذهب رجالي وبغالي إلى مكان آخر على الجانب المقابل من الطريق. وقد اثار وصولي الكثير من الفضول وامتلأ الفناء بالناس لمشاهدة الرجل الإنكليزي. اعطاني صاحب الخان افضل غرفة في المبنى، إلا انها كانت قذرة بحيث قمت بكنسها قبل الإقامة فيها. إلا ان ذلك لم يبدد النمل الذي تعج به ارضية الغرفة ولا الذباب الذي غزى غرفتي بأعداد كبيرة. وتحت هذه الظروف اول الأشياء التي عملتها هي إعداد سرير (ليفنج) لتامين نوم ليل هادئ. الأشياء الأخرى التي لاحظتها حول الخان هي الحجم الكبير للعصافير الواقفة على سطح الدار، والسمة البدائية للمرافق الصحية للخان المسمى (ادب خانة) او المرحاض وهو السطح المستوي للبناية، والذي لو لم يخصص لهذا الغرض، لكان اجمل صالة استراحة لقضاء الأمسيات.

لقد بُني الدير على مرتفع بسيط، يقال انه اطلال نسخة سابقة من نفس المدينة. ومن الصعب فهم أسباب بناء نسخة لاحقة من هذه المدينة، كما أن سوء الحظ لم يمكنني من مشاهدة حفرة عميقة كبيرة. لقد بنيت المدينة على ضفة الفرات الذي تقسمه في هذا المكان جزيرة وتقع في وسط صحراء ترابية مقفرة، ليس فيها سمة واحدة من سمات الجمال. فليس هناك غابة من نبات الطرفاء ولا منحدرات قرب النهر، وهذا الأخير هو ليس الفرات المهيب، بل مجرد فرع صغير غير مهم. تتكون المدينة نفسها من شارع طويل يمتد بموازاة النهر وتتفرع منه شوارع جانبية عديدة تؤدي إما إلى ماء النهر على الجانب الشرقي أو المقابر التي تسد منفذ المدينة من الجانب الغربي. بيوت المدينة مبنية من الطين وهي بائسة إلى حد بعيد. والأسواق كذلك قذرة وليس فيها بضائع كافية

لإعطاء فكرة عن بؤس هذه المدينة التي يبلغ عدد سكانها (٢٥٠٠) شخص والواقعة على ضفاف نهر عظيم، عليّ ان اقول باني لم استطع ما يلي:

- ان ابدل عملة نابليون واحد.
- شراء سمك من اي نوع.
- شراء سلة او صندوق صغير.

كذلك لم استطع الحصول على اي نوع من المؤن المحفوظة او المعلبة. ربما عليّ الا اتوقع وجود مثل هذه المؤن، ولكن عدم وجود المواد السابقة يبدو امرًا سخيفًا. إلا انه يمكن شراء التمور والبرتقال هنا، فالأولى تاتي من بغداد بينما الثانية من بيريجك. ولأول مرة منذ مغادرتي لحلب، وجدت نفسي ثانية وسط جزيرة زراعية. تشاهد اشجار نخيل قليلة، إلا انها من فصيلة متقزمة وهزيلة، كانت الجزيرة التي يربطها بالمدينة جسر خشبي متزعزع مزروعة بشكل كثيف وتزرع هنا الذرة والرز وباقي انواع الحبوب وهناك نثار متفرق من اشجار الفاكهة منها بشكل رئيسي التفاح والرمان، واسطة الري المستخدمة في الجزيرة هي (الكرد)، وهي آلة بدائية تستخدم بكثرة ايضًا في بغداد. وهي تتكون من هيكل خشبي مدلى على حافة النهر. وهناك في هذا الهيكل بكرتان مربوط بهما حبال يتدلى منها جلدي ماء كبيرين فيهما خراطيم او انابيب جلدية. وقد جرت تسوية الأرض بشكل منحدر من الضفة. ويُربط على هذه الآلة حصانان او بغلان. وعند مشيهما إلى اسفل المنحدر يتحرك الدولاب ويرفع الجلود من الماء. وعندما تصل الأخيرة إلى ارتفاع معين، ينسكب الماء من الجلود إلى الأسفل من الخراطيم نحو خندق او مجرى ماء، الذي يحمله إلى الأرض المزروعة. تدور بعد ذلك الحيوانات، وتصعد المنحدر وتعود الجلود إلى الماء لتمتلئ من جديد. ربما يكون الكرد

اكثر بدائية من الشدوف[1] الشائع الاستخدام في مصر، لأنه يتطلب حصانا ورجلاً لأداء نفس العمل الذي يؤديه في ذلك البلد رجل لوحده رغم انه يرفع في كل مرّة كمية اكبر إلى حد ما من المياه.

لا يعتبر سكان الدير، كسكان معظم المدن في تركيا الآسيوية، خليطًا من الأجناس. فالمقيمون فيها بالكامل تقريبًا من العرب ولا يشاهد الزي السوري هنا، وتشير الكوفية على رؤوس الرجال وحلقات الأنوف، وشفاه النساء المصبوغة إلى المسافر، ان سكان المدينة في الحقيقة ليسوا سوى عربًا من الصحراء مالوا إلى الاستقرار والتوطن للاستفادة من مزايا التجارة. بالإضافة إلى ذلك هناك عدد قليل من المسيحيين وبالطبع عدد من الموظفين الأتراك في السراي وبعض القوات التركية. يسمى الدير مقر السيطرة على الصحراء. وهو في الواقع النقطة التي اختارتها الحكومة التركية على نهر الفرات الأعلى للسيطرة على القبائل العربية على جانبي النهر. وقد وصفت السيدة آن بلنت في كتابها الممتع "قبائل الفرات البدوية" اسلوب الحكومة التركية في تنفيذ سياستها، ورغم ان اخلاقية هذا الأسلوب في السيطرة على هذه الأرواح المتمردة عن طريق زرع الشقاق بينها بشكل متواصل وبذلك يتم كسر شوكتها، يثير الكثير من الشكوك، إلا انه لا يمكن الإنكار بانه قد حقق نجاحًا كبيرًا. ودليل ذلك هو الأمان النسبي لطريق وادي الفرات. فالدير قد دخل تحت السيطرة العسكرية للحكومة التركية في عام ١٨٦٢م فقط، واصبح الفرات الأعلى ثانية جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وقبل هذا التاريخ من المشكوك فيه أن يستطيع أوروبي بمفرده ان يمر في هذا المكان كما افعل حاليًا، دون غطاء، ودون ان يرافقني عمليًا اي حراس لأسافر من حلب إلى بغداد. مع ذلك فهذا

(١) آلة تتكون من عمود طويل مرتكز على محور فيه دلو باحد اطرافه وثقل في الطرف الآخر. ويستخدم في الشرق الأدنى لرفع المياه وسقي الأراضي، (المترجم).

الطريق، وبعد ذلك التاريخ ايضا ليس آمناً تماماً للأوروبيين وليس عرب الصحراء هم الوحيدين الذين يخشاهم المرء، والذي يثبت ذلك انه في عام ١٨٧٤م، قد تم قتل اثنين من الألمان من قبل سكان الدير انفسهم وضمن مسيرة يومين من المدينة[١] وذلك لغرض الاستيلاء على حصانيهما. ولا اعلم ماذا فعلت السلطات التركية في هذه المناسبة لمعاقبة القتلة.

لا يُعرف الكثير عن تاريخ الدير. والمعنى الاعتيادي للاسم هو "صومعة الرهبان" او "دير الرهبان"، وقد ذكر المؤرخ الإدريسي انه سمي بـ (دير ابونا)، وهو الدير الذي كان قائماً في هذا المكان، وان النبي نوح كان يقيم هنا بعد تركه الأرك وقد دفن هنا ايضاً[٢].

حالما تمكنت من الحصول على سكن لي، جاءني شخص من بين الزحام كان منشغلاً بشدة في مراقبة تجهيزاتي الخاصة بالسفر، واخبرني ان هناك رجلاً في المدينة يتحدث الإنكليزية. ولاعتقادي أنه قد يكون ذا فائدة لي، ارسلت إليه ان ياتي ليراني. وفي غضون عشرة دقائق، ظهر شخص ضعيف البصر يرتدي طربوشاً وحذاءاً ومعطفاً إنكليزياً وحياني بحرارة، "صديقي العزيز، كيف حالك؟". كان يبدو على الرجل الفسوق، مما جعلني اشك في الحال انه سكران، ورغم انه كان يوشح إنكليزيته المتعثرة بدعواته المتكررة بطلب الرحمة من الرب، واتهام جميع زملائه من سكان المدينة بأنهم اللصوص العرب، إلا انني رايته ذا شخصية غامضة، يفضل عدم الارتباط معها باي عمل. لقد اخبرني ان اسمه (التون)، وانه مسيحي، وانه قد عمل بوظيفة معينة في

(١) انظر القبائل البدوية على الفرات المجلد (أ) صفحة ١٠٢.

(٢) انظر انيسورث، مذكرات شخصية عن بعثة الفرات.

غرفة المحركات على ظهر باخرة إنكليزية. وقال ايضًا ان لديه أشقاء يعملون في بومبي وبغداد وليفربول. وانه قد زار المكان الأخير ولكنه "لم يزر إنكلترا" ويريد ان يعرف المسافة بينهما. كان يرغب بشكل خاص ان يذهب معي إلى بومبي او السويس كمترجم وحماية، مؤكدًا ان البلاد التي اسير عبرها بلادًا محفوفة بالمخاطر ومن المستحيل على رجل إنكليزي ان يسافر فيها دون حماية رجل شريف (مثله). وقد دعاني بكرم لمشاركته الطعام في منزله او على الأقل ان اسمح لزوجته بطبخ عشاء وإرساله لي. وقد رفضت هذه الدعوات، وارسلت محمد إلى السوق ليشتري لي بعض الكباب كعشاء بسيط لي. مع ذلك، فقد اخبرت الرجل انه إذا كان يرغب بمرافقتي داخل المدينة بصفة مترجم، فساكون مسرورًا لخدماته. وخلال فترة بعد الظهر، قمت بزيارة هذا الوجيه في بيته، كي اجعله يوضح لمحمد بعض الأشياء التي لم تجعلني معرفتي الناقصة بالعربية قادرًا على توضيحها له. وجدته يجلس في غرفة صغيرة وسط اسرته. وقد عرّفني بهم ملوحًا بيده في الهواء نحو زوجته التي يدعوها باشكال مختلفة مثل (امراتي) او (زوجتي) ثم نحو عجوز شمطاء تجلس القرفصاء في ركن الغرفة وهي أم زوجته، وكما يسميها بتهذيب: "العجوز". وهناك ايضًا عدة اطفال عبارة عن اجساد بدينة صغيرة بعيون سوداء، يبدو والحق يقال انه مولع بهم. كان ايضًا في الغرفة صهره الذي يبدو شابًا جديرًا بالاحترام. وقد عزّز التون شكوكي حول شخصيته وذلك بقيامه في الحال بإخراج قنينة شراب واقداح ويرجوني كاخي العزيز ان اشاطره الشراب. وقد رفضت ذلك واخبرته بانني لا اشرب مطلقًا اية مشروبات مسكرة خلال رحلتي، وهذا في الواقع صحيح في حالتي الراهنة، حيث لم اجلب معي خلال الرحلة سوى قنينة براندي، احتفظ بها لحالة المرض. وقد تاثر السيد التون كثيرًا برفضي هذا. لقد جعلته يخبر محمد انني سوف لن اسمح مستقبلاً ان نبدا سفرنا عند الفجر إلا في حالة الضرورة القصوى، كون سفرنا المبكر السخيف في الليلة الماضية

كان مجرد حيلة لقضاء وقت اطول في الدير[1]. لقد اقسم حجي محمد ان المكان الذي كنا نخيم فيه يعج باللصوص وانه لم ينم مطلقاً، وقد امضى الليل بحراستي وهو يتمشى حول خيمتي. وحسب رايه، انه ليس من الحكمة البقاء هناك لمدة اكثر مما هو ضروري لأخذ قسط بسيط من الراحة. ورغم ان حديثه يبدو معقولاً، إلا انه ما يستشف من احاديثهم أن هذا دون شك هو ليس السبب الحقيقي.

عندما غادرت منزل التون، عرض عليّ صهره مرافقتي في نزهة على الجزيرة، عبرنا جسرًا متداعيًا، اخبرني دليلي بأن النهر قد يحمله في وقت لاحق من هذا الشهر إلى مكان بعيد عندما يذوب جليد ارمينيا ويرتفع منسوب الماء في النهر إلى ارتفاع ثلاثين قدمًا. كان الجسر مزدحمًا بالأولاد وهم منشغلين في مسك قطع الأخشاب الطافية التي يجلبها النهر من الغابة الواقعة على ضفتي النهر، كون منسوب الماء فيه اخذ بالارتفاع، ولفعل ذلك، كان لديهم حبل طويل واداة مصنوعة من قطعة من الخشب لها اربعة اشواك أو قرون من الخشب متجهة إلى الخلف. عندما تاتي قطعة الخشب طافية، يرمى هذا الكلاب امامها ببراعة عالية، ثم يسحب، حيث تمسك القرون بهذه القطعة ويتم سحبها. واعتقد ان هذه تشكل الوقود الوحيد لأهالي الدير، ويبدو الأولاد مشغولين باستمرار في العمل.

وبعد مروري في حقول الذرة المتموجة، وهو منظر جميل بعد الأرض القاحلة التي كنت اسير فيها وصلنا إلى مكان فيه الكثير من الكرود وهي في حالة اشتغال، حيث راقبتها بالكثير من الاهتمام والمتعة. كان مرافقي شابا مسيحيًا ذكيًا من الموصل، إلا انني وجدته يكره العرب ومدينة الدير التي يصفها بانها (بلد الخنازير) أو قرية البهائم.

---

(١) لقد قال النبي، لهم بسفرك عند حلول الظلام، فواجع الأرض لا تظهر ليلاً، انظر برتون - مكة والمدينة - الفصل العاشر.

ولسوء الحظ، تبعنا التون نفسه وظهر إلينا الآن مسلمًا بقنينة شراب واقداح وترافقه ابنته الصغيرة. وفي الحال بدا برواية قصة طويلة عن شقيقه (قبطان البحر الإنكليزي) وتحدث باسلوب عدائي معتوه بانني قد تركته ومنعته هو وصهره من مرافقتي ورفضت دعواته المتكررة على الغداء. عند عودتي، وجدت انه من المستحيل ان ابدا رحلتي في اليوم التالي، كون الحيوانات كانت متعبة ولا يزال البغل سيئ الحظ اعرجًا. لم اكن اسفًا على قضاء يوم راحة ثاني في الدير. إن السعادة التي احصل عليها من خلال تمكني من خلع ملابسي وقضاء ليلة مريحة اخرى بين ملاءات سريري (الليفنج) النظيفة نسبيًا، يعتبر ترفًا لا يمكن الترفع عنه. كانت هاتان الليلتان هما الوحيدتان خلال رحلة الثلاثة اسابيع التي لم انم فيها بملابسي. ورغم عدم الشعور بالراحة، لا يفضل دائمًا خلع الملابس ليلاً في رحلة برية في تركيا إذ انه في اي لحظة قد يضطر المرء للخروج من خيمته إما لمشاهدة الكلاب المذعورة عند حبال الخيمة او ربما حتى مقابلة بدوي مخادع. كذلك تكون ليالي الربيع باردة بحيث يكون اي إجراء يحول دون الإصابة بالزكام امرًا ضروريًا.

يشير الرعب الذي تحدثه البرية او الصحراء المحيطة بالمدينة في نفوس سكان المدينة والسلطات إما إلى ان القبائل الموجودة في هذا الجزء هي قبائل سلابة ومتمردة، وهو امر لم اجد سببًا يؤيده، او انه ينم عن قدر كبير من الجبن من طرفهم، وهو ما يلاحظ عليهم. حيث سافرت مدة ثلاثة اسابيع على ضفاف الفرات ولم تواجهني اية مشكلة من التي ذكروها عن العرب. وفي الصباح الثاني من إقامتي في الدير ذهبت في نزهة قصيرة على الجانب الصحراوي من المدينة، وقد جلست على مسافة حوالي ميل واحد منها. نادرًا ما كنت افعل ذلك، حيث تبعني جندي او شرطي وجاءني مهتاجًا ليخبرني أن المكان غير آمن للتوقف فيه وان عليَّ العودة حالاً إلى المدينة او إلى جانب النهر. ضحكت عليه، إلا انه اصرَّ بان لديه اوامر من السلطات بان عليَّ العودة وليس

هناك من خيار امامي. إذا كان هناك بالفعل خطرًا قريبًا بهذه الدرجة من مدينة، مزدحمة السكان وتوجد فيها حامية عسكرية، ليس لدي المزيد من القول عن الحكومة الصالحة لهذا المكان. إن الرعب الذي تحدثه الصحراء في نفوس جميع العرب المستقرين وحتى الموظفين الأتراك هو شائع جدًا ويبدو سخيفًا تمامًا، لأنهم بمواجهته باستمرار في هذه البلاد. فأي طريق صحراوي قصير يبدو بنظر العرب من سكان المدينة ليمثل رعبًا حقيقيًا. وهكذا لا يفكر من يعيش في هذه المدن غير الصحية والمزدحمة السكان كالدير او الحلة في القيام بنزهة في هواء الصحراء المنعش الطلق والواقعة أسفل أسوارها. إن فكرتهم عن المتعة هي إقامة (كيف) او نزهة إلى بستان ندي على حافة النهر لقضاء ثمان او عشرة ساعات في التدخين وشرب القهوة والنوم.

عند عودتي وجدت محمد في حالة شديدة من الترقب مخافة انني ربما قد تعرضت للاختطاف. وقال "الحمد لله، انك سالم، ما الذي دفعك للتنزه داخل الصحراء بهذه الطريقة دون حرس؟".

لم ارى المزيد من صديقي التون باستثناء ان صهره قد شرفني بزيارة. بعد ذلك جاء طبيب ارمني يتحدث الإنكليزية بشكل جيد وقضى بعض الوقت في امريكا. لقد سمع ان إنكليزيًا قد وصل إلى الدير، وكان هناك خبرين، الأول بانني (الباليوس) او القنصل الإنكليزي واني بطريقي إلى بغداد، والثاني باني طبيب. كان الأرمني يود معرفة اي الأمرين هو الصحيح، وإذا كان الأخير هو الصحيح، ما الذي اطلبه منه بخصوص امراض العيون. وقد ابلغته بلطف باني مجرد سائح عنيد ولا احمل لا صولجان القنصل ولا عصا الطبيب. واخبرني ان الإنكلو - هنود يعودون إلى اوروبا حاليًا وفي المستقبل عن طريق الفرات، إلا ان المسافرين الإنكليز قليلون للغاية. إن وصول اي منهم يطلق في الواقع السنة جميع سكان المدينة بالقيل والقال لبعض الوقت. بعده زارني

رئيس المسيحيين في الدير، وهو كلداني محترم يتحدث الفرنسية. وبعد انتهاء مراسيم الزيارات هذه، سمعت ضجيج خيول ورنين أجراس في الشارع الممتد امامي، وبعد النظر من الشباك، شاهدت قافلة كبيرة تملأ الشارع. كانت تلك قافلة الباشا والطبيب اليوناني الذين سبق ان اعددت نفسي جزئيًا لمغادرة حلب معهم، جاء الباشا، وهو رجل ذو مظهر لطيف، وصعد السلم يحث الخطى، وبينما كان يجري تنظيف الغرف لاستقبال الزائرين الجدد، دعوتهم للدخول إلى غرفتي. كان الباشا لا يتحدث سوى التركية. ومن خلال الطبيب اليوناني، عرفت انهم قد غادروا حلب بعدي بيومين، لهذا فإنهم أمضوا نفس الفترة في الطريق، كان يرافق قافلتهم، حرس عسكري كبير وكان الباشا وصهره والطبيب مدججين جميعهم بأقصى طاقتهم بالسيوف والمسدسات كما لو انهم بعثة عسكرية تسير في ارض معادية وليس في رحلة سلمية عبر اراضيهم الوطنية، ومجمل القول شعرت بالسعادة لأنني قد سافرت وحدي بدلاً من هذا الموكب المرعب.

جاءني حجي محمد في المساء، وتملأ وجهه ابتسامة الرضا، وهو يربت على بطنه ويقول انه لأول مرة منذ مغادرته حلب يشعر ان بطنه (مشدودة) او منتفخة. وقد هنأته على هذه الحالة، لأني افهم جيدًا ما يقول. من المثير للدهشة كيف يستطيع سائقي البغال اداء هذا الكم الكبير من العمل على طعام بائس. والحقيقة هي أنهم لا يبدون بحاجة إلى طعام. ليس لديهم شيئا يأكلوه قبل الرحيل، إلا انهم بدورهم يشربون بشراهة على معدة فارغة من كيس الماء الكبير الذي يحملوه معهم. عند الساعة العاشرة، يخرج بخيت ثلاثة قشور من الأرغفة القذرة ليُشكل ذلك إفطاره وغداءه. وفي المساء يتناولون فيما بينهم خليطًا صغيرًا من الرز. ورغم هذا الغذاء التافه، فإنهم يمشون على اقدامهم معظم الطريق ولديهم جميعًا حمارًا واحدًا يتناوبون الركوب عليه، ولا يذهبون للنوم إلا بعد أن انام. وإذا ما استيقظت اثناء الليل، اجدهم

مشغولين بشكل عام في اداء بعض الأعمال بين البغال. هم دائمًا متاهبون للحركة امامي. لقد كنت اتناول الطعام بكفاية تامة (الكفاية التي تسمح بها خزانتي الخاصة بحفظ الماكولات) ثلاث مرات في اليوم، مع ذلك اشعر اني جائع بنسبة ثلاثة ارباع، استنتج من ذلك ان المعدة البريطانية تتجاوز معدة العربية من حيث الضخامة.

* * *

الفصل السابع
من الدير إلى عانة

مغادرة الدير - السراب - قلعة الرحبة - رحوبوت على النهر - ميادين - المزيد من القطط - اجليلز الصلاحية - عاصفة رملية - أصوات البغال - طقس بارد - الدراويش الملجولون - المرافق البدوي - أبو كمال - الخنفساء الماهرة - إثار واسمة - القائم - غزو عنزة - سئلت فيما إذا كنت إحب قطع عنقي - خطر على الطريق - الإصابة بالمرض - وديان الصحراء - الخنزير البري - اجليلز الرحوة - الوصول الى عانة

غادرت الدير مبكرًا في صباح يوم ٢١ من الشهر، وكنت مرتاحًا جدًا لقضاء يومين من الراحة هناك. كانت حالة البغل الأعرج المسكين كما هي في السابق، ويبدو لي من المشكوك فيه أن يصل إلى بغداد سالمًا. وقد رفض بخيت استبداله بواحد آخر في الدير. كان عليّ الوصول إلى بغداد، ولا أستطيع أن أجلس في الصحراء لحين شفائه. تبلغ حيوانات قافلتنا حاليًا حوالي (٢٠) حيوانًا، حيث انتهز العديد من الأفراد الفرصة لبدء رحيلهم معنا في نفس الوقت. كان من بين هؤلاء ثلاثة من (الأشراف) أو سليلي الرسول، وكانوا يرتدون عمائم خضراء زاهية، وكذلك كان يسير بمحاذاتنا اثنان من الخيالة العرب برماحهم الطويلة.

وفي جنوب الدير تماماً خلف البيوت مباشرة، كانت هناك مرتفعات ومنخفضات كبيرة يبدو انها بقايا قناة قديمة. وبعد هذا دخلنا إلى ارض غير مزروعة عبارة عن سهل فسيح من التراب الخفيف مع قليل من الحياة النباتية. تبعد تلال الصحراء عدة اميال إلى اليمين. رغم ان الصباح كان غائماً، وحاراً إلى حد ما، إلا انه كان هناك قدراً كبيراً من السراب، وهي ظاهرة غريبة يرجعها البعض إلى الامتدادات المستوية للأرض. يمكن مشاهدته بشكل عام عند منتصف النهار عندما تكون الشمس عالية، وما يؤيد انه لا يعتمد على ضوء الشمس، هو وجوده بقدر كبير غير اعتيادي في صبيحة هذا اليوم الغائم. وشكله الاعتيادي هو ظهور ما يشبه بحيرات راكدة واسعة قرب خط الأفق. وفي بعض الأحيان يقطعه مرتفع أو تل قديم على وجه الصحراء ليظهر على الأفق وهو منفصل تماماً عن بعضه. كذلك تظهر قافلة الجمال من مسافة معينة بشكل صغير جداً بحيث تبدو وكانها اغناماً، في حين يظهر قطيع من الأغنام وكانه جمالاً. ويبدو صف منخفض من الشجيرات القصيرة في ارض قاحلة وكانه غابة على حافة بحيرة شاسعة، حيث تنعكس صورة كل شجرة بشكل واضح على سطح ما يبدو انه ماء. وفي بعض الأحيان يبدو تل او بناية بانه مرتفع جداً وكبير ليظهر بانه قريب للغاية، في حين انه في الواقع يبعد مسافة كبيرة. وفي إحدى المرات، اثناء سيري من بغداد إلى بابل، راينا آثار بئر يقع على مسافة مائتي ياردة بصورة مشوهة بحيث اني واحد اهالي بغداد الذين كانوا معي قد اشرنا إليه بنفس الوقت بانه آثار عكركوف الكبيرة قرب بغداد، التي يبلغ ارتفاعها (١٣٠) قدماً وتبعد عنا حوالي عشرين ميلاً او اكثر.

سرنا خلال مدة ثلاث او اربع ساعات جنوب الدير على كميات من الفخار المهشم، كان الأكثر شيوعاً بينها قطعاً بالوان زرقاء وخضراء واحمر قاتم كالزهريات الموجودة لدينا حالياً، وكانت هناك ايضاً قطعاً من الزجاج العادي. تغطي

كسر الأواني الخزفية هذه مساحة كبيرة، إلا انه لا توجد تلال، وليس لدي فكرة عن التاريخ الذي يعود إليه هذا الموقع، كذلك يوجد في جوار ذلك قطع من الصوان المشغول. وقد لاحظت كذلك ان هناك مسحة من اللون الأحمر الخفيف على اجسام السحالي في هذه المنطقة مما لم اشاهده من قبل، رغم انها رمادية وتوجد بقع على سيقانها وراسها وجسمها كالتي شاهدتها في شمال هذه المنطقة. كذلك لاحظت بازا ابيضا. ولم اشاهد اي من افراد عنزة، إلا انه مرّت في الصباح امامنا قافلة من الجمال وبعدها بوقت قصير مرّت قافلة كبيرة من البغال والخيول من اثنين من التخوت، التي تحمل احد الباشوات مع حريمه وهم متجهين إلى حلب. كان احد التخوت يضم اثنان إن لم اقل ثلاثة من الأشكال البدينة. بعد ان تناولت غدائي لمحت من مسافة شيئا اسودًا، وعندما اقتربنا وجدنا انه بغلاً اسودًا ميتًا ربما يكون احد بغال قافلة الباشا. تفحصت حيواناتي جثة الحيوان بلا مبالاة ويبدو انها قد تلقت تعليمًا إسلاميًا صحيحًا بالإيمان بالقضاء والقدر وترى انه من المؤكد تقريبًا ان مصيرها الأخير سيكون عاجلاً ام اجلاً مشابهًا لمصيره. في هذه النقطة على الجانب المقابل من النهر، يلتقي نهر الخابور بالفرات.

وعند الظهيرة، كنا على مرأى من قلعة جميلة، يسميها رجالي (الرحية)، ولكون قرية ميادين التي سنقضي الليل فيها، تقع على مسافة معينة على اليسار من هنا، فقد تركت رجالي يسيرون، بينما اخذت اتمشى مع الشرطي المرافق لي نحو القلعة.

وبعد مسير ساعة تقريبًا عبر سهل مستو وعشبي مليء بقطعان الأغنام مع رعاتها، وجدنا انفسنا بالقرب من قاعدة تل صخري كبير، تقع عليه هذه القلعة. وهذا التل الصخري قريب جدًا من منحدر صحراوي، وتفصله عن الصحراء هوّة عميقة. وتوجد قرب القاعدة اجزاء صغيرة من سور مهدم، وتنتشر حولها قطع من القرميد يظهر انها اقدم من القلعة نفسها التي يرجع تاريخها إلى العرب.

وتصميم القلعة هو عبارة عن ميدان مستطيل غير نظامي يمتد إلى الشمال والجنوب وحوله اسوار خارجية متينة بنيت على حافة التل الصخري وتحيط بحصن داخلي كبير له نفس الشكل.

يواجه السور الخارجي الشمالي، الذي يعتبر احد جوانب المستطيل القصيرة، السهل الصحراوي، وهو ذو بناء بسيط، ربما يكون قد جرى ترميمه في وقت متاخر اكثر من الأجزاء الأخرى. وعند الركن الشمالي الغربي هناك آثار برج. يتكون السور الغربي من حجارة مربعة كبيرة، وجزء منه مهدّم. بينما تحافظ الأجزاء الأخرى إلى حد ما على وضعها. ثم فتحت ثغرات في هذا السور لإطلاق النيران، وتوجد فوقها شبابيك صغيرة ذات أقواس. كان النصف السفلي من السور مبنيًا بالقرميد وهناك نموذج مشكل بالقرميد على هيئة مفتاح. يعزز الطرف الجنوبي برجان حيث بُني الأول الموجود في الزاوية الجنوبية الغربية بشكل قطري إلى هذه الزاوية، بينما كان الآخر مربعًا.

واسفل هذا السور، تم تعزيز التل الصخري بساتر من البناء، وهناك آثار منه على الجوانب الأخرى. كان الجانب الشرقي غير منتظم ومدمر تمامًا ويبدو ان فيه سور مزدوج.

ولأني لم أجد اية إشارة إلى المدخل الصحيح إلى القلعة، فقد تسلقت التل الصخري ودخلت من خلال فتحة في هذا الجانب إلى داخل الحصن. وقد وجدت الأخير عبارة عن مستطيل متوازي الأضلاع زاويته الشمالية الشرقية مقطوعة وبذلك يصبح شكلاً خماسيًا وقد تم فتح ثغرات دائرية صغيرة غريبة في أسواره يتضح انها للإضاءة. وعلى الجانب الشرقي هناك بئر مبني بالقرميد. يمتلئ هذا الحصن من الداخل، إضافة إلى الفراغات التي تفصله عن الأسوار الخارجية بآثار الغرف المبنية بالآجر وهي مهدمة تمامًا. وكانت خارج الحصن قرب الزاوية الشمالية الغربية آثار مقابر.

كـان جـزء مـن السـور الخـارجي الشـمالي مبـنـيًا بطـريقة خاصـة. ففـيه ثلاثـة صـفوف مـن الشـبابيك. تكـون شـبابيك الصـف الأعـلى صـغيرة ذات أقـواس مسـتدقة الأطـراف قريـبة مـن بعضـها. وأسـفلها شـبابيك مشـابهة ذات حجم أكبر وتكون أكثر بُعدًا من بعضها. وأسفلها أقواسًا مستدقة واسعة وفيها فتحات صغيرة نسبيًا.

ومـن فـوق هـذه الآثار يمكـن مشـاهدة مـنظر جمـيل للسهل الأخضر، ويقع على مسافة معيـنـة فـيه الـنهر وقـرية ميادين. يبدو أن الآجر الذي بُني منه جزء من القلعة، وربمـا الحجارة أيضًا قد تم جمعها من موقع أكثر قدمًا. يعزو العرب هذا البناء إضافة إلى الآثـار الأخـرى عـلى الفـرات الأسـفل إلى نمـرود. بيـنما يعـيّن إينسـورث الموقـع بأنـه (رحوبـوت) الواقعـة عـلى الـنهر والـواردة في سفر التكوين، ويلفت الانتباه إلى حقيقة أنه يجب ألاّ تختـلط بـ (روحوبـوت أور) الـتي تقـع عـلى نهر دجلة. وهناك أيضًا على مسافة قصيرة إلى الجنوب على النهر تقع (رحبة المالك بن طاوق) التي تسمى الآن الصلاحية.

يصـفها الـرحالة إليزابيـثي راوولـف بأنهـا: "مديـنـة كـبيرة جمـيلة" إلا أن بـالبي الـرحالة البـندقي يقول في عام ١٥٧٩م، بأنه قد وجد فقط بقية ضئيلة من مدينة قديمة حيث يوجد عـدد قـليل مـن السـكان ينتشـرون بـين الحطـام. كما أنها كانت في وقت معين أسقفية مسيحية، إلا أن الموقع في الوقت الحاضر مهجور تمامًا.

وبعـد مسـيرة مـدة ثلاثـة أربـاع الساعة، وصلت إلى مدينة ميادين الصغيرة. هناك بقعـة أرض كـبيرة مـزروعة حـول هـذا المكان، ووضعها العـام المشابه تمامًا لقرية على الـنيل، ورغـم أنـه لـيس كـبيرًا بمـا يكفـي لاعتـباره سوقًا، إلا أن ميادين تتباهى بوجود عـدة حوانيـت فيها وجامع ذو مـنارة مائلة قليلاً، ومركـز شرطة كبير حيث وجدت خيمتي منصوبة توًا في الجهة المقابلة لـه.

تشكل القطط في هذا المكان إزعاجًا كبيرًا، حيث انها تصعد باستمرار على فراشي لتصل إلى سلة المؤن العائدة لي، وفي الآخر، اضطررت إلى تعليقها على الرافدة الأفقية للخيمة. إلا انه حتى هذا لم ينه الإزعاج، حيث اخذن يأتين للنظر إليها، وتحاول بعض المخلوقات المغامرة الأخرى التجمع خارج الخيمة.

وبسبب ذلك، سوية مع اجراس البغال التي رفض بخيت رفعها، نمت تلك الليلة نومًا قلقًا. غادرنا عند شروق الشمس، وكان الصباح شديد البرودة. وقد اخذ النهر، الذي كنا بمحاذاته، يجري بسرعة بعد مغادرتنا مباشرة. وفي غضون ثلاثة ساعات مررنا بتلال على اليسار يسميها رجالي (الإشارة) وهي قرية قديمة غير ماهولة. ربما تكون على بُعد ساعة من الطريق. وقد تكون نفسها العشار التي ذكرها إينسورث في هذا المكان. وقبل حوالي ساعة من الظهيرة، وبعد أن كنا نسير لبعض الوقت في سهل مجدب مماثل للسهل الذي كنا نسير فوقه في الصباح الماضي، وجدنا انفسنا بالقرب من منحدرات، وهي مكان ذو ارتفاع كبير مكوّن من حجر الكلس مع طبقة سميكة من معدن من نوع السبّار(*)(1) اقدر ان ارتفاعه حوالي (٢٠٠) قدم. تشاهد اعداد من الطيور على وجه هذه المنحدرات، منها بشكل رئيسي الحمام الأزرق والغربان وانواع مختلفة من الصقور. بعد ذلك مباشر تركنا النهر واندفعنا إلى عمق الصحراء المفتوحة خلف المنحدرات. الصحراء هنا عبارة عن سهل حجري مغطى بنباتات متفرقة ذات لون خاص من الأخضر الفاتح. ولمدة حوالي ثلاث ساعات ونصف تابعنا سيرنا على هذه البرية الحجرية حيث رافقنا خلال الجزء الأخير من هذه المدة بطريقة تثير الشكوك إلى حد ما اربعة من خيالة عنزة برماحهم الطويلة. حاولت أن اتحدث مع هؤلاء الأصدقاء،

(*) يبين اينسورث في كتابه بحوث عن بلدان آشور وبابل وكلدان: ان التكوينات هي من الجبس والمرن يعلوها طين احمر وصخور كلسية، المؤلف.

(1) السبّار معدن لماع يتقشر بسهولة إلى رقائق، (المترجم).

ووجدتهـم غايـة في البساطة والبراءة. في نفس الوقت مررنا على آثار كبيرة على يسارنا، وتبدو كاسوار مدينة لها برج ومدخل في مركزها المقابل إلينا. كانت تلك مدينة الصلاحية وهي مدينة مهدمة وقد كانت حصنا لصلاح الدين وهي تعرف ايضا في وقت معين بانها حبة المالك بن كاوق. وقد اسفت كثيرًا لأني لم ازر هذا الموقع، لأن رجالي اسوة بكل الشرقيين يكذبون من اجل المتعة المجردة في فعل ذلك، قد اخبروني بان الموقع الذي سوف نخيم فيه يبعد عنا مسافة عدة ساعات، وليس من المناسب التوقف، بينما كانت الحقيقة هي انه لا يبعد عنا سوى مسافة مسير ساعة واحدة تقريبًا وكنت استطيع ان اذهب إلى هذه الآثار ثم اتبعهم فيما بعد نحو المخيم سيرًا على الأقدام.

وبعد ذلك مباشرة، نزلنا بطريق منحدر نحو وادي كبير ثم دخلنا إلى سهل تنتشر فيه خيام عديدة. وهنا انعطفنا لنصل إلى المكان الذي نخيم فيه الذي يسمى ايضًا الصلاحية حيث يوجد فيه مخفر للشرطة. وقد حدث ان كنت انظر نحو المنحدرات التي غادرناها توًا، وقد تملكتني الدهشة لرؤيتها تختفي في ظلام كثيف. عندما كنا في ذلك المكان. كان الجو هادئا تمامًا، ولكن في غضون دقيقة غمرتنا العاصفة. فقد ادركتنا امطار ورياح عاصفة مخيفة تحمل امامها غيومًا هائلة من الغبار اعمت كل الفريق (باستثنائي حيث كنت جالسًا جافًا ومرتاحًا ادخن بهدوء داخل تختي)، وتخطتنا حيث حجبت تمامًا عن نظري مرأى البغال الأمامية التي تسير على بُعد ثمانين ياردة إلى الأمام قبل ان تنقشع. كانت الريح التي ادركت فريقنا قوية بما يكفي لأن تجعل التخت يتارجح وخشيت ان البغال قد لا تستطيع نقل اقدامها. وقد تبع ذلك عواصف اخرى بنفس السمات إلا انها ليست بنفس العنف. وعند نظري إلى الخارج استطيع ان اتبين اربع أو خمس عواصف رملية منفعلة تجتاز السهل، وعندما وصلنا إلى المكان الذي نخيم فيه بعد مسير لمدة تسع ساعات، ورغم هبوب

الرياح العاصفة والمطر الغزير، فإنه حالما تم نصب خيمتي وبصعوبة كان الجو مشرقًا ومشمسًا. تكررت عواصف اخرى خلال الليل، إلا انه لحسن الحظ أخمد المطر الغبار[1].

لقد أكدت بإصرار على ان تنصب خيمتي على مسافة ليست قريبة من البغال، وبهذه الطريقة استطعت الحصول على قسط مناسب من الراحة اثناء الليل رغم عواء ابناء آوى التي كانت تدوي على جانبي النهر ورغم البغال التي كانت ضجرة وكثيرة الضجيج بشكل استثنائي بفعل العاصفة والشيء بالشيء يذكر يتميز صوت البغل بانه صوت ذو طبيعة خاصة. فهو مزيج من صهيل الحصان ونهيق الحمار. فهو يبدأ بشكل عام بصرخة حادة، وهو محاولة في البداية يمكن أن تصفها بأي شيء عدا انها شيء سار، يتبع ذلك احيانًا صوت مماثل لما يصدر من الحصان في نهاية صهيله. ويتبعه بعد ذلك نهيق قصير. ونتيجة هذا المزيج هو صوت غريب كريه إلى حد بعيد.

كان الصباح التالي والذي يصادف ٢٢ آذار شديد البرودة حيث قوضنا الخيمة للرحيل. لم اتمالك ان اهنئ نفسي لأنني قد تركت طريق ديار بكر، لأنه إذا ما عمت موجة البرد هذه تلك البلاد المرتفعة على ذلك الطريق، فستكون تلك عودة لقسوة الشتاء الإنكليزي. فهنا على الفرات، وفي نصف المسافة تقريبًا إلى بغداد، يعتبر ارتداء معطف ثقيل خلال الساعات الأولى للصباح امرًا لا غنى عنه. وبعد مسيرة ساعة واحدة، وصلنا إلى نهر صغير يجري بين شجيرات خفيفة نحو النهر. لم نعبره بل اتجهنا غربًا، ولأننا لم نعد نراه فاعتقد انه انتهى ليصب في هور صغير. إنه النهر الوحيد الذي رايته على طول الطريق وهو يجري فوق السهل باتجاه نهر الفرات. كانت هناك خيامًا عديدة تنتشر في هذه الغابة، إلا انني لم استطع التاكد عن القبيلة التي تعود إليها هذه

(١) على مسافة مسير يوم واحد فقط جنوب هذا المكان، غرقت الباخرة (دجلة) بفعل عاصفة سيئة من هذا النوع، وكانت تابعة إلى بعثة الفرات في عام ١٨٣٦م.

الخيام. وبحدود الساعة العاشرة مررنا على بُعد ميل على يميننا بتل كبير على شكل قمة بركان. وبسبب موقعه المنعزل تمامًا، فإني اعتقد انه تل اصطناعي رغم انه يبدو من مسافة معينة بانه تكوين طبيعي.

وبعد ذلك مباشرة، التقينا بمجموعة غريبة مكونة من حوالي اثنى عشر شخصًا كالشياطين الغاضبة ولهم خصل شعر متشابكة كانما شبكها الجن ومنظر طائش مفزع بشكل عام يختلف تمامًا عن منظر البدوي المتغطرس او عرب القوافل الذين التقينا بهم في الطريق. ولكونهم متسخين ومرهقين بفعل السفر فإنهم يمشون بتثاقل على طول الطريق دون أن تكون لديهم حيوانات حمل من اي نوع، فامتعتهم الوحيدة هي اواني وقدور قليلة معلقة على اكتافهم او حول اعناقهم، إنهم مجموعة من الدراويش المتجولين في طريقهم من بغداد إلى حلب. تعج بلاد فارس والبلاد العربية الخاضعة للأتراك بهؤلاء المتشردين الغرباء. إنهم شيء بين المتسولين لدينا والغجر وفي العديد من الأحوال إنهم أنصاف مجانين. وغالبًا ما يكونون دجالين، يتاجرون بإحسان او حماقة الأفضل منهم حظًا، مع ذلك لا استطيع إلا ان اشعر بنوع من العطف الخفي نحو هؤلاء الدراويش المتجولين، لأنهم سواء اكانوا دجالين ام حمقى ام متعصبين، فإن اسلوب حياتهم المتسم بالزهد والتشرد قاسي إلى حد يصعب تصوره.

اخذ يرافقنا مرّة اخرى اربعة من اصدقائنا ذوي الرماح الطويلة، وهذه المرة يركبون جمالاً بدلاً من الخيول. وقد طلب مني احد الأوغاد الرشيقين، الذي اسنانه كاللؤلؤ شيئًا من التبغ، حيث اعطيته في الحال. وبعد دقائق قليلة ظهر بجانبي ومعه قطعة قماش مليئة بالتمر. وبالطبع قبلتها ومضغتها بشيء من الرضا الكبير الذي في الواقع لم أشعر به، لأنه قد تم إخراجه توًا من سرج جمل قديم وكثير الدسم، وهو في الواقع ليس نظيفًا. لم ارغب ان اجرح مشاعر صديقي الأسمر عن العالم الخارجي، وقد

اوما براسه بسعادة وابتسم وبانت اسنانه الرائعة عندما اخبرته ان التمر كان ممتازا وهو غذائي المفضل.

ورغم النزاهة البائنة والودية الواضحة على محيا هذا الرجل، إلا ان حجي محمد قد جاءني بعد ذلك مباشرة بحكاية مفادها انه قد استفسر منه فيما إذا كنت أحمل الكثير من الذهب معي وقال لو سنحت لي الفرصة فإني سأسرقه. وهذا جانب واحد فقط من الجبن وعدم الثقة الذي يكنه كل عربي من سكان المدينة نحو البدو، والموضوع يعتبر بعيد الاحتمال جدًا، لأنه بعد تبادل الهدايا هذه (رغم صغرها)، لا يمكن لأي فرد ينتسب إلى عنزة حقًا ان يضمر مثل هذه الأفكار الخيانية. اخبرت محمد بانه احمق، إلا انه رغم هذا، يبقى ينظر باهتمام نحو الأفق ليتحقق من احتمال اي ظهور آخر للعرب.

وعند حوالي الظهيرة، وصلنا إلى مخفر للشرطة وإلى زحام من الأكواخ المبنية من العيدان المظفورة، والتي تسمى قرية (ابو كمال). هناك ايضًا مساحة كبيرة من الأراضي المزروعة بالذرة، وتسقى بالعديد من الكرود. وقد طلب مني احد الموظفين في الحال تذكرتي وتفحصها بعناية، ربما يكون ذلك بدافع الحصول على البقشيش اكثر منه بدافع آخر، وإذا كان هذا صحيحًا، فإنه لم يفلح في الحصول على ما يريد.

وبسبب حرارة الشمس اللافحة، التي اصبحت الآن خلال النهار اكثر شدة، قمت ثانية بحماقة بالاستحمام في النهر، كان الماء باردًا كالثلج، والمساء باردًا ايضا وعاصفًا وبسبب هذا الاستحمام، اصبت بالديزانتريا، حيث عانيت منها خلال اليومين اللاحقين، والتي اوهنت صحتي وجعلت الباقي من رحلتي عبارة عن معاناة قاسية بدلاً من كونها متعة. وعندما كنت ارتدي ثيابي، لاحظت مجموعة من فرسان عنزة تسير امام القرية، وقد ذهلت لمشاهدتي جوًا من الإثارة في افعال هذه المجموعة مما لم اره من قبل

لدى افراد عنزة بالقرب من حلب. والواقع انهم يشقون طريقهم نحو ملتقى لشن غزوة او حملة سلب ضد اعدائهم التقليديين شمر بلاد وادي الرافدين. وقد قُدِّر لي ان القي نظرة قريبة على هذه الغزوة في اليوم التالي.

لقد اخبرني سائقو البغال ان ابا كمال تقع في منتصف المسافة بين حلب وبغداد وهو خبر لم اشعر بالأسف لسماعه. وقبل ان اخلد إلى النوم، جاءني مرافقي من الدرك، وهو نوبي من اعالي الشلالات، وطلب مني شهادة مع البقشيش المعتاد، قائلاً انه قد انجز مهمته على افضل وجه. وعندما كنت اكتب الشهادة سالته فيما إذا كان مصريًا، فاجاب: "الحمد لله"، وكان كل سن من اسنانه يلمع تحت محياه الأسمر، وهو يتذكر وطنه قائلاً: "هل تعرف اسوان؟" "والله".

كان الليل باردًا جدًا، وقد غادرنا بموعدنا المعتاد في صباح اليوم التالي عند شروق الشمس، وقد كنت سعيدًا لملاحظتي انه بينما كنا نغادر مقر استراحتنا، شاهدت البغل الأعرج المسكين قد اصبح في الواقع اقوى من قبل وانه يتحسن بالفعل. وبعد مغادرتنا مباشرة، تشاجرت مع محمد الأحمق لأنه اصرّ على موازنة التخت بشكل خاطئ وذلك بتعليقه للمطارة الثقيلة او قنينة الماء على الجانب غير المناسب من التخت. وعندها اوضحت له ان التخت قد اصبح مائلاً، وامرته بان ينقلها إلى الجانب الآخر، استجاب لأمري، ولكن بعد عشر دقائق، امسكته وهو يقوم بتغيير مكانها بشكل سرّي. ويعود السبب الوحيد لكل هذا الهراء هو ان تعليق المطارة على الجانب القريب يؤثر على المكان الاعتيادي لنارجيلتهم المقرقرة الكبيرة، وفي الصباح، وبينما كنت اتمشى خارجًا، شاهدت منظرًا غريبًا لخنفساء سوداء كبيرة. فقد كانت هذه الحشرة الذكية مشغولة لغرض معروف لديها وحدها في نقل قطعة من روث حصان او بغل إلى مكان غير معلوم. كان اسلوبها في الحمل كالتالي: تسير هذه الحشرة نحو قطعة

الروث إلى الوراء. وبعد ذلك تضع قوائمها الخلفية عليها، ثم تدوّرها بعيدًا بسرعة، وتدفع نفسها إلى الخلف بواسطة قوائمها الأمامية، وبذلك يكون راسها على الأرض. لهذا تكون نتيجة عملها مشابهة تمامًا إلى عمل صانع الجفة وبرميلها ماعدا ان وضع الدحرجة يكون مقلوبًا. تكون كرة الروث مستديرة تمامًا وذلك بسبب الحركة الدورانية التي تقوم بها الخنفساء حيث تحققت من ذلك عن طريق نخس الكرة وتغيير شكلها بعصاي وتركتها تعمل عليها ثانية حيث قامت بتدويرها مرة اخرى خلال لحظة. كانت السرعة التي يدحرج بها هذا الحيوان الصغير كرة الروث كبيرة.

لا يوجد اي جبل على الضفة الغربية في المنطقة التي سرنا عليها في الصباح، ولكن كانت هناك على جانب الجزيرة سلسلة واطئة من التلال في الأماكن القريبة من النهر. كانت هذه المرة الأولى التي اشاهد فيها أرضًا مرتفعة قرب النهر على الجانب المقابل. كان الطريق يمتد في البداية عبر أرض حصوية مغطاة بأحجار الصوان، كان بينها الكثير من رقائق الأحجار التي ربما جاءت من صناعة الأسلحة الحجرية في العصور البدائية. وعند حوالي الساعة التاسعة، وصلنا وعبرنا وادي فسيح إلا أنه قليل العمق، ومن الواضح أنه عبارة عن مجرى ماء في الفصول التي يكثر فيها المطر. ويسمى هذا الوادي، حسب قول شيخ ديني (ملا) من بغداد كان يسافر معنا من الدير، وادي الشيخ جابر، وجاء هذا الاسم من اسم تل كبير يقع في بداية الوادي قرب النهر ويسمى تل الشيخ جابر. وبعد ذلك مباشرة، وعلى مسافة حوالي ثلاثة ارباع الميل على اليسار، مررنا بآثار كثيرة، يطلق عليها مصدر معلوماتي اسم "السور"[1]. لقد كان هناك حسبما تبيّنت بناءًا مهدمًا لست قلاع، وآثار لسور مدينة على الجانب الصحراوي، وتبدو هناك ايضًا تلال كثيرة. لم اتمكن من مشاهدة هذه الآثار دون إجراء انعطافة كبيرة

(١) تعني (Sur) في العربية الجدران، وبهذا المعنى فقط استخدمها الملا. (المؤلف).

وإيقاف كل القافلة، التي يبلغ عددها الآن تقريبًا ضعف عدد مجموعتي، إلا أنني اشعر بالأسف الشديد لأنني لم افعل ذلك، كوني لم استطع إيجاد الاسم الصريح لهذا المكان في الكتب التي قرأتها. فقد اغفل ذكره إينسورث، الذي كان عادة دقيقًا ومتكاملاً في موضوع المواقع القديمة. وفي الواقع ذكر اسم قرية تدعى (الجبارية) او (الجبورية)، إلا أن هذه القرية تقع على الجانب المقابل من النهر وإلى مسافة معينة اخرى إلى الجنوب. ولأن هذا المكان يقع بالقرب من الموقع الذي غرقت فيه الباخرة سيئة الحظ "دجلة"، فمن السهل إدراك لماذا فاتته ملاحظة هذا المكان.

وبعد هذا بوقت قصير، مررنا بوادي آخر بعد مسيرة حوالي نصف ساعة على أرض مرتفعة من الصحراء حيث دخلنا ثانية بين شجيرات هذا الوادي، وعند حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف توقفنا عند قلعة مبنية من الطين بالقرب من مجرى الماء تعرف باسم (الكايم) او "القائم"، التي يرى إينسورث انها موقع اكامنا (Agamna) التابعة للأسرة القولومية[1]، وهو اول مكان تبلغ فيه طرق القوافل القديمة القادمة من جنوب سوريا ووسطها نهر الفرات. وعند هذه النقطة من النهر، الذي كان يجري لمسافة مائة وعشرين ميلاً في الاتجاه الجنوبي الشرقي، اخذ النهر يتجه نحو الشرق او بالأحرى نحو نقطة إلى الشمال من الشرق حيث يبقى النهر يحافظ على هذا الاتجاه العام رغم الانحناءات العديدة فيه، إلى ان يصل إلى مدينة عانة.

وإثر اجتيازنا للقلعة الطينية، ادركت ان شيئًا غير طبيعي يجري. وبالقرب او امام المخفر وقفت عدة مجاميع من رجال الجيش والشرطة الذين كانوا بعكس حالتهم الاعتيادية الفاترة، يحملون الآن بنادقهم ومن الواضح انهم في حالة كبيرة من القلق.

---

(١) الأسرة الحادية والثلاثين التي حكمت مصر القديمة وهم الملوك المقدونيين. (المترجم).

وعلى قمة المبنى، وقف حارس خفير وحربته مثبتة في بندقيته وحزامه مليء بالإطلاقات في حين يدور مشهد مثير على ضفة النهر إلى الأسفل منهم. فقد كان هناك حشدًا كبيرًا من رجال عنزة يشيرون ويصيحون، وهم منهمكون في إجبار الجمال والخيول العنيدة للدخول في المراكب النهرية، لغرض عبورها النهر إلى الضفة الأخرى. كان بعضهم عاريًا إلى محزمه في النهر وهو يسحب الحيوانات بينما يحاول الآخرون على الضفة دفع أو سحب الحيوانات الخائفة للدخول إلى المراكب. فقد رمت الجمال بنفسها إلى الأرض، بعد أن فقدت صوابها، وهي تجار وترغي بهلع، بينما تشق الزوارق الأخرى طرقها عابرة النهر بعد ان ملئت بالخيول، وهي تصارع وتكافح بحيث يبدو في كل لحظة ان الزورق سينقلب. وإلى الأعلى والأسفل من الضفة هناك اعداد من الحيوانات المقيدة والمربوطة قوائمها وهي تنتظر دورها. وبالإضافة إلى الرجال المنشغلين في النقل كان هناك العديد من رجال عنزة الآخرين وهم يقفون بجوارهم او يأتون ويغدون على ظهور خيولهم، بينما كانت رماح جميع الرجال مغروزة في الأرض. في البدء لم ادرك معنى هذا المشهد المفعم بالحركة وذهبت إلى الجمع وتقدمت نحو تصوير هذه المجموعات في المنظر المثير الذي يدور امامي. وقد اكتشفت بعد ذلك انه يجري شن غزوة كبيرة ضد قبائل شمر العراق، الأعداء التقليديين لعنزة. كان جميع العرب في غاية الاهتياج لمشاهدتهم إياي ولآلة التصوير. اعتقد انه لو لم يكن رجال الشرطة حاضرين، فإن مركبتي وآلة التصوير وكل ما املك ستصادر لتزين خيمة احد مستبدي الصحراء. وقد حاولت الدخول في محادثة مع شاب وسيم، استنتج من خلال مظهره المحترم والسلطوي انه شيخ شاب. وقد ابدى قدرًا كبيرًا من الاهتمام في جنسيتي وتجهيزاتي، واراد ان يعرف الأسلحة التي احملها معي، وتفحص مسدسي بفضول كبير، وفي الآخر سألني بجبين مقطب ينم عن التحدي كيف اود ان تقطع لوزتي في اليوم التالي.

وبما انه قد اوضح سؤالـه بسحب إصبعه على عرض حنجرته، فليس هناك سوء فهـم لما يعنيه، لـهذا فقد ابتسم وابتسمت وقلت باسلوب دمث وهادئ بما استطيع، بان دراستي الإنكليزية قـد علمتني بان قبيلة عنزة النبيلة لن تنحدر ابدًا إلى سلوك بغيض ومخـز يليق فقط بالسفاحين والأكـراد وباقي الحثالات الأخرى. لا يبدو ان هذه الثقة المضمرة قـد خففت مـن حـنقه، وعـندما تركـته كـان لا يزل مقطبًا بتحدي نحوي، رغم انه قد رد تحيتي بلطف ملائم.

ويبدو أن الأمور تسير في الواقع بشكل غير مرضي، فعند انتهائي من عشائي وصل إلى خيمتي فجاة وفـد مكون مـن رجالي والملا وشخص بعمامة خضراء ونصف دزينة الجنود وقـالوا انـه مـن الخطورة التامة السفر في الـيوم الـتالي، كـون الطريق سيكون مكتظًا بالغـزاة الـذيـن يـبدو انهـم ينتشرون عـلى مساحات شاسعة ويعبرون النهر على طول عـدة اميال. وقـالوا انـه حتى في ذلك الـيوم قـد حصـل قتال بين الجنود والعرب، الذيـن كـانوا بـسبب استعدادهم لـلحرب، هـائجين ولا سبيل إلى السيطرة عليهم، وقد قـتلت عـدة بغـال وجـرح اثـنان من الجنود. وكـدليل على ذلك، قـدموا لي شرطيًا سيئ الحظ مغمنًا بالأربطة وهو ينزف ويعاني من جرح بسبب ضربة رمح قاسية على راسه إلا انـه كـان ينفـث دخـان نـرجيلـته الدائمـة. وزعمـوا انـه إذا مـا توقفـت هنا يومًا، فإن الجميع سيكونون قـد عـبروا الـنهر وبذلك يكون الطريق آمنًا. طلبت مرافقًا لي. اجابوا انهـم يستطيعون الاستغناء عـن اثـنين مـن رجـالهـم، إلا ان مـئة مـن الشرطة سيكونون عاجـزين امـام اي حـشد مـن العـرب إذا مـا تحـول إلى حـشد خطير. سالت بعد ذلك رفاق الـدرب عـن رايهـم، اجابوا انـه لـيس لديهـم ما يخسروه، وإذا ما رغبت فإنهم سيباشرون الرحـيل، إلا انـه لـدي الكـثير مـن الأمـتعة، وتعتـبر مخاطـرة كـبرى إذا ما تعرضت جميع هذه الأمتعة للسلب على ايدي العرب في وضعهم الـهائج الراهن. قـال بخيت ومحمد نفس الـراي، لـهذا ورغـم شـكوكي بقـيام عـنزة بمهاجمـة قـافلـة رجـل إنكـليزي كـونهـم

يتعاطفون دون تردد مع امتنا، مع ذلك شعرت انه من الحماقة القيام بمخاطرة فقدان جميع ممتلكاتي في الوقت الذي يمكن فيه تجنب كل هذه الأخطار بسهولة. لهذا قبلت البقاء ليوم واحد. وبعد اقل من نصف ساعة، جاءني بخيت ليقول بانه قد اكتشف انه لا يوجد علف للبغال هنا، وان علينا الرحيل صباح غد كالمعتاد، حيث اعطيت موافقتي في الحال على ذلك. وفي الليل شعرت بالم مبرح في بطني لم اتمكن من تمييزه وعندما غادرنا في الساعة الخامسة صباحًا، كنت لا ازال اعاني بشدة واشعر بالإنهاك بفعل الألم القاسي الذي عانيته في الليل. ورغم ان تعداد جميع رجال القافلة يبلغ حوالي اربع عشر رجلاً، كنت انا والشرطي المنفرد الوحيدين الذين يحملون سلاحًا، وإذا ما حصل الغزو، فسنكون في حالة يرثى لها. عند وصولنا في المساء السابق، دخل خيمتي اثنان من رجال الشرطة وبطريقة سمجة طلبوا شرابًا. وقد صرفتهم في الحال وابلغت محمد بالا يسمح لأي شرطي بدخول خيمتي. ولا شك عندي انه نتيجة ذلك رفضوا ان يخصصوا لمرافقتي اكثر من شرطي واحد، رغم ان الطريق حسب تقديراتهم باشد ما يكون من الخطورة. وقد دارت في ذهني خواطر غير مريحة تمامًا عندما غادرنا، وذلك بانه سوف لن يكون هناك شيئًا اكثر سهولة لديهم، إذا ما اضمروا الحقد عليّ بسبب رفض طلبهم، من ان يرسلوا جماعة من العرب لمهاجمتي. انطلقنا مباشرة نحو الصحراء ربما لأنها تمثل المكان الأكثر امنًا إذا كان جميع افراد عنزة يتواجدون قرب النهر. وفي الحال مررنا عبر شعب صغيرة مليئة بالأحجار والصخور الكبيرة على جانبيها ومعظمها تعتبر مواقع مناسبة لنصب كمين معين. كان احد افراد مجموعتنا يمشي امامنا بمسافة طويلة لغرض تحذيرنا في حالة مشاهدته امرًا ما إلا ان كل شيء كان صامتًا كصمت القبور.

وبعد عبورنا لوادي فسيح قليل العمق، مررنا بالسهل المعتاد، وجاءني حجي محمد يسال فيما إذا كان مسدسي جاهزًا كون العرب خلفنا. كنت في حالة من

الإنهاك الشديد الذي يعود جزء منه إلى الألم الذي اعانيه والجزء الآخر حسبما اتصور يعود إلى الأفيون الذي يحتويه مسحوق دوفر الذي تناولت منه كمية كبيرة نوعًا ما في محاولة لتسكين ما أعانيه من الآلام، بحيث اني لم استطع ان ارفع نفسي لألقي نظرة. وعندما فعلت، رأيت اثنين من الخيالة العرب وهم يعدون خلفنا في السهل، وقد وقف الشرطي المرافق لي بثبات وبندقيته في يده في طريقهم. ماذا دار في حديثه معهم، هذا ما لم اعرفه، إلا ان العرب قفلوا راجعين. كان هؤلاء وشخص آخر التقيناه فيما بعد، هم العرب الوحيديون الذين رايناهم خلال اليوم لأن جميع افراد المجموعة الغازية قد سبق ان مرّوا من هنا. تشبه صفات الصحراء التي نسير عليها الآن صفات صحراء شمال مصر. وعند حوالي الساعة التاسعة، مررنا بانف جبل متجه نحو النهر لينتهي بتلين مخروطيين كبيرين. وفي الساعات الثامنة والنصف والتاسعة والنصف والعاشرة والربع والعاشرة والنصف، عبرنا وديان جافة، يُسمى الأخيرين منها وادي حفرة ووادي زلة على التوالي. ويعتبر الأول نموذجًا جميلاً من الوديان وتقطعه عدة قنوات وتحاذيه منحدرات بارزة وتلال وعرة، وعند نقطة انفتاحه على النهر، توجد آثار ناعور قديم لا يستخدم حاليًا وجزء منه مهدم.

تشكل هذه الوديان مناظر جميلة إلى حد ما، رغم انها على العموم لا تحمل عمقًا كبيرًا، ويوجد في معظمها اعداد لا باس بها من الشجيرات النامية على الجانبين بسبب الرطوبة المتبقية فيها بعد فصل الأمطار. وفي آذار تجف جميعها رغم ان القليل منها يحتفظ ببرك راكدة. واعتقد انه لا تمتلئ جميع هذه الوديان بالمياه الجارية أو الراكدة في اي وقت من السنة. لهذا فإنها يجب أن تكون قد جاءت بفعل عواصف محلية عنيفة جدًا. كان الناعور هو الأول الذي رايته منذ غادرنا حلب، رغم أن النواعير تنتشر على طول النهر في غلة والقرى الأخرى إلى الجنوب منها. وعند الساعة الواحدة إلا ربعًا كنا بالقرب من منطقة الناحية حيث امضينا الليل هناك قرب مخفر

اخر، كانت المنحدرات هنا كلسية تعلوها طبقة من الحصباء، يشاهد ايضًا هنا عدة نواعير، إلا ان واحدًا منها فقط كان يعمل. ابلغني حجي محمد انه من الضروري البدء برحلة مبكرة في اليوم التالي لأن عانة تقع على مسافة مسيرة ثماني ساعات، لهذا القيت نفسي على فراشي دون عشاء لأني كنت مرهقًا ولا أستطيع تناول الطعام، ولم اتحرك على فراشي لغاية الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم التالي.

وبعد الساعة الرابعة كنا مرّة اخرى على ظهر الطريق، ولأن الشمس لم تكن قد اشرقت بعد، فقد كان الجو باردًا جدًا. راينا ثلاثة خنازير برية تعدو على طول ضفة النهر، وقد انطلق الشرطي المرافق لي بهياج كبير خلفها ليطلق عليها نيران بندقيته حيث فعل ذلك على مسافة مائتين وخمسين ياردة دون ان يصيبها بالطبع. وباستثناء السحالي كانت هذه الخنازير هي الحيوانات البرية الوحيدة ذوات الأربع التي رايتها على طريق الفرات. توجد الغزلان بالطبع، إلا انني لم ارى اي واحد منها، واسد بابل الذي كان يوجد إلى وقت قريب جدًا على ضفتي النهر، إلا انه قلما يسمع عنه شيئًا حاليًا. لقد سررت بكون البغل الأعرج المسكين قد اخذ يتحسن الآن كثيرًا بحيث انه يستطيع نقل حمل اكثر ثقلاً.

وبعد الساعة الخامسة عبرنا وادي آخر ذا حجم كبير وبعد حوالي ساعتين قادنا إلى جبل كوشكا، وهو جبل ذو شكل مختلف عمّا سبق ان رايناه. وبدلاً من النجد المستوي الذي يحاذي منحدر حاد عند السهل الذي يجري فيه النهر، شاهدنا مساحة من الأرض لا يختلف محيطها عن محيط مستنقع اسكتلندي. وهي تاخذ في الانحدار من ارض مرتفعة نحو منحدر خفيف وشفير واخدود حتى تصل إلى السهل، يسمى الوادي الصغير الذي ينحدر منه نحو النهر وادي خوشكا. ومن خلال النواعير العديدة المنتشرة على النهر، ادركنا اننا نقترب من منطقة اكثر كثافة بالسكان وفي نفس هذه

المـرحلة رايـت لـلمرة الأولى اناسًا يـبحرون في الـنهر. فقـد كان يطفـو عـلى سطح النهر قاربـان مـن جلـود منفوخة وهما يتجهان ببطء نحو اسفل النهر ويقودهما رجال لديهم اعمـدة (مـردي) او مجاذيف كـبيرة. وبعـد ذلـك بوقـت قصير، التقيـنا بمجموعـة مـن الـرجال والنسـاء عـلى ظهور الحمير، وهـي تقريبًا المرة الأولى التي نرى فيها الحياة خلال الـيومين الماضـيين. كـانوا يـرتـدون ملابـس غـريبة، فقد كانت العُقُل او العصابات التي يثبـت بهـا الـرجال كوفـياتهم ذات عـرض غـير اعتيادي وكـان جميع الرجال مسلحين بالبـنادق. لم اتمكـن مـن التعرف عليهم. ثم مررنا بعد ذلك بضريح مهدم لأحد الشيوخ والتقيـنا بالكثير من القوافل كان في احدها امراة محلية تمتطي حمارًا ثم و"الحمد لله" وصلنا إلى قـرية الـرحوة عـلى الجانـب الآخـر مـن الـنهر الـتي تنتصب وسط بستان من النخيل، وهـو مـنظر يبعـث عـلى السرور حقًا للمسافر القادم من حلب والمرهق في النظر لأيـام طويلـة في صـحراء مـروعة واشـجار قصيرة. وفي اعـلى قـرية الـرحوة هـناك قلعـة كـبيرة بناها مدحت باشا حاكـم بغـداد الكفء لحماية هذا الطريق.

تقع الرحوة على جانب منحدر، يلتف النهر حول نهايته مشكّلاً لسانا بريًا طويلاً وزاويـة مختلفة تمامًا عـن الـزاوية الـتي كـان يسير فـيها الـنهر. وبعـد مـرورنا بـالوادي صـعدنا بالـتدريج وشـاهدنا عـند اقدامنا هذا اللسان الذي تقع فيه مدينة عانة وسط ما يبدو بستان لا نهاية لـه من النخيل. لا استطيع وصف شيء سوى شعوري بالسعادة لـهذا المـنظر. كانـت الـبغال تهز رؤوسها وتحدث صليلاً باجراسها. مشى حجي محمد بخطوة مضاعفة، وانطلق حمادي من اعماق روحه باغنية في مديح عانة. من المؤكد ان المنظر كـان سـاحرًا. عـندما كـنا نصـعد الـتل، كـان المكان يبـدو وكـانه زمردة في حلية من الذهـب، كـان في غاية الخضرة وسط التلال الصفراء للصحراء. شققنا طريقنا على طول زقـاق ضيق على يمينه جرف منخفض وعلى يساره بساتين جميلة مسيّجة لسوء الحظ

باسوار مبنية من الطين. كان هذا الطريق الذي يعتبر الطريق الرئيسي والوحيد للوصول إلى المدينة، ضيقًا للغاية بحيث أننا اضطررنا إلى التوقف فيه لأكثر من مرّة بسبب خروج الجمال من المدينة. سرنا بعد ذلك عبر شارع موحل حيث احتشد على أبوابه النساء والأطفال لمشاهدة وصولنا، وفي الآخر توقفنا في مكان مفتوح على ضفة النهر مُعد خصيصًا للقوافل، لأنه رغم ان عانة تعتبر مكانا كبيرًا، إلا انها تفتقر إلى اي خان.



الفصل الثامن

من عانة إلى بغداد

عانة - مدنها على الطراز العربي - المرض - وادي فهمين - نزاع - حديثة - وادي البغدادي - عاصفة رعدية - الوصول إلى هيت - مدينة ملسخة - عيون القار - رمضان - رجالي يقبضون على إثنين من اللصوص - قلعة الرمادي - الإتصال بالحضارة - المرور بين الأهوار - بغل يصاب بالإرهاق - حصول حادث للتخت - قارب الفرات - قوارب الكوفة - الفلوجة - مسير ليلي - ضلالنا للطريق - القنوات البابلية - عكركوف - منظر بغداد - المزيد من المستنقعات والمصاعب - الوصول إلى بغداد

تعتبر مدينة عانة مدينة مميزة من بين مدن الفرات الأخرى وتشغل موقعًا فريدًا وممتعًا. فالنهر الذي يجري شمال المدينة، يلتف حول منحدر كلسي تقع عليه قرية وقلعة الرحوة التي ورد ذكرها آنفًا وبعد ذلك، يتشكل لسان بري وعر طويل. تقع على الضفة الغربية منه (أو بالأحرى الجنوبية كون النهر يتجه هنا شرقًا) المدينة. يعتبر تصميم عانة لافتًا للنظر فهي تشغل شقة ضيقة من الأرض الزراعية التي يبلغ طولها ليس أقل من ستة أميال. اخبرني رجالي أن الأمر يستغرق ساعتين للمرور خلال المدينة ووجدت ذلك صحيحًا. ورغم ذلك فعدد سكانها ليس كبيرًا كون المدينة ضيقة إلى حد بعيد حيث يحدها من أحد الجوانب الصحراء ومنحدر واطئ ومن

الجانب الآخر النهر. وعلى خلاف معظم المدن العربية، فبدلاً من ان تكون البيوت مزدحمة فإن جميعها تقريبًا مبنية في بساتينهم الخاصة. إنها في الواقع شكلاً من مدينة السدنهام [١] على الطراز العربي. فالشارع الطويل الممتد على طول المدينة تقطعه قنوات تنقل الماء من الناعور إلى البساتين ولأن القناطر المنصوبة على هذه القنوات تكون بمستوى أعلى من مستوى الطريق، فإن المرور وسط عانة سواءًا أكان بواسطة تخت ام على ظهر حصان يعتبر امرًا ممتعًا لأن المرء يصعد باستمرار على حدب هذه القنوات.

وقد لاحظت ان سكان عانة يتميزون بميزات لافتة للنظر والمتمثلة بمظاهرهم الذي ينم عن الصحة وعاداتهم اللطيفة. تلبس معظم النساء والأطفال حلقات الأنوف على النمط الصحراوي، وفي الواقع ان خدود الكثير منهم تكون وردية وهو شيء غير اعتيادي تمامًا في البلدان العربية. لأن الأولاد يشاهدون طول اليوم في الدير وهم يجمعون الخشب الطافي على سطح الماء حيث يفعلون ذلك ببراعة متناهية. يدعي الكثير من مسلمي عانة انهم سليلو الخلفاء الأمويين وقد حكمهم في العصور السابقة شيخ منهم مستقل. يقول ابن حوقل أن اسم هذا الأمير في زمنه هو عباس بن العمار الغني. وقد وجد تاشارو [٢] في بداية القرن السابع عشر ان حاكمها هو الأمير ابو ريشة الذي امتدت سلطته عبر الصحراء إلى تدمر [٣]. وقد ذكر بعض الرحالة هذا الاسم بطريقة مغايرة، وكتب السيد رالف فتش الذي زار المنطقة في نهاية القرن السادس عشر ما يلي: "على نهر الفرات من البيرة إلى الفلوجة، هناك بعض الأماكن عليك ان تدفع فيها رسومًا.. لصالح ابناء عربو رايز (Arborise) الذي يعتبر ملك العرب وجميع الصحراء

---

(١) Sydendam هي منطقة سكنية تقع في قصبة لويشام الإنكليزية. (المترجم).

(٢) Teixcira هو بادرونا شارو المتوفى عام ١٦٤٠ وهو مستكشف برتغالي واحد الرحالة الأوائل الذين وصلوا إلى الأفرون في عام (١٦٣٧-١٦٣٨). (المترجم).

(٣) لنظر إينسورث.

الكبرى ولديه عدة قرى على النهر". ومرّة اخرى يقول جاسيارو بالبي الذي اجتاز النهر في عام ١٥٧٩م: "يعيش في قلعة عانة الشبيهة بقلعة ديانا (عربورابز) ملك العرب".

من خلال الأعداد الكبيرة من ذوي الأردية والعمائم الخضر، يتضح ان هناك العديد من السكان الذين يدعون انهم من نسل النبي، إلا انه يقال ان هناك ايضًا أعدادًا كبيرة من المسيحيين واليهود.

تقع قلعة عنانا او عنائو التي اشتق منها اسم عانة وفتحها الإمبراطور جوليان، على احد الجزر في النهر.

ازدادت حالتي الصحية خلال الليل سوءًا. فقد تغلب عليّ الزحار الذي جاء بسبب استحمامي الطائش في الفرات وكان الألم الذي عانيته بالغًا. ورغم حرارتي العالية والمي المبرح، لم أتمكن من تناول اي دواء لأن قفل حقيبتي قد اصابه العطب وكنت عاجزًا عن فتحه لمدة يومين. وقبل ساعتين من حلول الفجر، جاءني اثنان من رجالي الذين كانوا رفاقًا طيبين إلا أنهم لا يفهمون قولي ولا يتعاطفون مع معاناتي القاسية، وابلغوني انه حان وقت الرحيل وبداوا يحلّون حبال الخيمة. وقد وجدت أن هذا قد جاء بناءًا على اوامر بخيت الذي كانت لدي معه مشكلة لنفس السبب، والذي يعتقد الآن باني ضعيف إلى درجة لا تمكنني من مقاومة إزعاجه حيث كان يرغب لسبب معين ان يصل إلى بغداد مبكرًا، لهذا كان يود ان يكون سيرنا على مراحل طويلة. ولأني كنت منهكًا بفعل المرض، فقد شعرت انه ليس من المناسب لي السفر في الطقس البارد الذي يسبق شروق الشمس ولا ان اسمح بمثل هذا الأمر، لهذا نهضت وقبل ان يصل الأمر إلى تهديد الرجال بمطرقة أوتاد الخيمة، توقفوا عن عملهم.

عـند شروق الشمس، غادرنا المخيم وذهبنا نتخبط إلى الأعلى والأسفل في الطريق الذي تقطعه قنوات المياه. وقد مضت ساعة ونصف قبل ان ننتهي تمامًا من آخر بساتين النخيل والبيوت المتفرقة، وبعد ساعة دخلنا في وادي يضم بركة ماء راكد طويلة حيث تتطلب الاستدارة حول راسها التفافًا كبيرًا، لم اتمكن من معرفة اسم هذه البركة، إلا انها تبدو في نفس موقع بحيرة تلبيس التي يشير إليها كيبرت في خارطته الكبيرة. وقد شربت جميع البغال الماء في هذا المكان وتمت إعادة تعبئة المطارة بالماء لأننا ننتظر مسير يوم طويل في الصحراء. وما هو غريب حقًا، ان العرب يفضلون شرب الماء الصافي إلا انه راكد وربما فاسد على شرب مياه النهر المضطربة العذبة. ولو كنت معتادًا على فعل ذلك، فإني ساعزي مرضي إلى هذا، إلا انني باستثناء مرة او مرتين كنت قد تذوقته، وكنت دائمًا حريصًا على الحصول على ماء النهر.

وبعد مرور ساعة اخرى، كنا نسير على سهل خصب إذ توجد جنوب عانة ساحات كبيرة من الأراضي المزروعة، ثم بعد ذلك دخلنا في الصحراء وكانت عبارة عن ارض مرتفعة مملة وقد سرنا عليها مدة ست ساعات. وفي الصباح شاهدنا خيام بعض الرعاة العرب، وباستثناء ذلك لم نرى اي اثر للحياة. وعند حوالي الظهيرة وصلنا إلى طرف وادي خطير وعر جدًا يدعى فهمين. ورغم انني كنت بشكل عام اترجل عن البغال عند مرورها في الوديان الوعرة وذلك لتسهيل سيرها، وقد كان رجالي يصرون دائمًا على ان ذلك غير ضروري، إلا انهم جاءوني هنا للمرة الأولى وطلبوا مني فعل ذلك. كان المنحدر عندما نظرت إليه يبدو لي مشابهًا تقريبًا إلى صخور وحفر شلال لودور في كمبرلاند، ويبدو مستحيلاً إلى حد ما محاولة دفع البغال بمحفتها للسير على مثل هذا المكان، مع ذلك، فقد سارت بإقدام عليه، فهي تهبط بذكاء من سلسلة الصخور التي يبلغ ارتفاعها ثلاثة اقدام رغم الأوزان الثقيلة التي تحملها، وتصعد على وبين الصخور الكبيرة والجلاميد، ويعتبر هذا عملاً مخيفًا بالنسبة لهذه الحيوانات المسكينة، إلا انها

تستجمع قواها معًا رغم احمالها الثقيلة التي تعيق حركتها. وفي الآخر، وصلت بأمان وسلام إلى الجانب الآخر، رغم ان كل عضلة فيها ترتجف بفعل الإجهاد الشديد والتمايل اثناء السير. لقد دبرت البغال التي تحمل الأمتعة امرها بذكاء شاقة طريقها وهي تتسلق الصخور وكانها هررًا صغيرة اكثر منها من رباعيات الأرجل ذات الحوافر، تبع ذلك ايضا وديان اخرى مشابهة إلا انها اقل وعورة. وبعد ذلك مباشرة نشبت مشاجرة حادة بين الشرطي المرافق لي وبخيت حول تحديد اي قرية سنتجه إليها، حيث يؤكد بخيت انه لا يوجد علف للحيوانات في القرية الأقرب التي يريدنا الشرطي ان نتجه إليها، بينما يقول الشرطي ان تلك مسافة طويلة غير معقولة من عانة وحتى الآن ورفض مرافقتنا إلى مسافة ابعد. شعرت انه ربما يكون حديث بخيت كذبة، خاصة وانني اعرف انه على عجلة تامة للوصول، إلا انه من جانب آخر مما له اهمية مماثلة بالنسبة لي كوني مريضًا ان اقصر قدر الإمكان المسافة إلى مقصدي الأخير، لهذا اعطيت الرجل الهدية المعتادة وتركته لحال سبيله.

شاهدت على قمم التلال من حولنا اعمدة كبيرة من الأحجار، تبدو وكانها شواهد قديمة لقبور، لم استطع ان اتخيل ماذا يمكن ان تكون هذه، إلا ان العرب ينكرون هذا الراي. لقد وصلت الآن إلى مسافة بعيدة نحو الجنوب بحيث بدانا نشعر بتبدل الجو وكانت الحرارة والجفاف ثقيلة الوطاة، فقد كانت الشمس ولا تزال منذ بضعة ايام قوية بحيث انني شعرت ان القبعة لا تكفي لحماية راسي حتى لو لف حولها لفافًا للوقاية من الشمس، ووجدت انه من الضروري استخدام المظلة عند السير.

نزلنا إلى السهل الذي يجري فيه النهر عند حوالي الساعة الثالثة، وبعد قرابة ثلاثة ساعات وصلنا إلى حديثة. وعندما اقتربنا من هذا المكان الجميل، شاهدنا العديد من اضرحة الشيوخ التي تعلوها قمم مستدقة بدلاً من القباب الشائعة الاستخدام في

بغداد، إلا انـه لا يشاهد مثلها في مصر. كذلك مررنا بمقالع الحجارة، حيث جرى استخراج الكثير من كتل الأحجار الكلسية ووضعها في حالة الانتظار لغرض نقلها عن طريق النهر إلى بغداد. بُني جزء من حديثة على جزيرة، ويفترض انها مدينة قديمة، رغم انه لا يبدو ان تم تعيينها بشكل مقنع في الخرائط وكتب الرحلات. وحالما تم نصب خيمتي، فتحت قفل حقيبتي بالقوة للحصول على الدواء، لأنه لم تظهر اي علامة لشفائي من المرض، وكنت عاجزا عن تناول اي شيء باستثناء بيضة او بيضتين مع قليل من الرز حيث اجبرت بلعومي على ابتلاعها، وكان الطعام يسبب لي شعورا بالقرف. سافرنا على مرحلتين، ربما نكون قد قطعنا خلالها مسافة تتراوح بين اربعين إلى خمسين ميلاً. لقد كبح الدواء الذي تناولته (وهو قرص مضاد للهيضة) تفاقم المرض إلا انه لم ينهه، ولكن رغم هذا ورغم عراك الكلاب بين حبال خيمتي وزيارة مفاجئة لإحدى القطط إلى خيمتي ليلاً وراسها في وعاء الحليب، إلا انني تمكنت من الحصول على قسط من النوم. بعد ذلك شعرت ان شيئا يتحرك اسفل وسادتي، وبعد إضاءة شمعة لمشاهدة ما يجري، خرج فار صغير جميل من اسفل حقيبتي واخذ ينظر نحوي دون خوف تماما، كان رماديا واكبر من الفار الإنكليزي وله زوج من العيون السوداء الرائعة مما لم اشاهد مثلها من قبل. كان اليفا للغاية فهو يجري فوق جسدي ثم يندفع اسفل حقيبتي وخلف وسادتي ثم يخرج ثانية ويسمح لي ان ارفعه إلى اعلى بين يدي، فهو رفيق صغير غير مؤذي. لهذا تركته معي واطفات شمعتي، وبعد ذلك مباشرة سمعته يقرقش قطعة من البسكويت.

وفي صباح يوم ٢٢ آذار، اليوم الثامن عشر من بدء رحلتي، بدانا المسير في حوالي نفس الزمن المعتاد، وفي غضون ساعة دخلنا إلى الصحراء وبعد ذلك عبرنا وادي ذا ماء راكد وبعد قرابة ساعتين، وصلنا إلى وادي آخر يسميه رجالي وادي سغيدان، ومنذ هذا الوقت حتى الظهر كان الطريق يمر عبر ارض رتيبة مملة مماثلة للتي سرنا عليها

في اليوم السابق. كان الهواء ثقيلاً يقبض الصدر وهناك بعض العلامات عن هبوب عاصفة. مع ذلك سقطت زخات قليلة من المطر خلال ذلك اليوم. وبعد حوالي ساعة، اقتربنا من النهر حيث سرنا أسفل منحدرات كلسية تتاخمها سلسلة من الوديان التي تنتهي بارض منحدرة من الصخور التي يجب ان تشكل شلالات كبيرة في مواسم الأمطار. كان سطح المنحدر مليئا بالشقوق والثقوب والكهوف الصغيرة التي يبدو انها جاءت بسبب تآكل الأجزاء الرقيقة من الصخور اثناء جريان النهر بمستوى اعلى. وبعد ذلك مباشرة، نصبنا خيامنا في مصب وادي جميل يدعى البغدادي، ورغم اننا لم نشاهد اي خيمة او بيت من اي شكل، إلا انني اعتقد اننا في مكان قريب من جامع وقرية تحمل نفس الاسم والتي اورد إينسورث ذكرها. كان المكان مقفرًا ومنعزلاً إلى حد بعيد، ولو كنت بصحة جيدة وقادرًا على تناول الطعام (حيث لا ازال غير قادر على ذلك)، لكانت تغذيتي سيئة، إذ انه لم يعد يتوفر لدي اي طعام باستثناء بعض الرز والتمور. كنت منهكًا للغاية بحيث اني قد انطرحت ونمت لقرابة اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع، ولكن عند يقظتي وجدت نفسي مرتاحًا ولكن بعد قليل فقط. عند شروق الشمس سرنا إلى مسافة قصيرة اعلى الوادي ثم صعدنا خارجين منه إلى الجانب الجنوبي. لم يكن هناك اي مطر في الليل، ولكن عندما خرجنا إلى السهل، وجدنا السماء ملبدة بالغيوم الداكنة إلى الجنوب حيث كان هناك ايضًا الكثير من البرق. وبعد ذلك بوقت قصير، تكاثفت الغيوم بسرعة، وبعد وميض للبرق وقصف للرعد الذي يبدو وكأنه يتحول من جانب السهل إلى الجانب الآخر، اخذ المطر يهطل بغزارة. إلا انه استمر بالهطول لدقائق معدودة، لكنه قد رطب الجو بشكل كبير وملأ كل اخاديد الطريق بالماء كزقاق إنكليزي في شهر كانون الأول. واخذت مجاري صغيرة من المياه تجري أسفل المنحدرات الصخرية مشكلة اودية صغيرة لذاتها. عندما يكون لوابل ربيعي من المطر مثل هذا الأثر، من السهل إدراك كيف تملأ العواصف المطرية الكبيرة مجاري

المياه الكبيرة. لا يبدو على الرجال توخي الحذر من المطر مطلقًا. وقد ادهشني ذلك كشيء غريب حيث يكون المطر في هذه البلاد امرًا غير متكرر الحدوث. اعتقد انه في جو حار كجو البلاد العربية، يعتبر ترفًا كبيرًا البقاء اطول مدة في حالة من البلل.

تعتبر الصحراء في الطقس الغائم باشد ما يكون من القبح. ولكن في حالتها الاعتيادية تحت الشمس المشرقة البهية، فإن لها جمالها الخاص، ولكن دون ذلك تعتبر شيئًا مملاً ومثيرًا للسأم إلى حد بعيد، جاءني حجي محمد مكتئبًا يقول بانه يشعر بأن بطنه على غير ما يرام. ولحسن الحظ تبين ان حالته غير خطيرة، وبعد ان اعطيته جرعة من ملح كالرلزباد قال انه الآن على ما يرام.

وبعد وصولنا إلى النهر، مررنا ببعض المنحدرات التي تتميز طبقاتها بالتموج وهي المرة الأولى التي اشاهد فيها مثل ذلك منذ مغادرتي حلب حيث طبقة الصخور ليست افقية. عبرنا كذلك الكثير من الوديان والبرك واجتزنا بعض النماذج الغريبة من احجار الكلس المتعرضة للتعرية حيث تقي الطبقة ذات الصخور الصلبة التكوينات الأقل صلابة مكونة بذلك اشكالاً غريبة تغطي وجه السهل.

وسرعان ما اصبحنا على مرأى من هيت الواقعة على بُعد حوالي ميل واحد من الجبل وعلى سهل اسود مشبع بالماء، وتعود خاصيته المتميزة هذه إلى الملح والقار، حيث تلاحظ هذه في هذا المكان الفريد. وعلى الجانب الأيمن مررنا بعدة اضرحة لشيوخ، كان من بينها ضريحًا كبيرًا بحالة مهدمة يسميه حجي محمد (المزار).

اقيمت المدينة بمعظمها على السهل، حيث بنيت على تل يحيطه خندق والذي يبدو إلى حد ما بانه تل اصطناعي وشبيه بقلعة حلب. ويوجد فيها منارة واحدة وبالقرب منها مزارع نخيل حيث معظم الأشجار قصيرة وصغيرة العمر.

وعند حوالي الساعة الواحدة سرنا في فضاء مفتوح على الجانب الجنوبي من المدينة وبالقرب من دار الحراسة، يغطي الأرض في كل مكان القار الصلب وهو شبيه بالإسفلت إلى حد بعيد مما جعل من الصعب علينا نصب الخيمة. إضافة إلى هذا كان المكان مليئا بفضلات القوافل الأخرى ونتنا بشكل مقيت بحيث اني فكرت في الذهاب إلى الخان القريب منا على قمة التل. كانت رائحة الأرض الكريهة تبدو لي اهون الشرين، وقد تم نصب خيمتي بصعوبة بالغة، حيث جرى اولاً فتح ثغرات للأوتاد في الإسفلت بواسطة مخارق حديدية كبيرة. لقد جعلت حقيقة كون المكان يقع خارج المدينة الوضع غير مريح البتة، حيث اصر حشد كبير من الفتيان والرجال على الدوران حول الخيمة وهم ينظرون بتطفل إلى داخلها ويقومون بأعمال بهلوانية على الحبال. وبعد وقت قصير، أرسل المدير افندي شرطيًا لإبعاد الناس وحراسة الخيمة خلال الليل.

كانت المدينة التي يعود تاريخها إلى عصور قديمة مبنية كما سبق ان اوضحنا على ما يبدو انه تل قديم[1]. يبلغ عرض الشوارع حوالي خمسة اقدام وفيها مجاري مفتوحة تجري نحو الوسط وتفوح منها روائح كريهة ونتانة. بُنيت الأكواخ الخربة التي تشكل المدينة من الطين وهي كما استطيع ان ارى نتنة كالشوارع. قمنا بجولة وسط هذا الفردوس ورغم ان سكان المدينة لم يوجهوا لي في الواقع اي إهانة، إلا انهم اظهروا استياءهم من وجودي.

وجنوب المدينة هناك اكوام هائلة من الخرائب يظهر انها بقايا مدينة (IS) القديمة التي ذكرها هيرودوتس والتي يجب ان يكون تل هيت يمثل قلعتها. وتنتشر على هذه الخرائب العديد من الأفران المبنية على شكل خلايا حيث يجري فيها حرق الكلس لغرض تصديره إلى بغداد.

---

(١) تم فتحها من قبل احد قادة عمر في عام ٦٣٧م. (المؤلف).

اخذت اتمشى بعد ذلك نحو عيون القار الواقعة إلى غرب المدينة بمسافة حوالي نصف ميل تقريبا. إن هذه الظاهرة اللافتة للنظر هي التي اكسبت هيت سابقًا اسم "ثغر الجحيم" فالنفط يفور من الأرض وبعد تعرضه للهواء يصبح قارًا وبترولاً. اما الماء فيجري نحو منخفضات او برك مربعة صغيرة حيث تتشكل كميات كبيرة من الملح بعد تبخره. يتميز الماء في هذه المنخفضات بكونه فاتر الحرارة وفي بعض الأحيان يكون ذا لون أصفر فاقع. يكون الملح في بعضها على السطح بينما يكون في اخرى تحت الماء او على الحافات فقط. ومنظره يشبه إلى حد بعيد منظر صقيع متجمد. والماء هنا ذو طعم غير مستساغ، ويبعث المكان نفسه رائحة كبريت كريهة.

لقد جرى تمجيد عيون القار هذه في الماضي، وقد شاهدها الإسكندر الكبير وتراجان وسفرس وجوليان. يقول هيرودوتس ان قار (IS) قد استخدم كسمنت (او رابط بين الآجر) في اسوار بابل. ويستخدم في الوقت الحاضر كوقود او لطلاء القفف او الزوارق الدائرية الصغيرة المستخدمة في النهر إضافة إلى الأنواع الأخرى من المراكب ويقال انها تستخدم ايضًا لتبطين مجاري المياه لري البساتين والأراضي الزراعية. ويصدر القار والبترول بكميات كبيرة إلى بغداد ولكن لا هذه ولا تجارة الملح او الكلس قد اضفى على المدينة مظهر الازدهار او الرخاء[1]. وقد شاهدت في النهر في هيت عدة مراكب غير

(١) للمزيد من المعلومات عن عيون النفط في هيت يمكن مراجعة كتاب اينسورث (بحوث في بلاد اشور) صفحة (٨٥) و"مسرد شخصي عن بعثة وادي الفرات" المجلد I صفحة (١٤٣)، وكتاب كرانتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية) المنشور عام ١٨٧٨ المجلد II صفحة ١٧.

تعتبر كتابات الرحالة الأوائل دائمًا مثيرة للمتعة. يقول جاسبارو بالبي "وصلنا الى (ايت) التي يوجد بقربها نافورة تغلي من الزفت حيث يبني الأهالي بيوتهم منه إذ يطلون الأغصان المقطوعة من الأشجار بهذه المادة بحيث تبدو لنا من الزفت اكثر مما تبدو بانها من الأخشاب، يستطيع كل فرد اخذ ما يريد من هذه المادة مجانا. ولو لم ينقل الفرات الفياض هذا الزفت بعيدا، فإنهم يقولون انه ستتشكل تلال منه". -

متقنة الصنع ذات نهايات مربعة، جرى بناؤها بغية استخدامها لنقل احمال القار إلى البصرة. تعتبر النواعير هنا اكثر إتقانا في الصنع من النواعير التي سبق ان شاهدتها وبعضها فيها ثلاثة او اربعة من دواليب المياه.

كان اليوم التالي هو اول ايام رمضان وهو شهر الصوم في الإسلام، وعندما آويت إلى فراشي كان الناس في جميع انحاء المدينة يطلقون النيران احتفالاً بالمناسبة. ونتيجة لذلك، راى رجالي انه من المناسب إقامة ليلة خاصة بهم، فقد بدا حمادي يغني كالقبّرة حتى ساعة الصباح. وبين هذه الأشياء التي تقطع النوم وعراك الكلاب والرجال الذي يسوقون حميرهم من فوق حبال خيمتي وتنخع الشرطي المرافق لي وبصاقه خارج المدخل والرعد والبرق والعواصف، لم اتمكن من اخذ سوى قسط قليل من النوم. وعند حوالي الساعة الواحدة خرجت ورايت منارة الآجر الطيني الكبيرة مضاءة باجمعها وسمعت بوضوح صوت تراتيل المؤمنين التي تعتبر في صمت الليل شيئا مؤثرًا ورائعًا.

غادرنا مبكرين وقطعنا لبعض الوقت تلألأ حصبانية واطئة قرب النهر. وقد شاهدنا في احد الأماكن عودة شجيرات الطرفاء وهو منظر كان غائبًا عنا لبضعة ايام. بعد هذا مررنا ببقعة ارض مرتفعة من الصحراء تغطيها قطع متلألئة من نوع

- وكتب رالف فيتش الذي زار المنطقة في عام ١٥٨٣م ما يلي: «على نهر الفرات وعلى مسيرة يومين من بابل وفي مكان يدعى (ايت)، هناك شيء غريب يمكن مشاهدته في موقع قريب منها وهو عين تقذف الزفت للغلي باستمرار إلى الهواء ورائحته كريهة حيث يسيل الزفت ويغطي مساحة كبيرة مليئة به. يقول المسلمون انه ثغر الجحيم. وبسبب وجود كميات كبيرة منه، يطلي الرجال في تلك البلاد قواربهم بهذه المادة بسمك إنجين او ثلاث إنجات كي لا يدخل اي ماء إلى داخل القارب. تسمى قواربهم (الدانق)».

كذلك يتضح من خلال كتاب تاشارا «تاريخ مركوند» انه قد استخدمت قدور مليئة بالقار والنفط المشتعل ايام الخلفاء في المعارك، وهو سلاح غير ماض، لأنه إذا ما هبت الريح في الاتجاه المعاكس، فإن الرماة هم الذين سيحترقون بدلاً من الأعداء».

معين من معدن السبار. ليس هناك اي نوع من الأعشاب النامية في هذا المكان. وبعد ذلك مباشرة، هبطنا في ارض ملحية موحشة وهي ندية بالرطوبة إلى حد يصعب المشي عليها، رغم انها خالية من الماء. وتمتد على جزء من هذه الأرض سدودا لقناة قديمة، هي الأولى التي نشاهدها من شبكة القنوات البابلية. وتتالف هذه السدود من سدّين او استحكامين يمتدان بشكل متوازي عبر السهل.

وعند حوالي الساعة الحادية عشرة، نهضت فجاة بسبب توقف التخت ونظرت إلى الخارج حيث شاهدت بخيت وحجي محمد وحمادي وهم ينطلقون وعصيهم في ايديهم باقصى سرعة على الأرض خلف ثلاثة اشكال تعدو بسرعة بالغة. لم تكن لدي اي فكرة في البداية حول ما يجري، ولكنني رايتهم يلحقون بالفزاعات الهاربة ويدركونها بشدة. تفرّقت الفزاعات، إلا ان محمد قد امسك باحدها وطرحها ارضا، ولحقه الآخرون واخذوا يضربونها بشدة. وعندما ركضت نحو ما يبدو ان يكون مسالة قتل بالعنف، كف الرجال عن الضرب وهجم حجي محمد على المسكين واخذ يلكمه بتواصل. ثم اعتقلوه بعد ذلك وجلبوه، كان رجلاً بائسًا مسكينًا ذا وجه ماكر. يبدو أن ثلاثة رجال قد ظهورا فجاة وحاولوا سرقة احد البغال. انطلق الشرطي الذي كان يسير وراءنا خلف احدهم عندما تفرقوا وجلب احدهم وكان بائسًا كالأول. لا شيء يمكن فعله إزاءهم، والواقع ان الأول قد عوقب بقسوة لمحاولته السرقة، لهذا حذرتهم وطردتهم بعد ان زرعت الهلع في نفوسهم وذلك بتصويرهم.

ونتيجة لهذا التاخير البسيط، لحقت بنا المجموعة التي كانت تسير خلفنا. كانت تتكون من رجل مع زوجتيه والأطفال، والجميع يمتطون الحمير. سارت النساء التي إحداهن جميلة جدًا امام شباك التخت والقت نظرة فاحصة داخله. وسرعان ما

لاحظ الرجل ذلك، حيث كان يسير والمجموعة بكاملها امامه كقطيع من الأغنام، وفي الحال استخدم عصاه لتحافظ نساؤه الصالحات على مسيرهن الحسن في المقدمة.

وبعد قليل وصلنا إلى (ولي)[1] او ضريح شيخ يدعى الشيخ ويس، الذي يبدو أن له قداسة محلية خاصة. جاء الرجل الكبير الذي يتولى العناية بالمكان وطلب هدية، وهو شكل من أشكال الضريبة المفروضة على جميع المسافرين. وفي حوالي الساعة الثانية، قابلنا احد خيالة عنزة، وهو الأول الذي شاهدناه منذ بضعة ايام، هناك اماكن في هذه المنطقة قد تمت زراعتها بكثافة، إلا ان هناك العديد من بقع الأراضي المستوية الطينية الملحية المملة، تقطعها هنا وهناك تلال رملية.

وبعد مرحلة طويلة من السير لمدة عشرة ساعات ونصف وصلنا إلى الرمادي او قلعة الرمادي وهو مكان ذو اهمية بالغة، كونه يقع وسط النخيل. خيّمنا في ميدان كبير حيث يوجد بناء ضخم على احد الجوانب وصرح مهيب، اعتقد انه السراي على الجانب الآخر. لقد بنى كلا المبنيين مدحت باشا عندما كان واليًا على بغداد. وقد خرج معظم سكان المدينة كالمعتاد لمشاهدة وصولي، وكان الجميع فضوليًا بشكل مقيت وبعضهم غير متمدنين البتة. سمعت حمادي يشرح لهؤلاء القوم بانني القنصل، وهذا يفسر سبب الإشاعة التي سبق ان وجدتها منتشرة في المدن التي زرتها. سالني احد الأشخاص فيما إذا كنت اتحدث الفرنسية، ورغم جوابي له بالإيجاب، فإن الحديث التالي لذلك لم يكن متواصلاً لأن هذه الكلمات هي الوحيدة التي كان يعرفها السائل. حضر رجل شرطة وتفحص اوراقي ورحل بعد ان سال فيما إذا كانت سلة القناني البريئة التي كانت تحتوي قنينتين احدهما مياه معدنية مسهلة والأخرى شراب

---

(١) يعني الولي في الواقع «المحبوب» أو «المفضل» من قبل الرب، إلا ان هذه المفردة تطلق باستمرار على اضرحة القديسين. (المؤلف).

براندي للأغراض الطبية هي للحصول على المتعة او"الكيف". يتميز سكان قلعة الرمادي بانهم ذوو بشرة فاتحة ولهم عادات سكان المدن بحيث يختلفون جدًا عن الزهو الصريح للبدوي الذي أراه دائمًا او حتى عن عادات سكان الدير وعانة. إلا ان الطربوش الذي يعتبر شائعًا جدًا في حلب، غير شائع الاستخدام هنا. لا تقع قلعة الرمادي على ضفة النهر مباشرة، والماء الوحيد الذي يحصلون عليه هو من عين في بستان مجاور ومجرى ماء. قمت بالاستحمام المعتاد فيه وهذا ما اصاب البستاني بالدهشة. ورغم ان قلعة الرمادي مكان كبير إلا انني لم استطع ان احصل على قطرة من الحليب فيه.

لبيان جشع بعض العرب، علي ان اذكر حكاية باني قد قدمت لرجالي القليل المتبقي من الرز (كوننا سنصل بغداد بعد يومين) واشتريت لهم دجاجتين كهدية. لم اكد افعل ذلك، حتى جاء محمد إلى خيمتي وطلب مالاً لشراء الوقود لغرض الطبخ. ابلغته ان عليه ان يخجل من نفسه وتركني وهو يشعر بالاستحياء.

في الليل وعند الساعة السادسة، اطلقت النار، فخرجت واستطعت ان ارى شخص المؤذن وهو يرتدي البياض وتسطع عليه الأضوية والمصابيح ويقف على منارة صغيرة او سقف بيت عالي وعبر هواء الليل الساكن يصل إليّ ترتيله الجميل. تختلف التلاوات الليلية لهذا الشخص خلال رمضان عنها في الأوقات الأخرى من السنة.

وفي الصباح التالي غادرنا الرمادي وشعرت اننا نعود إلى الحضارة حيث تبعنا خط اعمدة التلغراف التي تربط هذا المكان ببغداد. وقد جاءني محمد بحكاية مفادها انه سمع بان القنصل البريطاني قد غادر بغداد وان عليّ مقابلته ذلك المساء في الفلوجة. وقد تبين ان هذا الخبر غير صحيح. وقال ايضًا اننا سوف نسير خلال النهار في ارض يصل وحلها إلى الصدر وهو توقع رائع يتطلع إليه المرء خلال مسيرة يوم كامل.

تختلف طبيعة البلاد التي سرنا عليها في الصباح عما اراه الآن. فالسمة الأساسية لها هي تلال الأوحال التي ترتفع على سطح السهل على نحو خطر. يبدو على هذه التلال مظهر الطمي او الغرين، إلا انني غير متاكد من ذلك لأنني شاهدت معدن السيار يتلألأ على جوانبها. وبعد ساعتين من مغادرتنا مررنا بآثار قناة قديمة اخرى، التي يجب ان تكون تلك التي ذكرها إينسورث بأنها توجد في مدينة (صوره) التي تبعد اربعة اميال جنوب الرمادي والتي عرفها الرومان باسم (نهر سارس) ويسميها التولوميين باسم (مارسارس) او (سارس المسلمين). وبعد وصولنا ومغادرتنا النهر سرنا لحوالي ساعتين بين الأراضي المزروعة وتلال الأوحال حتى اصبحت الساعة العاشرة حيث وصلنا إلى النهر ثانية الذي تتاخمه هنا مستنقعات من الأوحال. ورغم الأرض السيئة، إلا اننا سرنا بسرعة اكبر من المعتاد وهذا إجراء قاس جدًا على البغال بعد رحلة طويلة كهذه.

كنت مستاءًا للغاية من تصرف بخيت خلال مسيرة الصباح. كان هناك شيخًا كبيرًا يتبع القافلة ومعه مهر بغل صغير قوي غير مروّض. لدى هذا الشيخ المسكين خرجًا ثقيلاً، إلا ان الحيوان لا يحمله، والواقع انه من الصعوبة ان تجعله يمشي بنفسه، وفي كل مرة يسعى العجوز لوضع الخرج على ظهره، يندفع الحيوان ويرمي الخرج بعيدًا، ومما يثير الشفقة ان ترى الرجل العجوز وحمله على كتفه وهو يسحب البغل العنيد الذي يتخلف في السير عن الآخرين وبذلك يضيف عشرة اضعاف لأعباء سيده. طلبت من بخيت مساعدته بوضع الخرج على احد بغالي لبرهة من الزمن، إلا ان قاسي القلب رفض ذلك تمامًا قائلاً ان لدى الرجل حيوانه الخاص وانه اي بخيت مستاجر لنقلي وامتعتي فقط. وهذا عمل فظ قلما شهدته لدى العرب الذين يتميزون بشكل عام بانهم محسنين وكرماء نحو الكبير او العاجز.

عند حوالي الساعة العاشرة وصلنا إلى مستنقع موحل قذر مليء بالمياه الراكدة، وبعد مسير متخبط لمدة نصف ساعة في هذا المستنقع المثير للجزع، ضللنا طريقنا، إلا اننا وجدناه بسرعة لحسن الحظ. وقد حلت بالبغل الرمادي الصغير المسكين كارثة في بركة ماء، فكان علينا إنزال حمولته وسحبه وسط الكثير من الصياح والإيماء. وبعد تخليصه من هذا المازق في غضون نصف ساعة، دخلنا في ارض نصفها مزروع والنصف الآخر يسكنها رعاة عرب حيث تشاهد خيامهم وقطعان اغنامهم وابقارهم في كل مكان. شاهدت في الأرض الزراعية محراثا خشبيًا بدائيًا يجره حصانان. وعند حوالي الظهيرة وبينما كنا نعبر على جسر صغير يمتد على مجرى ماء للري، شعرت برجة مفاجئة وبدأ التخت يتارجح على الجانبين، خرجت على اي حال ووجدت البغل الخلفي ساقطًا في الماء وراسه بارز إلى الأعلى. لقد انسحقت قوائم هذا الحيوان المسكين أسفله، ومن الضروري نزع العدة المركبة عليه ورفع التخت كي يتخلص من محنته. كانت صرخات وصيحات المكاري والسائس في هذه اللحظة مروعة. ولحسن الحظ لم يصب البغل باي أذى واستانفنا رحلتنا دون تاثير سيئ لهذا الحادث. وبعد هذا دخلنا في أرض مستنقعية حيث كانت خضرتها بعد ثلاثة اسابيع من السير في الصحراء امرًا يسر الناظر. وفي احد الأماكن، كان علينا ان نخوض في بركة ماء راكد كبيرة بحيث دخل الماء إلى بطن التخت. وبعد خوض الماء في اهوار اخرى من نفس النوع، وصلنا إلى نقطة يتم عبور النهر فيها بواسطة القوارب إلى الفلوجة. يقطع النهر هنا جسرًا من الزوارق الرديئة عندما يكون تيار النهر بمستوياته الاعتيادية، إلا ان طوفان الماء اخذ بالارتفاع بسبب ذوبان الجليد في ارمينيا، وقطع الجسر إلى نصفين، وبقي كل نصف ثابت على الجرف من احد اطرافه. سرنا على طول ممر ضيق جرى ترتيبه لصد مياه نهر الفرات (ربما يقاس نجاحه من خلال المستنقعات التي قطعناها)، ونادينا على احد القوارب. وبينما كنا ننتظر، وجدت على حافة المستنقع سلحفاة ميتة

كبيرة طولها حوالي قدمين ونصف وذات درع رقيق. وقد شاهدت هنا واحد أو اثنان من قوارب القفف الغريبة التي تعتبر شائعة الاستخدام في بغداد في نهر دجلة. لقد تمت صناعة هذه القوارب من أغصان قوية صغيرة ومجدولة وتم إكساؤها من الخارج بشكل سميك بالقار. شكلها دائري تمامًا وقطرها من ستة إلى تسعة أقدام. تستطيع القفة الكبيرة أن تحمل عشر ركاب أو أكثر ويقال أنها لا تنقلب أبدًا. يقودها شخص واحد بمجذاف حيث يدفعها ويقودها مع مجرى تيار النهر. أما رحلة العودة فتتم بواسطة سحبها على طول الضفة. وتستخدم هذه للنقل عبر الأنهار فقط. وهذا النوع من القوارب كونه يشاهد دائمًا ذو ماض سحيق حيث وجدت صورة في بعض النقوش البارزة الآشورية[1].

وبعد صياحنا عبثًا لبعض الوقت، وصل إلينا مركب مربع يقوده عربي كبير لطيف قوي البنية ذو لحية بيضاء، تبين أنه عم محمد. صعدنا مع البغال على ظهر المركب وأخذت البغال أماكنها بثبات مما يدل على أنها سبق أن صعدت على هذه المراكب من قبل. تم وضع جميع أمتعتي في القفة وتم عبورنا بسلام. كان مجرى التيار هنا قويًا بحيث اضطر سائقو المركب إلى سحبه بقوة عكس التيار لغاية قطعه أكثر من نصف المسافة عندما تركوا المجاذيف وانساق المركب بسرعة مع مجرى التيار ونحو نقطة على الضفة الشرقية من النهر مقابل مكان صعودنا. وقد لاحظت أن التيار هنا الذي كان قويًا جدًا يشكل في فواصل معينة لدقائق معدودة دوامات كبيرة في وسط النهر يمكن سماع صوت هديرها بوضوح على ضفتي النهر، يتخذ المركب أثناء عبوره للضفة الغربية نفس خط السير إلا أنه معكوس إذ يجري سحبه إلى مكان يقع إلى الجنوب من مرسى المركب ثم يسحب ثانية متوقفًا بالضفة. وبعد الوصول أجرى

---

(١) وصف هيرودوتس قوارب مماثلة مستخدمة في نهر الفرات وقال أنها مكسوة بطبقة من الجلود ومصنوعة في أرمينيا. (المؤلف).

المركب رحلة ثانية لغرض تعبير التخت الذي وصل مهشمًا باكثر مما كانت أتوقع. بلغت الأجرة الكاملة لتعبير التخت وست بغال وحمار وثلاثة رجال وانا مجيدي واحد وبقشيش من نصف مجيدي إلى سائقي المركب. كانت الفلوجة مكانا بائسا. جرى نصب خيمتي في مكان صغير مفتوح مقابل احد المقاهي.

تعتبر المسافة من الفلوجة على الفرات إلى بغداد على دجلة مسافة كبيرة. والواقع أنها تستغرق مسير يومين إلا انه يجري قطعها غالبًا في يوم واحد، ولأنني كنت تواقًا للوصول إلى بغداد، وافقت على المسير المضاعف. وبعد نوم لمدة اربع او خمس ساعات غادرنا بسرعة بعد الساعة الثانية. ورغم ان رجالي قد ساروا قرابة عشرة ساعات في اليوم السابق كان الجزء الأكبر منها سيرًا على الأقدام وامامهم الآن مسير لمدة اربع عشرة ساعة، إلا ان النوم يبدو إليهم شيئا غير ذي اهمية، حيث كانوا يتحدثون ويغنون معظم الليل. واستمر الجو مظلمًا لعدة ساعات بعد ان بدانا المسير ولم اتمكن من رؤية البلاد التي نمر فيها. وعندما انكشف النهار وجدت اننا نسير في سهل عشبي جميل خالي تمامًا من السمة الصخرية الوعرة للصحراء العربية. تقع على يسارنا بحيرة او مستنقع كبير نشاهد على سطحه اسرابًا هائلة من الطيور التي تدور حوله. والواقع ان السهل يعج بالطيور وبعيدًا فوق رؤوسنا تحلق اعدادًا كبيرة مما يبدو انه إوز بري كان الشرطي يسميها "سقافلس".

بسبب الطريق غير الواضح الذي نسير فيه والتوقفات العديدة التي اجريناها، شعرت أنه من المؤكد اننا قد ضللنا الطريق في هذه العتمة. والواقع انه ليست هناك اية علامة دالة على الطريق وسط السهل المعشوشب الذي نجتازه حاليًا. انكر رجالي بالطبع انهم قد اضلوا طريقهم، ولكنني قررت مراقبة سيرنا بالخارطة والحك. ولحسن الحظ سرعان ما التقينا برجل مسلح ببندقية والذي ادلنا على الطريق حيث بلغناه بسرعة

وكـان باقـرب مـن سهل مـزروع كـنا نسير بجانبـه على جهة اليمين، وكـان بمستوى اقـل مـن مستوى السهل غير المزروع الـذي نجتازه حالـيًا. هنـاك ايضًـا عـدد قـليل مـن الشجيرات القصيرة، وكان الطريق مليئا بالبرك بسبب الأمطار الأخيرة، حيث يظهر انها سقطت بغـزارة هنـا، وبعد ذلك بوقت قصير، شاهدنا تلالاً تدل على وجود قناة قديمة تقطع السهل، بعـد سـاعة ونصـف اجـتزنا ما لا يقل عن خمسة من هذه السدود الكبيرة الـتي تظهـر الآن بانها تقطـع السهل في جمـيع الاتجاهـات وتقطـع بعضـها الـبعض بـزوايا مختلفة. وقـد شاهـدت قـرب السـد الـثاني مـنها تـلالاً واطـئة وكسرًا من الفخار. كان كـل شيء يـدل عـلى اننا دخلنا إلى شبكة كبيرة من اعمال الري القديمة التي استطاع البابـليون مـن خلالـهـا رفـع كفـاءة ارضـهم من حيث الخصوبة وغزارة الإنتاج. تحولت ضـفاف القـناة الأقـرب إلـينا دون نظـرنا إلى ضـفاف القـنوات الأبعـد في الوقـت الحـالي. في نفـس الوقـت الـذي وصـلنا فـيه للقـناة الأولى، شـاهدنا امامـنا مباشـرة شـيئا غريـبًا يذكـرني بـبرج سـاعة ويست ونستر كمـا نشاهـده مـن تـل هارو. كـان هنا هو البناء الفخـم مـن الأجـر الواقـع في السهل الـذي يـبعد مسافة سـتة او سـبعة اميال غرب بغداد ويعـرف لـدى العـرب باسـم تـل نمـرود او عكركـوف. كان هذا النصب الغريب الراسخ الـذي يـرتفع لأكـثر مـن مائـة قـدم يشكل دائمًا مشكلة محيّرة للرحالة ودارسي الآثار بوصفه بـرس نمـرود. كـان الرحالة الأوائل يعتبرون بانه برج بابل نفسه، يكتب بالبي في عـام ١٥٧٩: "وقـبل شـروق شمـس الـيوم الـتالي، سـرنا بـين هـذه الآثـار وجعلـناها عـلى يسارنا حيـث شـاهدنا قطعًـا من الأسوار الكبيرة المهدمة واحد القطع من برج بابل الكبير حـتى وصـلنا إلى مكـادون، حيـث شـاهدنا ابـراج بغديـت او بـابل الجديـدة. وابـتداءًا مـن الفلوجـة كانـت الأرض صـالحة للـزراعة إلا انـنا لم نشـاهد شـجرًا او عشـبًا اخضـرًا ولا بـيوتا او قلاعًـا، بـل كـان الفطـر هنا رائعًا بحيث أن المسلمين ياكلونه طازجًا". ويقول

رالف فيتش الذي سافر على نفس هذا الطريق بعد عدة سنوات: "بني برج بابل على هذا الجانب من نهر دجلة، على جهة الجزيرة العربية من المدينة. (وهي بغداد التي يصفها بشكل واضح إلا انه يسميها بابل)، وتبعد سبعة أو ثمانية أميال حيث البرج مهدم من كل الاتجاهات وقد كوّن سقوطه جبلاً صغيرًا لهذا ليس له اي شكل منتظم على الإطلاق حاليًا. لقد تم بناؤه من الآجر المجفف بواسطة الشمس ووُضع بين الآجر عيدان وأوراق شجر النخيل. ليس هناك اي مدخل يمكن الدخول منه لمشاهدة داخله. وهو ينتصب في سهل فسيح بين نهري دجلة والفرات". ربما يكون الأثر الوحيد الباقي لمدينة بابلية (قد تكون اكد)، التي اختفت منها الآن جميع الآثار القديمة، والتي ربما تكون قد هدمها الخلفاء لغرض بناء بغداد. يلاحظ كرانوف كيري[1] ان اسم عكركوف[2] يطلق على المكان اكثر منه على البناء الذي يسميه الأهالي دائمًا نمرود. والمراجع منقسمة ايضًا حول ماهية هذا البناء بالفعل، هناك نظرية مقبولة من قبل الكثيرين بأن هذا البناء يشكل جزءًا من معبد بيلوس. ويعتقد بكنكهام وهو رحالة ذو ذكاء مفرط، أنه يجب ان يكون جزءًا من بناء شبيه إلى حد ما بالأهرامات المصرية، وهذه فكرة مقبولة إلى حد ما، بعد رؤية ان الآثار المتبقية هي عبارة عن بناء أصم كبير من الآجر.

كان الصباح مشمسًا يهب فيه نسيم ضعيف، إلا انه ليس حارًا، وكانت الأرض التي نسير عليها تعج بالحشرات النطاطة الكبيرة من النوع الذي يعيش على الأعشاب.

---

(١) انظر كتاب "رحلة عبر تركيا الآسيوية"، عام ١٨٧٨، (المؤلف).

(٢) تقع هذه المنطقة على بُعد (٣٠) كم غرب بغداد، وهي تمثل بقايا المدينة التي بناها الملك الكيشي كوريكالزو (١٤٢٨-١٢١٢ق.م) واتخذها عاصمة له سميت بعده دوركوريكالزو وبقيت المدينة مأهولة حتى العصر العربي. ابرز معالمها زقورتها الأعلى في العراق التي لا تزال ترتفع إلى قرابة ٥٧ متر. يعتقد ان ارتفاعها كان في الأصل حوالي (٧٠) مترًا، لها ثلاثة سلالم. تشاهد فيها ايضًا بقايا القصور الملكية والمعابد واحياء السكان، (المترجم).

كـان يرفـرف ايضـا في المـنطقة المحـيطة جـراد اصـفر كـبير، حيـث يطـير بالاتجـاه المعـاكس لأي شيء يعـترض طريقها ثـم تستقر علـى الأرض بشكل مفاجئ على نحو غريـب خـاص بهـذه الحشـرة. وبـين الحشـرات والطـيور، يـبدو انـنا قـد دخلـنا في ارض جديـدة تمامًا مـنذ ان عـبرنا الفـرات واخـذ تـل نمـرود الـذي نقـترب مـنه الآن يتغير من حيث الشكل باستمرار ويبدو انـه والأرض الـتي يستند عليها تنفصل تماما عن باقي السهل بفعـل السـراب. كـان مـنظر الأثـر غريبًا جدًا وهـو ينتصب بعـزلة تامـة وسط السهل الفسيح بحيث اني لا اصاب بالدهشة إذا ما عرفت انه الموطن الأصلي لبعض الجن والعفاريت التي قرانا عنها في قصص الف ليلة وليلة.

وبعـد اجتـياز هـذه واجتـياز الكـثير من القنوات اصبحنا عند الظهيرة تقريبًا على مـراى مـن كـرة متلألـئة تحـيطها منتصبة اربـع مسـلات. كانـت هـذه القـبة المذهبة والمـنارات هـي ضـريح الإمـام موسـى الكـاظم، الـتي تسـمى عـادة (الكـاظمين). وبعـد عشر دقائق ارتفع في الأفق صف واطئ طويل من اشجار النخيل وهو بمستوى تام متصل غير مـنقطع كـالذي نـراه في وارنكتن. كان هـذا هو المشهد الأول لبغداد، مدينة الخلفاء ودار السـلام والـتي اخـذت اتـامل وافكـر باعاجيـبها الـتي ذكـرها السـيد لـين في الـف ليلة مدة اكـثر مـن سـاعة وانـا مـتجه نحـو الشمال الخالي من الشمس. وعند هذه المناظر رفعت الـبغال، الـتي يـبدو انهـا قـد عـرفـت دار السلام بـنفس السـرعة الـتي عـرفها بها رفاقها من البشـر، آذانهـا إلى الأعـلى واخـذت تحـت خطاهـا. تقـدم حمـادي إلى امـام واخذنـا نسـرع بطاقـة مـتجددة باتجـاه المديـنة الـتي لا تـزال تـبعد مسـافة اربعـة او خمسـة اميال. إلا ان مصـاعبنا لم تنـته تمامًا وفي غضـون سـاعة، وصـلنا إلى سـطح مائي كـبير كـوّنه النهر وتحـيطه الأهـوار ولـيس مـن السـهل عـبوره. فقد انغرزت سريعًا قوائم البغل الأول الذي حـاول عـبوره في الوسـط وكـان علينا إنـزال حمولـته وإعادته إلى الخلف للمحاولة ثانيـة. ثـم اخذنـا نـبحث عـن مكـان صـلب التربـة وقـليل العمـق لعـبور التخـت حيث وجدناه في

الآخر وجرى العبور. تم حملي بعد ذلك لحوالي مئة ياردة عبر مستنقع مائي جالسًا فوق أكتاف حمادي وساقيّ على كل جانب من جوانب رقبته كشيخ البحر ولكن دون الثقة التي تميز ذلك الرجل الكبير المتصوف، حيث كنت أشعر في كل لحظة بأني سأسقط في وسط المستنقع. عندما وصلنا الجانب البعيد، قال حمادي كسندباد "انزل على مهلك"، لم أرفسه بقدمي كما يفعل سندباد المسكين ولكني ترجلت بسرعة. طلب حمادي بقشيشًا بحجة أنه يريد إقامة وليمة من لحم الضأن لزوجته بمناسبة العيد عند عودته. وقد أجبته على ذلك "بكرى" لأن غدًا يبدأ توزيع الهدايا قبل نهاية الرحلة. وبعد هذا دخل بغل سيئ الحظ في الضفة الموحلة للنهر وانغرزت قوائمه حتى اباطه، وكان علينا أيضًا إنزال حمولته ودفعه كالآخرين، كان كل هذا مثيرًا بما يكفي من الإزعاج وبقيت أمامنا ميلين لنصل إلى الكاظمين والأمر يبدو أشبه بالوصول إلى بابل (أو بالأحرى بغداد) على ضوء شمعة كما تقول القصيدة. بالإضافة إلى هذه المشاق، لم يكن لدي ماءًا عذبًا طيلة تسع أو عشرة ساعات ولم تكن لدي الجراة لأشرب من البرك الراكدة التي نمر بها، ازداد طول بساتين النخيل وأصبحت مدخنة معمل الخبز تزداد ارتفاعًا ودخل على مرمى البصر بناية أو بنايتين صفراوين طويلتين وهيكل مستدق غريب الشكل هو ضريح الملكة زبيدة. وبعد ذلك مباشرة كنا في الضواحي الغربية للمدينة، تركنا قافلة الحيوان، حيث قال رجالي أنه سيحصل هناك شيء من التأخير عند عبور الجسر، تبعت محمد عبر متاهة لا تنتهي من الأسواق والحوانيت والجوامع الصغيرة والشوارع الفرعية وكلها مزدحمة بكثافة بناس ذوي ملابس غريبة، حتى وصلت إلى طرف جسر من القوارب شبيه لجسر الفلوجة. وهنا صعدنا في قفة حيث سارت مع مجرى تيار النهر نحو دار الإقامة البريطاني، وقرب مكان النزول انطلقت فتاة صغيرة ذات شعر أشقر نحو ذراعيّ محمد وقد غمرت العواطف

للحظة هذا العربي الخشن الكبير الذي يعمل مع قوافل الحيوانات ويدخن الغليون. وعندما انتهى العناق الأبوي، قبل هذا الشيء الصغير يدي واعطيته البقشيش، استقبلني العقيد موكلر القيم البريطاني بلطف وعرض عليّ الاستضافة وخلال فترة قصيرة كنت استكن في غرفة نوم رائعة مزينة على الطراز الفارسي بينما اعد الخدم الهنود حمامي وانزلوا امتعتي. لقد سرنا مسافة لا تقل عن اربع عشرة ساعة منذ انطلاقتنا في ذلك الصباح، لهذا لا عجب إن رميت نفسي هالكًا من التعب على كرسي وهي المرة الأولى التي اجلس فيها على كرسي منذ ثلاثة اسابيع.



الفصل التاسع

بغـداد

موقع المدينة - مزايا الموقع - اسوارها وبواباتها مهدمة حاليا - المدافع القديمة في الثكنات - الشوارع - البيوت - فن العمارة لدار المقيم البريطاني - السراديب - المقاهي - الاسواق - البضع في بغداد - المال - الجوامع - ضريح السيدة زبيدة

رغم وصولي إلى بغداد في الثاني من نيسان وكوني لم اغادر إلى الخليج العربي حتى يوم ٩ نيسان، فقد بقيت في بغداد مدة عشرة ايام فقط، كون الرحلة إلى بابل وكربلاء قد استغرقت سبعة ايام. قضيت طيلة هذا الوقت في المدينة، وبقيت صحتي ليست على ما يرام، وكنت منهكًا للغاية بحيث انني كنت عاجزًا تمامًا عن إجراء جولة في المدينة كما كنت أرغب. والواقع انني كنت في بعض الأيام منهكًا بحيث بقيت في غرفتي في دار الإقامة وانا عاجز تمامًا عن استجماع قواي للقيام بجولة وسط مشاهد ومناظر بغداد كما كنت اود ذلك. ونتيجة لذلك لم تكن الملاحظات التي دونتها غزيرة وارجو من القارئ ان يمنحني العذر عن فقر المعلومات المقتضبة عن المدينة. وبالنسبة لي يعتبر ذلك خيبة الأمل الأكبر ان احد نفسي عاجزًا لهذا الحد في وقت الذروة لكامل رحلتي.

تقع بغداد او بالداش كما يسميها ماركو بولو[1] وبغدات كما يسميها الرحالة الآخرين الأوائل على نهر دجلة على بُعد حوالي خمسمائة وسبعين ميلاً من الخليج العربي إذا كان السفر في مياه النهر، إلا انها اقل من ذلك بالقياس المباشر. لقد جرى اختيار موقعها بشكل جيد، إذ انها تقع على ذلك الجزء من النهر الذي يقترب من نهر الفرات بحدود ثلاثين ميلاً ويرتبط معه بقناة ملاحية تسمى قناة الحكلاوية وهو النهر الملكي الوارد ذكره في التلمود. وبهذا السبيل تسيطر على تجارة النهرين العظيمين في غرب آسيا، اللذان رغم اهميتهما القليلة في الوقت الحاضر، إلا انهما كانا في العصور السالفة في غاية الأهمية، وبقي اثرهما قائمًا حتى عند تأسيس مدينة بغداد على الأقل، وابتداءًا من هذا الموقع باتجاه الجنوب يبتعد النهران عن بعضهما حتى يلتقيا ثانية في نقطة تبعد حوالي مئة ميل من البحر، حيث يجريان بعد ذلك في نهر واحد كبير غير متفرع.

ولموقع بغداد مزايا اخرى ايضا، فقد ارتفعت المدينة وبنيت من وفي وسط آثار لمجموعة من المدن القديمة، التي أدى خرابها واستلزم وجود مراكز سكانية كبيرة. تقع مدن بابل وسلوقية وطيسفون واكد (التي بقي منها فقط آثار عكركوف) على شكل آثار واسعة في السهل المحيط ببغداد، وكان امام القادمين الجدد مستودعًا هائلاً من المواد في متناول اليد لبناء مدينتهم.

تمتد بغداد حاليًا على جانبي النهر (حيث يبلغ عرضها من هنا ثمن الميل) رغم أن الجزء الواقع على الجانب الشرقي هو الأكبر بشكل كبير والواقع انه بغداد الأصلية.

---

(١) ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤) رحالة بندقي وصل إلى الصين. رافق عمه وخاله في بعثة للشرق عام ١٢٧١. عاد للبندقية عام ١٢٩٥. دون تجاربه في كتاب يعتبر المصدر الرئيسي للمعلومات عن الشرق في عصر النهضة. (المترجم).

يـربط هذيـن الجـزئين مـن المديـنة جسر متزعزع من القوارب، يبدو للعين التي اعتادت عـلى الهندسة الغربـية ان العـبور عليه غير مامون. ويقطع هذا الجسر غالبا عند حلول فيضـانات الربـيع حيـث يجـري عـبور الـنهر بواسـطة قـوارب القفـف او بواسـطة زورق بخـاري صغير الـذي يديـره خلال الفترة التي تمت بها زيارتي مهندس طاقة فرنسي. وفي جميع اوقـات السنة هـناك سـاعات معيـنة مـن اليوم، يفـتح فـيها الجسر لمرور المراكب النهرية.

كـان يحيط المدينة في السابق والتي تمتد على جانبي النهر، سور من الآجر، جرى تفكيكه او بالأحـرى تدميره باستثناء برج او بـرجين وجزء عند الطرف الشمالي المحيط بالقلعـة والثكـنات ايـام مدحـت باشـا عـندما كـان والـيًا والـذي احـترت حماسته لإدخال التحسينات الأوروبـية المدنـية بـنفس القـدر الـذي افادتها. وقد بقي لدينا عن هذا السور وصـف فقـط لـه في كـتابات الرحالة الذين سبقوا عصر مدحت باشا. يقول بكنكهام انه "قـد بُـني بالكـامل بالآجـر مـن انـواع مخـتلفة حسـب العصـر الـذي تم البـناء فيه" يجري الدفـاع عـن السور بواسـطة "ابـراج إسـطوانية كـبيرة في الزوايا الرئيسية مع ابراج اصغر عـلى مسافات قصيرة مـن بعضها البعض في المسافات الفاصلة بين الأبراج الأكبر". كـان عـلى هـذه الأبـراج الكبيرة في وقتها حوالي خمسين مدفعًا من البراص. وفي الوقت الحاضر يمكـن القـول انـه لا يوجـد اي دفاعـات مـن اي نـوع في المديـنة. تمـيز مواقـع هـذه الأبراج اكـوام مـن الأنقـاض. هـناك حوالي ستة ابواب إجمالاً إلا ان معظمها قد اختفى تمامًا او جزئـيًا. والواقـع ان هـناك بقايا احدها في جنوب المدينة إلا انه في وضع بائس، ولكن يقال ان احـدها يوجـد في الجانـب الشرقي بحالة افضل. مع ذلك يعتبر الباب الشمالي الغربي هو الـباب الرئيـسي. يـذكـر إينسورث ايضًا ان احدها يدعى باب الطلسم الذي بناه الخليفة الناصـر ودخـل منه مـراد عـندما فـتح المديـنة. وقـد جـرى إعادة بناء هذا الباب وهو لا

يستخدم حاليًا، وقد وصف بكنكهام بناءًا جميلاً يحيطه برجان طويلان، مزين كل منهما بحجاب مستطيل على نفس الطراز الذي بنيت فيه بعض بوابات القاهرة القديمة، إلا انه لم يعطي أي اسم لهذا.

وخارج الأسوار هناك خندق واسع وعميق لا يزال بالإمكان مشاهدته والواضح انه لم يقصد من ورائه الاحتفاظ بالماء رغم انه في الجانب الجنوبي قد اصبح على شكل مستنقع مليء بالضفادع في وقت الربيع عندما يفيض دجلة. مع ذلك، كان الحال بهذا الوصف في هذا الوقت من السنة.

تحيط هذه القلاعات بمساحة كبيرة من الأرض اصبحت في الوقت الحاضر مليئة بالمباني ويقال حقًا ان اكثر من نصف هذا الفضاء المسوّر هو ارض خلاء وغير مستغلة او تشغلها كما هي في الجانب الجنوبي بساتين النخيل. وقد ساهم هذا الوضع في تشبيه بغداد بولاية مسوّرة كبابل التي يقال عنها ذلك، وهو تشبيه غير صحيح، لأن الفضاءات المفتوحة داخل اسوار بغداد تعود دون شك إلى تدهور التجارة وتضاؤل حجم المدينة بسبب الغارات والأوبئة المستمرة التي انقصت سكانها، ولم تكن ابدًا ضمن التصميم الأساس للمدينة. والواقع لا احد يشهد تمامًا عن طور السبات الذي تمر به دار السلام وقلعة القديسين اكثر من هذه البرية المقفرة داخل اسوارها. لقد انكمشت المدينة كنواة جوزة جافة عتيقة.

يتألف الجزء المأهول من الحي الرسمي والسراي والثكنات والأسواق او الجزء التجاري والشوارع الخالية من الحوانيت. لقد تم بناء هذه دون استثناء من الآجر، حيث لا يستخدم الحجر لأغراض البناء في بغداد. اخذت اتمشى في احد الأيام نحو الثكنات والقلعة التي لا تزال محاطة بسور قديم فيه بعض الأبراج الصغيرة الواهنة، وقد وضع برج كبير امام السور كجزء من التحصينات الخارجية. وفي المدينة مستشفى وسجن

وتكنات تضم في ذلك الوقت عدة بطاريات من المدفعية (اعتقد انها ثلاثة). وقد جلب انتباهي مجموعة غريبة من المدفعية القديمة ومدافع مورتر البرونزية. كان احدها يبدو بحجم كبير جدًا ويظهر انه فارس قديم وهو مزين في مؤخرته المستوية بخطوط كتابية طويلة، بينما تحوي الأجزاء التي تعرف فنيًا باسم المسند والماسورة اشكالاً لرجل يقود حصانا واسدًا تم صيده. يقال ان هذه القطع القديمة، قد تم الاستيلاء عليها من الفرس بعد فتح المدينة على يد مراد الرابع في عام ١٦٣٨م.

تعتبر شوارع المدينة مثيرة للسأم إلى حد بعيد، فهي ضيقة ومتعرجة وغير معبدة وقذرة ومغلقة من احد اطرافها بسور اصم من القرميد وخالية من المنافذ المريحة للنفس باستثناء الأبواب التي يتم منها الدخول إلى المنازل والتي تبدو مظلمة. ورغم وجود القليل من العربات في بغداد، إلا ان طرقها ضيقة لا تسمح بمرورها وذات رائحة كريهة وفاسدة لا تسمح بالمشي فيها، لهذا فإن إغراء الاستكشاف ليس كبيرًا. وهناك بعض الشوارع المهمة كالشارع المؤدي إلى السوق من ناحية الجنوب، اقل إضجارًا إلى حد ما لأنها واسعة تتخللها بين مسافة واخرى مقاهي، وفيها بعض البيوت التي تعود لمسيحيين موسرين وحتى لأوروبيين وهي حسنة التهوية حيث تحوي جدرانها شبابيك ذات ابواب. إلا أن معظمها خالية من فن العمارة والتشويق. وعند المرور بهذه الشوارع تستقطب العين بين الحين والآخر منارة صغيرة خضراء وزرقاء من الآخر، إلا ان البلاء سيحل بعابر السبيل الذي يرفع ناظريه للتمتع بمنظرها لأنه في كل الاحتمال ستعثر قدمه إما بكلب ميت أو يحتضر او يعصره إلى الجدار حمار محمل بجلود المياه المتسخة من الخارج.

لم ارى من البيوت كوني رجل غريب سوى القليل. هناك عدد كبير منها مبني على الطراز الفارسي وتحيط بفناء داخلي. تعتبر دار الإقامة البريطانية الواقعة على نهر

دجلة في الجزء الجنوبي من المدينة مثالاً جميلاً لهذا الطراز مظهرها الخارجي بسيط وغير جذاب ويتم الدخول إليها عبر باب ينفتح مباشرة على الشارع الضيق يجد الزائر الداخل نفسه وسط فناء جميل يُحيطه مبنى بارتفاع طابقين. يشغل الآن الطابق السفلي الخدم وبعض الدوائر ومكتب البريد البريطاني. وفي الطابق العلوي شرفة مفتوحة تدور حوله تدعمها اعمدة خشبية جميلة برؤوس مزخرفة. الغرف المفتوحة على هذه الشرفة هي غرف الاستقبال وبعض غرف النوم وبعضها ذات ديكورات جدارية من النمط الخاص ببغداد وبلاد فارس. كانت الغرفة التي شغلتها هي غرفة النوم الرسمية في هذا المكان وتستحق قليلاً من الوصف. تصميمها الأساسي على شكل حرف T وحوالي نصف ارتفاع الجدران مبيض بحجر التبييض وفوقه جزء مزخرف. وعلى الجدران من جميع الجهات هناك أواوين مزخرفة بين كل واحدة واخرى هناك مرآة صغيرة، جرى نقش إطارها على الجدار بحجر التبييض بشكل جميل. وفي الأعلى في الجزء المتقاطع من الشكل T تغطي الجدران بشكل تام مرايا صغيرة جرى وضعها بترتيب في لوحات وفي الأواوين، في حين كان جدار الطرف البعيد من الشكل T فوق الجزء المزخرف مبني من الحجر وعليه بعض تشكيلات المرايا التي يمكن تمييز بعضها بكونها زهريات ونجوم ولفائف زخرفية. جرى تزيين السقف بالكامل بتشكيلات المرايا التي فيها بشكل رئيسي النموذج المعيني مع حافة مزخرفة من المرايا. يدعم الجزء الأمامي من الغرفة المقابل للجدار عمودان من الحجر بتيجان من نفس الوصف. كان الانطباع الذي يتركه هذا التشكيل اخاذا وجميلاً فمظهره هادئ بشكل ساحر وهو يليق على نحو رائع بجو كجو بغداد. اعتقد ان الدار ليست قديمة البناء، إلا ان اسلوب التزيين هذا متميز للغاية ومن الممتع معرفة تاريخ بداية تبني هذا الأسلوب. كذلك يجب ملاحظة سمتين اخريين من سمات بيوت بغداد، وكلاهما موجودان في دار الإقامة. وهاتان السمتان هما السراديب والسقوف المستوية. إنهما في هذا الجو تعتبران من

الضروريات الأساسية. فالأولى هي غرف معيشة مبنية تحت الأرض تقريبًا رغم ان فيها بشكل عام شبابيك عليا لمرور الضوء بنفس اسلوب شبابيك المجاز في البيت اللندني. تعتبر الحرارة في بغداد من شهر آذار إلى ايلول كبيرة إلى حد ان الأهالي يضطرون في النهار للعيش في غرف تحت الأرض، في حين انهم ينامون في الليل على سطوح الدار المستوية. ويحتم هذا بالطبع، اليقظة المبكرة في الصباح إذ ان الجو يكون حارًا للغاية يستحيل فيه البقاء هناك وقت ارتفاع الشمس فوق خط الأفق وعلى النائمين العودة السريعة إلى داخل السراديب. وإذا كان مقياس درجة الحرارة يرتفع بعض الأحيان في فصل الصيف إلى اكثر من (١٢٠) درجة فهرنهايت في الظل، فيمكن الفهم بسهولة ضرورة مثل هذه الترتيبات. وعلى الذين يودون المغامرة والخروج فعليهم فعل ذلك إما مبكرين في الصباح او متأخرين في المساء. إن لشمس بغداد لسعة ربما لم يصل إليها اي جزء آخر من العالم، مع ذلك فإن الثلج والجليد موجود في فصل الشتاء.

عند الطرف الجنوبي من المدينة، يشرف على النهر عدد من افضل البيوت في بغداد. بعضها يعود إلى تجار اوروبيين اثرياء، ورغم انها حديثة البناء، إلا انها مبنية على الطراز الرباعي الزوايا القديم. يوجد في العديد منها حدائق جميلة على ساحل دجلة لهذا لابد انها تعتبر اماكن ممتعة للعيش فيها لأنه لا تستطيع اي إدارة سيئة تركية ان تحيل هذا النهر المهيب إلى قباحة وقذارة. كقاعدة عامة يمكن تمييز البيوت الأوروبية من اناقتها العالية اكثر من بيوت الأهالي، ومن حقيقة ظهور فن الصباغين على ابوابها وشبابيكها.

لمقاهي بغداد سمة خاصة، فهي تماثل بطريقة معينة نوادي لندن وهي توجد في كل مكان. يقع العديد منها بشكل جميل على ساحل دجلة وهي تشرف عليه في حين توجد الأخرى في الأسواق او في الشوارع الرئيسية الكثيرة المارة. بينما تقع الأخرى،

والتي يرتادها الباحثون عن الهدوء خارج المدينة وقرب حديقة او بستان نخيل هادئ في ضواحي بغداد. وجميعها مبني تقريبا بتصميم متشابه. فهي عبارة عن صالات طويلة مفتوحة من الأمام، تستند على أعمدة خشبية بتيجان مزخرفة اعتيادية. وبداخلها دكات او مقاعد خشبية طويلة ذات ذراعين وظهر عالي تتسع لأكثر من شخصين حيث يجلس عليها القرفصون المخلصون وهم يدخنون نارجيلاتهم ويرتشفون قهوتهم ويناقشون بوقار شؤون هذه الحياة. وفي شهر رمضان حيث يصوم المؤمنون نهارًا تتوهج هذه المقاهي بالإضاءة ليلاً، ويمكن مشاهدة مجاميع منهم عند غروب الشمس وهم جالسين مستعدين وغلايينهم في أيديهم ينتظرون غروب الشمس لإشعالها والبدء بمرحهم المعتدل.

ورغم ان الأسواق ليس لها ما يميزها، إلا انه من الضروري التحدث بعض الشيء عنها. تقع الأسواق في الجانب الشرقي وتمتد إلى الشمال والجنوب وهي تشكل في الحقيقة الشوارع الرئيسية في المدينة فهي أسواق طويلة بشكل غير معتاد في مدينة عربية وهي متسعة ومستقيمة. غالبيتها مغطاة بسقوف من العوارض الخشبية والقماش والحصران كحالة عامة، إلا ان هناك بعضا منها مسقفًا بأقواس من الآجر المعقود. ورغم عرضها الواسع، إلا انها تتميز بشيء من القذارة التي لا تشاهد في حلب والقاهرة. فمظهرها في الواقع رث. وكحالة عامة، هناك بعض الأسواق المخصصة لتجارة من نوع معين. فهناك أسواق متعددة للنعالات والسروج وقد شاهدت احد الشوارع الصغيرة تعرض فقط الأحزمة التي يرتديها الرجال والنساء والأولاد واعتقد ان هذه سمة خاصة ببغداد. وهناك بعض الأحزمة رائعة جدًا إذ تمت حياكتها بدقة بخيوط ذهبية او فضية وهي تكلف حوالي سبع أو ثمان شلنات للقطعة الواحدة. بينما تكون الأنواع العادية غير مكلفة ويضم شارع آخر مستودعات صغيرة لا تحوي سوى الأعمدة الخشبية ذات التيجان المزخرفة التي سبق ان ذكرت انها مستخدمة في دار الإقامة البريطانية وفي

العديد من المقاهي. ولأن بغداد على اتصال جيد مع العالم الخارجي، يستطيع المرء أن يجد كميات كبيرة من السلع الأجنبية في أسواقها. فهناك السلع الهندية التي تأتي عبر الخليج من بومبي، وتشاهد اقمشة مانشستر شائعة التداول في الأسواق كما في حلب. كما تستورد ايضًا المرايا والمصابيح والأدوات المعدنية وكميات كبيرة من قطع السكر التي اعتقد ان جميعها قد جاء من فرنسا. ليس هناك حانوتا اوروبيًا تمامًا في بغداد، وهذا شيء غريب إلى حد ما لأنه يوجد في بوشهر ببلاد فارس على الخليج حانوتا ممتازا من هذا النوع. إلا انني وجدت حانوتا في شارع فرعي يديره احد ابناء الشام يعرض سلعًا اوروبية فقط وفيه كمية من المشروبات الروحية والبيرة. هناك ايضا قسم لا باس به من حوانيت العطارين إلا انها ليست كثيرة كما في القاهرة وهي جميعها تبدو في وضع سيئ. يعتبر التبغ احتكاما حكوميًا خالصًا إلا ان السعر المفروض اعلى من سعر الحكومة الأصلي لأن التبغ الجيد ياتي عادة من سامسون[1] حيث يجب إضافة كلفة الشحن على السعر. تشاهد ايضًا بعض المنسوجات الشرقية الجميلة، ولكن على المشتري ان يعرف ابن يذهب وماذا يدفع قبل ان يغامر بالشراء. وهي معظمها فارسية.

وطالما انني اتحدث الآن عن موضوع الأسواق والتبضع، من الجدير ان اذكر الصعوبات التي قد تواجه الرحالة غير المطّلع الذي يود التبضع في بغداد. في الوهلة الأولى، هناك حلقة منتظمة ضد جميع المسافرين الأوروبيين، وحالما تظهر قبعة احد هؤلاء الضحايا في مدخل السوق، حتى يرتفع سعر كل شيء من باون الزبدة إلى الرقم البابلية. فالمسافر الذي يحلم ان يذهب إلى السوق في بغداد متصورًا انه سيحصل على مشتريات رخيصة، يجب ان يسجل على انه حمار، لأنه سيخرج دون ريب كشاة بعد

(١) ميناء تركي على البحر الأسود وهو مركز لصناعة التبغ وسوق زراعي، (المترجم).

الجرّ. والواقع انـه إذا اردت ان اعطي امي نصيحة حول الموضوع، فيجب على اي شخص عدم التبضع بمفرده في "دار السلام وقلعة القليسين". وإذا ما رغب المسافر ان يشتري، سواء كان تحفة نادرة او سجاد او غيرها، فالطريقة الأفضل هي مرافقة احد اهالي المدينة او الأفضل إرسال شخص بمفرده إلى السوق لتدقيق السلع بشكل سريع، والتي على اية حال يجب عدم شرائها في موقع بيعها، بل ان يرسل عليها ثانية لتجلب إلى بيت المشتري بعد يوم او يومين. يمكن الحصول بهذه الطريقة على الأشياء بسعرها الحقيقي تقريبًا، ولكن ان تظهر وتشتري شخصيًا في موضع البيع فهذا امر مدمر لأن لأصحاب الحوانيت في كافة انحاء المدينة تعريفة عالية منتظمة للمسافرين الأوروبيين. هناك تاجر واحد فقط يتعامل بالتحفيات هو علي الكردي حيث زرت حانوته وخانه مرات عديدة وقمت بشراء بعض الحاجات القليلة غير المهمة منه. لديه العديد من الآثار والتحفيات المتنوعة المخزونة والتي حصل عليها من آثار بابل كما ان لديه اسلحة ومنسوجات فارسية والواقع لديه كافة انواع التحف الشرقية. لقد اشتريت منه شيئا مهمًا واحدًا فقط ذلك هو إسطرلاب فارسي جميل ومنقوش بشكل رائع يعود إلى القرن الماضي (اي الثامن عشر) وهو الوحيد الذي حصلت عليه بسعر رخيص لأن علي يجهل فائدته. وكما هو معتاد لدى تجار هذه البضائع، فهو لم يعرض أمامي افضل حاجاته، لأنه قد وجد باني اعرف شيئا (رغم انه قليل جدًا) عن اسعارها. كانت غنيمته سائحًا امريكيًا ثريًا له عين جامع التحف وجيب مليونير.

تعتبر العملة مصدر مشكلة اخرى للوافد الجديد الذي عليه ان يجري عدة تعاملات تجارية في الأسواق. في الوهلة الأولى، هناك العديد من الفئات والكثير منها معلني، بحيث يصعب الإلمام كليًا بالموضوع، بعد ذلك هناك معدلان للتصريف، سعر السوق والسعر المقبول في دوائر الحكومة ولا احد يعرف ما المطلوب. وفي الآخر، يجد

المسافر القادم من الشمال نفس الأسماء للعملات التي تم تحويلها. فثلاثة ونصف من عملة معدنية صغيرة بائسة تساوي في حلب (إذا جمعت صحيحًا) (كرش) واحد أو بنيرا وتسمى هنا (ميتالك) ويشرفونها باسم (كرش) نفسه.بينما ترفض جملة وتفصيلاً فئات اخرى متداولة في الشمال وتتدهور قيمتها يوميًا. ونتيجة لذلك لا اعتقد ان للمسافر الاعتيادي سيبرم صفقة من اي نوع دون ان يكون ضحية للغش بشكل أو بآخر، يجري معظم القيمين الإنكليز الذين جميعهم من الإنكلو - هنود، جميع تعاملاتهم بالرُّبية الهندية التي تعتبر مقبولة في كل مكان. يتداول ايضا الذهب الأوروبي وكذلك قدر كبير من الأموال الفارسية.

ربما تكون جوامع بغداد هي الأشياء المخيبة للآمال اكثر من غيرها لأن المرء يتوقع ان يجد آثار جلال ايام الخلفاء بينما هي في وضعها الحالي من البناء. قد يقال في الحال انه لا يوجد في بغداد جامع او بناية واحدة تستحق الحديث عنها حقًا، وهي حقيقة تلفت النظر عندما نرى الشهرة العظيمة للمدينة في العصور السالفة، لا يصلح هنا اي تفسير بالقول أن الهزات الأرضية المستمرة كما في حلب هي السبب في الافتقار إلى المباني القديمة. لا ريب ان السبب الرئيسي يعود إلى الاستخدام الثابت للآجر القابل للهدم بدلاً من الحجارة غير القابلة للهدم في ندرة الآثار القديمة.

يعطي الرحالة المتاخرون ارقامًا متباينة عن عدد الجوامع في المدينة. لاشك انها كانت في زمن معين باعداد كبيرة، ولكن في الوقت الحالي، من المشكوك فيه ان يكون هناك اكثر من عشرين او ثلاثين جامعًا مهمًا. لاشك انه بجانب هذه، هناك عدد من الحرم الأصغر غير المهمة وغير المميزة في معظم الأحوال بالقبة او المنارة.

يتميز الديكور الخارجي لجوامع بغداد بانه على الطراز الفارسي. فالقباب والمنارات مكسوة بآجر ملون على شكل أطواق زرقاء وخضراء وبيضاء او اشكال معينية

او خطوط كتابية. يكون الأثر الذي تتركه هذا الأشكال بهيجًا وجميلاً، ولكن بما ان القباب والمنارات المزخرفة هي ليست بشكل عام انيقة ولا حتى متناسقة الأجزاء، فقد ضاع هذا الفن تقريبًا وسط ذلك. العديد من المنارات غير دقيقة الاستقامة بشكل كبير، بحيث ان الناظر يفاجأ في الحال بذلك، وهي سمة لا يمكن لها باي حال ان تزين مظهر الجامع، وهذا ربما يعود إلى سوء المهارة اليدوية في البناء.

تنتصب قرب السوق منارة هائلة إلا انها غريبة إلى حد ما، هي كل ما تبقى من جامع سوق الغزل، الذي يقال انه كان في العصور السالفة الجامع الرئيسي في بغداد. إنه مبني من الآجر وهو حاليًا غير مزخرف بالآجر بالملون من اي شكل حيث يتضح انه قد جرت إزالته بشكل كامل. يعطينا بكنكهام وصفًا مفصلاً تقريبًا عن هذه المنارة ولنيبور كتابة عليها كتبها احد اللالي تسجل انه تم بناؤها من قبل الخليفة المستنصر ٦٣٣هـ. يصعد الأوروبيون غالبًا على هذه المنارة ليلقوا نظرة على المدينة، وفي احد الأيام مررت عليها برفقة ضابط إنكليزي شاب بقي في بغداد بعد ذلك وكوّاس القنصل وخادمي، وقد اعربت عن رغبتي بالصعود عليها، حيث اعرب مرافقي ان ذلك ممكن تمامًا وذهب الكوّاس للبحث عن الحارس للحصول على المفتاح، واثناء ذلك تجمع حشد كبير حولنا، وبحالة من الهياج الكبير الذي يتحول في أوقات معينة إلى عنصر خطر اعلن لنا بصراحة بأن علينا الا نصعد. وفي الآخر وصل الكوّاس قائلاً ان الحارس لا يتجرا ان يسمح لنا بالصعود طالما كان الحشد هناك، لهذا تم التخلي عن فكرة الصعود. من الصعب فهم لماذا عارض الحشد صعودنا على هذه المنارة التي ليس لها جامع والتي يسمح عادة للأوروبيين بصعودها.

في الميدان او الفضاء المفتوح في الجزء الشمالي من المدينة هناك جامع جميل وكبير يسمى جامع الميدان.

ومن بين الجوامع الأخرى، تعتبر الجوامع الرئيسية هي الخاصكة والمرجمية والوزير (قرب الجسر) وعباس القادر، يوجد وصف لها في كتاب بكنكهام (رحلات في بلاد الرافدين).

على الطرف الشرقي من جسر القوارب تقع البقايا المهدمة مما كان يعرف سابقًا بالمدرسة أو الكلية التعليمية المسماة المستنصرية. لا شيء بقي منها الآن يمكن رؤيته عدا اجزاء من كتابة طويلة بالخط الكوفي تسجل بأن بناءها قد تم من قبل الخليفة المستنصر عام ٦٣٠هـ. تبدو المدرسة اشبه ما تكون ببناء كلية الجامع الأزهر الكبير في القاهرة.

زرت ما يسمى بضريح السيدة زبيدة زوجة الخليفة المشهور هارون الرشيد بعد وصولي بغداد في يوم واحد. فقد عبرت النهر برفقة احد كواسي دار الإقامة وبعد المرور وسط الأسواق والشوارع المزدحمة الواسعة كالتي في الجانب الشرقي، وصلت إلى هذا البناء الفريد الواقع في فضاء مفتوح، يمكن مشاهدة اضرحة أخرى حوله ومعظمها ذات بناء متواضع. يتكون الضريح من بناء مثمن من الآجر المكسو بالجص مزين كل جانب منه باربع الواح مربعة، تحتوي الألواح السفلى اواوين مقوسة ومزخرفة بالآجر المصنوع باشكال هندسية.

ومن قمة هذه القاعدة يرتفع شكل مخروطي غريب بارتفاع حوالي سبعين قدمًا. لقد سقطت قمته، ولكن الجزء الرئيسي الباقي مزين بزخارف من نوع خاص لم ارى نظيرًا لها في أي مبنى عربي. يتم الدخول إلى المبنى عن طريق رواق خارجي مسقف عبر بوابة لها اقواس. ينفتح داخله إلى قمة الشكل المخروطي المزينة بالزخارف ايضًا. وعلى الأرض ثلاثة اضرحة من بناء بسيط من الآجر احدها يضم حسبما يعرف من الكتابة رفات زوجة المدعو حسين باشا التي دفنت هناك في ١١٣١هـ، حيث تم ترميم

الضريح في ذلك الوقت من قبل حسين المذكور آنفًا. هناك ايضًا شباكان صغيران في المخروط لإضاءة المبنى.

قادنا سلّم دوّار شديد الانحدار إلى الخارج على قمة القاعدة التي يظهر انها تبلغ نصف الارتفاع الكلي للمبنى. يحيط القبة ممر، إلا أنه الآن في حالة سيئة من الإهمال، ومن هذا المكان، استطعنا ان نلقي نظرة واسعة على الإقليم المحيط بما فيها تلال عكركوف والكاظمين والعديد من قباب ومنارات بغداد.

إذا كان هذا حقًا نصب زبيدة التي توفيت حوالي عام ٨٣٠م حسب تاريخنا، فإنه في الواقع مثير حقًا، ولكن كما راينا، فقد جرت عليه عملية ترميم في عصور حديثة ومن المحتمل ان هذا قد تكرر لأكثر من مرّة. وقد يلاحظ ان اعمال الزخرفة الشائعة الاستخدام في جميع المباني العربية في العصور المتاخرة لا يبدو انها قد استخدمت في المباني الأقدم. لا يوجد في جامع ابن طولون في القاهرة، الذي تم بناؤه بعد سنوات لاحقة من نفس القرن، اي اعمال للزخرفة باستثناء موضع المحراب المتجه نحو مكة، وربما تكون تلك إضافة متاخرة. توجد على هذا الجانب من النهر اضرحة اخرى ذات اشكال مخروطية مشابهة وكان احدها المستدق اكثر من غيره موضوع فصل في كتاب كراتون كيري "رحلة عبر تركيا الآسيوية"[(١)]. من الصعب تصديق بان هذه الأبراج المستدقة النحيلة غير المتينة البناء، قد بقيت كما هي لألف عام في حين اختفت جميع الآثار الأكثر متانة في بغداد القديمة. على العموم، من المحتمل اكثر ان يعود

---

(١) قارن ذلك ايضًا بضريح ما يسمى بربهان ابن يعقوب او رواح علي قرب نهر الكارون. جاء وصف له في كتاب كرزن (بلاد فارس) المجلد الثاني ص٢٤٤. يصف بكنكهام في كتابه (رحلات في بلاد الرافدين) مباني مماثلة في الحلة. (المؤلف).

ضريح زبيدة (إذا كان حقًا يضم رفات هذه السيدة الجميلة) في شكله الحالي إلى فترة متأخرة جدًا وهو لا يستحق الاهتمام الذي نوليه له[1].

عدنا إلى القنصلية بواسطة قارب القفة. ولغرض المرور بسلام أسفل الجسر، من الضروري لنا جميعًا أن نجثم في قارع القارب لتجنب ضرب رؤوسها بالألواح الخشبية للجسر كون التيار يحملنا عبره بسرعة.

* * *

(١) يعود هذا الضريح الذي ينسب خطأ من قبل العامة إلى الست زبيدة زوجة هارون الرشيد التي دفنت في واقع الأمر في مقابر قريش في منطقة الكاظمية إلى السيدة زمرّد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله حيث بنته كقبر لها قبل عام ١٢٠٢م خلال حكم ولدها الخليفة الناصر لدين الله. (المترجم).

الفصل العاشر

المـزيـد عـن بـغـداد

الكاظمين - ترامواي بغداد - جامع الامام موسى الكاظم - مناراته وقبابه المذهبة - سكان بغداد - الوباء - العرب - اليهود - تقييم بنيامين اللووولي عن اليهود - الارمن - الكنائس المسيحية - المناخ - الصادرات - الوضع الراهن - رمضان - فندق بغدادي - حبة العمر - يوسف انليكا - الاستعداد للرحلة الى بابل وكربلاء

لا ريب ان المكان الأكثر جمالاً ومتعة بجوار بغداد هو قرية الكاظمين، بجامعها المهيب الذي يعتبر واحدًا من ثلاثة اماكن مقدسة للحج عند الشيعة المسلمين غرب دجلة. يقال، انه هنا يرقد رفات الشهداء الإمام موسى الكاظم او الصبور والإمام التقي. الكاظم هو الإمام السابع وقد قُتل على يدي الخليفة هارون الرشيد بسبب مؤامرة مزعومة عام ١٨٥هـ. يسكن القرية بشكل رئيسي والتي نمت حول المرقد، الشيعة الفرس وهي ترتبط مع بغداد بواسطة الترامواي وهذا المشروع هو احد تحسينات مدحت باشا وباستثناء احماله الغريبة من الركاب ومحيطه المغاير، فإن عرباته تشبه عربات خط الترام الإنكليزي. تبعد القرية عن بغداد مسافة حوالي اربعة اميال لهذا تعتبر تلك نعمة عظيمة لسكان الكاظمين. رغم ان القيام برحلة بمفردك لهذه المسافة في بغداد تحرز نجاحًا تامًا. تشتهر الكاظمين، كمشهد الحسين ومشهد علي بالتزمت الشديد والحقيقة

ان المشاعر في هذه المناطق الثلاثة آخذة بالتفاؤل. صحيح انه حتى هذا اليوم، لا يسمح للمسيحيين او الأوروبيين او غيرهم بالدخول إلى هذه الصروح المقدسة ولا ينصح في الواقع لأي مسيحي ان ينظر بإمعان من الخارج على جمالها. إن السائح الإنكليزي او الأمريكي الذي يقف امام هذه الجوامع ودفتر ملاحظاته او دفتر تخطيطاته بيده، قد يتلقى اي شيء عدا المعاملة الطيبة. وفي وقت معين في الماضي، حاول اوروبي تصوير مشهد الحسين في كربلاء، حيث تلقى ضربًا مبرحًا بسبب ذلك. ورغم هذا فالإنكليزي الذي يتصرف بدرجة اعتيادية من الفطرة السليمة، سوف لن يتلقى سوى اللطف من الأهالي سواء كانوا من الشيعة ام من غيرهم. وحقيقة الأمر ان المشاعر القديمة المناوئة للمسيحيين وللإفرنجيين، خاصة في أوساط الشيعة آخذة بالبطء في الانحسار. وهذا يعود إلى عدة اسباب. منها الحكم البريطاني للهند حيث هناك الكثير من افراد طائفة الشيعة، وإلى التعامل المتزايد بين الشرق والغرب، وبشكل خاص يعود ذلك إلى البصيرة النافذة لفرس الطبقة العليا انفسهم، الذين توضحت لهم حقيقة ان اوروبا المسيحية وليست آسيا الإسلامية هي الآن المنبع الحقيقي للحضارة والتقدم والتجارة نفسها.

زرت الكاظمين برفقة الدكتور شو الذي تم إلحاقه بدار الإقامة البريطانية ببغداد فيما بعد. عبرنا على جسر القوارب واخذنا مقاعدنا في اعلى إحدى عربات ترامواي مدحت، حيث وجدنا هذه المقاعد الحديدية ساخنة بشكل مؤذي بفعل الشمس. يمتد الطريق بمحاذاة ضفة النهر وبعد حوالي نصف ساعة دخلنا إلى بساتين نخيل. وبعدها مباشرة، ترجلنا وسرنا وسط سوق مزدحم كان فيه العديد من السكان الفرس بشكل واضح. قادنا الكوّاس إلى بيت شخص يعود إلى الكاتب السابق في دار الإقامة، حيث استطعنا من فوق سطحه ان نلقي نظرة على الجامع. وقد استقبلنا هنا بلطف صاحب الدار ورجل فارسي يدعى سيد حسن الذي تعرّفت عليه في دار الإقامة والذي عرض استضافتي بكرم بالغ في بيته بكربلاء عند زيارتي المرتقبة إلى هناك، التي

سأقوم بها بعد وقت قريب. تم إيصالنا إلى السطح المستوي للدار حيث وقع نظرنا على منظر رائع على نحو استثنائي.

لجامع الإمام موسى الكاظم الذي يقع امامنا، سور عالي متين البناء يضم سبعة مداخل او بوابات، يواجهنا مباشرة الجزء الأعلى من احدها (الذي اعتقد انه الرئيسي). كما استطيع ان ارى، فهو بناء جميل مهيب مكسو بشكل رائع بالآجر الملون الذي يضم آيات قرآنية وزخارف اخرى وفي أعلى المدخل نفسه هناك زينة من الأصداف.

وخلف هذا ترتفع قبتان جليلتان واربع منارات طويلة وبجانبها اربع منارات اصغر على نفس الزوايا من المنارات الرئيسية. والقباب هي بالشكل الذي ترتفع فيه فوق الموضع الذي تبدا منه على القاعدة الدائرية التي تستند عليها. وقد كسيت هذه القباب بشكل تام بصفائح مربعة من النحاس المطلي بالذهب، لهذا فهي تتلألأ تحت اشعة شمس الشرق البهية بوهج اخاذ. وكسيت المنارات ايضًا بطريقة مماثلة. واسفل موضع وقوف المؤذن، جرى تزيينه بالآجر الملون إلا ان شرفة هذا الموضع الذي تسنده اعمدة متوجة مذهبة كالعمود الذي فوقها والجوزه المحززة التي يسندها، ترتفع هذه المنارات اعلى بكثير من القباب وذات اناقة عالية. إلا ان احدها كالعديد من المنارات في بغداد ذات انحناء بسيط باتجاه موضع المؤذن. يشكل مجمل المجموعة منظرًا فائق الروعة والجمال لا يفسده سوى برجي ساعة بشعين، تم نصبهما مؤخرًا امام وعلى يسار القباب كما نراهما الآن.

اخبرني مضيفي بهذه المناسبة وبعد ذلك في كربلاء ان الصفائح المعدنية التي تم تزيين هذه الجوامع بها مصنوعة من الذهب الخالص. في ذلك الوقت لم اشعر سوى بالشك حول هذا الأمر لأن كلفة تذهيب هذه المساحات الكبيرة ستكون ببساطة خرافية. وقد لاحظت في الواقع هنا وهناك صفائح من المؤكد انها ليست من الذهب

بل تم طلائها بشكل سيئ، لأنها تبدو سوداء وسط اللمعان المحيط بها. ربما جاء هذا نتيجة لعمل حرفي محتال. كان السيد (سي) الذي سافرت معه بعد ذلك إلى كربلاء، يناقش هذا الموضوع اكثر من مرّة معي، واخبرني انه قد وجد جوامع مماثلة على طول طريق رحلته إلى طهران. وفي تلك العاصمة استفسر من بعض المعنيين بخصوص الموضوع وابلغوه ان جميع هذه الجوامع دون استثناء سواء في بلاد فارس ام في البلاد العربية قد كسيت بصفائح من النحاس، تم طلائها بسمك ثمن الإنج بالذهب الخالص. لقد اخبروه ان صفائح الذهب ستكون مكلفة إلى حد هائل. وهذا دون شك هو الصحيح وربما تعود المعلومات التي وصلتني إلى خلط في الكلمات العربية بين الذهب والتذهيب[1]. وبعد إمتاع عيوننا تركنا الكاظمين وعبرنا دجلة عن طريق جسر القوارب إلى قرية المعظم (الأعظمية) (Madaham) وهي ضاحية في بغداد ومنتجع صيفي لسكانها. يبعد هذا المكان حوالي نصف ميل عن بغداد وتحيطه اشجار النخيل ويضم جامع سُني جميل هو جامع ابو حنيفة. وعبر الفناء الخارجي لهذا الجامع، قادنا مترجمنا الذي كان في السابق بستانيًا في هذا المكان، دون انزعاج، وبعد ذلك بقليل وجدنا انفسنا في عربة متداعية، اخذت تقعقع بنا على طول الطريق والتي يقال انها الوحيدة في بغداد لتقودنا نحو المدينة.

إن اعداد السكان، التي تناقصت كثيرًا بسبب الخسارة في التجارة، هي ايضًا متقلبة كثيرًا، بسبب الغارات الوحشية للأوبئة التي كانت متفشية بشكل خاص

(١) كانت القباب في مشهد ببلاد فارس مذهبة ايضا كالمراقد العربية. وقد رأى كاردين في عام ١٦٧٢م، كيف تصنع هذه الصفائح في اصفهان. فقد قال، كانت الصفائح من النحاس بابعاد ١٠×١٦ إنج وسمك قطعتين من الكراون. في الجانب الداخلي منها عمودين متقاطعين لتامين تثبيتها. كانت كل قطعة مذهبة بثلاث اوقيات وربع من التذهيب. وتصل قيمته إلى حوالي عشر كراونات. انظر كرزن (بلاد فارس والمسألة الفارسية)، (المؤلف).

خلال المائة سنة الأخيرة، ففي زمن عظمة المدينة وثرائها، فإن عدد سكانها لابد أن كان كبيرًا للغاية رغم أنه لا يمكن الاعتماد مطلقًا على الأرقام التي يعطيها المؤلفون العرب. لقد سبق أن أشرت إلى الفضاءات المفتوحة الكبيرة التي لا تزال موجودة ضمن أسوار المدينة. لم يكن هناك أي شكل من أشكال الإحصاءات الرسمية، لهذا لا يستطيع الكُتاب الأوروبيون ولا المحليون سوى أن يقدموا تخمينات لها. في عام ١٧٧٤م، هاجم وباء الطاعون مدن بغداد والبصرة، وعلى وفق سجلات دار الإقامة البريطانية، فقد فنى الجزء الأكبر من السكان بهذا الوباء. الزيارة الثانية ذات الأهمية لهذا الوباء كانت في عام ١٨٠٤م، يقدر بكنكهام الذي جال في بلاد وادي الرافدين في (١٨١٧-١٨١٨م) عدد السكان في هذا الوقت بثمانين الف شخص. ومرة أخرى عاد البلاء في عام ١٨٣١م مهلكًا في بغداد نفسها حسب أحد التقديرات ثلثي سكانها وحسب تقدير آخر مئة ألف مواطن. كانت حالة المدينة خلال هذه الأوبئة يرثى لها. فقد توقفت التجارة، وأغلقت الأسواق وظلت جثث الضحايا التعساء غير مدفونة. وقد وجد السيد ساوث كيت، وهو مبشر أمريكي كان في بغداد عام ١٨٣٧م، أن المدينة تستعيد عافيتها ببطء، وحسب تقديراته لم يكن سكان المدينة يتجاوز في ذلك الوقت أربعين الف فرد. وفي عام ١٨٧٧م، كانت هناك هجمة أخرى للوباء إلا أنه يقال أنه قد أفنى أعداد صغيرة نسبيًا تبلغ خمسة آلاف شخص بهذا الوباء. يتراوح عدد السكان في الوقت الحالي بحدود ثمانين إلى مائة الف شخص ولكن الرقم الأول هو الأكثر احتمالاً.

يعتبر سكان بغداد مجتمعًا خليطًا كما هو في باقي مدن الشرق. إلا أن العرب يشكلون الجزء الرئيسي وأن لغتهم هي المستخدمة بشكل رئيسي في المدينة. وبعد عدد العرب يأتي اليهود، الذين يقال أن عددهم يبلغ حوالي عشرين الفًا في بغداد. يحتل الأتراك بالطبع المواقع الرسمية ولكن قلما يشاهد أتراك المدرسة القديمة. بينما تكون أعداد الفرس والهنود متقلبة، حيث استقر بالإضافة إلى الحجاج الذين كانت أعدادهم

كبيرة في اوقات معينة، بعض المقيمين هنا وشغلوا مواقعهم لأسباب إما دينية او سياسية او تجارية. ثلث مجموع السكان المسلمين في المدينة هم من الشيعة. يتكون المسيحيون من الأرمن، والكاثوليك الأرمن والكلدان والكاثوليك السوريين، سوف اتحدث عنهم وعن كنائسهم في موقع آخر. بالإضافة إلى هؤلاء يلتقي المرء في السوق ببدو من مختلف القبائل ومن مختلف انحاء الصحراء وكذلك الكرد من كردستان والمصريين من دلتا النيل ومخلوقات غريبة من براري آسيا الوسطى.

من بين هذا المزيج، يستحق العرب طبيعيًا الاهتمام الأكبر. لا ريب أن أعدادهم هذه تاتي باستمرار من اوساط القبائل العربية الذين تجذبهم بين فترة واخرى حياة المدينة، يغريهم امل الكسب او باية حال الحصول على دخل دائمي اكثر. ونتيجة لذلك تتنوع اصناف سكان المدينة، فالقادمون المتاخرون يتميزون لكونهم من البدو بالبساطة والنقاء، بينما يتميز الأفراد الذين ينحدرون من اسر مستقرة في المدينة منذ اجيال بالبشرة الصفراء ولهم مظهر لا يدل على الصحة او الذكاء. وعلى العموم، لا يمكن مقارنة عرب بغداد بمصريي القاهرة الذين لم يتخلصوا من الدماء المدهشة لبناة الأهرامات والمعابد. لا تجد دماثة المصريين المتسمة بالابتسام في أوساط البغداديين، إلا انه يمكن مقارنة الأخيرين على نحو مناسب بالحلبيين. إن الوجوه التي تنم عن الذكاء والأجسام النشيطة تجدها منتشرة وسط السكان الأكثر فقرًا وبعضهم كرجال القوافل العرب شديدي القدرة على الاحتمال إلى اقصى الحدود ويستطيعون تحمل اكبر المصاعب والمشاق دون تذمر. ترتدي الطبقات العليا العمامة البيضاء ولكن تنتشر الكوفية وسط الطبقات الأدنى. وترتدي جميع الطبقات العباءة البغدادية، النوع الأكثر شيوعًا منها المحاكة من الصوف والسمراء التي لها اشرطة بيضاء وتكلف (باية حال للأوروبي) بحدود نابليون واحد. في حين يكون النوع الآخر المصنوع من مادة اكثر رقة ومطرزة بالخيوط مكلف جدًا. اللغات الشائعة الاستخدام في بغداد هي بشكل رئيسي

العربية والتركية. الأولى هي لغة الأسواق وهي تختلف كثيرًا عن العربية المصرية أو السورية وبنفس الطريقة أيضًا اعتقد انها تختلف عن لغة اليمن او مكة. إنها تعتبر محرّفة إلى حد كبير وهي غير محببة إلى الأذن إلى حد ما. العديد من كلماتها هي كلمات فارسية واعتقد أيضًا تركية قد تسللت إليها، وقد يتطلب الأمر للمسافر الذي يجيد التحدث بالأشكال النقية للغة ممارسة كبيرة قبل أن يستطيع التحدث بطلاقة بهذه اللغة.

يعتبر اليهود في بغداد جالية متزايدة، ولم يجد الحاخام بنيامين التودولي، الرحالة الشهير في القرن الثامن عشر، سوى ألفًا فقط، إلا انه كما يذكر كانوا يتمتعون بالسلام والرفاهية والاحترام في ظل حكومة الملك العظيم. يقدر بكنكهام أعدادهم قبل قرابة ثمانين سنة خلت بأنهم عُشر أضعاف هذا العدد، ويقال انهم بحدود عام ١٨٤٠م حوالي خمسة عشر الف شخص. ويقدرون في الوقت الحالي أن عددهم يتراوح بين عشرين إلى خمسة وعشرين الف شخص وهي نسبة عالية جدًا من المجموع الكلي للسكان. يعتبر التقرير الجدير بالاهتمام الذي كتبه بنيامين التودولي عن كلياتهم وزعمائهم ورؤسائهم وقائدهم الرئيسي دانيال (ابن كسداي) او (هاسداي)، الذي كان يلقب بالأمير او (المرشد في الأسر) ويمتد نسبه إلى داوود ممتعًا للغاية. إن موقع هذا الزعيم الذي تقر سلطته ويصادق عليها بالختم من قبل "ملك المسلمين" الخليفة نفسه تبين أن اليهود لم يكونوا جنسًا مضطهدًا ومقموعًا في بغداد في القرن الثاني عشر أكثر منه في الوقت الحاضر. من الجدير بشكل خاص ملاحظة انه لا يتوقع من اليهود وحدهم تحية "ملك الأسر" بالاحترام المستحق، عندما يظهر علنًا، بل يفعل ذلك مسلمي المدينة انفسهم، لا يخضع اليهود في الوقت الحاضر لأي شكل من اشكال القمع وهم يشكلون في الواقع جزءًا مهمًا جدًا ضمن السكان. يمتلك بعضهم

ثروات طائلة ويعمل الكثير منهم في التجارة واعمال الصيرفة. ويلاحظ المسافر في الشوارع الكثير من اليهود ذوي المظهر الجليل والمحترم. إنهم يرتدون غالبًا اردية حريرية صفراء وعمائم زهرية.

يعتبر الأرمن الجزء الأكثر اهمية في الجالية المسيحية. فهم افراد نشطاء واذكياء في التجارة والأعمال بكافة اشكالها وحسب احد التقارير، فهم ليسوا شديدي الوساوس او جديرين بالثقة. ويفترض ان نساءهم في غاية الجمال، ويُعرف ان الأوروبيين المستقرين في بغداد لأغراض التجارة يعقدون زيجات لهم باستمرار من اوساط هؤلاء المسيحيين. وقد زرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ووجدتها عبارة عن بناء بسيط مستطيل الشكل حديث البناء وفي غاية القبح والإهمال الشديد ومليء بالعصافير، وهناك عدد لا باس به من الصور المعلقة على الجدران. وسالت عن عدد رعايا هذه الكنيسة وقيل لي انهم مئة شخص. وعندما سالت فيما إذا كان لدى الكنيسة كتبًا او مخطوطات قديمة، جلبوا لي لمشاهدتها اعدادًا كبيرة من المجلدات المطبوعة في روما باللغة الأرمنية. كان عمر هذه الكتب لا يزيد عن مئة سنة إلا انها تحوي بعض المطبوعات الإيطالية القديمة الجيدة. ولدى الكلدان ايضًا (النساطرة البابويين)[1] كنيسة، إلا انني لم اتمكن من الدخول إليها، قيل لي ان عدد افرادهم يبلغ حوالي الف وخمسمائة شخص، وهو رقم لا يمكنني تصديقه. وللكاثوليك السوريين الذين يبلغ عددهم مائة وثلاثين اسرة كنيسة خاصة بهم بنيت قبل حوالي ثلاثين

(١) النسطورية: مذهب مسيحي اسسه نسطورا الرعشي او نسطوريوس بطريرك القسطنطينية ويقول ان في للسيح اقنومين (اي طبيعتين) إلهية وبشرية لا اقنوم واحد وانكر بكارة العذراء وانها لم تكن ام الله. اعتبر المذهب هرطقة وانفصلت كنيسته عن الكنيسة البيزنطية عام ٤٣١م. وهو ينتشر في العراق وإيران وسوريا. (المترجم).

سنة في موقـع كنيسـة قديمـة وصغيرة، والمبـنى الحالي هـو عـبارة عـن صالة مـربعة كبيرة تسندها ثمانية أعمدة خضراء مزينة من الأعلى بزخارف.

اما الكنيسـة اللاتينـية فهي عـبارة عـن مبـنى جمـيل مـن الآجـر عمـره خمس وعشرون عامًا. مـن الداخل هي عبارة عن مبنى قبيح صليبي الشكل مع قبة في الوسط وثـريات زجاجية عديـدة. وفي الخـارج هـناك كنيسـة بشكل سرداب خاصة بالأطفال، ويـلحق بالكنيسـة مدرستين لـلأولاد تضـم الواحـدة مـنهما في وقـت زيارتي مائة تلميذ. بيـنما تضـم مـدارس البـنات اربعمائة تلميذة يبلغ عدد رعايا هذه الأبرشية الف شخص وخمسة قساوسة.

لقـد اشـرت في السـابق إلى جـو بغـداد، إن اشـهر الشـتاء او الأصـح الأشهر من تشرين الأول إلى نيسـان، هـي كـل الأشهر المفضلة في السنة. يمكن ان يوجد الجليد والصقيع في شـهري كـانون الأول وكـانون الـثاني، ويـرى بعـض المسـافرين ان السـفر بـرًا في هـذه المـناطق في هـذا الوقـت هـو سـفر شتوي غـير محبـب، يجلـب نيسـان الـدفء، وفي بعـض الأحـيان كمـا جرّبـت ذلـك بنفسي، تكون الحرارة شديدة على المسافر القادم من شمال اوروبـا. امـا مـارس فهـو حـار حقًا، ولكنه في بغداد البعيدة عن مناطق الرياح الموسمية لا يعتبر الشهر الأكثر مشقة كما هو في بومبي. تعتبر اشهر حزيران وتموز وآب هي اشهر الصيف، ويمـثل هـذا الصيف للأوروبـيين بـل حـتى للسكان المحليين مصدر قلق وهلع. حيث يجري في هـذا الوقـت استخدام السراديب وسطوح البـيوت ويهجـر البيت تقريبًا حـتى شـهر ايلول او تشرين الأول. ولغـرض تقديـم صـورة عـن بغداد في هذا الوقت من السـنة، كـتب بكنكهام انه عندما كان هناك في تموز قرا مقياس الحرارة ادنى حد لـه عـند الفجـر يصـل إلى (١١٢) درجـة فهرنهايـت وعـند الظهيرة (١١٩) درجـة وقـبل الساعة الثانـية بقليل بلغت قراءته (١٢٢) درجة وعند الغروب (١١٧) درجة وعـند منتصف الليل

(١١٤) درجة. إن درجة الحرارة المخيفة هذه هي ليست امرًا استثنائيًا في البلاد ويحل احيانا طقس اكثر حرارة، ولغرض المقارنة، اود ان اوضح بانني لم ارى في بومبي في شهر مارس من عام ١٨٩٢م، وهو الشهر الأشد حرارة في تلك المدينة الملتهبة، درجة الحرارة في المقياس فوق درجة ٩٩ رغم انه تسجل بالطبع درجة حرارة اعلى في المراكز الداخلية من الهند.

تصدر بغداد الصوف والقطن الرديء والصمغ والحبوب وبعض المنتجات الأخرى. تاتي بعض كميات التمور المصدر إلى امريكا وإنكلترا من بغداد إلا ان الكميات الأكبر تاتي من البصرة[1]. تباع هنا ايضًا الخيول العربية، إلا انها ليست من السلالات الأصيلة وهي ارخص بكثير من اسعارها في السوق الهندية. إن الخيول التي تشاهد بكثرة في بغداد هي حيوانات جميلة من سلالات فارسية او نصف فارسية. يمكن فقط الحصول على الخيول العربية الأصيلة من القبائل التي تربي الخيول[2]. تختلف ميزات الخيول العربية عن ميزات الفارسية بشكل واضح تمامًا.

لا أستطيع قول شيء عن الأوضاع السياسية او الاجتماعية في بغداد في الوقت الحالي، لأنه لم تسنح لي الفرصة لملاحظة ذلك كما انني غير مؤهل للحديث عنها. يقول احد التقارير الموثوقة ان وضع المدينة فاسد كباقي المدن التركية. فقد لاقت إدارة واليها الطموح مدحت باشا من لدن بعض الكُتّاب استحسانًا غير محدودًا بينما لاقت استهجانًا شديدًا من آخرين. من المؤكد اننا نجد آثار هذه الإدارة في كل مكان، إلا انها تاتي لتمثل شاهدًا على طموح وحماس هذا المصلح الذي كانت آراؤه باية حال صائبة على الدوام والذي جاءت إصلاحاته حينما حلت، قبل اوانها. لهذا نرى انه لا

---

(١) انظر كرانتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية)، المجلد الأول، ص٢٤٣.

(٢) انظر ليدي آن بلنت (القبائل البدوية)، المجلد الأول، ص٢٠٦.

يستطيع باشا تركي طموح ورجل شريف لوحده ان يخلق مدينة متحضرة من اسوار بغداد المهدمة او مصابيحها الزيتية القذرة وغير المضيئة، كما ان سنونو واحد لا يخلق صيفًا. فالمرء يقرا في كل خطوة ابتداءًا من المشي المترهل للجنود غير المرتبين في الشوارع، وفي الأسواق ذات الرائحة النتنة والجوامع المهدمة، في جسر القوارب المزعزع ومكتب البريد المغبر البائس ان لعنة فتور الهمة التركية تحل بقوة بل وبقوة اكثر من باقي المدن التركية على هذه المدينة التي كانت يومًا ما مزدهرة وعظيمة. فالطاعون قد اباد المدينة والتجارة تخلت عنها جزئيًا، وقد ساهم الفرات نفسه، الذي يعزى له تاريخ وثروة البلاد، في هذا العمل وذلك بانفجار ضفتيه وإحالة غرب البلاد إلى منطقة اهوار وبذلك جلب الحمى وسوء الحالة الصحية والنحس إلى المدينة. لقد ذهب مجد مدينة الخلفاء. فهل سيعود؟

استدعيت بخيت وحجي محمد وحمادي امامي في اول صباح بعد وصولي إلى بغداد واجريت معهم تسوية حسابية عن الرحلة. فقد اعطيت محمد الذي خدمني باقصى جهده بتفاني خلال الأسابيع الثلاثة، ورغم ان خدماته ليست كخدمات طباخ او خادم مدرب، إلا ان تغذيتي لابد ان تكون سيئة بدونه. وقد اعطيت الآخرين هدية بسيطة وغادر الجميع وهم راضون تمامًا ويودون لو ارسلت عليهم ثانية إذا ما اردت القيام برحلة على الحيوانات إلى بابل. ذهبت بعد ذلك إلى مكتب البريد، حيث ارسلت برقيات إلى الوطن وإلى حلب مع انباء بوصولي سالمًا. والشيء بالشيء يذكر، لا يستخدم البريد التركي كثيرًا من قبل المواطنين الإنكليز المقيمين في بغداد وخاصة فيما يتعلق بالطرود البريدية إذ ان البريد الهندي عبر البصرة وبومبي اكثر امنًا رغم ان الوقت الذي يستغرقه هذا البريد أطول بكثير من البريد التركي عبر القسطنطينية. توجد في بغداد والبصرة وموانئ الخليج العربي مكاتب بريد تديرها الحكومة الهندية من خلال موظفين يتحدثون الإنكليزية. ترسل الرسائل او الطرود من إنكلترا إلى مكان معين

بنفس الرسوم التي ترسل بها إلى الهند. يقع مكتب البريد البريطاني في بغداد في دار الإقامة وعندما يصل البريد تشاهد ازدحامًا كبيرًا في فناء الدار. حيث يشاهد بشكل عام اليهود والمسيحيين المحليين بأعداد كبيرة ويفضل المقيمون المسلمون دائمًا استلام بريدهم عبر هذا الطريق[1].

جاء مكوثي في بغداد خلال شهر رمضان حيث تكون حياة الشارع في الشرق ليست بحالتها الاعتيادية. كانت الأسواق خلال النهار هادئة. العديد من الحوانيت مغلقة أو بأية حال تغلق مبكرًا في النهار. فهناك جو عام من الفتور يعم كل شيء. فأصحاب المحلات يغفون فوق قراينهم، ولا تشاهد من طرف الشارع الطويل لطرفه الآخر أي غليون أو سيكارة يجري تدخينها. وعندما يقترب المساء وتغيب الشمس في الغرب، يمكن مشاهدة مجاميع الناس في المقاهي وغلايينهم جاهزة بانتظار ضرب المدفع لغرض إشعالها أو كسر صيامهم بفنجان من القهوة والدردشة المعتادة. يمكن مشاهدة في الأسواق كميات كبيرة من اللحوم والخبز وباقي أصناف المأكولات التي يمكن أن تستهلك خلال الليل.

وبعد غروب الشمس مباشرة، تبدأ الحياة تدب في المدينة. حيث تصدح الموسيقى في كل الاتجاهات، وتشاهد مجاميع المشعوذين والسحرة تجوب الشوارع ليقوموا بأعمالهم أمام المقاهي المزدحمة وفي وقت متأخر من المساء يمكن سماع مجاميع المنهمكين بالمرح وهو يضجون بالغناء أثناء مرورهم في الشوارع بطريقهم إلى بيوتهم.

---

(١) كانت إحدى نتائج عمل بعثة وادي الفرات هي تسيير بريد بالجمال بين بغداد ودمشق الذي استمر للفترة من ١٨٣٨م إلى ١٨٨١م. كانت تديره دار الإقامة البريطانية في بغداد وتموله إلى حد كبير الحكومة الهندية. يجري نقل البريد من قبل عرب عكيل الذين يقطعون هذه المسافة البالغة حوالي خمسمائة ميل بعشر إلى أربع عشر يومًا.

تضاء الأسواق والشوارع والمقاهي في شهر الصوم خلال الليل وتفتح الجوامع وتزدحم بالمؤمنين.

قام احد المغامرين الشرقيين مؤخرًا بافتتاح مشروع على ضفة النهر يحمل اسم (إذا كنت اتذكر بشكل صحيح) الفندق الأوروبي. استفسرت بخصوصه بعد وصولي، إلا انه لا يبدو ان احدًا كان يستطيع أن يمتدحه لي ولم يسمع اي احد بأن هناك اي مسافر قد اقام في هذا الفندق. مع ذلك قمت برفقة السيد سي بزيارة المكان الذي يبدو انه مكان صغير لطيف مبني على الطراز الإيطالي ويقع بشكل جميل على ضفة النهر. جلسنا في حديقته وانغمسنا في متعة احتساء قنينة من بيرة لاكر وقنينة ماء الصودا حيث كلفتنا "حفلة السكر هذه" روبيتين. مع ذلك، يظهر هذا الفندق في قائمة السادة (Cook & Sons) "للفنادق الشرقية". لا استطيع ان اتصور كيف يحافظ هذا الفندق على وجوده لو لم يعش على عوائد احتساء المشروبات من قبل المسلمين (الصيام).

لا يرى المرء في بغداد كما في القاهرة وفي كل انعطافة الجمل الذي يسير بتثاقل، ولا يضايق باستمرار كما في تلك المدينة بان يحشر إلى الحائط بالحمل ذي الرائحة الكريهة لذلك المخلوق المفيد والأخرق إلى حد ما. والواقع أن المرء يستطيع التجول في شوارع بغداد لفترة طويلة دون ان يرى جملاً على الإطلاق. واعتقد ان هذا يعود بشكل رئيسي إلى ان القوافل تتجه دائمًا إلى مراكز معينة في المدينة حيث يوجد فيها خانات ومحلات للسكنى. إلا انه يُشاهد في بغداد قدر ضئيل من الحمير البيض الكبيرة الحجم المسرجة والجاهزة للاستئجار كما في القاهرة. إلا انها بالمقارنة معها تعتبر قليلة. وهذه الحيوانات كبيرة بل واكبر مما هو موجود في القاهرة ويقال انها سهلة القياد جدًا.

تبدو القرحة البشعة المعروفة في بغداد بأنها "حبة العمر" مشابهة تماما لحبة حلب التي سبق وصفها، وهي شائعة ومشوهة بطريقة مماثلة. والحقيقة أنها تنتشر في كل مكان، من راس الخليج العربي إلى حلب وماردين وديار بكر.

لقد كنت منهكًا جدًا عند وصولي إلى بغداد بحيث اني قررت ان آخذ قسطًا كبيرًا من الراحة قبل ان ابدأ رحلتي إلى بابل وكربلاء التي رغم انها تبعد مسافة مسير سبعة ايام على ظهر الخيول، إلا انني اشعر ان الرحلة ستكون قاسية عليّ في وضعي الصحي هذا. لقد دفعني وصول السيد سي إلى دار الإقامة وهو ملازم في فوج إنكليزي متمركز في الهند كان يرغب في إجراء نفس الرحلة، إلى الشروع بها بأسرع وقت ممكن، لهذا قمنا باستئجار الخيول وقمنا بالرحلة معًا. لقد ارسلت عند وصولي في الحال على مترجم سمعت عنه في حلب هو المدعو يوسف انتيكا وهو مسيحي كلداني كان حسب معلوماتي المترجم المحترف الوحيد في بغداد وعمل من قبل بشكل متكرر مع مسافرين إنكليز. جاء يوسف دون إبطاء، وبعد ان اطلعني على سلسلة من البينات الممتازة عن مقدرته اللغوية، شغلته معي لأغراض الرحلة وللقيام بالتبضع خلال عدة ايام من أسواق بغداد وإعداد التجهيزات. كان رجلاً قصير القامة مربوعًا. افطس الأنف، كريم النفس وصاحب محيا يدل على الدهاء يخفي دائمًا تكشيرة فكاهية تجعل كل من يتحدث إليه ينطلق في الضحك. ورغم انه تعوزه الوسامة، إلا انه اثبت انه رجل ذو تجربة ومدبر ممتاز. وفي الحقيقة انه الخادم الشرقي الأكثر كفاءة مما لم ارى مثله من قبل. فقد ارتحل في بلاد فارس والهند وفلسطين ويعرف بالطبع جميع الطرق في وادي الرافدين، لقد تعلم الإنكليزية بطريقة غريبة وبدرجة معقولة في بغداد، ولا استطيع ان افهم سبب عدم انتقاله إلى بيروت او دمشق حيث يستطيع بواسطة قدراته المتنوعة ان يتقاضى رواتب عالية كمترجم مرتحل. يرتدي في بغداد

عـباءة فاتحـة اللون ذات تطريز ذهبي مع طربوش، وهو زي يناسبه تماما، إلا انه ارتدى خلال الرحلة زيا اوروبيا غربيا يتكون من قطع متنوعة من الملابس حصل عليها من مسافرين آخرين، والذي يضفي عليه مع الكوفية العربية مظهرا مثيرا للضحك المفرط حيث كان لنا مصدر تسلية رائعة خلال مجمل الرحلة. وعلى خلاف معظم الشرقيين، تتميز افعاله واحاديثه بالسرعة والحيوية ويتمتع بذاكرة جيدة. بالإضافة إلى هذه الخصال الجيدة فإنه طباخ ماهر. ومع يوسف وسي وانا تجولنا في الأسواق واعددنا لرحلتنا التجهيزات الاعتيادية الضرورية للقيام برحلة في الشرق. كان لدى سي، الذي تنتظره رحلة اخرى في بلاد فارس، سرجه الخاص، حيث لم ازود بمثل هذه الوسيلة المريحة. لقد شددوا علي النصيحة بان لا آتمن سرجا محليا والذي يعتبر بشكل عام أداة مرهقة ومزعجة للغاية لمن لم يعتد على استخدامه. ولحسن الحظ استطعت ان اعثر في السوق على سرج إنكليزي جيد بسعر باونين، وعندما اقتنعت بشرائه قام يوسف بلطف بانتزاع نصف هذا المبلغ من يدي واعطاه للبائع. وقد تولى يوسف ايضا موضوع البحث عن حيوانات للقيام بهذه الرحلة وقبل يوم من البدء بالرحيل، تم جلب هذه الحيوانات إلينا لغرض تدقيق حالتها. كان لدينا بشكل عام خمسة خيول ثلاثة لنا وليوسف واثنين لحمل الأمتعة والخيمة الضرورية لحملها معنا. هناك خادمان للاعتناء بهذه الحيوانات والمكاري وهو شخص خسيس ومثير للشغب ووغد مما لم ارَ مثله من قبل ورجل شاب. كانت الخيول هزيلة بل وربما اسوا من ذلك، وقد قررنا ان يحضر الجميع عند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، السادس من نيسان لغرض الشروع بالرحلة.

* * *

الفصل الحادي عشر

عرض تاريخي عن بغداد

التاسيس - الخلفاء الاوائل - البويهيون - انحطاط الخلافة - الظهور الاول للاتراك - انتقال بغداد الى الضفة الشرقية من دجلة - جنكيزخان - المستنصر - هولاكو - نهاية العباسيين - اضطهاد المسيحيين - تيمورلنك - الشاه اسماعيل - استيلاء السلاطنة العثمانيين على المدينة

تأسست بغداد في عام ٧٦٣ ب.م على يدي ابي جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني الذي يمتد نسبه إلى العباس عمّ محمد. كانت هناك، على اية حال، قرية في نفس الموقع قائمة منذ فترة سابقة طويلة اسسها دون شك الفرس، كما يدل على ذلك اسمها[1]. خلال المئة والخمسين سنة الأولى من هذا الوقت كان تاريخ الخلافة عصر عظمة مطردة، رغم انه لم يكن عصر رخاء بسبب الصراعات التي لا تهدأ الناشئة لأسباب دينية وغيرها وبسبب الهيمنة العسكرية التركية التي اقحمت في الدولة منذ وقت مبكر. كانت الإمبراطورية تضم في عصر هارون الرشيد (٨٠٩-٧٨٦م) العراق وسوريا والجزيرة العربية وبلاد الرافدين ومصر وشمال افريقيا وبلاد فارس وكرمان وخراسان وارمينيا وبلاد الأناضول وجورجيا وشركاسيا، حيث قسمت عند وفاته

(١) دي هربلو (تاريخ مركوند) تاشارا، (المؤلف).

بـين ابـنائه الـثلاثة. وقـد تم في عهده عزل والقضاء على وزرائه البرامكة أصحاب النفوذ. تـنازع الأمـين الـذي خلـف اباه في بغداد مع شقيقه المامون حيث زحف قائد قوات الأخير وحاصـر المديـنة في عـام ٨١٢م. امـتد الحصار لعـام صاحبه معاناة كبيرة للأهالي وانتهى بالـتدمير الـتام للمديـنة. قُـتل الأمـين واحـتل المـامون موقعـه، ولكـن حدثت بعـد ذلـك اضطرابات داخلية اخرى حيث وقعت المدينة خلال جزء من زمن هذه الاضطرابات تحت رحمة رجال الجيش، وقد رافق حكمه الذي كان زاهرًا من جوانب اخرى عدة اعمال تمـرد اثارتها الحركات العلوية. في زمن المستعصم (٨٣٣-٨٤٢م) بدأ زمن انحطاط الخلافـة وذلـك بتجنـيده مرتـزقة من الأتراك سرعان ما احرزوا تقدمًا رغم مرور وقت طويـل قـبل ان يخفـت الـبهاء الخـارجي لـبلاط الخلفـاء. وخـلال ايـام المسـتعين والمعـتز والمهتدي (٨٦٢-٨٧٠م) كانت المدينة مسرحًا للحصار واعمال الشغب والفوضى، وفي كل مـرة يخلـع الخليفة او يقتل من قبل الأتراك المتمردين. مع ذلك يوصف البلاط في عصر خلافـة المقتـدر (٩٠٩-٩٣٢م) بالبهاء البالغ. يقال ان الف خصي يعيشون في القصر. هناك في قاعـة المقـابلات شجرة من الذهب عليها طيور من معدن نفيس وهي تـرفـرف بأجنحتها المتلألـئة وتغـني[1]. في عـام ٩١٧م، اغتصـبت اسـرة بويهـية اسسها ثلاثة من الأشقاء الفرس الـبلاد الواقعـة بين بحر قزوين والخليج العربي، وفي زمن استلام الراضي للعرش عام ٩٣٤ م، انحسـرت الخلافـة تقريـبًا إلى ولايـة بغـداد فقـط. فقـط اعلـن الأمـراء وحكام الولايات الذيـن كـانوا في السابق يعترفون بسلطة خليفة بغداد عليهم، استقلالـهم وسمحوا فقط بالسـلطة الروحـية لـه. وفي عـام ٩٤٠م، تـرك وبـاء الطـاعون والمجاعـة العاصـمة ضـعيفة وخالـية مـن السكان جزئيًا وبعد ست سنوات، طلب الخليفة بعد ان رأى المدينة محاصرة بأعدائها وقطعت عنها الإمـدادات حمايـة الزعـيم الـبويهي. كانـت تلك بداية النهاية. وبعـد وقـت قصير، أقصي الخليفة وسملت عيناه (كسلفيه اللذين لا زالا في ذلك الوقت

(١) يجب النظر إلى الإحصاءات والأوصاف الواردة في المصادر الشرقية بشك كبير. (المؤلف).

على قيد الحياة) وتم تنصيب آخر مكانه. قبل عهد الراضي، كان الخليفة على الأقل هو أمير المؤمنين الحقيقي والملك الديني نوعًا ما، إلا انه عيّن رئيسًا للوزراء الذي يسمى امير الأمراء حيث وقعت في يدي الأخير هذه الصلاحيات. وقد شغل البويهيون هذا الموقع وقتلوا الأمير في مكتبه واحتلوا موقعه تحت لقب السلطان معز الدولة. ومنذ تلك اللحظة كان سقوط الخلافة تامًا، وبدلاً مما كان الخلفاء في يوم ما هم راس اعظم حكم شرفي مطلق انحدر الخلفاء إلى وضع عبيد أذلاء لوزرائهم إذا صح تسمية البويهيين بذلك. ولم يمر وقت طويل حتى اعلن احد البويهيين هو عضد الدولة لقب شاه نشاه اي ملك الملوك. لقد وصل هذا العضد وهو شقيق البويهي الأول، إلى الرئاسة بدحره وقتله بختيار ابن سلفه وفي عام ٩٨٠، اعاد بناء المدينة واسس مستشفىً عظيمًا.

لقد عيّن هؤلاء البويهيون وزراءهم الخاصين، في حين كان للخلفاء سكرتيرين فقط. في بداية القرن الحادي عشر، حاصر محمود سلطان غزني أو خراسان بغداد وفرض على الخليفة القادر غرامة هائلة. وبعد ذلك بسنوات قليلة (عام ١٠٢٧م) ظهر الأتراك على مسرح الأحداث وقاموا بنهب المدينة، وخلال السنوات التالية، ابقى الجنود الأتراك الذين ظلوا في المدينة، بحالة دائمة من الفوضى بسلوكهم المتمرد. وفي حوالي عام ١٠٣٧م، قادوا تمردًا ضد الأمير البويهي واحرقوا بغداد، وفي عام ١٠٤٠م، حسبما ورد في تاريخ مركوند سقط في بغداد صقيع بلغ عمقه على الأرض ثلاثة اشبار وتجمد دجلة مدة اكثر من اثني عشر يومًا، وهي حالة في غاية الغرابة، إذا ما صدقنا ذلك. في عام ١٠٥٥م، دخل طغرل بيك، الذي طلب الخليفة القائم مساعدته ضد السلطان مسعود، المدينة ونهبها ودمّرها[1]. تم إسقاط الزعامة البويهية، واعلن طغرل بك بعد أن تزوج من ابنة الخليفة، سلطانا على إيران ولكن ليس خليفة. وقد قدر للأسرة العباسية في

(١) تختلف المصادر في ذلك، فمنهم من يقول انه قد استقبل استقبالاً حافلاً.

الواقع ان تبقى في حالة الانحطاط هذا لقرنين تاليين من الزمان. مع ذلك، ورغم ان الخلافة تحتضر، إلا ان المدينة لم تكن كذلك. والواقع انها استطاعت تحت ظل حكم هذه الأسرة الجديدة ان تاخذ لها فرصة جديدة للحياة، لأنه في زمن الخليفة المستقدر (١٠٩٤-١١١٨م) والسلطان برقوق "تم نقل مدينة بغداد التي كانت تقع في اول الأمر في بلاد الرافدين على ضفاف دجلة، ولكونها قد دمرت بفعل فيضان النهر، إلى الجانب الآخر منه الذي يتسم بانه ملائم اكثر"(١). يدل موقع ضريح الملكة زبيدة الكائن على الجانب الغربي من النهر(٢) على هذا، ولكن قبل ان يتم نقل المدينة بوقت طويل، كانت توجد ضاحية تدعى الرصافة على الضفة اليسرى من النهر. يقول إينسورث إن ابن المؤسس المنصور قد بنى مدينة تسمى المهدي على هذا الجانب وان اتحاد المدينتين قد شكّل بغداد، إلا انني لا اعرف مصدره.

وقد ترك لنا بنيامين التودولي عن هذه الفترة وصفًا ناطقًا عن حالة بغداد كونه قد رآها في القرن الثاني عشر. فقد كتب: "عند قصر الخليفة في بغداد على رقعة مساحتها ثلاثة اميال فهو يضم مساحة كبيرة مليئة بكافة انواع الأشجار المثمرة او اشجار الزينة وكافة انواع الحيوانات إضافة إلى بركة ماء يصل إليها الماء من دجلة".

واضاف: "لا يغادر الخليفة قصره طيلة السنة. إنه رجل ورع وكريم، وبنى المباني على الجانب الآخر من النهر وعلى ضفاف ذراع من نهر الفرات يجري في احد جوانب المدينة"(٣).

(١) ترجمة تاشارا الكتاب تاريخ مركوند الذي كتبه الكابتن جون ستيفن، عام ١٧١٥م.

(٢) الصحيح ان الضريح على الجانب الشرقي من النهر وليس الغربي، (المترجم).

(٣) انظر (رحلات قديمة في فلسطين)، رايت ام. اي. مكتبة بون للمخطوطات القديمة.

تـبين هـذه القطعة الجميلة انه رغم ان المدينة وقصر الخليفة يقعان على الجانب الشرقي فإن الضفة الغربية لم تهمل وكانت عمليات البناء جارية هناك. لابد ان يكون ذراع الفـرات هـو قـناة العكلاويـة او العقلاويـة او فـرع يربط هذا النهر بدجلة عند نفس المكان.

في زمـن الخـليفة الناصر "ازدهرت بغداد كثيرًا"، إلا انه في هذه الأوقات المضطربة حيث كـان جنكيزخان يعبث خـرابًا في آسيا، ورغـم انـه دخل في تحالف مع التتر ضد محمـد سلطان خـوارزم إلا انه وجد متسعًا من الوقت لبناء وترميم اسوار العاصمة هذه الأسوار التي بقيت صامدة حتى تدميرها بتاريخ ١٢٢١م، وهي اقدم بناء عتيق في بغداد[١].

إلا ان الضـربة الأخـيرة كانـت عـلى وشـك التسديد. في عـام ١٢٢٧م، خـلال عهد خلافـة المستنصـر، شـن جنكيزخان، منتهكًا اتفاقه مع الناصر، وبعد ان دمّر بلاد فارس غـارة عـلى بغـداد. كـان المستنصـر بارعًـا كعادتـه وممـثلاً جديرًا عن الخلفاء الأوائل. فقـد قـام بحشد جيش وأجبر الطاغية على التقهقر. خلال فترة الإنقاذ القصيرة التي تلت ذلك، تم بـناء المدرسة المستنصـرية الشهيرة. لقـد ظل قائمًا حـتى الآن جزءًا صغيرًا من مبـنى هـذه المدرسـة الذي يرجع إلى عام ١٢٣٢م، وبـبقائه بقيت الكثير من البيانات. كان يـدرس فـيها بانـتظام اربعمائـة تلمـيذ حيـث يـتم إكساؤهم وإطعـامهم. هـناك اربعـة استاذة فـيها وطبيـب مـع صيدلي. ولكـن حلـت الـنهاية الآن، فقد جلس في محل الحاذق المستنصـر، المتخنـث والجـبان المستعصـم. رفـض هـذا الأمـير المتفسـخ، مهمـلاً تحذيـرات اصـدقائه اتخـاذ اي إجـراءات دفاعـية ضـد الـتتر. لم يـنـتظر هولاكـو وحشـوده الموغـلة بالدمـاء طويـلاً. وفي الآخـر، تم حشـد جـيش صـغير، حيث جـرى سحقه بخـيانة يقـول الـبعض انهـا مـن قـبل الوزيـر نفسـه. لقـد جـرت محاولـة للدفـاع عـن المديـنة، إلا انـه تم

(١) انظر بكنكهام :رحلات في وادي الرافدين.

الاستيلاء عليها بسهولة، واكتسحت موجة المغول المتعطشين للدماء "دار السلام" وقُتل آخر الخلفاء في ١٣ شباط عام ١٢٥٨م، وعلى وفق بعض المصادر يقال انه قد وضع في كيس وسُحل عبر شوارع المدينة حتى مات. لقد تعمدت الأسرة الجديدة بالدم البشري، ويقال انه في المذبحة التي تلت ذلك، ذُبح مليون ونصف المليون من البشر في المدينة والضواحي المحيطة، وهكذا انتهت الخلافة العباسية التي دامت لخمسة قرون ونصف، شغل العرش خلالها سبعة وثلاثون خليفة.

بحدود هذا الوقت زار ماركو بولو المدينة وترك لنا تقييمًا عن ثروة المدينة التي لم تسجّل جيدًا مع حكايات سفك الدماء والسلب التي يقوم بها الفاتحين التتر. "في بلداك أو بغداد الكثير من صاغة الذهب وصناع الحرير، فهناك الأقمشة المخملية والدمشقية التي عليها صور مختلف المخلوقات، تاتي كل لآلئ العالم المسيحي من هذا المكان. يوجد في تلك المدينة جامعة حيث تدرس فيها شريعة محمد والطبيعيات وعلم الفلك وكشف الطالع. إنها المدينة الرئيسية في هذه الأنحاء"[1].

وحسبما يذكر ماركو بولو، إن الاستيلاء على بغداد قد تم بخدعة حربية. "كان اولان (اي هولاكو) يمتلك جيشا جرارًا من مائة الف فارس إضافة إلى المشاة. وقد اتبع سياسة بان اخفى الجزء الكبير من جيشه، واستدرج الخليفة بقتال مزعوم نحو كمين واسره واستولى على المدينة، حيث وجد فيها خزينا هائلاً من الثروة بحيث انه قد صُدم بذلك. ارسل بطلب الخليفة وقام بتانيبه قائلاً انه لم يزوّد نفسه بهذه الحرب بالجنود لغرض الدفاع وامر بان يحبس مع خزائنه دون ارزاق".

---

(١) انظر: رحلات بتكرتون.

ثـم يستمر الكاتـب ويخبرنا عـن قصـة حـول الخليفة تبين ان مسيحيي بغداد في ذلك الوقت كانوا يتعرضون للاضطهاد. هنا اقتبس ما يقول: "يبدو هذا حكمًا عادلاً من ربنا يسوع المسيح عليه، لأنه في عام ١٢٢٥م، وهو يحاول تحويل المسيحيين إلى الديانة المحمدية واستغلال هـذه الآيـة مـن الإنجيل: "إن مـن لديـه الإيمان يكون قادرًا كبذرة الخـردل عـلى إزاحـة الجبال". فقـد اسـتدعى المسيحيين والنساطرة واليعقوبيين واقترح عليهم إزاحـة جبل معين في غضون عشرة ايام او ان يتحولوا إلى الإسلام او ان يقتلوا لأن لا احـد مـن بيـنهم يمتلك القليل مـن الإيمان. لهذا اقاموا الصلاة لثمانية ايام متواصلة بعدها تم اختـيار صـانع احذيـة، بـناءًا عـلى إلـهام حـلّ عـلى احـد الأساقفة للقيام بهذه المهمـة. لقـد حقـق صـانع الأحذيـة هـذا، الذي تملكته الرغبة الجنسية لمرأى امراة شابه عند ارتدائها لحذائها، بحماسة ما قالـه الإنجيل، وادار نظره عنها. إنه الآن في اليوم المحدد مـع بـاقي المسيحيين وهـم يتـبعون الصليب ورفـع يديـه إلى السماء وصـلى إلى اللـه بان يـرحم شعبه ثـم وبصوت عـالي امـر الجبـل باسـم الـثالوث الأقـدس ان يتـزحزح، حيث وبهلـع كـبير مـن الخليفة وشعبه تزحزح الجبل في الحال، واصبح هذا اليوم والمساء الذي يسقه منذ ذلك الحين مقدسا بالصوم".

وبمـا ان مـاركو بولـو قـد بدا رحلاته في عام ١٢٥٠م، فهو ربما يكون في بغـداد بعد وقـت قصير مـن استيلاء هولاكو او اولان كما يسميه هو. لهذا يعتبر وصفه للأوضاع في هـذا العهـد ذا قـيمة، فهـو يمـيل لإثـبات ان البـيانات حـول تدمـير المديـنة هـي بـيانات محـرفة بشكل كـبير قـد يشـك القـارئ الحصيف بمـدى صحة حكاية الجبل بسبب ان الأرض المحيطة بالمديـنة ولمسافة اميال عديـدة هي عبارة عن سهل مستوٍ، ولكن الجواب الواضـح لـهذا هـو ان عـدم وجـود اي تل يثبـت صحة هذه الحكاية. وعلى وفق ما جاء في تـاريخ مـركوند (المؤلـف مـن قـبل تاشـارا)، فقـد تم بـناء المدينة بعد وفاة هولاكو من قبل احد وزرائه بموجب تعليمات تـركها لـه سيده.

ولمدة مائة واربعين سنة ظلت المدينة تحت سيطرة اسرة هولاكو، وبعد ذلك ظهر على مسرح الأحداث الفاتح تيموريك او تيمورلنك سلطان سمرقند. وقد سقطت بغداد في يديه مرتين. الأولى في عام ١٣٩٢م حيث اخضع البحر والبر من هرمز صعودا إلى نهر دجلة. وقد تركها للتفرغ إلى ميادين جديدة للفتح، فقد خرّب التتر الطامحين تركستان والكبنراك (الكومان) وجنوب روسيا وجزءًا من الهند وفي عام ١٤٠٠م، وبعد أن نهب حلب ودمشق، عاد إلى بغداد حيث وجد ان حاكمها السابق قد استعاد سلطته، لهذا زحف عليها واخضعها ونهبها ونصب على حكامها هرمًا من تسعين الف راس لمواطنيها الذين جرى ذبحهم.

ومنذ هذا الوقت، استمر الصراع بين الأجناس المتقاتلة والأسر التركمانية والفارسية لفترة طويلة. وقد سادت هذه الفترة الحشود التركمانية المتعطشة للحروب المسماة الخروف الأبيض والخروف الأسود، حيث خضعت بغداد لسلطة كل منهما عدة مرات. وفي عام ١٥٠٨م، استولى الشاه إسماعيل الصوفي او الصافي[1] على المدينة. ولكونها قد تمزقت بسبب هذا التيار المستمر من الحروب، فمن المؤكد ان المدينة قد تدهورت إلى حالة من الانحطاط. إلا انها ظلت مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة وبقيت الأوصاف التي تركها لنا الرحالة، تبين ثروتها في تلك الأزمان. فقد وصفها ماستر رالف فيتش في عام ١٥٨٣م بدقة، إلا أن ذلك كان تحت اسم بابلون.

"ليست بابلون مدينة كبيرة جدًا، إلا انها كثيفة السكان ولها تجارة واسعة مع الأجانب لأنها ملتقى الطرق إلى بلاد فارس وتركيا والجزيرة العربية، ومن هنا تنطلق القوافل نحو هذه الأماكن والأماكن الأخرى. تعتبر المدينة مستودعًا ضخمًا للبضائع القادمة من ارمينيا عن طريق نهر دجلة...

---

(١) الأصح هو إسماعيل الصفوي، (المترجم).

كانت بابيلون في الماضي تابعة لمملكة فارس، إلا انها تخضع الآن للأتراك، وإلى الشمال مقابل بابيلون، هناك قرية جميلة، يمكن العبور منها إلى بابيلون على جسر من القوارب المربوط إلى سلسلة كبيرة من الحديد التي تسهل المرور السريع على جانبي النهر. وعندما تريد بعض القوارب المرور إلى الشمال أو الجنوب عبر النهر، يتم رفع بعض قوارب الجسر حتى تمر هذه القوارب".

يقصد بهذه المدينة هي بغداد وليست الحلة او بابل وما يدل على ذلك هو المقطع التالي: "بني برج بابل على هذا الجانب من دجلة المواجه للجزيرة العربية على بُعد سبعة أو ثمانية اميال من المدينة، والبرج مدمّر من جميع الاتجاهات وقد كوّن سقوطه جبلاً صغيرًا في الموقع لهذا فإن ما تبقى لا شكل له. إنه مبني من الأجر المجفف تحت الشمس وعيدان معينة وسعف اشجار النخيل الموضوع بين الآجر. وهو ينتصب في سهل فسيح بين نهر الفرات ودجلة".

تشير الجملة الأخيرة بشكل قاطع إلى آثار عكركوف الواقعة بين الفرات ودجلة باتجاه الجزيرة العربية، في حين ان برَس نمرود او برج بابل يقع كما يشير معظم الرحالة الأوائل غرب الفرات.

وفي عام ١٦٢٤م و١٦٣٠م حاصرها الأتراك إلا انهم فشلوا، وفي عام ١٦٣٨م سقطت امام مراد الرابع بعد حصار دام شهرين تقريبًا، ومنذ ذلك الوقت اصبحت ارضًا تركية وعاصمة للجزيرة العربية (كما يقال) الخاضعة للأتراك. وقد وصفها الكساندر هاملتون في بداية القرن الثامن عشر: "بانها مدينة كبيرة هائلة وهي مقر بكلربيك، الذي يحكم ولاية كبيرة جدًا".

* * *

الفصل الثاني عشر

من بغداد إلى بابل والحلة

مغادرة بغداد - خان الزاد - خان المحمودية - قافلة الحجاج - الكلجاوية - خان بير يونس - الوصول الى خان الحصوة - فن العمارة للخانات الفارسية - النوم في احد المقاهي والقلق من البراغيث - مغادرة خان الحصوة - منظر اثار بابل - مقابلة اثنين من الامريكيين - الوصول الى الاثار - بابل - المجلب والقصر - عمران بن علي - المغادرة نحو الحلة - اصابة امراة كبيرة

بعد الساعة السادسة مباشرة، وبعد ان اصبحت جاهزًا، ظهر يوسف في غرفتي بخبر يفيد بان الخيول وصلت الفناء وان كل شيء اصبح جاهزًا للرحيل. كان لباس يوسف عمليًا على نحو ملائم فهو يرتدي معطفًا جلديًا مناسبًا للركوب، وبنطال لابد ان فصاله قد جرى على رجل بطول ستة اقدام، وجوارب واحذية عالية الساق. ولولا كوفيته الحمراء وعقاله لظن المرء انه رجل ضئيل رحيم من اهالي المدينة ذاهب لصيد طائر الطيهوج. تم نقل امتعتنا إلى الفناء ثم بدات الجلبة المعتادة للاستعداد الشرقي للرحيل. فقد صرخ الكترجي (المكاري) في الحال أن أمتعتنا كثيرة جدًا ولا يمكن حملها بواسطة الحصانين اللذين تم استئجارهما، ورفض المباشرة بالرحيل إذا لم نستاجر حصانا آخر. كانت تلك كذبة، فالسبب الحقيقي لفعل الكترجي هذا هو انه كان يرغب ان يضع حملاً خفيفًا على احد الخيول، كي يستطيع ركوبه. على اية

حـال، رفض الوغـد الـتفاهم، ولأنـنا كـنا نـرى ان استخدام حيوان ثالث سيمكننا من السفر بسرعة اكبر، استسلمنا لمطالبه. والحقيقة هي انه لم يكن لدينا خيارًا آخر، لأننا لا يمكـن أن نـشرع بالرحيل من دونه. وفي الأخر، وعند حوالي الساعة السابعة وعشرين دقيقة، تم تحميل الحقائب والخيمة والفراش والمؤن، وبعد ان غادرنا دار الإقامة، سرنا ببطء عبر الأسواق الهادئة وعبرنا جسر القوارب.

وبعد مرورنا بشوارع الضاحية الغربية لبغداد، التي تضم عدد لا بأس به من الناس، وصلنا خلال ساعة وعشرين دقيقة إلى جسر آخر وعبرنا حسبما ابلغوني فيما بعد انه مجرى ماء مرتد من النهر، إلا انه في الحقيقة حسبما أعتقد هو مصرف لقناة العقلاوية العظيمة التي تربط دجلة والفرات. عبرت مجموعتنا الصغيرة ببطء هذه القناة وتوقفنا على الجانب الآخر لدفع الرسم وتلقينا بسرور من صاحب الخان المسمى خان الخر فنجان قهوة.

كانت البلاد التي دخلناها الآن عبارة عن سهل مستوي فسيح لا نهاية له على امتداد البصر، ذو أرض صلبة تحت الأقدام اثناء السير وهو يمتد لأميال عديدة في المساحة التي تفصل بين النهرين العظيمين، والتي كانت ثروة عظيمة في فترة من الفترات تحت إدارة حضارة نشطة رغم انها غير متحدثة. إلا انه الآن، وتحت إدارة حكومة شرقية عاجزة، فهو عبارة عن سهل قاحل ومجدب كالقطب الشمالي. مع ذلك، من الغريب انه اثناء تقدمنا بالسير شاهدنا احدث اختراع للعالم الغربي واكبر عمل يتعلق باحد معتقدات الإسلام، كان على احد الجوانب الخط التلغرافي الممتد من بغداد إلى كربلاء والحلة والنجف والبصرة، وتسير على طول الطريق بالقرب منه مجاميع الحجاج من بلاد فارس والهند والخليج جميعها متجهة نحو او عائدة من مراقد مشهد علي ومشهد الحسين التي يأتي الحج إليها بالنسبة للمسلمين الشيعة بالمرتبة

الثانية بعد حج مكة، لم نشاهد إلا القليل من الحيوانات البرية. كانت تطير فوق رؤوسنا بين الفينة والأخرى اسراب كبيرة من طيور القطا ونرى بشكل متكرر على خطوط التلغراف طيور خضراء جميلة من فصيلة الرفراف التي تعيش على ضفادع الأهوار البابلية.

وبعد مسير لمدة اربع ساعات وصلنا إلى اول خان على الطريق هو خان الزاد وهو بناء كبير شبيه بأبنية الجوامع مبني من الآجر، ومن المثير للدهشة، لم نشاهد هناك اي كائن وخلال سيري في المدخل، علمت ان المكان غير ماهول وفي حالة كبيرة من التداعي. يبدو ان هذه الخانات التي بنيت بإحسان من بعض رجال الشيعة الأثرياء الأتقياء، كثيرة العدد الآن باكثر مما ينبغي على الطريق. فقد اسس خان جديد وبني على وجه السهل. واحتق الحجاج يتجه إليه، وهجر الخان المجاور واخذ في التهدم. فخان الزاد الذي وجده باكنكهام "مزدحمًا جدًا بالحيوانات وراكبيها بحيث لم نستطع شق طريقنا بينهم إلا بشق الأنفس" و"هو قادر على إمداد ما لا يقل عن خمسمائة شخص بالسكن والطعام". ويصفه لابارد بانه "صالح للسكنى"، قد هجر الآن لصالح خان المحمودية الواقع على مسافة ابعد من الآن بمسير ساعة ونصف وهو ولكونه لم يذكر من قبل اي من الرحالة الأوائل، ربما يكون بناءًا حديثًا. يعتبر خان لزاد مبنى كبيرًا من الآجر ذا تصميم مربع من جميع الجهات. ومن منتصف احد الجوانب يرتفع بناء مربع يضم المدخل وأربع أواوين، جرى تزيين اثنين منها مع المدخل بأعمال زخرفية. يضم السور الخارجي المواجه إلى الطريق عددًا من الأواوين ذات الأقواس غير مستدقة الطرف والتي يستطيع المسافر إذا ما امتلأ الداخل ان ياوي إليها وينام. كذلك هجرت الأكواخ العربية القليلة المحيطة بالخان.

وبعد مسير لفترة ساعة ونصف اخرى، وصلنا إلى خان المحمودية الذي كان مشابهًا للأول، ويقع قبالته مقهى حيث توقفت خيلنا فيه وترجلنا بينما انزل يوسف الغداء واخذت حيواناتنا تجتر علفها الجيد. وعندما كنا نجلس حول مائدة غدائنا المؤلف من لحم الدجاج البارد والخبز العربي وشراب كركوك الممتاز، كان يمر امام نواظرنا تيارٌ متواصل من قوافل الحجاج القادمة او المغادرة.

كان الفرس ذوي المنظر البدائي وخصل الشعر المتشابكة (كتلك التي نقشت على فئة العملة للإدوارديين الأوائل)، ينزعون طاقياتهم السوداء والبيضاء ويأتون مجهدين نحو الخان وهم يقودون او يجرون بغالهم المنهكة التي تحمل على ظهورها (الكاجاديه) الثقيل أو سلتين كبيرتين تحويان احمال المعيشة. يتكون (الكاجاديه) من صندوقين يعلوهما إطار مقوس بستائر يستندان بعد ربطهما معًا على جانبي سرج حمولة كبير. لقد شاهدت رجلاً وطفلاً يرقدان في احدهما وامراة وطفل في الجانب الآخر، وهو حمل قاس لأحد الحيوانات، إن الحمل الاعتيادي هو اثنان من الكبار، إلا ان الشخص الذي يسافر وحده عليه ان يحشو الجانب المقابل بوزن مساوٍ له من الأمتعة كي يتوازن الكاجاويه.

تجلس نساء بملابس وسراويل زرقاء وبراقع بيضاء عاليًا على سرج كبير كصرّة خرقاء وتبدو كما لو انها ستنقلب باية لحظة، وتشكّل جزءًا لا باس به من مجاميع الحجاج هذه. فالبغال التي تقعقع باجراسها، والحمير المغمورة بشكل تام بالقدور والأواني المنزلية واشكال وهيئات ملطخة بوعثاء السفر من البشر والحيوانات، يسحبها جميعًا مغناطيس المعتقد الديني من اقصى اصقاع الشرق للالتحاق بمزيج لا لون له إلا انه رائع عند بوابات مشهد الحسين ومشهد علي[1].

(١) تقطع معظم هذه البلاد قنوات قديمة تربط الفرات ودجلة. يفترض ان تكون بقايا احد هذه القنوات القريبة من المحمودية هي نهر مالكه الذي شقه البابليون وتعتبر القناة الرئيسية حتى في عصور الخلفاء. (المؤلف).

وبعد توقف لمدة ثلاثة ارباع الساعة كنا خلالها محط قدر كبير من الفضول من جانب الأهالي. امتطينا خيولنا وانطلقنا ثانية، وبعد مسير لمدة ساعة وثلاثة ارباع الساعة وصلنا إلى خان كبير آخر غير ماهول يدعى بير يونس او كما يقول بعضهم بئر يونس أو البئر الذي توقف عنده النبي يونس لغرض اخذ قسط من الراحة. لا استطيع ان اخاطر باي تخمين عن مدى صحة هذه النسبة، إلا ان الاسم يلفظ وكانه واحد بيريونس.

وعندما اجتزنا المكان وصلنا إلى خان بعيد آخر والذي اخبرنا يوسف بأنه سيكون محط استراحتنا في الليل. لهذا نخسنا حيواناتنا وعدونا بخطوات اسرع بينما كان يوسف في مؤخرتنا يحث فرسه الهرمة للحاق بنا ويدفعها لزيادة سرعتها بمزيج من الشتائم الإنكليزية والعربية. وقد قدم منظرًا مضحكًا للغاية في زيه المنافي للمعقول مع خرجه الصغير الذي يضم واحدة أو اثنتين من حاجاته الأساسية الملحة الخاصة بالسفر هو يتقدم متعثرًا صعودًا ونزولاً ويضرب الخاصرة النخيلة لفرسه. كان يتبعنا المكاري الكبير السن وحيوانات حمل الأمتعة التي تركناها خلفنا، تسير على مهلها، ولأن حرارة الشمس آخذة بالخفوت، والسهل ذو ارض صلبة وملائم للسير عليه، كان الجري يمثل تغييرًا جميلاً لو لم نكن قد سرنا مدة سبع ساعات على سرج تحت شمس لاهبة ارهقتنا في مقاعدنا. إلا ان الخان كان ابعد مما يبدو وكانت الساعة الرابعة والنصف قبل ان نعدو باتجاه باب الخان حيث ظهر كل السكان في القرية العربية التي تتغير، لاستقبالنا. نلنا من خيولنا وكنا متعبين ومتيبسين بفعل الركوب، والقينا انفسنا على دكة خارج المقهى بانتظار وصول الأمتعة. كان علينا تامين سكن هذه الليلة، وبعد النظر إلى داخل فناء الخان الذي وجدته يعج بالأغنام والعجول والخيول، اتفقت مع القهوجي صاحب القهوة بأن نبيت هذه الليلة فيها مقابل مبلغ صغير وهذا ما امّن لنا نوعًا من العزلة، إنها بالطبع بنفس قذارة الخان او تقترب منها وهي تتكون من صالة مظلمة

طويلة تفوح منها رائحة دخان موقد القهوجي ومليئة بالبراغيث. وعلى جدرانها المحيطة مجموعة من التجاويف المقوسة تقطعها دكات بارتفاع اثنين أو ثلاثة أقدام من الأرض. وعندما وصل المكاري، فرشنا فُرُشنا على اثنين من هذه الدكات وعندما كان يوسف يُعد عشاءنا، القينا نظرة حول المكان ورمينا اجسامنا المتيبسة على الدكات التي امام المقهى وامام انظار الجمع المعجب.

بين بيريونس وخان الحصوة، حيث نحن الآن، ينقسم الطريق، فالطريق المتجه نحو اليمين او الغرب يقود إلى المسيب وكربلاء والنجف وهو يعتبر في الواقع طريق الحج. بينما يقود الطريق المتجه نحو اليسار إلى الحلة، ويوجد على كلا الطريقين بعد تفرعهما بقليل خان او نزل. ورغم ان هناك مسافة معينة تفصل بين الطريقين، إلا انهما يقعان على مرأى من احدهما الآخر، ومن خان الحصوة نستطيع ان نرى بوضوح مبنى خان الإسكندرية الشبيه بالحصن.

تقول الروايات المتناقلة، بتطرفها المعتاد ان السكندرية أو الإسكندرية هي موقع ضريح القائد المقدوني، رغم انه يمكن بسهولة دحض هذه النظرية، إلا انه من المحتمل ان يكون الاسم يؤرخ حادثة معينة في حملة هذا البطل. وفيما يخص الخان الآخر الحصوة، فإن انيسورث يشير بوضوح إلى خان باسم (كوناسا) او (كوناسوا)، وهذا امر يتطلب معرفة واسعة اكثر مما لدي، كي اتمكن من مناقشته، رغم ان عليّ ان اعترف أن تمييز الكلمة العربية (خان) من المقطع الأول لاسم قديم هي عملية لا تبدو لي محتملة، واعتقد ايضاً ان اسم الإسكندرية قد جاء من اسم مؤسس ورع معين له، رغم ان بكنكهام يروي أن هذا النزل قد تم بناؤه في القرن الماضي على نفقة محمد حسين خان امير الدولة لملك فارس، ربما يكون هذا ببساطة مجرد إعادة بناء.

قمت بجولة داخل خان الحصوة واخذت اتفحص باهتمام ترتيبات السكن فيه. لا تحمل الخانات التي رايتها في شمال سوريا والفرات اي شبه ولو ضئيل مع المبنى الذي اقف فيه الآن. تتكون الخانات الأولى والتي سبق ان وصفتها من مبنى خشبي او حجري فيه قليل من الغرف، يلحق بها فناء بائس لاستقبال الحيوانات.

يشبه خان الحصوة الذي اقف فيه الآن جميع الخانات الكبيرة في السهول البابلية. إن طرازه فارسي وهو يعتبر المكان او النزل المعتاد للضيافة العامة في كل انحاء البلاد. وبعد المرور بالمدخل الشبيه بالبرج، يدخل المرء إلى ساحة مربعة كبيرة مبنية جدرانها من الآجر، وعلى الجوانب الداخلية من الجدران المحيطة هناك اواوين مقوسة عميقة حيث يستطيع المسافر المتعب أن يفرش فراشه عليها، وبذلك يتجنب وطء حشود حيوانات القوافل المربوطة باوتاد قوية. وفي وسط هذا الفناء هناك دكتان مرتفعتان ومستطيلتان مبنيتان من الآجر وبينهما ممر. وتؤدي هذه الدكات نفس اغراض الأواوين ويستطيع النوم عليها في الليل او الاستراحة عليها بعيدًا عن روث وقش الحيوانات. وفي الصيف بالطبع، حيث يجري السفر عادة في الليل، تعطي الأواوين المقوسة ملاذًا من الشمس اللاهبة لهذا يفضل استخدامها كاستراحة نهارية ولكن في الفصل البارد حيث يجري السفر نهارًا، فإنها لا تفيد سواءًا جرى النوم تحت قوس الفجوة أو في العراء المجرد، وتمثل هذه الدكات وسائل استراحة إضافية. توجد على الدكات في بعض الخانات قضبان لربط الخيول وبعضها فيها موضع منعزل أو إسطبل مسقف يدور خلف الأواوين يمكن الوصول إليها من الزوايا الأربع. تتسع خانات بهذا الوصل من خمسمائة إلى ألف ضيف.

ما بين زعيق البغال ونهيق الحمير وعراك الكلاب وشخير الحجاج الشديد والهجمات المتواصلة للحشرات الطفيلية، لا يمكن توقع أن يقضي المسافر الإنكليزي ليلة

نوم هانئة في احد هذه الخانات، إلا إنا كان معتادًا تمامًا على هذه المناظر والأصوات والضجة المميزة لها، وعندما تركت المبنى، هنات نفسي بأن المقهى المريح قد تم حجزه. كان يوسف مشغولاً وقد جرى كنس المكان وإخماد النار، إلا ان الرائحة الخانقة التي ظلت في المكان غير مريحة البتة. كان العشاء ممتازًا، وبعد اخذ غليون، لففنا انفسنا في اثنين من هذه الفجوات غير النافذة وخلدنا إلى النوم.

ورغم كنسها بعناية، إلا ان هذه "المقهى الصغيرة المريحة" لم تكن غرفة نوم مريحة ابدًا. فقد كانت تعج بالحشرات، وقد علمتني التجربة ان مجاميع قائدة منها تاخذ مواقعها على مواضع مختلفة من جسدي، ومن هنا تقوم برحلات وجولات بقيادة أدلاء كفوئين إلى المواضع الأكثر متعة لها في انحاء جسمي. وبعد هذه الجولة، تعود إلى ملتقاها الخاص، وبعد توقف قصير للانتعاش والرقاد، تنطلق ثانية للبحث عن نقطة جذب جديدة. يبدو ان افضل رحلات لها كانت نحو ركبي وساعدي وترقوتي، حيث تنظم بشكل منسق نزهة كبيرة إلى مؤخرتها.

مصدر الإزعاج الآخر هو المكاري الكبير السن الذي حسبما علمت بصورة مفاجئة انه قد اتخذ موقعه على ارضية المقهى. وبما اننا قد حجزنا المقهى بشكل خاص لخلوتنا نهضت وانا في الفجوة كالهة غاضبة وامرته بحده ان ينصرف. لم يبالي الرجل الكبير السن ولم يخرج إلى ان اوقعت نفسي من الفراش مع الأمتعة وبناطيل الركوب كي اخرجه. ابدى يوسف ايضًا خوفًا كبيرًا من اللصوص واضطجع على بطنه عند الباب حيث قال ليس من السلامة الخلود إلى النوم. وقد وجدته لمرة أو مرتين في ساعات الليل القليلة عندما كنت مضطرًا للجلوس لإبعاد وجبة كبيرة من الحشرات عني، وهو يدخن بنهم سيكارة كبيرة في نفس وضعه. قال ان تلك السيكارة هي لمعالجة سعال

شديد لازمه، وبالتاكيد انه الآن يقوم بقدر كبير من "النباح"، ولكن كيف يمكن لسيكارة ان تشفيه، هذا ما لا افهمه.

رغم انني لم ارى شيئا من اللصوص، إلا ان يوسف قد اكد لي في الصباح التالي ان الشرطة قد قبضت على احدهم وهو يحاول الدخول إلى المقهى خلسة لغرض السرقة. كان هذا احد قطاع الطرق الذين تلاشوا والذين يسمع عنهم المرء كثيرًا ولا يراهم عند السفر في انحاء الشرق.

بين هذا الشغب والصخب وعراك الكلاب المعتاد، لم نكن بكامل نشاطنا عندما امتطينا خيولنا في الساعة السادسة إلا ربعًا من صباح اليوم التالي. كان الجو باردًا ولطيفًا في تلك الساعة من الصباح لذلك اندفعنا بسرعة معقولة لتوفير اكبر وقت ممكن لقضائه في آثار مدينة بابل. عند حوالي الساعة السادسة والنصف، مررنا ببعض الخيام التي قال عنها يوسف انها تعود لقبائل عربية تدعى (البعاج) وبعد خمسين دقيقة وصلنا إلى خان آخر يدعى الناصرية وهو اسم ربما تكون له دلالة معينة بمدينة النصار التي كانت توجد في السابق قرب الكوفة على قناة الهدية. وبعد مغادرتنا لها وصلنا إلى مستنقع موحل نتن شكّل لنا معضلة عند عبوره حيث كان علينا ان نختار بحذر طريقًا على ارض صلبة وقد تلطخنا بالوحل مع خيولنا. قادنا هذا الطريق نحو خان المحاويل الذي يبعد مسافة مسير احد عشر ونصف ساعة من بغداد وحوالي ساعة ونصف من تلال بابل، والتي في الواقع شاهدتها لأول مرة من خلفه. لغرض إراحة انفسنا وحيواناتنا، وغيّرنا بعض الأحيان من إجراءاتنا إذ نترجل ونقود خيولنا مسافة ميل او بحدوده، ليس لدى الحيوانات المسكينة سوى طاقة قليلة على المسير، وقد أوجد يوسف ما يناسب هذه الحالة وهو عبارة عن منخسين استطعنا باحدهما انا وسي أن نحث الخطى. إنها حقيقة محزنة هي ان هذا المنخس يعتبر في هذه

الأنحاء ضرورة لا غنى عنها للمسافر إذا ما اراد أن يسير فرسه المنهكة بسرعة معقولة. وبعد مغادرتنا للمحاويل مباشرة، عبرنا قناة واصبحنا على مسافة ثلاثة او اربعة اميال وعلى مراى من اول تل بابلي كبير وهو الذي يسميه ريتش وبكنكهام (محلب) وإينسورث بابل. ومن هذا الطريق يمتد نحو اليمين صف طويل من اشجار النخيل، على ضفاف الفرات الغرينية، كما اكتشفنا ذلك فيما بعد. وبالقرب منا على جانبي الطريق، شاهدنا تلالاً صغيرة غير ذات اهمية يبدو من المحتمل انها تقع ضمن او تشكل جزءًا من الحدود الشمالية للمدينة العظيمة. وقد قابلنا عند وصولنا هذه التلال مباشرة وهو ما يثير الدهشة اثنين من الأمريكيين وهم عائدين إلى بغداد من بابل. وبالطبع توقفنا لتبادل الحديث معهما حيث اخبرونا بأفضل الطرق للوصول. وبعد افتراقنا، خببنا الخيل واجتزنا خلال الطريق بقايا القنوات القديمة، التي كانت بمجملها يابسة. يرى بعض الرحالة ان هذه القنوات هي بالأحرى خطوط الشوارع القديمة اكثر منها مجار لمياه الري، وهي نظرية ليس لها سوى حظ قليل من الصحة كون هذه الآثار لا تختلف نوعًا ما عمّا شاهدته بين الفلوجة وبغداد التي لا يمكن ان تكون سوى قنوات مائية. وعند حوالي الساعة العاشرة إلا عشر دقائق، كنا مقابل التل، ولكن نظرًا لوجود قناة مليئة بالمياه إلى الشرق منه، كان علينا ان نسير مسافة قصيرة حولها ثم نعبرها بواسطة جسر، يسمّي يوسف هذه القناة (نهر النيل)، والتي يظهر من خلال ما تركه الجغرافيون العرب من كتابات عنها انها قناة كبيرة او ذراع من النهر يمتد من الفرات ويجري بين التلّ المسمى بابل والآثار الواسعة الأخرى إلى الجنوب.

يبدو أن النيل البابلي كما يشير إينسورث هو النهر الذي اشار إليه هيرودوتس، بانه يقطع بابل ويفصل بين معبد بيلوس والقصر الملكي. ليس لديّ الرغبة او المؤهل

بأن ادخل في القضية المحيّرة بتعيين المواقع المختلفة، لهذا سوف اقنع نفسي بالوصف الموجز للتلال المختلفة التي يشاهدها المسافر القادم من الشمال باتجاه الحلّة.

وبعد عبورنا للقناة، اتجهنا إلى الوراء وصعدنا على ضفاف قناة اخرى واخذنا نسير على أرض مستوية واقتربنا من التلّ الكبير من جهة الجنوب.

تبدو هذه الآثار الواسعة للناظر غير المتعلم انها مجرد كم لا شكل له من التراب والمباني المهدمة. إلا انها مع ذلك، اكثر تنظيمًا مما تبدو كونها عبارة عن مستطيل متموج يبلغ طول الجانب الشمالي والجنوبي مائتي ياردة تقريبًا، بينما الجانب الشرقي مئة وثمانين ياردة والغربي مئة واربعين ياردة، وهي تختلف بشكل كبير من حيث درجة ارتفاع اجزائها، فاعلى جزء منها يبلغ ارتفاعه مئة واربعين قدم فوق مستوى الأرض. وبعد الصعود على السطح الوعر لهذا التل، وجدت في احد المواقع او اثنين منها غرف تم الكشف عن جزء منها اثاريًا عن طريق الحفر. في إحداها شاهدت الطراز الخاص من البناء الذي يوجد ايضًا في عكركوف حيث تفصل بين طبقات الآجر طبقات من حصران القصب. وقد شاهدت ثعلبًا نحيلاً يتوارى في وجاره وليس ببعيد عن ذلك، ركلت ارنبًا صغيرًا ممتلئ الجسم، ويبدو ان الثعالب تتوالد هنا وتشاهد بشكل عام وهي تطوف في هذه المواقع القديمة[1]. وتوجد ايضًا من خلال البحث والتنقيب قطع من الآجر تحوي كتابات مسمارية وقطع صغيرة من البرونز.

إن هذه الكتلة الكبيرة الواقعة بعيدًا عن كل التلال الأخرى كامتداد عضوي لها قائم نحو الشمال، هي المجلب او المقلب او المقلوب كما يسميه ريتش وبكنكهام.

---

(١) "بل تربض هناك وحوش القفر ويملأ البوم بيوتهم وتسكن هناك بنات النعام وترقص هناك معز الوحش وتصيح بنات آوى في قصورهم والذئاب في هياكل التنعم ووقتها قريب المجيء وايامها لا تطول". سفر اشعياء الإصحاح ١٣، آية ٢١. (المؤلف).

بينما يؤكد إينسورث ان العرب يسموه بابل، وهو الاسم الذي جرى تبنيه على نطاق واسع وتحولت مفردة (المجلب) إلى موضع آخر، يبدو غريبًا، إلا انه من الواضح ان تلك هي الحالة، وهو ان العرب يحولون ويغيّرون الأسماء من تل إلى اخر كيفما اتفق. وقد وجد رحالة متاخر ان اسم هذا التل الشمالي هو (انانا) وهو الاسم الذي يطلق حتى اليوم على بعض الآثار الواقعة على الضفة الغربية من الفرات، لهذا ولغرض الحيلولة دون وقوع الالتباس، سوف اتبنى هنا الاسم الذي اطلقه إينسورث.

يميل بيتر ودي فالي وريتش واخرون إلى ان هذا التلّ يضم برج معبد بيلوس وآخرون يرون انه يمثل آثار القصر او الجنائن المعلقة. بينما يبدو أن العرب يعتبرونه يمثل آثار البرج الحقيقي لبابل. ومهما يكن، فإنه أثر رائع، ولابد انه كان في زمن ما احد المواقع الرئيسية في بابل القديمة، ويظهر ان تنقيبات لابارد وآخرون تثبت ان جميع الغرف والأضرحة الموجودة او المكتشفة على قمة التلّ لا تعود إلى المبنى القديم بل إلى فترة حديثة نسبيًا. إن الركائز والأسوار المبنية من الآجر الموجودة في اسفل البناء من جميع الجهات، تثبت انه قد تم تشييد صرح او اكثر من الصروح الضخمة في زمن ما على هذا السهل المستوي، ولا نرى في هذه الآثار الهائلة سوى بقايا منهارة من المنشآت المذهلة للزمن الغابر.

وعند النظر إلى الجنوب من قمة بابل، نشاهد الخط المتموج لتلال بابل الأخرى الواقع احدها خلف الآخر بعدد يصعب إحصاؤه. وبالنسبة إلى عين الزائر الجديد، فإنه لا يستطيع إدراك اي نوع من النظام او التنسيق في هذه المجموعة المتموجة غير الجميلة، ولكن يمتد على طولها من ناحية الغرب، نهر الفرات الذي ياخذ بالتموج وسط بساتين النخيل المتمايلة، ويتقلص عرضه الآن ليصل إلى مائتي قدم فقط بسبب القنوات ومجاري المياه المتعددة القديمة منها والحديثة التي تاخذ المياه منه لسقي الأراضي

الواقعة إلى الغرب والشرق منه بين الفلوجة وهذا الموقع، تبدو بقايا المجد القديم مرعبة ومقفرة، ولكن الطبيعة المحيطة به تشكل منظرًا ساحرًا.

تركنا تلّ بابل وامتطينا خيولنا وسرنا مسافة ميل واحد بجانب النهر حتى كنا قبالة التلال الوسطى. وفي هذا المكان جلسنا تحت ظل شجرة كبيرة لتناول الغداء بينما يجثم حولنا بعض العرب من القرية المجاورة وبايديهم قطعا اثرية لغرض البيع. وقد اشتريت من هؤلاء القوم عدة الواح منقوش عليها كتابات مسمارية، إلا انه لم تكن لدي الفرصة حتى الآن للتحقق فيما إذا كانت اصلية ام لا. إذ أنه من المعروف جدًا أنه يجري صنع مثل هذه الأشياء لبيعها إلى المغفلين على اساس انها اصلية وليس بعيدًا عن الاحتمال انها ربما قد اعطيت إلى سكان الريف لهذا الغرض. ولكن يبدو ان سعرها التافه الذي يرغبون بيعها فيه يستبعد إمكانية كون هذه الأشياء من هذا الصنف. فالألواح الاثنان او الثلاثة التي اشتريتها لم ادفع بالواحدة منهما اكثر من روبية واحدة، ولابد أن الأشياء الأخرى كانت بنفس السعر، كذلك عُرضت علينا عدة اختام اسطوانية لا جدال في صحة اصالتها. اخذ سي لكونه منهكًا بفعل الركوب والشمس، إغفاءة هادئة على الأرض بينما جلست ادخن وافكر مليًا في هذه الأماكن حيث تزدحم في ذهن المرء من تلقاء نفسها افكار غريبة عن صور من العهود الأكثر شهرة في عالمنا الكبير الذي نعيش فيه. يطفو بمهل نحو الجنوب في النهر ويحمله التيار الأشهر تاريخًا في العالم ويدفعه نسيم ربيعي رقيق، قارب عربي بشراعه المثلث الكبير. كان طاقمه يغني اثناء سيرنا، ولم يفعل هذا الزورق الرشيق والجميل سوى أن يزيد من جمال المنظر. كم سيكون حجم التباين لو استطاع المرء للحظة واحدة أن يصوّر مظهر هذا المكان بشكل حقيقي عندما كانت بابل في عزّ مجدها. لابد ان تشكّل أساطيل السفن النهرية وصفوف ارصفة الموانئ والسدود المزدحمة بحشود الناس المنشغلة باعمالها والجسور الفخمة وكتل ابراج المعابد والقصور، صورة رائعة مدهشة للثروة

والنفوذ. إلا ان كلمات النبي قد تحققت فعلاً. بعد الغداء، سرت بصحبة واحد او اثنين من العرب نحو التل المقابل للمكان الذي كنا نستريح فيه. إنه القصر الذي ذكره ريتش وإبنسورث و(مجلية) او (مجلب) الذي ذكره لابارد. إنه كتلة غير منتظمة او مستوية من بناء مهدم من الآجر شبيه بتل بابل ومساحته حوالي سبعمائة ياردة ويبعد اكثر من ميل إلى جنوب التل الشمالي. ينتشر على سطحه آجر لامع عليه كتابات إلا ان الشيئين الرئيسيين اللذين يستحقان الاهتمام، هما الأسد الحجري الكبير الذي لا يزال مدفونا إلى النصف في الرمال، وهو معلم يثير الأسى من المدينة القديمة. الأثر الآخر الأكثر إثارة يوجد في بقايا مبنى من الآجر ينطبق عليه بشكل صحيح اكثر اسم (القصر)، وهو الجزء الوحيد من المبنى الذي بقي محفوظًا من كل هذه الآثار. لقد جرى وصف هذا الأثر الصغير المهم من قبل كثيرين، إلا انني هنا سأقتبس وصف لابارد الموجز والدقيق:

"في المنتصف تقريبا، تقف كتلة صلبة من البناء، كاملة غير منقوصة، حتى إنها لا تزال تحتفظ بآثار الزخرفة المعمارية، بارزة من ركام الرمال، نستطيع ان نرى ركائز ودعامات واعمدة ذات تيجان وقاعدة، إلا ان الدمار كان تامًا بما لا يدعنا نقرر فيما إذا كانت هذه تتبع داخل ام خارج القصر. وقد بحثت عبثا عن مفتاح لحل لغز التصميم العام لهذا الصرح. كان الآجر ذا لون اصفر خفيف وليس هناك في آثار مدينة بابل الأخرى آجر يفوقه في الصنعة. تم ربطه مع بعضه بإحكام بواسطة اسمنت او (لاصق) جيري جيد شبيه بما موجود في برس نمرود.

وقد ختم على كل آجرة تقريبا بشكل واضح وعميق اسم والقاب نبوخذنصر وقد وضع الوجه المختوم دائمًا إلى الأسفل، كان المقطع العجيب هذا من البناء كاملاً

جدًا وزاهي الألوان ويبدو كما لو انه عُمِلَ الأمس رغم انه يعتبر دون شك جزءًا من مبنى كان ينتصب وسط بابل القديمة"(*)(1).

ليس بعيدًا عن الاحتمال ان يكون هذا التل كما يدل على ذلك اسم (القصر) إلى قصر نبوخذنصر. وما يلاحظ هو ان كل الآجر الموجود فيه هو من النوع الأكثر جودة، لهذا السبب تعرض إلى اسوء اعمال التدمير حيث بنيت اجزاء كبيرة من الحلة وحتى من بغداد من منتجات هذه الصناعة السيئة الحظ، وسواء كانت مفردة (المجلبة) اي (موطن الأسرى) او (المقلب) اي (الساقط) صحيحة ام لا، فليس لهذا الأمر اهمية كبيرة، لأنه لا يمكن استنتاج اي شيء من الاسم كونه يطلق على اجزاء عديدة من سلسلة التلال هذه.

عدنا إلى ضفة النهر وامتطينا خيولنا استعدادًا لاستئناف رحلتنا. يمتد الطريق عبر شكل من اشكال الوديان مغلق من جهة اليمين بتل طويل او سدّ يمتد بمحاذاة النهر، ومغلق من جهة اليسار بتل آخر يترك الزاوية الجنوبية الغربية من تلّ القصر ويرتبط بعد مسافة حوالي ربع ميل مع التل الجنوبي الكبير، الذي يسميه العامة عمران بن علي، على اسم ضريح شيخ مبني فوقه. يستمر هذا الطريق الواسع، والذي يبلغ عرضه في بعض الأماكن ربع ميل، بالدوران حول الجانب الجنوبي من تلال عمران، حيث يمتد من الزاوية الجنوبية الشرقية له سد آخر ويستدير ليصبح بالقرب من تلّ بابل الشمالي، وربما يكون هذا احد الأسوار الثلاثة التي يقال انها تحيط بالقصر وبالجنائن المعلقة. هناك خطوط داخلية لسدود، ربما تمثل الأسوار الأخرى.

(*) انظر "نينوى وبابل" ١٨٨٢، ص٢٨٧. وما يلاحظ ان الصور التي وردت في هذا الكتاب ذات مقياس غير صحيح وذلك لوجود جمل صغير في صدر الصورة مما جعل الأثر يبدو اكبر من حجمه الحقيقي بعدة مرات. (المؤلف).

(1) هذا الأثر هو بوابة عشتار الموجود اصلها في متحف برلين. (المترجم).

يعتبر تل عمران، الذي يسمى احيانا الجمجمة، على اسم قرية عربية تقع إلى الجنوب منه، غير منتظم الشكل، وحسبما يذكر بكنكهام، يبلغ طوله ١١٠٠ ياردة وعرضه ٨٠٠ وارتفاعه في اعلى نقطة له هي بين (٦٠-٧٠) قدم. من خلال موقعه وارتفاعه، يعتقد بقدر كبير من الاحتمالية، انه يمثل موقع الجنائن المعلقة الشهيرة. ويبدو ان تنقيبات لابارد تثبت إلى حد ما هذا لأنه لم يجد اي نوع من البناء في هذا الركام. وعلى اية حال، فقد استخدم هذا التل لأغراض الدفن واغراض اخرى بعد تحطمه بوقت طويل، ومن بين الأشياء التي تم العثور عليها بعض الأثريات عن الاحتلال السلوقي والإغريقي. بالإضافة إلى هذه التلال الرئيسية الكبيرة، هناك تلال اخرى ذات احجام كبيرة إلا انها ربما تكون اقل اهمية، من بين هذه التلال، هناك تل متموج ذو ارتفاع واطئ قليلاً يقع بين تل بابل والقصر، اطلق عليه إينسورث مرّة اخرى (المجلبة) او (المقلّب) حيث يبدو ان هذا الاسم قد ألحق بكل تلّ من الآثار، إلا انه قد تم التخلي عنه فيما بعد.

تبلغ الأبعاد الكلية للمساحة المسوّرة كما يورد ذلك ريتش، ميلين وستمائة ياردة عرضًا وميلين والف ياردة طولاً من الشمال إلى الجنوب. لهذا يتضح ان المساحة المسوّرة هي مساحة صغيرة رغم انها مهمة، وتبلغ ربع المدينة، التي وصفها هيرودوتس بان محيطها يبلغ ستين ميلاً وان اسوارها بارتفاع ثلاثمائة وخمسين قدمًا وبسمك سبعة وثمانين قدمًا وتستطيع ست مركبات ذات عجلات ان تسير عليه جنبًا إلى جنب.

وإذا اخذنا بنظر الاعتبار، احتمال الخطأ واحتمال المبالغة الشرقية، إلا انه لا شك ان بابل كانت تغطي مساحة كبيرة من الأرض وان اسوارها كانت بحجم كبير. وقد انشغل الرحالة بكنكهام في البحث عن هذه وتحمل مسيرًا شاقًا وطويلاً تحت حرارة

شمس تموز وبعد مسير لمسافة عشر إلى اثني عشر ميلاً نحو الشرق، وجدنا تلاً غريبًا بمحيط يبلغ ثلاثمائة إلى اربعمائة قدم وبارتفاع بحدود سبعين قدمًا. ووجد على قمته كتلة من الجدار الصلب مهدمة ومحطمة إلا انها لا تزال بحجم كبير، ويبدو انها حقًا من بقايا السور العظيم إذ لا يوجد فيها اي مبنى على شكل غرفة. ومن المجموعة الوسطية الكبرى إلى هذه النقطة، تغطي الأرض بقايا آثار قديمة، ولكن عند النظر من القمة باتجاه الشرق باقصى ما يصل إليه النظر، لا يُشاهد اي اثر لقناة او تل. ومن هذا استنتج نظريته بان هذا التل (الأحيمر) هو في الواقع جزء من سور المدينة العظيم. ومن الجدير بالأهمية، انه إذا كنا لا نستطيع اقتفاء اي اثر منه نحو الشمال او الجنوب، كما تبدو الحالة، او بكلمات اخرى، إذا كان هذا هو حقًا جزءًا من السور، فإننا لا نستطيع اقتفاء اثره نحو اي اتجاه، إلا ان من يعارض هذا التعيين، عليه ان يعترف انه من غير الاعتيادي اكثر لو لم نعثر على اي اثر للسور مطلقًا. تعتبر المسألة ذات اهمية عالية، ولكن ولحين ظهور ادلة اخرى، فإنها يجب ان تبقى معلّقة[1].

---

(١) تقع بابل على مسافة (٩٠) كم جنوب بغداد و(١٠) كم شمال الحلة. ورد ذكرها في الكتاب المقدس وفي كتابات الرحالة والمؤرخين الأوائل واشتهرت بثروتها وعظمتها. تعتبر اسوارها وجنائنها المعلقة وبرجها احد عجائب الدنيا السبع في العالم القديم. كانت بابل في العصور الأكدية بحدود (٢٣٥٠ ق.م) قرية صغيرة إلا ان اهميتها اخذت تزداد حتى اصبحت عاصمة الملك الشهير ومشرّع القوانين حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م). ثم عادت للنهوض مرّة اخرى في زمن ملكها نبوخذنصر (٥٦٣-٦٠٥ ق.م) حيث اعاد بناؤها ثانية لتصبح من اجمل مدن العالم في زمنه.

يخترق الفرات المدينة من الشمال إلى الجنوب، يحيطها خندق وسور مزدوج. كان طول السور الخارج ١٦ كم والداخلي ١٨ كم، تتخلل المدينة شوارع واسعة ومستقيمة جميعها معبّدة بالآجر والقار. اهمها هو شارع الموكب الذي يبدأ من بوابة عشتار وينتهي في البرج المدرج. لا تزال تشاهد إلى اليوم آثار التعبيد بالقار. يقع القصر الجنوبي الذي ابعاده ١٩٠×٣٠٠م على الجانب الغربي من هذا الشارع وهو مؤلف من خمس صالات واسعة محاطة بصالات اصغر وغرف احدها هي صالة العرش. تعتبر الجنائن المعلقة التي لا يزال بالإمكان حاليًا رؤية آثارها، جزءًا من هذا القصر، يقع في الجانب الشرقي من شارع الموكب معبد ننماخ، وتشاهد شماله آثار القصر الرئيسي حيث يوجد اسد بابل. وعلى الجانب الأيمن من الطريق إلى بابل يقع المسرح المدرج، الذي يعود إلى زمن الإسكندر الكبير الذي جعل بابل عاصمته لبعض الوقت، وتوفي فيها عام ٣٢٣ ق.م. (المترجم)

وعـندما خرجـنا مـن الآثـار، تبعـنا موكـب من النساء والأطفال العرب المساكين بمسـبحات مـن الخـرز وبعض القطـع الأثـرية الـتي وجدوها في موقع الآثار. كان الجو في هذا الوقـت حـارًا جـدًا، كـمـا هـو عـندما كـنا نسـير بـين الـتلال. وبعـد نخس خيولنا، انطلقـنا بعـدو سـريع نحـو بساتين نخيل الحلة. كـنـت اسير بجهـد في المؤخـرة محـاولاً اللحاق بسي الـذي كـان حصانه يمشي بخطى اوسع من حصاني، عندما ظهرت فجأة امـراة كـانـت تسير مـع مجموعـة مـن العـرب الفقـراء عـلى الطـريق، واعـترضـت مباشرة طريق سير الحصان، وفي الدقـيقة التالـية كـانـت راسًا عـلى عقـب في الـتراب. وفي الحـال توقفـت وناديـت عـلى يوسـف بـالعودة، كـانـت المـراة تـرتجف فقـط وتمالكـت نفسها، ثـم اخذت تبكي بفجع، رغم انه يبدو انها تبكي بسبب الخوف اكثر من اي شيء اخر. قلت ليوسف ان يبلغ الرجال عن اسفي لـهذا الحادث وارجو ان لا تكون المراة قد اصابها اذى، إلا ان تلـك كـانـت غلطـتها. كـان يوسـف ميالاً للاسـتخفاف بكـل القضـية، واعـتقد ان ترجمـته لكلامي كـانت ماذا تقصد امراة فلاحة عربية من وراء اعتراضها لطريق رجل إنكليزي. كان الرجال مهتمين اكثر بموضوع توقف مسيحي ونظره إلى امراة مسلمة (رغـم ان نظـرتي لـهـا كـانـت نظـرة عطـف) اكـثر مـن موضـوع الأذى الـذي يمكن ان يكون قد اصاب المراة. وبموجب ذلك، دفعوها خلفهم ورجوني ان اسير، إذ تـركـتهم بعد ان دفعـت لـهم بقشيشًا لتغطـية الأضـرار، حيـث لا يسـمح بالطـبع للسـيدة ان تسـتلمه شخصيًا.



الفصل الثالث عشر

الحلة وبرس نمرود

الوصول إلى الحلة - سيد حسن - الحلة - بداية برس نمرود - مظهر قريه - اللقاء برحالة روسي - البرس - وصف الاثر - نظرة من الأعلى - لقيم بنيامين اللومولي - نظريات من أصله - بور سيبا - النبي إبراهيم والروايات العربية المتوارثة - إخلفاء مظللي - نفوذ الاسم البريطاني - العودة إلى الحلة - زوار - حصان يوسف يكبس اللحم - الطريق إلى المسيب - أولاد مسلم - الوصول إلى المسيب

عند مدخل الحلّة، التقينا برجل عربي وقور، هو صديق سيد حسن، حيث حللنا ضيوفًا عليه. لقد تبين أن الشخص، الذي كان يرتدي افضل ما لديه من ملابس بهذه المناسبة، هو احمد بن سعد حبة، احد تجار المدينة. وقد سرنا برفقته وسط بساتين النخيل في الجانب الشرقي من المدينة نحو جسر من القوارب كان مخلعًا اكثر من جسر بغداد. وبعد عبورنا النهر، اجتزنا اسواقًا، مماثلة إلا انها اقل مستوى من اسواق بغداد، ثم انعطفنا في شارع فرعي وترجلنا عند الدار التي سنمضي بها ليلتنا. ظهر السيد بعد ذلك مباشرة، وحيّانا بحرارة من المؤكد أنها ليست زائفة، رغم التصنع والشكلية التي تغطي على الأخلاق الفارسية بشكل عام. كان سيد حسن رجلاً فارسيًا موسرًا، وبيته في كربلاء. لست متأكدًا تمامًا إن كان البيت الذي استضافنا في الحلّة

يعود إليه ام وضع تحت تصرفه لهذا الغرض من قبل صديق أو قريب له. على اية حال، تصرف معنا هنا باهلية المضيف بل واكرم منه، مما لم نجده من قبل. يعتبر السيد كما يشير إلى ذلك لقبه، سليلاً للنبي من فاطمة ابنته الوحيدة وزوجها علي. وهذا اللقب معادل للقب (الشريف) عند المسلمين السُنة، كان مظهره وسلوكه ينم عن النبل والاحترام بدرجة كبيرة. كانت ملامحه ذكية ودقيقة وذو هيئة ارستقراطية شبيهة بالنسر، وجبين عالي يرتدي فوقه بشكل حسن عمامة كبيرة خضراء داكنة. ورغم انحداره من النبي، إلا انه لا يحتفظ مطلقًا باية مشاعر للتعصب ضد المسيحيين، ويشير لطفه وكرمه لأكثر من رحالة إنكليزي إلى المشاعر التي يكنها نحو امتنا. وقد عرض علينا بفخر عدة رسائل تلقاها من السيد كرزن مؤلف كتاب "بلاد فارس والقضية الفارسية" والعقيد تويداي المقيم الأخير في بغداد ورجال إنكليز اخرين. استضافنا في غرفة مريحة مجهزة بارائك في كل طرف من اطرافها، وقد استمتعنا كثيرًا بعمل خدم السيد وقيامهم بجلب الكرسي تلو الآخر، والتي اظن من خلال اشكالها المتنوعة والعتيقة، انه قد جرى جمعها من مختلف انحاء الحلة كتكريم لإرضاء ذوقنا الإنكليزي. بعد ذلك جاء لزيارتنا بعض وجهاء الحلة. كانوا تشكيلة متنوعة، فمنهم شخص اسود قال يوسف انه قاض محلي وواحد او اثنان من الموظفين الأتراك. كذلك طلبت من يوسف ان يسال السيد فيما إذا كان هناك اي شخص لديه قطع اثرية من بابل ليبيعها، وبموجب ذلك، ظهر يهودي ثري وجيوبه مليئة بالرقم والأختام الاسطوانية والحلي الصغيرة والبابلية. كذلك عرض علينا جوهرة تاج ذهبية عظيمة تعود لأحد الأباطرة الرومان، هو كومودس[1]، إذا كنت اتذكر بشكل صحيح، إلا اننا لم نتوصل إلى اتفاق معه لشرائها. وعندما غادر هؤلاء الرجال،

(١) كومودس (١٦١-١٩٢م) هو امبراطور روماني (١٨٠-١٩٢م) ابن وخليفة ماركوس اورليوس. كان فاسقا وفظا ومزهوًا ببنيته الجسمانية، وفي الأخر قُتِل. (المترجم).

انتهزنا الفرصة للاستحمام، وقد كان سي لحسن الحظ يحمل معه خيمة مطاطية هندية تستخدم كحمام. وبينما كان يجري الاستحمام، كان يوسف يقف كحارس عند الباب، خشية ان يصل بعض وجهاء المدينة ويقتحموا مكان الاستحمام غير الإسلامي هذا. وبعد الانتهاء من ذلك، تم تجهيز المائدة (حيث وضعت عليها السكاكين والشوكات استجابة لرغبة سي بأن لا يأكل باصابعه)، وتم وضع عشاء فاخر امامنا، وقد اعتذر مضيفنا رغم لطفه وكرمه عن مشاركتنا الطعام، لا اعتقد ان رفضه مشاركتنا الطعام قد جاءت لسبب آخر عدا ميوله الشيعية بعدم تناول الطعام مع المسيحيين. وتدبر عمله هذا بالطبع بأن الوقت هو وقت رمضان وانه لا يستطيع الإفطار إلا بعد غروب الشمس، ولكن بعد مضي فترة قصيرة، قبل سيكارة قُدّمت إليه، وقد برر هذا على اساس ان بإمكانه التدخين لأنه على سفر كونه قد جاء في الواقع إلى بيته من بغداد إلى كربلاء. بعد ذلك تركنا، ولم نستطع مقاومة إغراء إخراج قنينة شراب كركوك اللذيذ، والتي تعتبر بعد رحلة يوم طويل مطلوبة جدًا، كما اننا لم نكن نرغب بإخراجها اثناء تناولنا طعامه الفاخرة، لأننا لا نريد جرح مشاعره الإسلامية. ولسوء الحظ، عاد بسرعة بعد ذلك، حيث تم إخفاء القنينة تحت المائدة بكثير من الضجة، شعرت بالضبط وكأني طالب مدرسة مشاكس وقد قبض عليه وهو يمارس التدخين. لا أعرف فيما إذا كان السيد قد شاهدنا ام لا، إلا انه سال يوسف لماذا لا يحتسي ضيوفه الشراب. إنه بالطبع لا يستطيع تقديمها لنا، إلا انه يعرف ان الإنكليز يحتسونها، ويحملونها معهم. وقد رجانا بان نتصرف كما لو اننا في بيوتنا. لا ينتهك الإنكليز ابدًا التقاليد المتبعة كالأتراك. وقد جعلنا هذا نشعر باننا اكثر نفاقًا، إلا اننا اذعنا بالرصانة المعهودة للأمة البريطانية، وقد جعلنا يوسف نقوم بحيلة مشعوذة وذلك بإخراجه قنينة شراب من خرجه ووضعها على ارتفاع قدمين. وبعد اداء هذا ببراعة، تناولنا البيلاف والكباب واللبن مرة اخرى وسارت الأمور ببهجة كما لو

انها حفلة عرس. وبعد العشاء عاد السيد مرّة اخرى لتبادل الحديث، حيث تم ذلك بشكل رئيسي من خلال يوسف كانت لغته الأم هي الفارسية التي لا يجيدها اي منا. كما انه يعرف العربية، إلا ان معرفتي بها ليست كافية لتبادل حديث طويل. وقد اتضح لنا فيما بعد ان له معرفة قليلة باللغة الهندستانية حيث استطاع سي تبادل الحديث معه بهذه اللغة. لقد اكتشفنا من خلالها أن الحكم التركي غير محبوب من اهالي الحلّة. وكذلك هي الحالة في كربلاء. ليس هناك حب متبادل بين العرب من سكان هذه المدن والأتراك، وإذا ما تركنا جانبًا العداء التقليدي بين الفرس والترك، فإن سيطرة الأخيرين على العتبات الشيعية المقدسة لمشهد علي ومشهد الحسين، تعتبر شوكة قاسية في خاصرة الفرس. كنت اود القيام بجولة في الحلّة بعد وصولي، إلا ان السيد لم يكن يرغب بذلك. فقد قال: "بان الحلّة مكان بائس ليس فيه ما يستحق المشاهدة، والناس هنا غلاظ الطبع ولا تستطيع ان تسير دون مرافقة احد، انتظر حتى تصل كربلاء، حيث هناك الكثير الذي يستحق المشاهدة". يبدو لي ان الحلة لا تحمل ميزة حسنة خاصة بها، وقد قال بكنكهام بحق: "إن اهل الحلة يقتلون حكامهم ويغتالون احدهم الآخر دون عقاب".

تقع الحلّة، التي يمكن ان تسمى الوريث الحالي لبابل القديمة، ضمن الحدود القديمة لبابل وتم بناؤها من الآجر الماخوذ من اطلالها، وهي مكان ذو اهمية بالغة وتقع على ضفتي نهر الفرات، الذي يبلغ عرضه الآن اقل من مائتي يارد وتياره معتدل. تقع المدينة بشكل جميل وسط بساتين نخيل ويحيطها سور هزيل مبني من الطين او الآجر. فيها أسواق على جانبي النهر، إلا ان الأسواق الواقعة على الضفة اليمنى اكثر اتساع، والجزء الواقع على تلك الجهة هو الجزء الرئيسي منها. يبدو ان سكانها في تزايد ويشير لابارد ان عددهم يبلغ حوالي "ثمانية او تسعة آلاف" بينما يقول كرانون

كيري عام ١٨٧٨م ان عددهم في هذا الوقت يقدر بعشرين الف، أعتقد ان الرقم الأخير يعتبر تقديرًا عاليًا. السكان هم من العرب بشكل رئيسي، إلا ان هناك جماعة كبير من اليهود، إنها حقيقة مثيرة في الواقع، إذ ومنذ الأسر البابلي استوطن هذا الجنس بأعداد كبيرة في المناطق المجاورة لبابل القديمة. يقول الحاخام بنيامين التودولي، الذي تضم كتبه للرحلات إحصائيات عن اعداد السكان اليهود في المناطق المختلفة التي زارها: "يعيش عشرون الف يهود داخل منطقة تبعد عشرين ميلاً عن هذا المكان اي "بابل" ويؤدون عباداتهم في كنيس دانيال، الذي يرقد بسلام" . وقوله الأكثر إثارة للدهشة هو: "تضم الحلة حوالي عشرة آلاف يهودي واربعة كنيس". وهو عدد ربما يساوي ثلثي مجموع السكان. كما انه يقول أن بغداد تضم الفًا من اليهود، بينما يقول بكنكهام أن هذا قلب تام للحالة في عصره، حيث يقدر عدد اليهود في بغداد بعشرة آلاف شخص ويهود الحلة بالف شخص، لهذا كما يقول: "يبدو انه قد حصل هناك مجرد تغيير في الأماكن دون زيادة او نقصان في الأعداد الحقيقية في كلا المدينتين".

وعند الصباح التالي، نهضنا مبكرين واتجهنا نحو برّس نمرود. لقد كتبته تحت اسم (برّس) لأن ذلك هو اللفظ الوحيد الذي سمعته سواءًا في الحلة او في الموقع ذاته. ليس هناك اي رحّالة او كاتب عرفته قد كتب الاسم بغير كلمة (برس)، لهذا تظهر مسالة غريبة هي هل تغيّر اللفظ المحلي مؤخرًا. لا تحمل كلمة نمرود، التي تطلق في مناسبات عدة، معها اي دليل اكثر مما تحمله عندما نطلق على الأثر الموجود قرب بغداد المسمى نمرود او عكركوف. وبعد خروجنا من سور الحلة مباشرة شاهدنا على الطريق الممتد بالاتجاه الجنوبي الغربي، مرتفعًا على وجه الصحراء التلّ الذي نقصد. إنه يبعد مسافة خمسة او ستة اميال عن الحلة، ومن هذه المسافة يبدو

كانه هرم مهدم او ربما اطلال برج بنفس الأبعاد بحيث يجعل هنا من السهل فهم كيف اخطا العديد من الرحالة باعتباره على انه يمثل برج بابل الحقيقي. وعندما كنا نعدو باتجاهه على سطح هذا السهل القاحل، اخذ حجمه يزداد ويكبر امام انظارنا مشكلا منظرا غير اعتيادي حقا وسط هذه الأرض. لم يكن في قرارنا ان نمضي الى مسافة ابعد من ذلك، حيث تصبح الأرض موحلة ومستنقعية، وعلينا الآن ان نقوم بانعطافة كبيرة لتجنب بحيرة واسعة تشكلت بفعل فيضان نهر الفرات، او بشكل اصح، فرع من ذلك النهر الذي يسمى قناة الهندية أو نهر بوريسيا. كان يجري في الأزمان الماضية ضبط هذه الأهوار المستنقعية إلى حد ما والتي تتكون في الشتاء والربيع بين الحلة والبرس، بواسطة شبكة منتظمة من القنوات والتي تحمل الماء الفائض بعيدا وتستفيد منه في إنتاج الحبوب والزراعة، وقد جفت معظم قنوات نهر الفرات حاليا، واخذت مياهه تغزو البلاد وتحيل الطرق الممتدة على السهل إلى طرق موحلة يصعب السير عليها.

وبعد الاستدارة حول هذه البحيرة، اتجهنا في الآخر نحو الغرب، وسرنا باتجاه مقصدنا، والذي لا يبعد عنا الآن سوى مسافة قصيرة. وهنا اعترضتنا ثانية عدة قنوات صعبة الاجتياز، حيث كانت عميقة وتصل مياهها إلى بطون خيولنا عندما نخوضها. وهنا التقينا بواحد أو اثنين من العرب الفقراء الذين اخبرونا بان هناك عدد من الأوروبيين، بعضهم قال انهم فرنسيون وآخرون قالوا إنكليز، يخيمون في هذا الأثر. رغم اننا لم نكن نتصور هوية هؤلاء، إلا ان هذه كانت اخبارا سارة وانطلقنا بسرعة للتعرف عليهم.

وبعد ان استدرنا حول قاعدة التل الكبير الذي يقع شرق البرس الحقيقي ولا يرتبط به، وصلنا إلى فضاء فسيح مفتوح يقع بين الاثنين. هنا شاهدنا خيمة وزحاما

مـن الـناس، الذيـن يتضـح انهم مجموعة من الرحالة الأوروبيين الذين سمعنا عنهم توًا. وبعـد سيرنا باتجاههم وجدنـا انـه رغم ان الساعة الآن الثامنة والنصف، إلا ان المجموعة كانـت تستعد للرحيل. كان يقف بجوارهم عشرون بغلاً باحمالها او يجري تحميلها، وهناك حشد مـن سـائقي الـبغال والخدم والمترجمـين وهم يضجّون ويشيرون بالطريقة المالوفـة للرحيل الشرقي. في وسط هذا الحشد، كان يقف اثنان من الروس وهم يرتدون بأناقـة قـبعات شمسية وبنـاطيل ركوب انيقة واحذية جميلة لماعة مع سكائر معطرة بـين شفاههم، ويبدون كما لو انهم قد خرجوا توًا من بين صفوف اشجار مداربة بدلاً مـن اطلال مديـنة قديمـة مـن وادي الرافدين تـبعد سـبعين مـيلاً عـن اي مكان. كم شعرت اني غير نظيف وغـير مرتـب في ملابسي المتسخة وحذائـي غـير المـلمع وانا احث فرسي المسكينة على السير امام هؤلاء المسوكوفيين الوسيمين. ترجلنا لتبادل الحديث معهما وجدناهما يتكلمان الإنكليزية، وكان الأكبر، الذي ربما يكون بارونا او اي شيء آخـر يتحدثها بطلاقة وبدقة عالية. لقد سبق ان التقاهم صديقي سي في الهـند، لهذا تم تجديـد الـتعارف القديـم. قالوا لنا انهم كانوا هنا لمدة يومين وانهم الآن يغادرون باتجاه بغـداد ومـنها ينطلقون إلى الموصل ثم عن طريق سنجار إلى الدير ودمشق. لقد تملكتني الدهشـة إلى حـد مـا مـن انهـم إذا كـانوا ينوون نقل جميع احمال البغال هذه التي تضم الملابـس الجميلة والشمبانيا عبر صحاري بلاد الرافدين وسوريا، فإنهم سيكونون غنيمة رائعـة لعـرب شمّـر وعـنزة. كذلـك إنهـم إذا كـانوا يـبغون القـيام بهـذه الـرحلات عند الساعة التاسـعة وعـلى نفس الطرق، فإنهم سيتحمصون تمامًا إلى حـد الوجـع تحـت الشمس اللاهـبة. لقـد وجدنـاهم رجـالاً طيـبين ولطيفين، رغـم افكـارهم الخاصـة عن الـرحلات في بـلاد الشرق. وقـد سمعت بعد ذلك انهم عندما استاجروا حيوانات في بغداد للقـيام بالـرحلة، شـكّل سـائقو الـبغال في تلـك المديـنة حلقـة حصـار ضدهم، لقد كانـت ثروتهم معروفة بالطبع، وكان عليهم ان يدفعوا مبلغا خرافيًا تمامًا لتجهيز قافلتهم.

وعـندما تركـناهم، شاهدناهم يمتطون خيولهم الثمينة، ثم اختفت المجموعة بكاملها وسط غـيمة مـن الغبار، تـاركين البرْس تحت تصرفنا دون إزعاج احد. كان هناك شيئا ابيضا كبيرًا ممددا بالقرب منا. وعند الاقتراب منه وجدنا انها جثة طائر بجع كبير اصطاده هؤلاء، وهذا شكل وحشي من اشكال الرياضة، كون اجسام هذه الطيور غير صالحة سواءًا للأكل او لأي شيء آخر.

وصلنا الآن إلى البرْس من جهة الجنوب وبدانا نتسلق نحو القمة. كان شكل التل من هذا الجانب ، وفي الواقع من جميع الجوانب الأخرى عبارة عن كتلة مهدمة غير منتظمة من مواد البناء، وليس من السهولة ملاحظة اي ترتيب او تصميم محدد له. تشاهد هنا وهناك على اكوام انقاض الآجر كسر خزفية خَبَث وسطوح بارزة لآجر التسوير تدل على أن هناك اجزاءًا من البناء داخله. من السهولة تسلق الجوانب الجنوبية والغربية والشمالية، إلا انها شديدة الانحدار نوعًا ما، ولكن على الجانب الشرقي يمتد التل نحو اثر اقل ارتفاعًا يقع إلى الأسفل منه إلا انه مرتبط بالكتلة الرئيسية. ترتفع على قمة هذا المخروط، الذي يقال أن ارتفاعه حوالي مئة وستين قدمًا فوق مستوى الأرض، كتلة مهدمة من بناء الآجر التي اعتقد انها ترتفع إلى اربعين قدمًا وبسمك عشرين وبعرض ثلاثين(*)، إلا انها مشطورة نصفين بصدع او شق هائل. يبين وجه الآجر انه جزء من السور الغربي، إلا انه مقطع فقط متصدع من القمة والجوانب. وتقع إلى الغرب مباشرة أو خلف هذا، كتل ضخمة عديدة من مواد شبيهة بالخَبَث المصهور تبدو جميعها لتكون اجزاءًا من بناء مزجج او متماسك بشكل كتلة صلبة بفعل حرارة شديدة. ولا يزال بالإمكان تمييز صفوف الآجر في هذا البناء. يوجد في الجزء الممتد من التل الواقع عند القاعدة الشرقية مجموعة من الغرف المبنية بالآجر

(*) يبين لايارد ان ارتفاعه (٣٧) قدمًا وعرضه (٢٨) قدمًا. اما بكنكهام فيذكر ان ارتفاعه (٥٠) قدمًا وعرضه ثلاثين، وسمكه خمسة عشر. (المؤلف).

والـتي جـرى التنقيـب فـيها حاليًا. يبدو ان البرّس قد بني من الآجر المشوي بالأفران، وقد كتب على كل آجرة اسم نبوخذنصر.

وعند الوقـوف بجانـب حطام الآجـر عـلى القمة، يمتد امام ناظر الرحالة منظرًا فسيحًا وملفتًا للنظر. فبعيدًا نحـو الشـمال تمتد البحيرة الخضراء الواسعة التي تشكلت بفعـل فيضـانات مـياه الربـيع القادمـة مـن ارمينـيا. وإلى اليسـار او الغـرب، تجـري عـلى مسـافة ليست ببعيدة قناة الـهندية، والتي، ولكونها مليئة بالمياه الآن، لا تبدو للناظر انها اقـل اتسـاعًا مـن الـنهر الأصـلي نفسـه. وإلى الشـرق يقـع تـل الـرمال الكـبير الآخـر، الـذي ارتفاعـه في الواقـع أقـل مـن الارتفـاع الـذي نقـف عليه، إلا انه بحجم كبير. وإلى الجنوب وعـلى مسـافة حوالـي سـبعة اميال، تـرتفع مـن السهل مجموعـة مـن اشجار النخيل التي تضـلل ضـريح حزقـيال المسـمى "الكفـل" إذ يـبدو ان هـذه اللفظـة هـي اختصـار لعـبارة "كف إل يهودا" اي "ضريح اليهودي"[1]. ويمتد السهل في كل جانب على امتداد البصر، لا يقطعـه اي اثـر ضـخم مـن الحضـارة القديمـة او ضـئيل مـن الحضـارة الحديثة. كان هـناك واحـد أو اثنان من العرب الذين يبدون كالفزاعات يدورون حول الأثر ويراقبون تحركاتنا، واثنان من الثعالب يهربان خلسة عندما نظرت نحو الشمال، وباستثناء ذلك كـان مجمـل المحـيط عـبارة عـن قفـر وخراب[2]. ونتـيجة السمة المميزة لـهذا الأثر، فمن الطبـيعي ان يعتقد الكُتاب الأوائل أن هذا الأثر هو بـرج بابل نفسه. تعتبر القطعة المميزة الـتي كـتـبها بنـيامين الـتودولي، والـتي اقتبسـها جميع من كتب حول الموضوع، ممتعة

(١) يبين بكنكهام ان من بين الأشياء التي تشاهدها من قمة (المجلب) اي (بابل) في الشمال الشرقي، إلى الشمال على مسافة عشرة اميال ونشاهد مسجد الشمس والحلة إلى الشمال الشرقي ونحو الشرق على بعد خمسة اميال وتشاهد كف اليهود إلى الجنوب بمسافة سبعة اميال.. الخ، (المؤلف).

(٢) تشاهد الطيور والحيوانات بكثرة حول البرس. فقد شاهدت طيور البجع، والإوز البري، والأرانب والثعالب خلال ساعات معدودة.

بما لا تستحق الإهمال. فقد كتب: "على بُعد اربعة اميال من هذا المكان (الحلّة) بنى الجيل المتشتت البرج، لقد جرى بناؤه من الطابوق المسمى (الآجر). يبلغ طول القاعدة ميلين، وعرضه مائتين واربعين ياردة، وارتفاعه حوالي مائة قنا. وقد جرى بناء ممر حلزوني داخل البرج (بدرجات بطول (١٠) ياردات للواحدة) تؤدي إلى القمة، حيث يمتد امام نواظرنا منظر على امتداد عشرين ميلاً تكون الأرض فيه فسيحة ومستوية تمامًا. لقد شقت النار السماوية التي ضربت البرج، إلى اساساته السفلى".

لقد صاغ ريتش وبكنكهام نظرية، حظيت بالقبول بشكل واسع، بان البرس يمثل بقايا المعبد البابلي او برج بيلوس. لبرج بيلوس ثمان درجات او مراحل، احدها خلف الآخر وكانها سلم ضخم. وقد احصى بكنكهام اربعة على البرس، وقال ان المتبقي قد اختفى. وقد وافق اربرت ورولنسن على هذه النظرية وقدم لابار تصوّرًا[1] تخيليًا عن البرس على نفس الأسس ولكن دون محاولة تعيينها. وفي الآخر، يقول إينسورث انه لا يتبع بابل إطلاقًا، بل هو بقايا مدينة مجاورة تدعى بوربسيا، وهي نظرية عزّزها السير هنري رولنسن تقريبًا بعثوره على رقم اسطوانية طينية في الركام تصف اعمالاً في بوربسيا. ومن هذا الاسم الذي يكتب باشكال مختلفة، مثل بورسيف او بورصف، او بارسيتا او بايرسيا، ربما جاء الأصل الحالي لكلمة برس. من المحتمل اكثر ان يكون هذا الأثر الغريب هو في الواقع بقايا معبد مخصص لبيلوس ومبني على نفس الأسس التي تم بها بناء معبد بابل. عندما زار بكنكهام المكان، استفسر من بعض العرب عن اثر يدعى بروسا او بورسا حيث كان يتوقع ان يجد اثرًا منفصلاً آخر، لانه يعتقد ان البرس هو معبد بيلوس البابلي. اكّد العرب الذين استفسر منهم، باستثناء واحد، ان البرس وبورسا هما شيء واحد، "ولكن بطرق مختلفة للفظ نفس المفردة". بينما اكّد

(١) انظر (نينوى وبابل)، ·مسرد عن البعثة الثانية لبلاد آشور، السير هنري لابارد، لندن، عام ١٨٨٢م.

احـد العـرب، الـذي ربما كان يامل الحصول على مكافاة، ان هناك اثر آخر موجود على بُعـد مسير اربع ساعات بالاتجاه الجنوبي الشرقي، لم اتمكن من معرفة اي شيء عن هذا الموقع، لهذا ربما يكون هذا الخبر غير صحيح.

ومـن الجديـر بالذكـر، ان بيرسـيا او بورسـيبا هـي المديـنـة الـتي انعطـف علـيها الإسكندر عـندما حـذره السحرة الكلديـين بـالا يدخل بابل من الشرق، لهذا عبر الفرات بهدف دخولها مـن الغـرب، إلا انـه اضـطر إلى الـتوقف كونه قد وجد من المتعذر عليه عـبور أرض مستنقعية هناك. وهذا كله يعزز نظرية بورسيبا حيث تقع شمال البرس بقـع شاسعة من الأهوار التي كونتها قناة الهندية والتي تمتد إلى شمال غرب الحلة على طول ما يفترض انه الحدود الغربية لبابل القديمة.

كانت الحالة المميزة من البناء المنصهر تكفي لتجعل الرحالة الأوائل يعتقدون ان هذا الأثـر هـو بابل. من المؤكد انه يبدو كذلك بعد ان تاخذ بالاعتبار السور المتصدع بفعل الـنار الإلهية او الـبرق، حيـث طُرحـت عـدة نظريات حول الموضوع، ومن المطلوب حاليًا إجراء فحص علمي دقيق عن هذا الأثر غير الاعتيادي.

وبعـد ان تجولنا حول البرس وانذرنا الفزاعات العرب الذين كانوا يدورون حولنا كـالظل بـالا يحـاولوا انتزاع آجر من الركام وإكرامنا به، نزلنا إلى أسفل التل، وابلغنا يوسـف بـان يـنقل الغـداء إلى مكان مريح بالقرب من التلّ الآخر، وانطلقنا لتفحص الأثر الآخـر. وعـندما كـان يوسـف يقـوم بهذا الواجب، سرنا عبر الفضاء الفسيح الذي يفصل التلّين والـذي قـد يـبلغ عرضه (حسبما اتذكـر) حوالي ربع ميل. يشبه التلّ الثاني من حيـث الشـكل إلى حد كـبير تلّ بابل وهو الأثر الشمالي لآثار بابل، اكثـر من اي تلّ آخر كونـه عـلى شـكل مسـتطيل متناسـق الأضـلاع. كـان سـطحه غـير مسـتوٍ ومـتموج وحجـري يكـثر فـيه الآجـر في بعـض الأمـاكـن ومغطىّ بالأنقـاض الصـغيرة في امـاكـن

اخرى، مما يجعل من الصعب السير عليه. وقد صعدت فوقه، إلا انني لم استطع مشاهدة اي علامة عن بناء من الآجر رغم ان الأرض مكسوة في كل الأنحاء بالآجر وكسر الأواني الخزفية. يوجد على قمته حَرَمان عربيان صغيران، كان الأكبر عبارة عن مرقد صغير ذي قبة ومزدحماً عند وصولي بالعرب. وقد علمت عند الاستفسار عن المكان انه يدعى من قبل العرب باسم (النبي إبراهيم) الذي يُقَدّس من قبل العرب في هذه الأنحاء، ويترددون عليه كشكل من اشكال اماكن الحج المفتوحة طيلة ايام السنة. والواقع ان لديهم حكايات متداولة عبر الأجيال بخصوصه، وفيما يلي بعض الأمثلة لها. وقد اخبرني سيد حسن عند عودتنا إلى الحلة، إحداها ان نمرود، الذي كان عدو إبراهيم او ابراهام، حاول قتله بإلقائه في النار. لهذا تم بناء محرقة ضخمة، وكان إبراهيم على وشك ان يقتل عندما تدخلت العناية الإلهية وبمعجزة تحول ذلك اللهب الأكول إلى ورود متبرعمة[1]. وقصة اخرى هي ان ملك هذا المكان قد اصدر (الذي يفترض حسب الحكاية العربية المحلية انه نمرود الخالد) نتيجة تعطشه الشيطاني إلى الدماء، اوامر ببقر بطون جميع النساء الحوامل. لذلك هربت ام إبراهيم نتيجة الخوف من هذا الأمر الوحشي واخفت نفسها في هذا الموقع المقدس، وهنا وُلد الأب. إن هذه القصص ساذجة إلى حد ما وهي لا تساوي شيئا وتشبه الأساطير الأخرى حول نفس الموضوع.

ينتمي العرب الموجودون في محيط هذا المكان إلى قبيلة خفاجة. وعند الضريح وداخله هناك العديد منهم، من الرجال والنساء الذين يبدو عليهم الفقر وهم من الطراز منحط التعليم بشكل عام. كان في داخل المبنى الصغير العديد من الناس وهم

(١) إن قصة إلقاء إبراهيم في النار موجودة في السورة (٢) من القرآن التي تسمى (الأنبياء)، وقد اتخذ هذا العقاب ضده لأنه استخف بآلهتهم. يقول المفسرون ان النار قد تحولت إلى مرج اخضر بهيج. انظر ترجمة سالي للقرآن. (المؤلف).

يصلون ويتلون شيئا من القرآن، وقد شاهدت جدران المبنى نفسه مزينة بصور ورسوم بدائية. قام يوسف بإعداد غدائنا أسفل الجدار الغربي، إلا ان الغبار الذي اثارته ريح عالية في نفس الوقت، قد احال لحم الدجاج والتمر والخبز إلى طعام غير مستساغ. وقد جذب المنظر واجتمع حولنا عدد من العرب الفقراء الذين لم يكن يبدو انهم سيتناولون طعامنا، واحتشدوا تحت ظل حائط مكان العبادة على شكل مجموعة غريبة جديرة بالازدراء، ولم يكن رفيقي في السفر يتفهم اهتمامهم هذا، رغم اني قد شرحت له إذا جاء اثنان من قبائل الزولو وجلسا لتناول إفطارهم على اعتاب ضريح القديس بول، فمن المؤكد انه سيتوقف بشكل منطقي تماما ليلقي نظرة عليهم إذا كان مروره على هذا الطريق. ورغم اني قد دافعت عن هؤلاء القوم المساكين، إلا انني اشك بكونهم يستحقون هذا الدفاع، لأننا عندما نهضنا للرحيل، لم اعثر في اي مكان على مظلتي التي اعتمد عليها واعتبرها بالنسبة لي كوني لا امتلك اي خوذة شمسية ذات قيمة كبيرة. وقد جلست دون جدوى على حصاني وقطبت جبيني وصببت جام غضبي على جميع المحتالين والخونة، وقد جال يوسف والكواس عبثا وفتشوا عنها تحت عباءات العرب وفي الشقوق الأثرية. وقد جلبوا امامي دون جدوى الشيخ المسؤول عن الضريح مرتجفاً واستجوبوه وهددوه بالمحق السريع. وفي الآخر، ذهب صديقي إلى المقدمة مع ثورة كبيرة في عينيه وامر حازم في نبرته وابلغ الشيخ الخانر القوى بصوت كالرعد انه إذا لم يظهر الجنهام[1] ، فإن الباشا في بغداد وبواسطة المقيم البريطاني سيتحرك، وستتقدم قوة مسلحة من الجنود الأتراك على البرس المقدس وساكنيه وستمحقه، وربما يسوّى ايضا موقع النبي إبراهيم وجميع ساكنيه مع الأرض بحيث لا يبقى حجر على حجر وسيلعن المكان جيلاً بعد جيل. وفي غضون لحظات، كان الجميع يتحركون بنشاط محموم، حيث اخذت الأجساد المرتجفة تسرع هنا وهناك وحتمًا ان الموضع الإسلامي

(١) هو قماش هندي يستخدم في صناعة المظلات. (المترجم).

نفسه قد جرى تفتيشه. وفجاة، اطلقت إحدى الفزاعات من العرب صرخة النصر، وتم سحب مظلتي المسكينة القديمة المشتراة من شارع اوكسفورد من تحت كومة قش قذرة، حيث جرى إخفاؤها قبل خمس دقائق فقط ولولا الحضور الذهني لصديقي، وعظمة الاسم البريطاني، لبقيت هناك كالحة بهيكلها المعدني في صحراء بابل كبغل قافلة مرهق. ولكن ها قد اعيد اعتبار بريطانيا العظمى، ومع نصر يملأ قلوبنا وازدراء نحو خيانة بعض العرب يكسو جبيننا، غادرنا باتجاه الحلّة.

قضينا المساء الذي كان ماطرًا جزئيًا في دار السيد. كان عشاءنا يتالف من اثني عشر صنفًا بما فيها الشوربة والكبّة والبيلاف وخضراوات متنوعة، وقد اعتذر السيد عنه قائلاً انه ياسف كونه لم يستطع ان يقدم إلينا سوى هذا العشاء البسيط، ولو كنا في كربلاء (حيث بيته) لكان قدّم إلينا ضيافة تليق بنا اكثر. وبعد العشاء تبادلنا اطراف حديث طويل معه، ولا استطيع سوى ان اعجب بالسهولة التي يضع فيها قدميه، رغم انه يجلس على كرسي اعتيادي، على مقعد هذا الكرسي دون اي علامة للمضايقة او الارتباك. دار حديثنا الذي جرى معظمه عن طريق يوسف، حول الحكومة التركية وحالة البلاد. سالناه لماذا لم يسافر ويزور إنكلترا فزيارتها سهلة كما هي حاليًا، وذكر له سي في نفس الوقت، ان هناك مؤسسة في لندن تستقبل الشرقيين المعوزين والمتشردين، إلا انه لسوء الحظ ربط القضية والملاحظة واجاب بحزن، انه "يشكر الله انه غني بما فيه الكفاية، وانه إذا ما زار هذا البلد العظيم، فإنه سيفعل ذلك مع حاشية من الخدم والتابعين، وإنه ليس بحاجة لمثل هذه المساعدة". ثم بعد ذلك اثرنا دهشته بان وصفنا له سكة الحديد المعلّقة واخبره سي عن السفر بالمنطاد الذي كان لديه شيئا من التجربة معه. لقد ذهش مضيفنا إلى حد كبير بهذه الأشياء، ورغم اني اعتقد انه لم يصدق الكثير مما قلناه إلا انه كان من التهذيب العالي بحيث لم يقل لنا

ذلك، إلا ان يوسف كان اقل تهذيبًا، ووجدنا من الصعوبة الاحتفاظ بهدوئنا عندما ينهي ترجمته لحكاية او نادرة فارسية طويلة معينة لضيفه بتعليق من ذاته يقول "كفى هراء" او "اعتقد ان الكل يكذب".

بعد ذلك، جاء رجلان من المدينة، وهما يرتديان زيًا فاخرًا، حيث كنا نعتقد في البدء ان زيارتهما لنا كانت رسمية، إلا انه قد ثبت انهما جاءا بسبب انهما كانا يريدان راينا حول قيمة ساعة المانية يبدو انها رديئة ويعتزمان شراءها، اخبرتهما ان ثمن الساعة يعتمد على دقتها العالية في ضبط الوقت. إن ساعة اوروبية لا تعمل لا تساوي شيئًا كساعة شرقية في نفس الحالة.

إن الجزء الأكثر إرهاقًا في تبادل الحديث مع شخص فارسي من الطبقة الأفضل، هو الشكلية خاصة عبارات الثناء الطنانة، التي ينبغي تلقيها وإعادتها بالوزن الذي تستحقه. حتى مع السيد، الذي لم يترك لطفه وكرمه شيئًا آخر نرغبه، واقول دون تردد انه كان لطيفًا وكريمًا خالصًا وإيثاريًا، إلا اننا وجدنا الحديث معه لفترة طويلة من الزمن شيئًا مرهقًا. كان آخر فقرة في برنامج المساء هي زيارة من احمد والقاضي. وقد حافظ خمستنا على نوع من المباريات خماسية الأطراف من عبارات الإطناب في الثناء لمدة حوالي ساعة، لقد قدحنا سي وانا زناد ذهننا لانتقاء افضل الكلام إلا انه لم يكن يجاري لطفهم وأدبهم، ثم بعد ذلك مباشرة، اكملوا المباريات مع اصدقائنا الشرقيين الذين كانوا في الواقع اكثر مهارة في هذا النوع من المباريات منا نحو السكسون المساكين البليدين. وتدريجيًا وعندما انقضت الزيارة، اصابنا الانهيار وشعرنا ان كل الأدب الموجود في طباعنا قد جرى امتصاصه في هذا الصراع العنيف في مجال السلوك، وكنا سنعطي ثروة العالم كله لمن يسمح لنا بالخروج إلى الشارع لنوجه الإهانة بالكلمة والفعل إلى اول من يصادفنا من الناس.

لم نتوصل إلى المقصد والسبب الحقيقي من وراء هذه الزيارة حتى الساعة التاسعة والنصف تقريبًا عندما علمنا ان احمد والقاضي هما وفد مهمته إخبارنا ان حاكم الحلة قلق إلى حد ما حول الغاية الحقيقية لوجودنا. يبدو انه لا يفهم لماذا زار الكثير من الأوروبيين الحلة في السنوات الأخيرة، ويبدو ان تفكيره الضحل قد قاده للشك ان هناك وراء مظهر الاهتمام بالآثار غاية شريرة مخفية في زيارات الإنكليز إلى آثار بابل. اقترح القاضي ان نقوم بزيارة له، ولكن وبما ان الوقت كان متاخرًا ومن الضروري أن نبدا بالرحيل مبكرًا صباح اليوم التالي، اعتذرنا عن ذلك وارسلنا الكواس له ليقدم له احترامنا ويوضح له هويتنا وسبب زيارتنا إلى الحلة.

وعند الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ودعنا السيد، الذي كان متجهًا إلى كربلاء قاطعًا قناة وبحيرة الهندية، وخرجنا من الحلة باتجاه تلال بابل. عند الساعة التاسعة والنصف وبعد مرورنا بالقرب من هذه التلال، وصلنا إلى خان المحاويل، حيث اجبرنا رعد ومطر غزير ان نستتر لمدة نصف ساعة تقريبًا، فقد هطل المطر بغزارة بحيث وجدت أن معطفي الطويل كان ذا فائدة عظيمة لي. وحالما دخلنا إلى بوابة الخان، وترجلنا لارتشاف شيء من الدخان، تراجع حصان يوسف الذي كان يحمل خرجًا صغيرًا فيه غداؤنا، يقصد نحو زاوية مظلمة وبدا يتقلب على هذه الحمولة الثمينة، وهو فعل ماكر لا مبرر له البتة. اجتمع الناس المسؤولون عن الخان حولنا، وقدموا لنا تقييمهم للطريق الذي كان من المقرر أن نسلكه، ولم يكن التقييم مشجعًا. فقد قالوا، ان كل الطرق عبارة عن اوحال ومستنقعات، إلا إذا استخدمنا دليلاً ليرينا الطرق عبر الأشراك والأفخاخ التي تكتنفه، ودون ريب اننا سنغوص في الأوحال وستاكلنا طيور السماء وحيوانات البحر او اننا سنفنى ونغرق كفرعون وضيفه بقوة اندفاع المياه. إضافة إلى هذا فإن الطريق يعج باللصوص العرب، العرب الحقيقيين الذين ليس لديهم ذمة او رحمة ومعهم رماح بطول خمس ياردات ومتعطشين برغبة

دموية للسلب لا يقف امامها اي شيء. وعلينا ان نـاخذ حارسـا معنا، هكذا قالوا، ولكن طالما لا يوجد حارس لناخذه معنا، فإننا اهملنا هذا المقترح، وانطلقنا حالما توقف المطر مع شاب عربي هزيل طويل عليه ان يقوم بواجب مزدوج وهو إرشادنا وسط متاهة الأهوار والقضاء على عصابات التسليب التي قد تغامر وتعترض طريقنا.

وبعد مغادرتنا للمحاويل، انطلقنا نحو اليسار تاركين طريق بغداد، واتجهنا مباشرة نحو المسيب على نهر الفرات، حيث يجب ان نمضي الليل هناك. وقبل الحادية عشرة بقليل، وصلنا إلى أرض زراعية، موحلة ومستنقعية في بعض اماكنها، إلا ان السير عليها ليس سيئا عموما. كانت تنتشر حول الطريق الذي نسلكه، والواقع في كل مكان، اعدادا من اجساد الجراد الأخضر الذي قتلته حسبما يقول دليلنا، الغربان والطيور الأخرى. وطالما ان الحشرات لا تؤكل في معظم الأحوال، فقد كنت اميل للشك في صحة هذا التفسير. وبعد تناولنا الغداء في حقل اخضر بهيج، يعتبر تغييرا يثير الانتعاش بعد الخانات المغبرة التي تناولنا فيها غداءنا على طريق الحلة، انطلقنا ثانية، ووصلنا بحدود الساعة الواحدة إلى مخيم للعرب قال يوسف انهم من فلاحي شمّر الذين يفلحون الأرض الواقعة بين المحاويل والنهر. كانت الأكواخ التي يستوطنها هؤلاء الناس مبنية من القصب ومسقفة بالحصران التي تمت صناعتها في البصرة. وقد رايت للمرة الأولى الماشية ذات الحدبة التي تماثل إن لم نقل من نفس الفصيلة الهندية. وبالقرب من هذه القرية، هناك ضريح شيخ يدعى محمد بن حسّان، وابعد قليلاً منه، مررنا بموقع اثري قديم يتكون من تلال واطئة، لا يعرف عنها دليلنا اي شيء سوى اسمها (القصر). وبعد ذلك بقليل وصلنا النهر، حيث جريت نحو مخيم عربي من الصرائف على امل الحصول على شيء من الحليب. تبين ان هؤلاء العرب هم من قبيلة النصيرية، وهم قوم من البدو، حيث جلبوا لنا عن طيب خاطر حليبا طازجا ممتازا ورفضوا استلام اي مقابل عنه. هل هؤلاء هم العرب المرعبون الذين نسمع عنهم؟

لديهم فرس كستناني جميل من سلالة الصكلاوية. قال مالكها انه على استعداد لبيعها لي، بينما عرض عليه يوسف ساخرًا مبلغ نصف كراون، وهي نكتة سمجة بعد هدية الرجل الوديّة من الحليب.

وبعد ذلك مباشرة، اصبحنا بالقرب من صف طويل من اشجار النخيل الذي تقع فيه المسيب. شاهدنا في اقصى يمين هذا الصف، قبتين زرقاوتين، دون اي منارة قربهما. وبعد الاستفسار علمت انهما يسميان (اولاد مسلم)[1] اي (الفتيان المسلمين) كما ارى ذلك من خلال مظهرها وليس من ان قصة او اسطورة معينة. إننا الآن بالقرب من المسيب وكانت الأرض التي نسير عليها طول النهار، عبارة عن سهل طيني تقطعه بين مسافة واخرى قنوات كبيرة. كانت هناك اهوارًا موحلة، إلا انه رغم التقييم الذي قُدّم لنا في المحاويل فلم تواجهنا اية مصاعب وربما يعود هذا إلى اتخاذنا لدليل معنا.

وبعد دخولنا إلى المسيب، كنا على وشك ان نضل طريقنا، حيث دخلنا إلى مواقع لصناعة الآجر، وشاهدنا هناك آجر مسطح كبير شبيه بآجر بابل القديمة تجري صناعته. بنيت مدينة المسيب من هذا الآجر، ويقال انها تعتبر صناعة واسعة فيها، لهذا ربما من غير الصحيح القول ان جميع المدن الواقعة بين الفرات ودجلة قد بنيت من مواد تمت سرقتها من المواقع الأثرية القديمة. وبعد تقدمنا في السير قليلاً، مررنا عبر الجانب الشرقي من المدينة كونها كالحلة قد بنيت على جانبي النهر، ثم عبرنا جسر القوارب المعتاد، ونصبنا خيمتنا الصغيرة مقابل مقهى صغير استمر مالكه بأداء عمله خارجه كتقدير لنا واخلى بناية المقهى لنا.

* * *

(١) هما اولاد مسلم بن عقيل اللذان قتلهما الحارث الهمداني بعد عام واحد من واقعة كربلاء، (المترجم).

الفصل الرابع عشر

طريــق الحــج

المسيب - طريق الحج - عاصفة في الليل - مشهد الحسين - حصى كربلاء - لعصب - شهادة الحسين - قوافل الجثث - كربلاء - في زيارة نوّاب - الاستشهاد بسبب البعوض - حادث مروع - افتراقنا عن مضيفنا - مغادرة كربلاء - المسيب ثانية - ركوب غير امن - خان الاسكندرية - الوصول الى بغداد - إشاعات من ثورة عربية على دجلة - حلاق بغداد - احدب البصرة - السفر على ظهر سفينة تجارية في دجلة

تبدو لي المسيب من اعجب الأماكن التي شاهدتها. من المؤكد انها نتيجة موقعها الخاص واحدة من اكثر المدن متعة. فهي تمثل المرحلة الأخيرة على الطريق إلى كربلاء ويدير مواطنيها العرب تجارة مزدهرة في جرّ الحجاج الهنود والفرس الفقراء والمتسخين بوعثاء السفر، والذين تصل قوافلهم باستمرار أو تغادر عائدة او ذاهبة إلى كربلاء. ليست المدينة رغم انها مبنية على جانبي النهر، ذات حجم كبير ولابد ان عدد سكانها المستقرين صغير ايضًا، ولكن إضافة إلى ذلك هناك حشود متزايدة من الحجاج الموجودين بشكل دائم إما باعداد كبيرة أو صغيرة، واميل إلى الاعتقاد ان عددهم يصل احيانا إلى الفان وثلاثة آلاف شخص. وهذا تخمين فقط، إلا أنني كنت في الليل في احد الخانات وكان مكتظًا بالحجاج وامامه فسحة واسعة مفتوحة تعج بقوافل

ومخيمات الحجاج. إن لهؤلاء السكان من الحجاج خصوصية لهم هي أنهم يتواجدون مجتمعين في الليل فقط. وإذا ما تجولت وسط المسيب في منتصف النهار. كما فعلنا ذلك عند عودتنا، فإن الخان والمدينة تبدو خالية تقريبًا من السكان. تصل القوافل بعد الظهر أو في المساء، ثم تنزل حمولتها لقضاء الليل، وتغادر في المرحلة الثانية عند شروق الشمس. تبدو اكثر الأوقات ازدحامًا هي بين الثالثة والخامسة بعد الظهر، حيث تكون المدينة مفعمة بضجيج موسيقى اجراس القوافل القادمة. لقد سبق ان ذكرت الخان الكبير الذي خيمنا قربه على الجانب الغربي. وبعد ان نصبت الخيمة، اختلست النظر من خلالها لأجد المكان مزدحمًا تمامًا بالناس والحيوانات. فهناك اكشاك لبيع الخبز والتمور باسعار غالية جدًا، لأن كل شيء في المسيب غالي باقصى ما يكون. تجولت في شارع أو اثنين من الشوارع الفرعية ثم لمسافة قليلة على طول ضفة النهر. يمكن تصور الحالة الصحية للمدينة عند النظر إلى الشوارع وضفة النهر التي تمثل شاهدًا بينًا على استخدامها كاماكن لقضاء الحاجة من قبل الحجاج. وعندما كان المساء يتقدم، كانت تصل باستمرار قوافل جديدة وعندما يمتلئ الخان، يخيم الحجاج لقضاء الليل في الفسحة المفتوحة في الأمام. لقد امتزجت الضوضاء اللامنتهية لصهيل ونهيق الحيوانات مع ضجيج الأجراس بينما تقاد قطعان البغال إلى ضفة النهر للإرواء، مع همهمة مئات الألسن التي تتحدث بنصف دزينة من اللغات المختلفة، جميعها تشكل مزيجًا غريبًا للغاية من الأصوات.

اخرجنا دكّة وجلسنا عليها للنظر نحو هذا المنظر الغريب متعدد الألوان الممتد امامنا. شاهدنا العنصر السائد في هذا الجمع وهو العنصر الفارسي. فهناك العديد من الأفراد الذين يبدو منظرهم كالبدانيين مع خصل شعر سوداء متشابكة على رؤوسهم ويرتدون معاطف زرقاء طويلة تصل إلى ركبهم، ويلبسون احيانًا جوارب واحذية كبيرة. وقد وصلت إلى هنا مجموعة ترتدي القبعات الفارسية المصنوعة من

فـرو الحمـلان، وربما يكونون من متقلدي بعض المناصب الرسمية في الحكومة الفارسية. ولـيس غريـبًا ان تشاهد رجـالاً بـلحى مصبوغة بلون احمر قان لإخفاء حقيقة كونها ذات شيب او بيضـاء. كـان هـناك ايضا زوجًا من (الكاجاويه)، يحتوي كل منهما على زوج مـن الصرر الزرقاء، التي تبين بعدما ترجلت، انهن سيدات فارسية يـرتدين السراويل والحجاب الأبـيض. كمـا شاهدنا مجموعة من الهنود بعضهم يرتدي ملابس بيضاء او معـاطف سوداء طويلة ويحملون المظلات ومنظرهم يشكل مظهرًا اوروبيًا خادعًا يصدم العين بغرابته في هذا المحيط من الإسلام الشيعي. وكان هناك ايضًا ثلاثة من الشحاذين الفرس بعصيهم الطويلـة وايديهـم الممـدودة طلبًا للصدقات. وكان هناك ايضًا شخصًا بدائـيًا آخـرًا شـبه عـار وبيده بـرتقالة، مـن الواضـح انهـا كـل امتعـته، وهـو درويـش يستجدي مـن خـان لآخـر، مـن مشهد البعـيدة قـرب بحـر قـزوين إلى مشـاهد الأئمة في الصحراء العربـية، ومجموعـة اخـرى مـن الحوريات الهنديات، وهن يـرتدين بهرجة من ملابس الجوخ الحمراء القانية.

كـان خلف المقهى جامعًا صغيرًا، وقـد دعـاني الملأ الـذي كـان يسكن في البيت المجاور لـه إلى سـطح داره حيـث يجلس، لإلقـاء نظـرة عامـة على المكان. شاهدت اكثر قليلاً ممـا شـاهدته وانا في الأسفل ولأن يوسف كان يطبخ عشاءنا، لم اتمكن من تبادل حديث مطوّل معـه، وسـرعان ما نـزلـت. بعـد العشـاء، اصرّ يوسف على إعادة رزم كل شيء قـبل الدخـول إلى الخيمة، كونه كما يقول، يوجد الكثير من اللصوص المحترفين في هـذا المكان. ومـن المؤكـد انـنا سـنفقد شيئًا ما هنا. ولأنـنا نـتذكـر الليلة الأخيرة التي قضـيناها في احـد المقـاهي، توقعـنا ان نقضي ليلة افضل في خيمتنا، وهو امل لم يتحقق ايـنما ذهبـت، لأن ضـجة المجموعة التي خرجت من المقهى توفيرًا لراحتنا قد اصطفت في خمسة او سـتة صـفوف طويلـة امـام بـاب خيمتـنا، ممتزجة بترانيـم حشد من الأطفال كـانوا يـؤدون نوعـا مـن التواشـيح الرمضـانية، قـد ابقـتني يقظًا لفترة طويلة. وعـندما

خفت هذه الأصوات واعتقد ان ذلك كان عند منتصف الليل تقريبًا، اخذت قسطًا من النوم، ولكن بعد ساعتين ايقظتني عاصفة من الريح والمطر هددت بإغراقنا لو تقوضت الخيمة. وثبت على قدمي وامسكت بقوة بعمود الخيمة كي احافظ على بقائها في حالة ارتخاء أوتادها، وناديت سي بأن يفعل نفس الأمر بالنسبة للعمود الآخر. وقد فتح هذا الرجل، الذي اعتقد انه لن يستيقظ حتى لو اطلقت نيران الفرح بعيد ميلاد الملكة في غرفته، عينيه بهدوء وقال لي بالا احدث ضجة ثم اعاد إقفال عينيه وهجع ثانية. وما اثار اشمئزازي اكثر هو انني كنت ساعطي ثروة العالم كله لو وقعت هذه الخيمة المنقعة بالماء على جسده الهاجع، إلا ان العاصفة قد توقفت فجاة كما بدات ولم يكن لدي اي خيار آخر غير العودة إلى فراشي متذمرًا. كان يوسف، الذي ثبت انه كذاب مثل سي، يشخر اثناء النوم وادخل وجهه القبيح داخل الخيمة وهدأ من روعي بتكراره القصة الأبدية بانه لم يتمكن من النوم لأن هناك الكثير من اللصوص يحومون حول المقهى. اخبرته أن يبقي عينيه مفتوحة، ثم اخذت إغفاءة مرة اخرى، ولم استيقظ إلا عند شروق الشمس بفعل ضجة القوافل المرتحلة.

عند الساعة السادسة، خرجنا من المدينة، وبعد عبورنا جسرًا مرتفعًا على احد القنوات، حيث كان متموجًا وشديد الانحدار بحيث اننا ترجلنا عند عبورنا له، وجدنا انفسنا وسط أهوار شاسعة يمكن مشاهدة انواع مختلفة من الطيور المائية على سطحها. كان الطريق الذي يقطع هذه الأهوار عبارة عن ممر ضيق مرتفع، حيث التقينا عليه بمجموعة من عرب عنزة مع العديد من الجمال والخيول. ولأنني لم ارى اي من افراد عنزة منذ فترة طويلة، وكنت اتصور ان مجمل القبيلة لابد ان تكون في هذا الوقت في الصحراء قرب حلب، استفسرت ماذا يفعلون هنا. كان الجواب انهم بصدد نقل هذه الحيوانات إلى بغداد لغرض بيعها وان عنزة تشكل جزءًا من الحراس الذين يرافقون قوافل بغداد المتجهة إلى مكة لغرض الحج.

كانـت السماء صافية عـندما غادرنـا وعـند الساعة السابعة والنصف أصبحت حـارة جدًا. وقـبل العاشـرة بقليل وصلنا إلى ضريح شيخ يدعى (بني عون بن جافا)[1]، والـذي يـبدو مـن خـلال الأعـداد الكبيرة من الحجاج المجتمعين في موقعه، أنه يعتبر مكانا لـه شيء من القداسة.

وبعـد تقدمنا في المسير، واجتيازنا باستمرار لعدد لا يحصى من القوافل، وصلنا إلى بساتين نخيل حـول كـربلاء بحـدود الساعة الحاديـة عشرة وتوقفنا لتناول غدائنا في مكان جميل وقد وجدنا هنا خادمًا لمضيفنا يمتطي حصانا وجاء لمقابلتنا ومرافقتنا إلى داخل المديـنة.

كانـت السـاعة الواحـدة تقريـبًا عـندما ذهبـنا إلى بيـت السـيد الواقـع في الحـي الأكـثـر حداثـة في المديـنة وخـارج الحدود المسوّرة التي تضم الجوامع المقدسة والأسواق. كـان البيـت، المـبني عـلى الطـراز الفارسي، جميلاً وكـبيرًا، يشبه إلا انه ليس منمقًا لدار الإقـامـة في بغـداد ويحيط بفناء رحب. حيّانا مضيفنا بحرارة، ثم ادخلنا إلى غرفة أنيقة مؤثـثة بـالأرائك والكراسي ومنضـدة تـئن تحـت حمـل كـبير مـن أنـواع مخـتلفة مـن الفاكهـة. قدمنا إلى ابنه الصغير المدعو السيد مهدي، وهو فتىً جميل ذو وجه أبيض إلا أنـه جـذاب. وكـان يـرتدي عمامـة خضـراء كـبيرة ملفوفة على كوفية ذات لون زاه. وقـد امتعـنا هـذا الفتى بقـدر كـبير بعاداته القـديمة الطراز المسلية. لقد طوى نفسه على كرسـي وبـدأ يحملق نحونا ونحو أمتعتنا بكثير من الفضول. وبعد أن تناسينا ان الوقت هـو رمضـان وتحدونـا الرغـبة بإقامـة صـداقة معـه، عـرضنا عليه برتقالة حيث رفضها بعجـرفة وابعدهـا عـنه مصـدرًا صـوتا صـغيرًا خاصًا بطـرف لسـانه كـالذي يصدره الإنكليز بشـكل عـام عـندما يصابون بالدهشـة قلـيلاً. وبعد اسـتراحة قصيرة، قادونا إلى

(١) هو ضريح عون بن عبدالله بن جعفر الطيار، وأمه زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، (المترجم).

سطح المنزل لإلقاء نظرة على الجوامع والمدينة. وقد شاهدنا من هذا المكان القبة المذهبة والمنارتين الخاصتين بمشهد الحسين. إنها تشبه الكاظمين إلا انها ليست بجمالها حيث توجد في الأخيرة اربع منارات كبيرة، كما يوجد في الأول كالجامع الأخير برج ساعة حديث وقبيح. كما يمكن ايضا مشاهدة قباب الجوامع الأخرى، إلا ان قبة الإمام العباس المكسوة بالآجر الجميل هي الوحيدة التي تستحق الاهتمام. ثم بعد ذلك قمنا بتصوير السيد وابنه الصغير مهدي بكاميراتنا اليدوية، وهو عمل يبدو انه قد اسرّ مضيفنا كثيرًا. كنت اشد إلى حد ما حول كيفية قبوله للمقترح إذا ما علمنا بافتراض رفض المسلمين الملتزمين بشكل عام لأي تمثيل للحياة. إلا ان حقيقة الأمر هي ان امر النبي هذا لم يعد نافذًا. فقد قرر حكماء الإسلام، الذين يحبون الصور كاي شخص آخر، أن الصور والرسوم هي ليست تمثيلاً للناس في المعنى الذي تقصده النصوص القرآنية لأنها تبين جانبًا واحدًا فقط للشخص. كيف يمكن ان يسمى ما يمثل وجه إنسان فقط ويلغي ظهر عمامته تمثيلاً حقيقيًا؟ اما النصب النحتي فإنه امر مختلف لأنه اشد الموبقات، ولكن الصورة هي شيء تافه وامر ناقص ومن الواضح ان النبي لم يكن يرغب بشموله بالتحريم. وبعد ذلك رافقنا شقيق السيد ويوسف لاستراق النظر قدر الإمكان نحو بوابات المراقد. مررنا بشوارع مزدحمة واسواق وتوقفنا عند محل صرافة للنقود يقع مقابل البوابة الرئيسية، بهدف مزعوم على اساس اننا نريد الحصول على بعض المال والاستفسار حول العملات او القطع الأثرية والواقع اننا نريد اختلاس النظر إلى البناء. وبينما كان يوسف مستمرًا بالمساومة، استدرت والقيت نظرة كافية. كان ما رايته هو بوابة كبيرة مكسوّة بالآجر الملون ومزينة بكتابات فارسية او عربية. وفيه ايضا يلتمع آجر أزرق واحمر وصف من الناس يجلسون عند اكشاك مع بعض الأشياء لغرض البيع. كان هذا كل ما رايته. لم يكن يبدو على الناس الاستياء من إلقائي النظر نحو المشهد، إلا ان دليلنا قد اسرع بإخراجنا من المكان

وادخلنا إلى اسواق كثيرة وهو يشير إلى بوابات عديدة اخرى للمشهد اثناء السير، حيث كانـت تتصل بشوارع مزدحمة ومبنية مع مبانٍ اخرى، إلا انها لم تكن مهيبة. وبعد ان بدا اننا قمنا بدورة كاملة حول البناء، اصبحنا مقابل بوابة كبيرة، يقول دليلنا انها السادسة. وقد شاهدت داخلها محرابا مطليًا بالذهب لتوجيه المصلين نحو مكة. ثم اخترقنا بعد ذلك المزيد من الأسواق، وتوقفت عند احد الحوانيت واشتريت بما قيمته حوالي خمس بنسات اربعة سلال صغيرة وجميلة وثلاثة اطباق واسعة جميعها مصنوعة من سعف النخيل. ويعرض في هذا الحانوت ايضًا لغرض البيع للمتدينين فقط اقراصًا طينية مختومة غريبة تسمى بشكل شائع ترب كربلاء حيث يشتريها حجاج كربلاء وياخذوها معهم إلى بيوتهم كتذكار للضريح. ولأنه يفترض ان هذه الترب مصنوعة من الأرض المحيطة بالضريح نفسه، ينظر إليها بتقديس خرافي، وهو امر سخيف. يقال أن الشيعة يضعون جباههم في الصلاة عند وضع الركوع على هذه الأحجار، ولا يسمح سوى للمؤمن الحقيقي بلمسها. وقد اخبرنا شقيق السيد بالا نلمس مطلقًا الترب التي رايناها في هذا الحانوت. بل حتى إنه قد وجّه نصيحته إلينا بالا ننظر إليها بفضول زائد. وقد تولى مضيفنا الذي كما قلت كان متحررًا بشكل فريد من التعصب الأعمى، تامين نماذج منها وإعطائها لنا، واليوم ليَ اثنان منها. كان احدها ذا شكل مثمن وبقطر اربع إنجات، والأخرى دائرية بنصف قطر الأولى، وكلاهما مصنوعان من الطين ذي اللون الفاتح وغير المشوي، ومختوم بنماذج من الأختام الدقيقة. وقد صنعت اشكال اخرى مع فراغ في وسطها، لكتابة شيء معين فيه، اعتقد ربما يكون اسم الحاج وتاريخ زيارته للمرقد.

وخلال هذه الجولة والحق طيلة الوقت الذي امضيته في كربلاء، لم اشاهد اي اثر للتعصب ضد المسيحيين الذي ينسب للأهالي عادة. فإلى وقت قريب كان لا ينصح لأي رحالة مسيحي دخول هذه المدينة، إلا انه يدخل الآن إليها العديد من الأوروبيين.

ونتيجة لذلك اخذ سكان المدينة يعتادون على رؤيتهم تقريبًا. لقد اختفت العواطف القديمة، واصبح وجود الرحالة المهذبين لا يثير الاستياء. إلا ان اي محاولة من طرف زائر معين للدخول او رسم أو ربما حتى تفحص الجامع بفضول، قد يؤدي حتى الآن إلى نتائج لا تحمد عقباها.

تعتبر كربلاء رابع مدينة مقدسة لدى المسلمين الشيعة ويزورها سنويًا عدة آلاف من الحجاج[*][1].

يمكن إيراد اصل الحج إلى كربلاء بإيجاز كما يلي، في عام ٦٠ للهجرة، وبعد ان قُتل الخليفة علي صهر النبي، في جامع الكوفة، ارسل اهالي تلك البلاد إلى ابنه الحسين في المدينة دعوة للمجيء واستلام زمام الحكم. ولكن في نفس الوقت، اغتصب معاوية عدو علي خلال حياته، الخلافة وبعد موته خلفه ابنه يزيد، الذي كان يحكم في هذا الوقت. انطلق الحسين في يوم ٨ ذي الحجة مع عائلته ومجموعة من اتباعه المسلمين. وعندما وصل المكان الذي توجد فيه كربلاء الآن، قابله جيش من الكوفيين الخونة أرسله في غياب يزيد الذي كان في دمشق، واليه عبيد الله يقوده عمر بن سعد. وبعد مفاوضة قصيرة، وقعت القوات المعادية نفسها بين جماعة الحسين والنهر،وبذلك قطعت المياه عن قوة ضعيفة ومنهكة بسبب الرحلة الشاقة الطويلة عبر الصحراء العربية. يقال ان الحسين في هذا المأزق الحرج قد عرض العودة او ان يذهب بمرافقة حرس إلى يزيد في دمشق، ولكن قائد الجيش لم يجب على هذا وطلب الاستسلام غير المشروط.

(*) يبين السيد كرزن الآتي لترتيب القداسة حسب معلومات حصل عليها من سيد في كربلاء، اعتقد انه صديقي سيد حسن نفسه وكما يلي: ١- مكة ٢- المدينة ٣- النجف ٤- كربلاء ٥- الكاظمين ٦- مشهد (في بلاد فارس) ٧- سامراء ٨- قم (المؤلف).

(١) لا يعتبر الترتيب آنفا دقيقًا او يمثل وجهة نظر معينة، فقد فات مصدر المعلومات ان يذكر القدس قبل النجف كون الأولى تضم اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول الكريم ﷺ، (المترجم).

تـروي الأخـبار المتـناقلة عـبر الأجيال انـه قد وردت إلى الحسين ليلاً رؤى واحلامًا تخبره بمصيره وخلال اليوم او الأيام التالية، تناقص جيشه الصغير المنهك بفعل نقص المؤن والذي يحتضر من العطش، بفرار قسم منه حتى بقي منه اثنان وسبعون شخصًا. كان من بين هؤلاء عدد من افراد اسرته من ضمنهم علي الأكبر، اكبر ابنائه، وابنان صغيران هما عبدالله وعلي الذي عُرف فيما بعد باسم زين العابدين. كان هناك ايضًا اشقاءه عباس علي وشقيقته زينب وابنته وابن اخيه كاظم وعمته. حصلت سلسلة من المناوشات، إلا انـه لم يكن لمجموعـة الأمـير الصغيرة رغـم قـتالها الباسـل، اي امـل بالنصر، وفي الآخـر تمت محاصـرتها ونحر افرادها. كان علي الأكبر اول القتلى، حيث اصيب برمح ثم جرى تقطيعه إربًا، تبع ذلك ماساة مروعة، عندما طُعن طفل الحسين الصغير عبدالله بسهم وهو بين ذراعي والده. بينما نجا زين العابدين، كونه يرقد مريضًا. اندفع الأمير وهو جريح وينزف نحو اعدائه وبعد ذلك سقط وطعن باكثر من ثلاثين طعنة. ثم قُطع راسه، ومُرّغ جسده في التراب، ونهبت الخيم التي تاوي اسرته، وسبيت النساء. أرسل راسه والأسرى إلى دمشق، إلا ان جسده قد وري الثرى في كربلاء، وارتفع بعد ذلك على هذا الموقع المرقد الذي يجذب حشود المؤمنين الشيعة منذ عصور[1]. في القرن التاسع، حاول الخليفة المناهض للشيعة المتوكل إيقاف الحج إليه بإغراقه المنطقة الواقعة بين بغداد وكربلاء بمياه الفرات. ويقال ايضًا انه حاول تدمير الجامع إلا أن الشيعة كانوا من الإخلاص مما لا يدع لمثل هذا الطاغية اي تاثير دائم. وليس كحج مكة، يصل الحجاج إلى هذا المكان في جميع أوقات السنة إلا ان شهري ذو الحجة ومحرّم، اللذان حدثت بهما حملة الشهيد وموته، هما الشهران المفضلان، عند

(١) يوجد شرح مفصل في كتاب لوكلي (تاريخ العرب) وتاريخ مور (الخلافة)، إلا ان المراجع تختلف في تفاصيل المذبحة. وفيما يخص نقطة الخلاف حول المكان الأخير لدفن رأس الشهيد، انظر ما كتب برتون في كتابه (مكة والمدينة)، المجلد ٢، ص٤٠، (المؤلف).

العديـد مـن الحجـاج، كونهم يأتون من مناطق ذات طقس بارد في بلاد فارس، زياراتهم بـأن يصلوا إلى سهول بـابل في فصـل الشتـاء لغـرض تجنب الحرارة، كما قال لي يوسف ايضا ان رمضـان يعتـبر شهرًا مـزدحمًا بالحجـاج ويبـدو هـذا صحيح تمامًا، رغـم انـه لا يوجـد أي سبب لماذا هـذا الشهر مفضـل في الزيارة ايضا. يقال ان اعداد الحجاج القادمين بشكل رئيسي من بلاد فارس والـهند تصل إلى حوالي مائتي الف حاج سنويًا، ولأن الدفن في ارض كـربلاء المقدسـة يعتـبر ضمانا لدخول الجنة، تجلب عدة مئات من الجثث عن طريق القوافـل أو البواخر سنويًا لدفنها في هذه البقعة. وخلال زيارتي قادمًا وذاهبًا من كـربلاء، شاهدت العديـد مـن تلك الأعمال الشنيعة. فقد كان التابوت المخلع المصنوع مـن الأغصـان الصغيرة والمثبت بالعرض على ظهر احد البغال، منظرًا معتادًا، ولأن هذه التوابيت قـد تم جلبها مـن مسافة مـئات الأمـيال مـن بلاد فارس والـهند، لـهذا يفترض دائمـا وجود حالة بعيدة عن الشروط الصحية في قوافل الجثث هذه. وفي حالات عديدة، تكـون الجثـث قـد دفنـت في محل موتها ويؤجـل نقلها لحين توفر الإمكانية لدفع اجور الـزيارة والدفـن، الـتي تكون في كـربلاء باهضـة جدًا. وليس ببعيد عن الاحتمال انه في حـالات اخرى حيث يكون الموت حديثا، فإن الحـرارة وجفاف الطقس تجفف الجثث دون أن تـتعفن بالشكل الذي يمكن ان تكونه في طقس مختلف. وفي وقت ما في الماضي وضعت السـلطات التركيـة المزيد من المصاعب امام مرور الجثث عبر بغداد وقد دفع هذا الخلاف الشاه إلى إيقـاف حـج كـربلاء إلى حـد بعـيد، ونتـيجة لذلك، حلت مشهد في بلاد فارس محل كـربلاء وخسـر الأتـراك مصـدرًا كبيرًا للثروات لفترة من الوقت. وعلى اية حال، تم إعادة افتتاح الطريق ويأتي الحجاج حاليًا بكثرة كما في السابق.

إن الـتقديس الـذي يكنه جميع الكربلائيين او الحجاج والواقع جميع الشيعة لاسم الشهيد الحسين، هـو امـر لافت للنظر حقًا. ففي شهر محرم تمثل في بلاد فارس والـهند بشكـل منـتظم المأسـاة الفاجعـة للشهيد الحسـين امـام حشـود الـناس حيـث تـثير احـزان

المشاهدين لتصل إلى حالة من الأسى العميق[1] . وقد شهدت بنفسي على باخرة في دجلة، رواية للماساة من قبل احد الكربلائيين لمجموعة من الحجاج، حيث أثارت مشاعرهم إلى درجة أن جميعهم قد اخذوا ينشجون بالبكاء بحزن صادق.

تعتبر مدينة كربلاء، التي نشات بهذه الطريقة الغريبة، مكانا مزدهرًا. كانت في السابق صحراء لا ماء فيها، وتحولت بفضل قناة تسمى نهر الحسينية المتفرع من الفرات إلى واحة ماهولة حسب تقدير بعض المراجع بحوالي خمسين او ستين الف إنسان. يمكن مشاهدة العديد من القوارب على هذه القناة، تنقل بواسطتها كمية من البضائع التجارية، إلا ان الحجاج يستخدمون طرق القوافل، عانت المدينة من نكسه مرّة عندما سلبت ونهبت في عام ١٨٠١م، وذبح الكثير من سكانها على يدي سعود بن سعود الزعيم الوهابي. يعتبر الحي القديم من المدينة الذي يقع فيه الضريح صغيرًا نسبيًا ويقع داخل سور من الآجر مع ابراج مستديرة بين مسافة واخرى. وقد نمت خارجه ضواحي كبيرة يمكن ان تشاهد فيها شارع او شارعين من الشوارع الواسعة الجميلة التي تشبه إلى حد ما بعض أحياء الدرجة الثانية في الإسكندرية. يقع في إحدى هذه الضواحي بيت السيد. وكما في المسيب، يصنع الآجر الأخضر في كربلاء، وبعد تجوالنا حول المدينة، زرنا نوّابًا هنديًا هو وكيل دار الإقامة البريطانية في بغداد. استقبلنا بادب، إلا أنه خلق نوعًا من الصدمة في نفوسنا بكونه شخصًا مغرورًا ومتكلفًا والذي رغم كونه دون شك شخصًا ذا شان، إلا انه يبدو ثقيل الظل إلى حد كبير. يظهر ان رايه في تاثيث المنزل هي بحشد مصابيح نفطية لا حصر لها في اي فراغ متوفر في كل غرفة، وهو شكل من الزينة لا يلائم اي ذوق. كانت ضيافتنا تتكون من السكائر والعصير (الشربت) والشاي

---

(١) انظر كراتون كيري (رحلة عبر تركيا الآسيوية) الملحق سي، ويتضمن ما كتبه السير لويس بيلي حول إحدى هذه التمثيليات في بومبي، وكتاب (رحلة من البنغال إلى بلاد فارس) (١٧٨٦-١٧٨٧)، لوليم فرانكلين ونيكرتون (مجموعة الرحلات)، عام ١٨١١م، المجلد ٩، ص٢٧٤، (المؤلف).

والـتي يقتضـي الأدب ان اقـبلها جمـيعها رغـم انـي قـد عـدت اعـاني ثانـية بقسـوة مـن مرضي.

وفي الليل هبّت عـلى المدينة عاصـفة مـروعة مـن المطـر الـذي يصـاحبه بشـكل متواصـل رعـد وبـرق وسـاعة بعـد اخـرى، اخـذ الوابـل الغزيـر بـالهطول وكـان الـبرق متواصـلاً وشـديدًا بحيـث ان بالإمكـان مشـاهدة اي شـيء بوضـوح كـنهار عـبر نوافـذ غرفتـنا. إضافة إلى هـذا، فـإن غرفتـنا لوحدهـا كانـت تكفـي لطـرد الـنوم، فهي مليئة تمامًا بعـدد لا حصـر لـه مـن الـبعوض اللئيم الذي اجتـنبته دماؤنا الأوروبية ويريد ان يتـناولها لـيلاً. لا اعتقد ان من المبالغة القول انه لم تمر اي لحظة من الليل دون ان تكون هـناك العديـد مـنها عـلى وجهي. وقـد مسحت وجهي عبـثا بالـليمون حـتى اصـبحت كعصير لـيمون حـي، ودفنـت راسـي عبـثا تحت اغطية معينة، من اجل الحصول على قسـط مـن الـنوم المختـنق. إلا ان الـنوم لم ياتي وقضيت معظم الليل ادعك وجهي والعن سـي الـذي ضـم راسـه في شـبكة ضـد الـبعوض مـن اخـتراع احـد الأشـخاص ونـام وغـط بطـريقة هانـئة مثيرة للأعصاب وشعرت اني سوف لن اغفر لـه ذلك وساعة بعد أخرى، اخـذ جـرس سـاعة برج مشهد الحسين يدق ليجعل المرء يعتقد انه لولا الطنين المتواصل للأعـداد الهائلـة مـن الـبعوض الـذي لا يهجـع انـه في مديـنة ريفـية إنكلـيزية ولـيس في كربلاء المقدسة.

وقـد حصـل حـادث بغـيض إبّان ما كنا على وشك المغادرة في صباح اليوم التالي. فقـد جاء يوسف الذي اعطيناه مبلغًا معينًا من المال لإعطائه إلى خدم السيد، وهو يقول ان المال قـد سُرق مـن جيـبه اثـناء نومـه، وانـه يـتهم احـد الخدم، الذي يبدو عليه عدم الأمانـة، بالسرقة. قـال يوسـف، إن هـذا الـرجل قـد ضايقه بشكل متكرر في اليوم الماضي طالـبًا مـنه البقشيش وأوضح انه متوحش جشع لا يتردد عن فعل اي شيء. قلنا ليوسف انه ليس لديه ادنى دليل على ذنب الرجل وطالما انه قد ضيّع المال، فإنه يتحمل الخسارة

وحده وامرناه ان يسلّم الرجل الهدية المخصصة له وبحضورنا. وقد رفض الخادم، الذي شتمه يوسف، قبول الهدية، إلا إذا سلمت إليه من قبلنا شخصيًا. من المستحيل علينا القول بناءًا على الدليل المتوفر إن كان يوسف يكذب ام ان الرجل كان مذنبًا. ومع الكثير من الأسف وبسبب دمدمة يوسف المتواصلة، وصلت القضية إلى اسماع السيد الذي جاء لوداعنا واراد إعادة المال والبقشيش إلينا. كل ما استطعنا فعله هو التاكيد له باننا لم نصدق قيد انملة بالسرقة، وان الأمر قد حدث إما بسبب الخطا او عدم الأمانة من جانب يوسف نفسه. ولكن طالما ان كل شيء تقريبًا تتم ترجمته من خلال يوسف من الصعوبة القول ماذا فهم السيد. وقد احتج يوسف، بسبب وصوله إلى حالة من اليأس من غضبنا، بانه قد اخبر المضيف بانه نفسه "كذاب افاك" وان المال موجود في الواقع بامان في جيبه. إلا اننا استطعنا ان نرى من خلال تعابير وجه السيد انه قد انزعج. على اية حال ليس هناك شيئا آخر يمكن عمله، غادرنا كربلاء عبر وحل بعمق ست إنجات. وبعد ان انعطفنا إلى ناحية معينة، زلق حصان سي، وسقط على الأرض وغطته الأوحال، إلا انه لحسن الحظ لم يصبه اي اذى. وفي الحال كان السيد على حصانه باقرب منه وهو يساعده على النهوض ويزيل الوحل عنه. وعندما افترقنا بعد وقت قصير اردت ان اقدم له هدية هي غمد سكينتي، وهو الشيء الوحيد الذي يستحق الإهداء، إلا انه كما يقول لا يقبل اخذ اي شيء من المسافرين الذين قد يحتاجون لمثل هذه الأشياء في الطريق. وقال انه سيقبل بسرور اي شيء قد ارسله من إنكلترا. وقد شعرت حقًا بالأسف الحقيقي لوداعنا هذا الرجل الممتع الذي كان لطفه وكرمه معنا غير محدود تمامًا. تبادلنا العناوين، وتصافحنا بحرارة، ثم افترقنا.

انطلقنا الآن في الوقت المناسب في رحلة العودة. والواقع انني اشعر في هذه اللحظة انني متجه نحو المنزل. فالأرض الصحراوية التي نسير عليها والتي كانت جافة ويابسة في اليوم الماضي مليئة الآن بالوحل وببرك الماء الكبيرة. كان النهار جميلاً، وقد اصبح اثناء ارتفاع الشمس حارًا ثقيل الوطاة. اجتزنا عدة قوافل تحمل جثثا ومخيمًا صغيرًا

لعرب فقراء وعند حوالي الساعة الحادية عشرة توقفنا لتناول الغداء بالقرب من قبيلة عربية كبيرة تدعى سعود، وهي قبيلة تفلح مساحة قليلة من الأرض وتربي قطعانا كبيرة من الأغنام. وبعد الظهر بقليل وصلنا المسيب التي كانت في هذا الوقت من النهار خالية من السكان تقريبًا، وهنا حصلت لنا مشاجرة مع المكاري الكبير السن الذي كان يريد التوقف وقضاء الليل هنا وبذلك يجعل رحلة العودة إلى بغداد تستغرق ثلاثة أيام. اخذنا نصرّ على أية حال على مواصلة المسير، وبعد استراحة لمدة ساعة امرنا يوسف بان يسرج الخيول ثم غادرنا المدينة، اصبحت حرارة الطقس الآن منهكة جدًا، ورغم رؤيتنا لخان الإسكندرية حيث من المقرر ان نمضي الليل فيه، وكان يبعد في الظاهر مسافة مسير نصف ساعة، إلا ان وصولنا له استغرق منا مسير ساعتين وربع. كم كان المنظر خادعًا على هذه السهول المستوية الفسيحة بحيث أن المسافر يقع باستمرار ضحية هذا الخداع في قضايا من هذا القبيل. كانت اشعة الشمس اللاهبة تنصب فوق رؤوسنا وهي تخترقنا كما لو انها سكين بينما كانت مجموعتنا تسير ببطء وإنهاك على طول الطريق. كنا نجلس او تتدلى فوق سروجنا ونحن مصابون بالإعياء الشديد بحيث لا نستطيع الكلام بفعل الحرارة وكنا اشبه بالواح خشبية منه بكائنات بشرية. كانت البلاد الواقعة بين المسيب والإسكندرية عبارة عن سهل موحل اما قرب المكان الأخير فتصبح الأرض حصبائية. وعند الساعة الرابعة دخلنا إلى القرية الصغيرة ونصبنا خيمتنا مقابل مقهى على بُعد مسافة قصيرة من الخان نفسه.

استأنفنا مسيرنا في صباح اليوم التالي عند الساعة الخامسة والنصف. وبعد مسير حوالي نصف ساعة، راينا على مسافة بعيدة إلى اليمين نقطة في الأفق يقول يوسف انها طيسفون. ربما يكون ذلك صحيحًا، إلا أن آثارها لابد أن تبعد عنا مسافة حوالي سبعة

عشر إلى ثمانية عشر ميلاً[1] وقد ظهرت على الطريق بعد ذلك مباشرة مجموعة من التركمان وهم يرتدون قلنسوات غريبة الشكل من فرو الحملات. قالوا انهم من منطقة قرب تبريز. بعد ذلك جلب انتباهنا عمود من الدخان ارتفع على مسافة بعيدة نحو اليسار ويبدو كانه باخرة في نهر الفرات، إلا انه ربما يكون من فعل مضرمي القير.

عندما اصبحنا على مقربة من بغداد، سمعنا ان مياه النهر قد ارتفعت كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية بحيث ان جسر دجلة قد قُطِع. والواقع انه قد جرى تحذيرنا انه إذا لم نسرع، فإننا سنفقد جسر خان الخر كونه من المحتمل ان ينقطع في اي وقت. لهذا عدونا إلى الأمام، ووجدنا جميع مجاري مياه الري التي اجتزناها قد انفجرت جوانبها وجرفت الطريق. وفي احد الأماكن التقينا بامراة تنوح حول فتاة صغيرة ميتة انجرفت إلى قناة فياضة وغرقت. كان انين ونشيج هذه المخلوقة المسكينة يبعث الكثير من الألم لسماعه، إلا اننا لا نستطيع تقديم اي مساعدة، وبعد إسراعنا قدمًا عبر الجسر ووصلنا بغداد عند الساعة الثانية.

انتهت رحلتي الآن إلى حد ما. فقد رايت حلب وبغداد وبابل، وهي المهام الثلاثة التي كرست نفسي لها خلال تلك الفترة، وكل ما تبقى لديّ الآن هو العودة إلى الوطن باكبر قدر ممكن من الراحة. لم تحسّن ساعات الإجهاد الطويلة تحت الشمس اللاهبة من حالتي الصحية، وعند عودتي إلى بغداد شعرت انني عاجز عن القيام بمسير برّي آخر نحو البحر المتوسط. إضافة إلى هذا، كنت تواقًا لمشاهدة دجلة الأدنى والخليج

---

(١) يصف لايارد في كتابه (نينوى وبابل) عام ١٨٨٢م، ص٢٢٨، عند مسيره بين الإسكندرية وبغداد انه يرى طيسفون تحت تاثير السراب ويستطيع التمييز بوضوح بين الأواوين للقنطرة والأعمدة وكتل المباني. وسواء ابتعد كثيرًا إلى الشرق عن طريق القافلة او ان السراب قد ضخم هذا الأثر، إلا انه تبقى للمسافة بين هذا الطريق والأثر بعيدة جدًا مما يصعب رؤية الأخير كما سبق ان ذكرت. (المؤلف).

العربي وطالما انه بالإمكان القيام بذلك على ظهر بواخر ووسط وسائل الراحة الأوروبية، قررت أن أشق طريقي إلى الوطن عن طريق بومبي.

كان وصولنا إلى بغداد في يوم ١٢ مارس، وفي نفس فترة بعد الظهر استدعيت المكاري الكبير السن لأدفع له أجره عن حيواناته. لقد أساء السلوك طيلة فترة الرحلة، لهذا قررنا ان نعرب له عن استهجاننا لسلوكه بعدم إعطائه اي هدية رغم أن المكاري الشاب الذي رافقه سيستلم البقشيش المعتاد. وعندما وصل هذا الخبر إليه، أصبح الوغد في غاية العنف والبذاءة ورفض استلام أجوره عن الحيوانات وفارقنا بغضب، محدثا ضجة كبيرة في فناء دار الإقامة عند مغادرته. وضعنا المال جانبًا، وفي الصباح التالي، جاء المكاري الشاب وتمت تسوية الموضوع.

وعند عودتي مباشرة، بدأت استفسر عن الباخرة التالية التي ستغادر إلى البصرة. حيث آمل أن أجد هناك باخرة تقلني إلى إنكلترا. من المقرر أن تغادر إحدى هذه البواخر في الرابع عشر من الشهر، ولكن نتيجة كون الوقت هو رمضان، فلم تنجز سوى القليل من الأعمال في دائرة الجمارك ورصيف التحميل، وأبلغت بأن الباخرة لن تغادر إلا في أحد أيام الأسبوع القادم، إذ أنه يجب تفريغها، وتلك عملية بطيئة كأي شيء آخر في شهر رمضان. وتحت مثل هذه الظروف كنت أود أن استغل وقتي في القيام بنزهة إلى آثار طيسفون وتلال سلوقية، إلا أنني أشعر أني ضعيف للغاية للقيام بها بسبب سوء حالتي الصحية المستمر. إضافة إلى هذا، أبلغت أن الباخرة النهرية ستمر بالقرب من هذه الآثار، وسيمنح المسافرون وقتا كافيًا لزيارة طوق طيسفون العظيم، لهذا كنت آمل أن أشاهده بتلك الطريقة. كما أن الحرارة أخذت تشتد هذه الأيام بحيث أن القيام بأي فعل تحت الشمس بين الساعة العاشرة والرابعة سيكون مثيرًا للإعياء الشديد، لهذا قررت أن أمضي اليومين أو الثلاثة قبل صعود الباخرة بهدوء وسلام.

وصل النهر الآن إلى ارتفاع أخذ يهدد حديقة دار الإقامة بالفيضان. كما امتلأ الطريق الطويل الممتد من بغداد نحو الجنوب ببرك واسعة من الماء الراكد الذي بدا تحت مثل هذه الحرارة يبعث رائحة بخار كريهة، من المحتمل جدًا أن تولد مع البساتين المحيطة المغمورة بالمياه الحمى والملاريا من البخار المتعفن. وقد كانت هناك علامات واضحة تشهد أن الحرارة العالية أخذت تؤثر على الصيام من المؤمنين في بغداد، فهناك صفوف طويلة من الدكاكين المغلقة في الأسواق، والنشاط المتزايد في أوقات المساء، كل ذلك يبين أن بغداد تجد العمل تحت هذه الظروف أمرًا شاقًا.

وفي أحد الأيام وبينما كنت أتمشى في السوق، قابلت أحد أصدقائي في حلب، إنه الطبيب اليوناني الذي سار في أعقابنا أسفل الفرات إلى بغداد. أبلغني أن هناك قبيلة عربية تستوطن ضفتي النهر بين بغداد والبصرة، في حالة ثورة حاليًا وتطلق النار على البواخر. وقال أن بعض هذه البواخر التابعة إلى الشركة التركية، قد عادت وأن النقل النهري حاليًا في توقف تام. رغم أني لم أصدق الكثير من هذا، إلا أني عند الاستفسار قد وجدت شيئًا من الصحة في هذا رغم أنه لم تتعرض البواخر الإنكليزية حتى الآن لأي أذى. وقد علمت في الآخر أن باخرتي ستغادر في يوم ١٩ من الشهر، لهذا رتبت أمتعتي وأعطيت يوسف أوانيّ وقدوري وبنطال ركوب قديم كان قصيرًا عليه، إذ لا يبلغ طوله عليه أكثر من ست إنجات، استدعيت حلاقًا من بغداد لقص شعري. كنت أفترض أن هذا الحلاق الكفء الذي حضر وبيده الطست المألوف ودزينة من الأمواس والمقصات هو سليل الحلاق الأصلي في ألف ليلة وليلة. إلا أنني شعرت براحة كبيرة عندما وجدت أنه لم يجرعني حكاياته الساذجة ومعضلاته التنجيمية، على العكس من ذلك، فقد قص شعري جيدًا وبأناقة، واستلم أجوره، وغادر برزانة جديرة بالثناء تبين أن سلالة الحلاقين قد تحسنت كثيرًا في بغداد. وفي نفس اليوم شاهدت على ضفة دجلة أحدب البصرة، الذي نعرف أن ميزته في كتاب الحكايا القديم الممتع ذلك هي

"إثـارة الضـحك لـدى الغاضـب وتـبديد القلـق والأسـى". لا اسـتطيع القـول ان ذلـك الفـتى الصغير المسكين الـذي خـرج مـن مـنزلـه للـتجوال، قـد اثـار فيّ نوعًا من هذه المشاعر. إنه مخلوق صـغير غريب، راسه في صدره مع سيقان قصيرة معوجة بطول قدم واحد تخرج من جسده، ويبدو من ملبسه انه رجل ذو مكانة.

وفي لـيلة ١٩ مـن الشهر، صعدنا ظهر الباخرة، حيث سبق ان ارسلنا امتعتنا الثقيلة مع قـدر كـبير من البقشيش لإخراجها سليمة من دائرة الجمارك.

*　　　*　　　*

الفصل الخامس عشر

من بغـداد إلى البصـرة

النقل اللجاري في دجلة - باخرة نهرية - البحارة الكلدان - دليل الرحلة - مغادرة بغداد - طيسفون - القبائل العربية - ندرة الناقلات - العرب ضحايا الفيضان - العمارة - الصابئة - مناظر ظهر المركب - ثورة الشيخ سعود بن منشد - ضريح عزرا - ذمر عام - القرنة - شط العرب - ميناء البصرة - زيارة المدينة - هروب السجناء - ملاحظات تاريخية - الحالة الصحية في البصرة

لا يرجع تاريخ النقل البخاري عبر دجلة وشط العرب إلى ماضٍ بعيد. هناك في الوقت الحاضر خطان للملاحة النهرية بين البصرة وبغداد، وهما خط ناقلات تركية وآخر إنكليزي. في الخط التركي هناك سبع بواخر وقد دشن هذا المشروع مدحت باشا. وبالطبع يتجنب الأوروبيون ركوب هذه الناقلات كونها صغيرة ووسائل الراحة فيها سيئة وعليك ان تجلب طعامك الخاص معك. بدأ الخط الإنكليزي قبل ثلاثين سنة بواسطة الشركة المقدامة لنج (Lynch & a) وتقدم خدمة نهرية جيدة. عدد بواخرها ثلاثة فقط هي المجيدية، والخليفة وبلوس لنج وهي اكبر واقوى وافضل من البواخر التركية.

تتميز هذه البواخر بكونها ذات صناعة متينة، فهي لا تسحب سوى القليل من الماء، إلا انها واسعة إلى حد كبير. يرتفع فوق الظهر الرئيسي للباخرة والذي يمتد فوق

مستوى الماء بقليل سلسلة طويلة من الغرف، وتبلغ ثلثي طول المركب ويمثل سطحها منصة عالية كبيرة يشغلها بشكل عام المسافرين. تكون وسائل الراحة في المقدمة، وهي تتكون في باخرة المجيدية من عدة غرف مريحة تتسع لشخص واحد مع صالة صغيرة ومريحة للطعام. تستطيع المجيدية حمل ستمائة راكب على ظهرها واعتقد ان باخرة بلوس لنج تتسع لعدد اكبر.

يقود هذه البواخر مسيحيون كلدان من قرى بالقرب من الموصل. وهم رجال طوال يتسمون بالوسامة وتحسبهم من وجوههم انهم اوروبيون اكثر منهم شرقيون. من الممتع مشاهدة هؤلاء الرجال اثناء العمل. فهم يعملون كرجال وليس لديهم تلك النزعة المخادعة الدنيئة المعتادة لدى المسيحيين الشرقيين. ورغم ملامحهم الجميلة التي تدل على الشرف واجسادهم الرجولية، اخبرني احد موظفي الباخرة بانهم رفيقون ولا يقدّرون تمامًا قوتهم. والأمر متروك لهم، إذ ربما تكون هذه العماليق المتراخية لا تصلح للعراك وربما تعمل بالمثل القائل: "القتال الحقيقي هو الهروب". يتكون زيهم من سترة طويلة زرقاء وعمائهم بيضاء لا تميزهم عن المسلمين ولغتهم هي العربية. تعتبر الملاحة في النهر عملية ليست سهلة، وعندما تكون مياه النهر منخفضة، تصطدم البواخر احيانا بضفاف النهر الطينية. وهناك بعض الانعطافات التي يجب الاستدارة فيها حادة جدًا وعند السير باتجاه التيار وقت الفيضان، من الضروري القيادة بحذر شديد. يحملون معهم بالطبع دائمًا دليلاً محليًا. من الطبيعي ان هناك فرق كبير في الوقت الذي تستغرقه الرحلات الصاعدة او النازلة. تستغرق الرحلة من البصرة إلى بغداد كحد ادنى حوالي ثلاثة ايام ونصف، رغم انها بشكل عام تستغرق وقتا اطول، واحيانا وعندما يكون التيار قويًا فإنها تستغرق اسبوعًا كاملاً. الحد الأدنى الذي تستغرقه الرحلة باتجاه البحر هو يومان، رغم انها تتطلب بشكل عام حتى عند اوقات الفيضان ست او عشرة ساعات إضافية. وقد دونت الملاحظات التالي في صالة المجيدية:

اسم المكان على النهر	معدل زمن فواصل السير النهري				شرح وتوضيح للأماكن على نهر دجلة
	النازل مع النهر		الصاعد مع النهر		
	دقيقة	ساعة	دقيقة	ساعة	
البصرة	٣٠	٤			خط عرض ٣٠° ٣٠' ٩" شمالاً
القرنة	٠	٣	٣٠	٥	التقاء نهري الفرات ودجلة ويفترض أنها جنة عدن.
ضريح عزرا	٤٠	٤	١٥	٤	عزرا الكاتب، مكان يهودي مقدس للحج. قبة خضراء على الضفة الغربية من النهر.
ابو سدرة	١٠	١	٣٠	٩	بستان صغير لشجر الحور بالقرب من النهر مع ضريح لقديس عربي داخل كوخ من القصب على الضفة الغربية.
العمارة	١٥	٤		٢	قرية تأسست في عام ١٨٦١م، فيها مستودع للفحم لبواخر الشركة على الضفة الشرقية من النهر.
علي الشرجي	٠	٤	١٥	٦	بستان لشجر الحور العالي على الضفة الشرقية وداخله ضريح قديس عربي.
علي الغربي	١٠	٣	٤٥	٥	قرية صغيرة على الضفة الغربية، سميت على اسم ضريح لقديس عربي أسفل القرية.
شيخ سعد	٣٠	٤	٠	٥	قرية صغيرة على الضفة الغربية سميت على اسم شيخ عربي سابق.
كوت الإمارة	٣٠	٤	٠	٦	قرية على الضفة الشرقية، فيها مستودع للفحم لبواخر الشركة.
البغيلة	٠	٥	٠	٧	قرية على الضفة الغربية، من أملاك السلطان تأسست عام ١٨٨٥م.
العزيزية	٤٥	١	٠	٩	قرية صغيرة ذات بيوت طينية على الضفة الشرقية.
البغدادية		٤	٤٥	٣	حصن طيني قديم على تل على الضفة الغربية بناها شيخ زبيد لجباية الإتاوات من القوارب المحلية.
بستان الكسرة	٣٠	٢	٣٠	٦	تلال أثرية، آثار مدينة طيسفون الفارسية القديمة.
نهر ديالى	٥٠	١	٠	٥	يصب في دجلة وينبع من تلال لورستان الفارسية.
بغداد			١٥	٣	خط عرض ٣٥° ٢٠' ٥" شمالاً.

زمن الإبحار الصاعد ٤٥ ٧٨، زمن الإبحار النازل ١٠ ٤٧.

ولغرض المقارنة اود ان اذكر ان رحلة الإبحار نزولاً مع النهر تستغرق من سبعة إلى خمسة عشر يومًا بينما يستغرق الإبحار الصاعد دائمًا اكثر من شهر.

وقبل مغادرتنا بغداد في صباح اليوم التالي، تركنا رصيف الميناء على الضفة الشرقية وعبرنا إلى الجانب المقابل من النهر. هنا كان مظهر ضفة النهر افضل نوعًا ما. رسى على الساحل بسرعة واحد او اثنان من القوارب الضخمة المسماة (البغلة). وكانت تطفو في النهر قوارب الضفة وزوارق طويلة كالأفعى. تعتبر البغلة اكبر صناعة بحرية محلية في الخليج العربي والبحر العربي. إنها مراكب بحرية ممتازة، تختلف كثيرًا من حيث الحجم، إلا انها مصنوعة على نموذج واحد. مقدمتها ومؤخرتها مرتفعة جدًا عن الماء في حين تكون منخفضة تمامًا في الوسط. توجد حجرة في مؤخرتها مصبوغة بشكل عام بالوان زاهية بينما يميل الصاري الكبير إلى الأمام بطريقة غريبة تمامًا. تأتي هذه المراكب احيانًا من زنجبار إلى بغداد. اعتقد انه ليس من السهل تغيير اتجاهها ويجري الإبحار بها بشكل رئيسي بمحاذاة الساحل وبالقرب من اليابسة.

غادرنا عند الظهيرة، وسرعان ما خرجنا من بساتين النخيل ومقاهي بغداد المبنية من الآجر الطيني. وبينما كنت اجلس مستكينًا في كرسي مريح على المنصة السفلى وتحت ظلال سميكة من الباخرة، لم استطع ان اغالب التفكير في الفرق الشاسع بين هذا الأسلوب من السفر والأسلوب الذي مارسته خلال الشهر الأخير. كم تختلف وسائل الرفاهية والسرعة للسفن البخارية النهرية الإنكليزية المريحة، مع الساعات المضنية من الارتجاج عبر الصحراء تحت الشمس الحادة وعلى حصان مسكين او في الفسحة المحدودة من التخت الذي سافرت فيه. حيث يبدو اننا نطير بسرعة البرق امام الشجيرات وبساتين النخيل والقرى المبنية من القصب وامام السهل ذي السراب ومخيمات

البدو البسيطة. والآن نسير قرب الضفة حيث ترتطم المياه الخلفية للباخرة بقوة بها، ثم تندفع قدمًا وسط النهر، وتستدير مع انعطافته ونحرك باضطراب بمجاذيفنا مياه دجلة العكرة. وبعد الساعة الواحدة بقليل، عبرنا جسرًا مفتوحًا يدعى جسر جرارة الذي يترجل فيه احيانا بعض الركاب المتجهين إلى بغداد ويتمشون نحو المدينة، لأن هناك انعطافة كبيرة بين هذا المكان وبغداد وتسير الباخرة عكس تيار سريع وبذلك يتم اختصار وقت الرحلة. تسير البواخر نزولاً مع التيار في هذا الوقت من السنة احد عشر ميلاً بحريًا في الساعة، وبعد اميال قليلة اجتزنا مصب نهر ديالى المجسّر بجسر من القوارب.

وبعد ساعة كنا قبالة طيسفون، ولخيبة املي الشديدة رفض الموظف المسؤول عن قيادة الباخرة السماح لنا بالنزول والسير عبر الانعطافة وبذلك نستطيع ان نلقي نظرة عن قرب على هذا الأثر العجيب. ولأن طيسفون تقع داخل حلقة مستديرة من النهر، فإن الباخرة تقوم بعد مرورها بالقرب من جانبها الغربي، باستدارة كبيرة ثم تقطع ميلين منها إلى الشرق، وهذا يجري باستمرار، حيث يستغرق ذلك ساعة كاملة للباخرة لكي تستدير في رحلة النزول ووقتا اكبر في رحلة الصعود. لسوء الحظ، كان ربان الباخرة مريضًا في بغداد وكان الموظف الأول المزود بصلاحيات قليلة لا يرى ان من ضمن صلاحياته توفير هذه المتعة لنا ونتيجة لذلك، كان علينا ان نقنع انفسنا بالنظر على قدر ما نستطيع من فوق ظهر الباخرة.

يظهر طاق كسرى او بشكل صحيح تخت خسرو اي عرش خسرو من النهر ايضا، وهو يبدو بحالته المتهدمة الحالية اثرًا عجيبًا. كانت النظرة الأولى التي القيناها عليه من الناحية القريبة يظهر وكانه قلعة نورماندية كبيرة يعلوها قوس هائل. ونرى حول هذا القعر المنيف للإمبراطورية الفارسية القديمة، المجمعات السكنية

الصغيرة للمواطنين العرب. قبل وصولنا إلى هذا المكان بقليل مررنا على الضفة الغربية بتل او استحكام من التراب محزز من جوانبه بفعل مياه النهر، كان هذا هو كل ما تبقى من سلوقية المدينة المقدونية التي قامت على انقاض بابل والتي اصبحت فيما بعد تعرف مع طيسفون باسم (المدائن)، اي المدينتين. وبعد ساعة كنا مقابل الجبهة الشرقية من التخت، ورغم بعدها الكبير عنا، إلا اننا نستطيع تمييز بوضوح صفوف الأواوين في الجدران والأعمدة التي تزيد واجهة المبنى من هذا الجانب. كانت الواجهة الأخرى التي توازن المبنى في الجانب المقابل للقوس الكبير قد سقطت في السنين القليلة الماضية ويقال ان باقي الأثر قد يسقط في اي وقت. ولم يكفَ احد باشوات بغداد المتنورين عن تدميره إلا باحتجاجات القناصل الأوروبيين لدى الحكومة العثمانية، ولكن طالما تستمر عملية السرقة بشكل عام للآجر من الأجزاء السفلى للأسوار، فقد يرى الرحالة المحب للآثار الذي ينظر بشغف نحوها من ظهر المركب في اي وقت تلاً من الأنقاض كالتلال الموجودة على الضفة الأخرى بدلاً من ان يشاهد قوسًا مهيبًا وجليلاً.

إن الأراضي المقفرة على جانبي دجلة بين بغداد والبصرة، تامة الإقفار كالأراضي الواقعة على الفرات شمال الدير، هناك بين مسافة واخرى قرى او مجمعات من صرائف العرب ولكن ليس هناك على طول الطريق مكانا يمكن ان نطلق عليه اسم مدينة عدا (العمارة)، وهناك قريتان او ثلاثة من القرى الكبيرة المؤهلة لوقوف الباخرة فيها، توجد بقع من الأراضي المزروعة هنا وهناك، ولكن يبدو من الواضح ان اصحاب هذه الأراضي لا يهتمون بها. لا تشاهد جنوب طيسفون اي شجيرات كثيفة كالمنتشرة على الفرات، ويبدو أن انعدام وجودها قد جاء بسبب استخدامها كوقود للبواخر. قبل ان تختفي هذه، كانت هناك اسود يجري صيدها في الغابة، إلا انه يظهر الآن انها قد اختفت تمامًا رغم انها لا تزال موجودة على بعض السنة نهر الكارون،

توجد ايضا بأعداد كبيرة الخنازير البرية وطيور البجع، وتصاد الأخيرة احيانا من فوق ظهر الباخرة.

ينتمي السكان العرب القاطنين على ضفتي دجلة إما إلى قبيلة زبيد وقبائل المنتفق الكبيرة على الضفة اليمنى او إلى قبائل بني لام والبو محمد على الضفة اليسرى. إنها جميعًا قبائل بدوية تعيش حياة الرعي وتعود القرى التي نشاهدها مع قطع الأراضي الزراعية إلى بطون صغيرة من هذه القبائل التي جنبتها الحياة الزراعية. إلا أنه يبدو بشكل عام أن هذه التجارب لم تثمر سوى القليل، ومن المحتمل ان العديد من هؤلاء العرب قد ارتدوا إلى حالة تواجدهم القديم. وقد شاهدنا في القرى من على ظهر الباخرة جواميس وابقار ومعز واغنام بأعداد كبيرة ولكن قلما شاهدنا اي جمال. يسكن بعض افراد قبيلة البومحمد، الذين سأتحدث المزيد عنهم في محل آخر، براري الأهوار الممتدة لأميال شمال القرنة.

السمة الأخرى لهذا النهر العظيم هي الندرة غير الطبيعية لوسائط النقل بواسطته، إذ يمر بين فينة واخرى مركب اخرق ذو شراع رباعي محملاً بالحطب يجره على طول ضفة النهر حشد من العرب العراة وهم يغنون ولم اشاهد لساعات إن لم اقل لأيام اي شكل من اشكال النقل النهري. من المؤكد ان النهر كان إبان مروري به في حالة استثنائية، إلا انها ليست فريدة وذلك بسبب ثورة العرب في الجنوب وتوقف النقل الناتج عن ذلك، إلا انه في الظروف الاعتيادية يعتبر النقل النهري محدودًا ويتم بشكل ضئيل جدًا. يقول السيد كيري، وهو يسرد تجاربه عند سلوكه نفس الطريق في عام ١٨٧٨م، انه لم يشاهد سوى باخرتين صغيرتين فقط وعدد لا حصر له من قوارب البغلة غير الكبيرة الحجم. عندما ينظر المرء إلى ماذا يمكن ان يكونه هذا الممر المائي

العظيم الممتد من الخليج العربي إلى جبال ارمينيا، يبرز بشكل واضح اكثر من أي حالة أخرى العجز التام للحكم التركي.

كانت قبيلة زبيد في السابق جماعة قوية وكثيرة العدد، إلا أنها الآن في حالة ضعيفة، وممزقة. لقد حصل هارون الرشيد على زوجته الجميلة زبيدة من هذه القبيلة[1]. في مساء اليوم الأول اجتزنا القرية الطينية الحديثة المسماة الجزيرة التي يقطنها هؤلاء القوم وبعد ذلك مررنا بقلعة تدعى البغدادية بناها احد شيوخهم السابقين بهدف اعتراض وجباية الأتاوات على النقل النهري. دخلنا الأهوار عند اول فترة بعد الظهر بعد مغادرتنا بغداد. ومن خلال الضجة اللامتناهية للضفادع عندما ذهبنا للنوم عند الساعة العاشرة، يظهر اننا كنا لا نزال نسير بجانب الأهوار. يعتبر البعوض في هذه الأهوار مثيرًا للإزعاج للغاية، ولاحظت ان النبابة الاعتيادية تلسع لسعة مؤلمة وحادة رغم انها لا تخلّف اي ورم.

في الليل توقفنا في كوت الإمارة، وعندما استيقظنا في الصباح كنا نندفع قُدُمًا بمواجهة نسيم امامي خفيف وعلى جانبينا سهل فسيح معشوشب واخضر. وبعيدًا على اليسار نستطيع تمييز جبال حمرين وهي سلسلة جبلية تفصل لورستان الفارسية عن الأراضي التركية والتي تقع خلفا مدينة دسفول.

وعند حوالي الساعة العاشرة والنصف اجتزنا علي الغربي وهي قرية طينية بائسة على الضفة الغربية من النهر. يقطن العرب كلا جانبي النهر، فالذين على الجانب الشرقي هم من بني لام بنيت مجمعاتهم السكنية بمزيج من الحصران والقصب

(١) ربما استنتج المؤلف ذلك من خلال تشابه الأسماء، إلا ان الصحيح هو أن زبيدة هي ابنة جعفر بن المنصور وزوجها هو هارون بن المهدي بن المنصور فهي ابنة عمه، لذا فهي هاشمية قرشية وليست من قبيلة زبيد اليمانية القحطانية المعروفة. (المترجم).

والطين (صرائف)[1]. ويقال ان هؤلاء الناس يتبادلون الزواج مع الأكراد، وهم يتحدثون اللغتين. يرتدي الأطفال الذين نراهم على الضفاف ملابس ذات لون احمر بدلاً من اللون الأزرق الذي يميز العرب بشكل دائم. وقد قابلنا في أحد الأماكن حشدًا كبيرًا من هؤلاء الناس يقفون عراة تمامًا على بقعة من اليابسة تحيط بها المياه. كانوا يحملون راية خضراء ويومئون وينادون على الباخرة. وقد علمت من احد افراد الطاقم أن هذه المخلوقات المسكينة تعاني من كارثة كبيرة بسبب فيضان النهر الذي اكتسح احد السدود واغرق قريتهم ودمّر كل محاصيلهم. وفي مجمع سكني كبير آخر إلى الأمام، من السهولة مشاهدة كيف ان مستوى النهر اعلى من مستوى اليابسة التي يجري فيها، لهذا لا تنفع السدود المدمرة سوى لتراجع الأهالي والوقوف عليها بنفس الطريقة.

وفي المساء وجدنا انفسنا نبحر بين ضفتين تحيطهما بساتين فاكهة نخيل مسورة بسور طيني. تشاهد ايضًا قوارب غريبة الشكل طويلة بشكل مفرط وضيقة إلى حد ضئيل وهي تسير عكس اتجاه التيار. تسمى هذه القوارب البلام وهي القوارب المتعة في دجلة الأدنى وشط العرب. وبعد ذلك بقليل، وصلنا إلى العمارة، حيث اخذنا نتمايل تجاهها وسط النهر كي ننزل سريعًا إلى الرصيف بينما كان انف الباخرة مرتفعًا في الماء رغم انني لم استطع إقناع اي من زملائي الركاب لمرافقتي، إلا انني في الحال نزلت إلى الساحل كي أروّض ساقي والقي نظرة على المكان. تعتبر العمارة مدينة كبيرة بعدد سكان يبلغ حوالي خمسة آلاف شخص، من بينهم عدد لا باس به من اليهود، إلا ان هناك عدد قليل من المسيحيين. في المدينة والي وهناك ثكنات يقيم فيها فوج تركي واحد. وهناك بعض البيوت الجميلة والنظيفة على جبهة النهر. ويكمل جانبية المدينة جسر من القوارب، ودائرة تلغراف، وسوق واسع متعدد البضائع.

---

(١) بنيت بعض مجمعات الحصران هذه في وادي دجلة الأدنى بانتظام عالي وكأنه مخيم عسكري تمامًا. (المؤلف).

في العمارة هناك نهر يصب في دجلة من ناحية الشرق، يعتبر اسمه إلى حد ما مشكوكًا فيه. يشير كيبرت إلى ان هذا هو نهر الطيب الذي ينبع من جبل حمرين، وتشير خرائط اخرى إلى نفس الأمر. إلا ان السيد يوسف الموظف في المجيدية قد ابلغني ان هذا غير صحيح، وان هذا هو المصب الشمالي لقناة او ماء مرتد خارج من مجموعة الأهوار العظيمة يسمى الصامدة او سامرغا والذي يمتد إلى هور الحويزة داخل العمق الفارسي. يسمى النهر الشط او سد الخد. اكد لي يوسف انه يمكن الوصول إلى الحويزة من العمارة بواسطة القوارب بعد قطع هذه الأهوار الشاسعة. يبدو ان حقيقة الأمر هي ان هذا هو احد مصبات نهر الكرخة الفارسي الذي تنتشر مياهه بعد مرورها بالحويزة على مجموعات واسعة من الأهوار بعدها يلقي الخد مياهه في العمارة، ومصب آخر إلى الجنوب في العزير او ضريح عزرا وواحد او اكثر على بُعد ستين ميلاً إلى الجنوب وبالقرب من التقاء دجلة والفرات. ويبدو ان الطيب يصب في الخد ليس بالقرب من دجلة بل ابعد قليلاً إلى الشرق في المنطقة القريبة من الأهوار.

تجري صناعة البلام التي سبق ان تحدثت عنها ورايتها هنا بل وحتى في البصرة من خشب الصاج المستورد من ساحل مالابار، يثبت الخشب بمسامير حديدية ويطلى القارب كله بالقار. يمكن ان يقود البلم متوسط الحجم رجل واحد فقط يجلس في مؤخرته وبيده مجذاف عريض الطرف.

في العمارة، والواقع كما في العديد من مدن دجلة الأدنى، هناك عدد كبير من الناس الذين يسمون الصابئة، الذين يدعون انحدارهم من الكلدان القدماء وينظرون إلى القديس يوحنا المعمدان بتبجيل خاص[1]. تختلف سماتهم الجسمية، كما اراها على اية

(١) لمزيد من المعلومات عن الصابئة ومعتقداتهم وخصوصياتهم، انظر اينسورث، مسرد شخصي عن بعثة وادي الفرات، عام ١٨٨٨م، المجلد II، ص٤٢، (المؤلف).

حـال، عـن العرب أو الفرس، رغم انه لا يميزهم شيء خاص في زيهم، حيث كما رايتهم لـهم لحى داكـنة وعـيون جمـيلة، وفي الوقـت الذي بدات فيه المجيدية بالرحيل، كان هـناك رجل صابئي، يظهـر انـه شخصية ذات شـان، يقـف على المنصة السفلى للباخرة، بينما تجمـع عـلى الرصيف حشد من اصدقائه لوداعه، وكان كل واحد منهم يقذف عـلى ظهـر الـباخرة عـباءة مـربوطة تحـتوي هديـة الـوداع المكونـة إمـا مـن الجوز أو من الـتمور، وحالما تصـل الـهديـة على ظهر الباخرة يقوم الصابئي الطويل بإفراغ محتوياتها عـلى المنصـة ويعـيد رمـي العـباءة إلى الحشـد المـزدحم. وفي الآخـر ابـتعدت الـباخرة عـن الساحـل واصبح مـن الصـعب عـليهم رمـي المـزيد، واخـذ اصـدقاؤه المـتلهفين بالـتلويح لصديقهم تحية الوداع.

لا يمكـن تصـوير مـنظر اكـثر غـرابة مـن المنصة العليا للباخرة (دجلة)، فهناك المـئات مـن الأجسـاد الجالسـة او المسـتلقية مـن جنسيات مختلفة وذات ملابـس مـتعددة الألـوان وهي تملأ المكان بشكل مزدحم للغاية، بحيث يصعب على المرء ان ينتقل من هذا الطرف إلى الطـرف الآخر. من بين هؤلاء هناك جزء كبير من الحجاج الفرس العائدين إلى وطـنهم مـن كـربلاء والـنجف، لم ارى في مجامـيع الـرجال ذوي القلنسـوات الضـيقة والنسـاء المحجبات سـوى تكـرار للمجامـيع الـتي شاهدتها على طريق الحج، باستثناء انني اراهـم هـنا وهـم في حالة استرخاء، مستلقين على فرشهم المهملة وغير المرتبة، ويرتشفون الشـاي وينفـثون الدخـان كـذلك مـن الممكـن عـند القـيام بصـعود مفاجئ إلى الـركن الـهادئ في المنصـة العلويـة، مشاهدة بعض حوريات الشرق دون حجاب. لا استطيع القول ان مـا رايـت قـد احـدث وقعـا كـبيرًا في نفسـي، وحالما ارتـدت السـيدات أرديتهن المناسبة بسـرعة، حـتى أصـبح مـن الضـروري لـدي ان اهـتم بانهمـاك في آلـية صـناديق عجلـة الـتجذيف. بالإضافة إلى هؤلاء، هناك عرب من البصرة، ومسلمون من بومبي وواحدة أو اثنتان من النساء المغامرات وهن في طريقهن من بغداد إلى بومبي، حيث يأملن جني ثروة

من جمالهن. كل هذا المزيج الغريب يعيش ويدخن ويطبخ ويتناول الطعام وينام على ظهر الباخرة دون أي مشكلة. ففي المكان الذي يضع فيه الراكب على ظهر الباخرة صرة الأمتعة عندما يصعد من بغداد، عليه أن يشغل هذا المكان حتى وصوله إلى البصرة ونادرًا ما تنهض أو ينهض الشخص من مكانه، إلا إذا أراد الوصول إلى إبريق الشاي أو أنبوب المياه، وبالنسبة للتنزه على الأقدام، فالسبب البسيط هو أنه لا يوجد أي حيز مكاني ولا أحد يرغب بالقيام به.

في أحد الأماكن، تم تمثيل مأساة الحسين، فقد جلست حول مصباح (كون الوقت ظلامًا) حلقة مؤلفة من دزينة من الحجاج الفرس، الذين دار بينهم بسرعة إبريق الشاي، وقد جلس في أحد أطراف الحلقة على صندوق ليشد انتباه مشاهديه، شيعي وقور كبير السن وهو يروي بترانيم رتيبة قصة شهيدهم المبجل. لقد بدأ باطراد مطوّل رتيب، ثم فجأة تغيرت نبرته، وبعبارات عاطفية سريعة، دخل في عرض مسرحي تصويري لروايته. وعندما وصل إلى مرحلة معينة أعتقد أنها قتل الحسين، تداعى صوته وغاص في نبرة حزن لا يوصف، وفي نفس اللحظة، انفجر مستمعيه عن بكرة أبيهم بأنين ونشيج بكاء عميق. بعد ذلك، توقف الراوي ومسح بيده اليمنى عينيه مما يظهر أنها دموع حزن صادق. في مواطن معينة من الرواية، قد يرفع الفرس أيديهم وراحاتها إلى الأعلى، ويرددون بتوسل أسماء الله.

رسونا ليلاً في وسط النهر، ونمنا بعمق على أصوات نقيق الضفادع.

اتضح في هذا الوقت، أن هناك على الأقل احتمالاً بحصول مشكلة بسبب ثورة إحدى القبائل العربية التي نحن على وشك اجتياز أراضيها. أعطى الموظف المسؤول عن الباخرة أوامر إلى الدليل وموجّه الدفّة والموظف الخفر الذي يقفون على منصة ربان السفينة بأن يحموا أنفسهم ببالات الصوف في حالة نشوب أعمال عدائية محتملة. يعود

السـبب الـتاريخي لـهذا الاضـطراب إلى الآتـي: ألقـت السلطات التركية القبض على اثنين من أولاد الشيخ سعود بن منشد شيخ قبيلة المعدان العربية بسبب عدم دفعه للضرائب. تعتبر قبيلة المعدان العربية بطنًا من بطون قبيلة البومحمد الكبيرة التي تحتل جزءًا كبيرًا من البلاد على جانبي نهر دجلة بين العمارة ونهر الكارون. تعمل قبيلة المعدان العربية في تربية الجاموس ويقال ان عددهم حوالي اربعين الف نسمة. لقد حشد الشيخ، الذي لابد ان يتعاطف معه اي شخص لديه ادنى معرفة بالسياسة التركية، عددًا كبيرًا من الرجال المسلمين، من ضمنهم اربعمائة شخص تقريبًا يحملون بنادق مارتيني وصب جام غضبه في قطع الطريق والتسليب وغالبًا ما يكون حرق قوارب الحبوب ووسائط النقل الأخرى في النهر. لم يكتفي، الشيخ الغاضب، على نهج اسلافه، بحز رؤوس اعدائه، بل إنه اطلق النار واغرق إحدى البواخر التركية وهي في طريقها إلى البصرة. ولأنه لم يعترض حتى الآن القوارب الإنكليزية وليس لديه اي سبب لشن اعمال عدائية تجاه امتنا، من المحتمل ان نمر في أراضيه دون مشكلة. ولكنه في وضع مشابه قبل عدة سنوات أصيب احد ربان باخرة من بواخر شركة لنج في الصدر وجرح جرحًا بالغًا، لهذا فإن الاحتياط امر ضروري. كانت السلطات التركية بالطبع تسعى لإخماد هذه الاضطرابات وارسلت الحملات ضد الشيوخ المتمردين، إلا ان ما على الشيخ الماكر، الذي يعرف مداخل ومخارج مجموعات الأهوار الشاسعة ومستنقعات القصب التي تحاذي النهر، إلا التراجع مع قواته كجرذان الماء إلى معاقلهم، ولا تستطيع اي قوات في العالم ملاحقتهم، لهذا كان الأتراك في مازق حاد لا يستطيعون فعل شيء، ورغم المكافأة المعروضة لراس سعود، التي ستقوده دون شك عاجلاً ام آجلاً إلى المحاسبة، إلا انه لا امل ظاهر في الوقت الحالي للقبض على المتمرد، وبذلك تتم استعادة الهدوء.

في صباح اليوم التالي توقفنا في قرية قلعة صالح على الضفة اليسرى من النهر. وهنا صعدت على ظهر الباخرة مفرزة مكونة من عشرين جنديًا تركيًا كحراسة

لها، وهو شكل مشكوك فيه إلى حد ما من الحماية، لأنه من المحتمل اكثر ان يطلق سعود[1] النار على القوات التركية الموجودة على ظهر الباخرة مما لو كنا نبحر دونها. لقد جلبت القوات التركية معها تقارير تشير، لو كانت صحيحة تمامًا، كما لو ان التمرد ممتد على نحو خطير. يشير احد هذه التقارير إلى ان مجموعة من الجنود الأتراك قد تقدمت في اليوم الماضي، برفقة احد الشيوخ العرب الأصدقاء الذي يدعى يسر، مع مجموعة من رجاله وعبرت النهر، وهاجمت جماعة سعود في مكان ما على الضفة اليمنى. وقد قتل خمسون متمرد وخمسة عشر تركيًا. من الصعب معرفة مدى صحة ذلك ولم اسمع قط بما حدث فعلاً، ربما حصلت مناوشات معينة، وقتل بعض الأشخاص. على اية حال، من الواضح ان علينا ان لا نغفل حتى نجتاز هذه (القلعة الخطرة). وعندما غادرنا قلعة صالح، شاهدت ليس اقل من ثلاثين قاربا من القوارب المسماة البغلة وهي تسرع نحو الضفة على شكل صف. بعضها كان في اليوم السابق في العمارة، ولكن عند وصولها هنا، منعتها السلطات من التقدم. وإلى الجنوب من هذا المكان كانت الضفاف تعج بالمعدان العرب، الذين من المؤكد ان مظهرهم لا يثير الهلع في قلوبنا. معظمهم عراة تمامًا كما ولدتهم امهاتهم وآخرون يلفون حزقًا على رؤوسهم او طوقًا من القماش لا يلفونه حول عوراتهم بل حول صدورهم. بالنسبة للذكور، الرجال البالغون فقط هم الذين يرتدون ملابس بالكامل. كان الصبيان والفتيان يتسابقون بشكل محموم على طول الساحل لمسافة ميل تقريبًا، ويزداد السباق بصورة مستمرة بالقادمين الجدد، ولا يستطيعون مجاراة سير الباخرة في اي وقت. وفي مسافات معينة، يلقي الركاب نحوهم قطعًا من الخبز ويحصل المشهد الأكثر بدائية،

---

(١) لقد وجد السيد كيري الذي تنقل في النهر في نيسان عام ١٨٧٨م نفس القبيلة وهي منشغلة بتمرد مماثل إلا انه اقل حدة. وحسب ما يذكر كيري ان الشيخ فرصان متوحش لا يجب التسامح معه، لا اعرف إن كان هذا الرجل هو سعود او ان هذا هو جزء من قضية سعود، ولكن كقاعدة عامة في النزاعات بين الحكومة التركية والقبائل العربية، فإن الأخيرة تستحق العطف بينما تستحق الأولى ازدراء عقلاء الناس. (المؤلف).

حيث تنطلق نصف دزينة من الأشكال الانسيابية السمراء في الغوص في الماء في آن واحد، كسرب أسماك، ثم تحصل مخاشنة بينهم في النهر للحصول على الغنيمة. كنت اعتقد من خلال سلوكهم انهم لابد ان يكونوا في عوز شديد، إلا انني قد اخبرت ان الأطفال دائما يتصرفون هكذا عندما تمر الباخرة، وبعد ذلك مباشرة، وصلنا إلى حرم مقدس يدعى عبدالله بن علي، وهو ضريح صغير تقع قربه على ما يبدو انها تلال آثار قديمة. يُشاهد حول الضريح حشد من العرب وبايديهم رايات. يعتبر هذا المكان مقدسًا لدى العرب الذين يزرونه باستمرار ويدفنون فيه موتاهم مثل كربلاء، رغم اني لم استطع معرفة تاريخه.

وبعد اجتيازنا لهذا، وصلنا إلى الانعطافة الحادة في النهر حيث تكون إدارة الدفة ضرورية كون النهر ضيقًا والتيار سريعًا. كانت الباخرة تبدو وكانها تتمايل على محور ثابت عندما استدرنا مرتين في انعطافات منحنية، كانت مؤخرة الباخرة قريبة من الضفة بحيث أن المرء يستطيع بسهولة القفز إلى الساحل.

عند الساعة التاسعة والربع، وصلنا إلى ضريح عزرا المسمى من قبل العرب العزير، وهو يقع على نحو جميل على الضفة اليمنى وسط اشجار النخيل. قبل وصولنا إلى هذا المكان، كان بمقدورنا رؤيته في الناحية اليمنى في ارض مفتوحة بعيدة عن النهر الذي ينحني هنا بشكل حاد ويمر بالقرب منه الضريح. يعتبر هذا المكان بحسب الروايات اليهودية محل وفاة عزرا الكاتب وهو في طريقه من القدس إلى سوسة، مكانا مقدسًا لحج اليهود. يقول بنيامين التودولي: "يقع ضريح عزرا القديس والكاتب في هذا المكان، حيث توفي هنا وهو في طريق رحلته من القدس إلى الملك أروشير الفارسي. ينتصب امام الضريح كنيس كبير وجامع إسلامي، ويشير الأخير إلى التبجيل الذي يكنه المسلمون نحو عزرا، وهم ودودون للغاية مع اليهود، ويترددون على هذا المكان

للصلاة". توجد الآن قبة زرقاء جميلة وهناك بيتان كبيران حديثان مواجهان للنهر لاستقبال الزوار، إلا انه لا توجد حاليًا اية علاقة لآثار قديمة، ويرى لابارد ان الموقع الحقيقي قد جرفه النهر"[1].

يزور الحجاج اليهود هذا المكان باعداد كبيرة تبلغ حوالي أربعة إلى خمسة آلاف شخص سنويًا، إلا انه لا يوجد اي منهم هذا العام بسبب الاضطرابات من جانب العرب. ولأن الباخرة لم تتوقف إلا لدقيقتين، لم تسنح لي الفرصة في النزول كما كنت أود. كان هناك حشدًا من الجنود الأتراك وهم يقفون امام المبنى ويرسو قارب مدفعية تركي صغير في النهر، حيث تم إرساله لتقديم المساعدة الممكنة.

عند وقت الإفطار، ابلغنا باننا اجتزنا المكان الوحيد الذي يحتمل مواجهة الأخطار فيه. إلا انه بعد ذلك مباشرة، حصل ذعر لا مبرر له. كنت اتطلع في بعض الكتب في إحدى حجرات الباخرة، عندما سمعت فجاة صوت إطلاق نار. استمر الإطلاق متواصلاً، انطلقت بسرعة خارجًا نحو المنصة معتقدًا تمامًا اننا نتعرض لإطلاق نار وانني على وشك رؤية معركة حربية حقيقية صغيرة. ولكن لدهشتي انني قد وجدت الجنود الأتراك منشغلين في مهمة سلمية بإطلاق النار على خنزير بري كان يعدو بين القصب على الضفة الغربية من النهر. ولحسن الحظ، لم يكونوا رماة جيدين ونجا الخنزير المسكين من الأذى.

كانت الأهوار التي نمر عبرها مليئة بالقصب، والقليل منها يبدو ارتفاعه اكثر من ثلاثة اقدام. كما انني استطيع ان ارى من خلال نظاراتي بعيدًا عن النهر نبات طويل هو شيء اشبه بالبردي. يزخر المكان ايضًا بطيور من انواع مختلفة بما فيها

---

(١) انظر "الرحلات الأولى في بلاد فارس"، المجلد II، ص٢١٥، (المؤلف).

الغـربان والبجع والـرخاريف وطـيور الشـنقب. كـمـا تـوجـد بكثـرة طيـور مالك الحزين، وانواع من طيور بيضاء لم يسبق ان عرفتها.

عـنـد منتصف الـنهار وصـلنا إلى القـرنة حيـث يلـتقي اخـيرًا دجـلـة والفـرات بعـد جـريان طـويـل مـن بحيرة وآن ليجريا معًا في نهر واسع كـبير ويصبا في البحر. حيث تقع قـرية القـرنة، وهـي لا يمكـن ان تكـون سـوى قـريـة، في بقعـة ضـيقة مـن الأرض، وسـط بساتين النخيل المثمرة. يثير المكان شيئًا من المتعة بسبب الرواية المحلية بانه يمثل موقع جـنـة عـدن. مـن المؤكـد انـه مكان ساحر، وهو يضفي على نفسه هالة من الرومانسية. لم يكـن مـاء الفـرات عـنـدما يلـتقي بدجـلـة مضـطربًا، كـمـا كـنت اراه دائمًا لأن مياهه تتـبدد قـبل أميال قليلة من وصولـه للقرنة في الأهوار، تبعد القرنـة حوالي خمسين ميلاً شمـال البصـرة حيـث تطير الغـربان، وضعف هـذه المسافة مـن البحر. كان يقف هناك عندما مررنا قارب مدفعية تركي.

يشكّل شـط العـرب المـمتد بـين القـرنـة والبصـرة نهـرًا عظـيمًا يـتراوح اتساعه بين مائـتين وخمسين إلى ثلاثمائة ياردة وبعمق عشرة إلى خمسة عشرة قامة[1]. وعلى طول هـذه المسافة تنتشـر بساتين النخـيل بعضـها طويـلاً وضـخمًا واخـرى مـزروعة حديـثًا. تعتـبر تمـور هـذه المنطقة مـن أصـنـاف ممـتازة جـدًا وتعتـبر زراعـة النخـيل إحدى المهن المتيسرة هناك. تزرع هنا تشكيلة متنوعة من الأصناف ويؤكـد العرب ان هناك اربعين أو حـتى سـبعين نـوع مميز، تصدر كـميات كـبيرة من التمور سنويًا إلى اوروبا وامريكا. تشاهد ايضًا عـلى ضـفة الـنهر شـبـاك الأسمـاك المكونـة من طـوق شبه دائري من عيدان القصـب الواقـفـة، تدخـل السـمكة إلى هـذه الشـباك عـنـد ارتفـاع المـد وعـنـد انحسـاره لا تستطيع السـمكة الإفـلات. ومـن الجـديـر بالذكـر ان المد يصـل إلى موقـع ضـريح عزرا.

(١) تساوي القامة (٦) أقدام. (المترجم).

ويمكن مشاهدة احيانا طوف من القصب مصنوع على شكل قارب كبير الحجم، وهو يطفو متجهًا نحو الجنوب إلى البصرة بفعل انحسار المد. يُستخدم القصب بشكل رئيسي في صناعة الحصران التي سبق ان شاهدتها تستخدم في المساكن العربية.

وصلنا إلى البصرة مساء يوم ٢٢ نيسان، وفي هذه اللحظة انتهت رحلتي في البلاد التركية. كانت لدي فكرة ان اسافر برفقة سي بواسطة الخط الملاحي في نهر الكارون المفتتح حديثا لنصل لغاية شوستر، إلا انه اتضح أن تلك فكرة غير ملائمة، لأن بواخر شركة لنج قد توقفت مؤقتا وحل محلها لنج متداع. ولأن هذا المركب سوف لن يبدا الرحيل حتى منتصف الأسبوع القادم، وليس فيه اي شكل من اشكال وسائل الراحة للركاب، قررت ان اذهب في الحال على ظهر الباخرة البريطانية الهندية (سملا) التي كانت راسية في النهر والتي سوف تبحر في صباح يوم ٢٤ من الشهر. يعتبر ميناء البصرة، وهو ميناء حديث التكوين، (لأن المدينة نفسها تبعد مسافة معينة عن النهر، وتقع على نهير إلى الشمال)، مزيجًا غريبًا من الشرق والغرب. تقع القنصلية البريطانية وواحد او اثنان من المباني التجارية للشركات الإنكليزية والباخرة سملا ومقابلها باخرة فارسية وباخرة تركية ضخمة، جميعها تقع على جانب واحد من النهر، كان هناك قارب مدفعية إنكليزي جميل يدعى (برسك) وآخر تركي قذر، وعدد من البواخر النهرية، كلها تمثل الحضارة الأوروبية، بينما كانت هناك حشودا من العرب والفرس والزنوج والبلام الشبيهة بالأفعى ومجموعة من قوارب البغلة، كلها تمثل الشرق القديم. كانت البلام التي سبق ان شاهدتها في العمارة، تتنقل على النهر في كل الأنحاء، كزوارق البندقية، يقود كل واحد منها رجلان يستخدمان عصي طويلة (مردي) او مجاذيف حسبما تتطلب الضرورة. كان هناك العديد منها قرب الساحل بحيث انك لا تستطيع أن تتقدم لمائة ياردة فقط دون ان تصادم نصف دزينة منها، ولا يشغل اصحاب القارب أو الركاب أنفسهم في الحذر من هذه المصادمات، ولكن على القادم الجديد الغافل

أن ينتـبه لنفسـه، وإلا فإنـه سـيتلقى ضـربة رمـح في العـين بواسـطة مـردي الخـيزران الطويل.

قمت مع سي بزيارة المقيم البريطاني الميجر جيننكز، حيث قابلت في منزله أيضا وكيل شركة البواخر البريطانية الهندية. قال الأخير ان انتفاضة العرب هي أكبر معضلة حصلت خلال السنوات الخمس الأخيرة. لقد تم إعلان مكافأة لراس سعود، وعاجلاً أم آجلاً سيقتل. لقد توقفت مؤقتا جميع وسائل النقل النهري حاليًا، وهذا يعني خسارة كبيرة للشركة. لقد اراني عدة قوارب محلية مدمرة ومفككة جاءت طافية مع تيار النهر من مسرح الاضطرابات.

نهضنا في الصباح التالي مبكرين، واستاجرنا بلمًا لزيارة مدينة البصرة نفسها التي تقع على مسافة ميلين من النهر، على راس جدول ضيق او قناة. كان الجو في تلك الساعة المبكرة منعشا وبهيجًا ولا يمكن تصور شيء اكثر متعة من تلك الرحلة الصباحية المبكرة. دخلنا إلى هذا الجدول الذي يجري بين البيوت، ثم دخلنا إلى مشهد ساحر لأشجار النخيل. إنها بندقية الشرق. كانت البلام الزاهية تتنقل من وإلى كل جانب من النهر، وهي مسقفة بمظلات مبهرجة ويقودها نوتية سمر. ولا يثير تصادم احدها مع الآخر كل دقيقة أي اهتمام، والواقع انها تضيف شيئا من المتعة على الرحلة. كانت تظلل القناة على طول المسافة أشجار النخيل، وكانت الضفاف معززة في بعض الأماكن بجذوع أشجار النخيل او بالآجر حيث تعج بالسلطعون الصغير. وفي غضون نصف ساعة وصلنا إلى راس الجدول الذي تقع حوله عدة بيوت، ثم تمشينا برفقة أحد نوتية القارب داخل المدينة. شاهدنا سوقًا من المرتبة الثانية طويلاً مسقفًا بالحبال ومكتظًا بالبضائع الإنكليزية، ودائرة تلغراف، حيث حاولت الإبراق من خلالها، إلا انني لم استطع كون موظفيه لا زالوا نيامًا. كنت أتصور انني رأيت في بغداد أدنى

مراتـب الانحطـاط الـذي وصلت إليه مدينة عظيمة، ولكن مـن الواضح أنني كنت مخطئا. اين بصرة الخلافة الثرية العظيمة؟ لقد اوصلت الحروب والأمراض وتغير طرق التجارة المدينة إلى ما هي عليه الآن، مع ذلك يؤكد بعض الكُتاب انها الآن في طور الازدهار.

شاهدت بين كلاب المدينة، بعضا منها مختلف تماما عن كلاب السوق الاعتيادية، وهي تشبه كلاب حراسة الأغنام الإنكليزية الكثيفة الشعر. اعتقد انها فارسية حقا. إلا ان اشد ما اثار انتباهي في البصرة هو الآتي: للمرة الأولى منذ نزولي في الإسكندرون لاحظت ان كل فرد تقريبا في البصرة يعرف ان يتحدث شيئا بسيطا باللغة الإنكليزية. فنوتية البلام يتحدثون مع ربانية البواخر بإنكليزية مبسطة، وموظف التلغراف وصاحب الحانوت يعرفون كلمة او كلمتين باللغة الإنكليزية. كيف حصل هذا؟ لم تغزو البصرة كالإسكندرية او بيروت خلال فصول معينة من السنة حشود من السياح الناطقين بالإنكليزية. إلا ان حقيقة الأمر هي ان الإنكليزية في البصرة وموانئ الخليج هي كالفرنسية في شمال سوريا وهذا لا يعود بالطبع إلى الإنكليزية ذاتها بل إلى النفوذ الإنكلو - هندي. فالبواخر النهرية لشركة لنج والقارب الأسبوعي البريطاني - الهندي إضافة إلى مصلحة البريد الإنكلو - هندية، التي تنقل البريد بين بغداد وبومبي، جميعها تساهم في عرض الإنكليزية امام انظار الأهالي. رغم ان في الأراضي التركية، تفضل العملة الفارسية والهندية كثيرا في الأسواق على العملة التركية، وان عددا من البيزات الصغيرة التي جلبتها معي من حلب، والتي تعتبر مرغوبة جدا في بغداد بحيث انني استطيع بيعها بفائدة، قد ابلغت هنا انها عديمة القيمة، وكنت ساضطر للاحتفاظ بها لولا ان الوكيل البريطاني الهندي قد اخذها متفضلاً من بين يدي.

وقـد حـدث في البصرة حادث خطير قبل يوم أو يومين من وصولي، يبين بوضوح كما الثورة العربية، سوء الإدارة التركية في هذه الأنحاء. فقد حطم بعض المحتجزين في السجن الذين يبلغ عددهم اكثر من عشرين، جميعهم متهمون إما بالقتل او السرقة مع القتل، سور سجنهم وكتفوا حراسهم وخفراءهم ظهرًا على ظهر ثم خاضوا وسبحوا في القناة وهم مكبلين بالحديد الثقيل وهربوا إلى العراء. قتل ثلاثة برصاص الشرطة أو الجنود، ويفترض بشكل عام أن الباقي لا يزالون في الأراضي المجاورة للبصرة عندما كنت هناك.

تأسست المدينة الحالية من قبل الخليفة الثاني عمر في القرن السابع. وبذلك فإنها تسبق بغداد كمدينة عربية، إلا انه كانت توجد مدينة قديمة في موقع مدينة الزبير الحالية[1] أو البصرة القديمة، التي تبعد اميالاً قليلة نحو الغرب، وتقع على قناة يفترض انها المصب القديم للفرات المسمى (بالاكوباس) (Pallacopas). لابد ان يكون هنا بحكم الضرورة منذ زمن سحيق ميناء حيث تنقل عبره جميع بضائع الشرق التجارية إلى بابل وسلوقية في الأزمان السالفة وإلى طيسفون والكوفة وبغداد في الأزمنة اللاحقة، لقد كانت هذه التجارة هي التي اعطت بصرة القرون الوسيطة اهميتها هذه وكما يقول لابارد أن اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح هو الذي حطم تجارتها. في زمن راولف عام (١٥٧٤م)، كان هناك بريدًا بالحمام الزاجل بين بغداد والبصرة لأغراض تجارية. وقد اسست شركة الهند الشرقية مركزًا لها في البصرة في عام ١٧٢٨ م. وكباقي مدن السهل البابلي، توجد في البصرة اعداد من اليهود الذين يقول الحاخام بنيامين ان عددهم كان إبان رحلته الفان تقريبًا. رغم ان البصرة القديمة تمر في طور السبات، إلا انه ليس من المستحيل أن تنهض بصرة جديدة على انقاضها. كتب

(١) لابد ان تكون مدينة الزبير على اسم عبدالله. (المؤلف).

الـرحالة بكـنكهام: "يقـال ان الـتجارة قـد ازدادت خـلال العشـر سـنوات الأخـيرة مـن مركبـتين سـنويًا إلى ست مراكـب تحمـل العـلم الـبريطاني، إضافة إلى المراكب التي تـبحر تحت الأعـلام العربـية". يصـف لابـارد كـيف انـه قـبل خمسين سنة رسى تاجر إنكليزي مـع بضـاعته مـن اقمشـة مانشستر في وقـت مـن الأوقـات في البصـرة، إلا أنه قد وجـد صـعوبة في إيجـاد بضـاعة مقابلـة. وبعـد عشـرين سـنة تقريـبًا، كانـت تصـل إلى البصـرة باخـرة مـن بومبي كل ستة اسابيع، وفي الوقت الحالي هناك خط نقل أسبوعي إلى الميـناء الأخـير، وهـناك خـط يجـري بصـورة منـتظمة إلا انـه اقـل تكـرارًا إلى أوروبـا. وهناك ايضًا خط نقل فارسي بين البصرة والـهند.

إن الـرحلات الرومانسـية للسـندباد البحري هي اشياء من الماضي ويستطيع التاجر الآن ان يـنطلق مـن البصـرة إلى الهـند او سـرنديب في باخـرة بريطانـية هـندية رحـبة ومجهـزة جيدًا بوسـائل الـراحة والـتي لا يحـتاج فـيها إلى الخـوف مـن طائر الرخ العملاق والانـتقامي او مـن الأخطـار الأخـرى الـتي كـان السـندباد يواجهها ويتغلـب عليها بتلك الطريقة العجيبة[1].

للبصـرة ايضًـا حصـتها مـن الـنزاعات والمصـاعب. فقـد اسـتولى العـرب والأتـراك والزنجباريون والفـرس والعمّانـيون كـل بـدوره عـلى المديـنة وفقدوهـا. في عـام ١٧٧٧م، صـمدت امـام الفـرس لثمانـية اشهر، ورغـم انهـا دُحـرت، إلا ان الأتـراك قد استعادوها في السـنة التالـية. في عام ١٧٨٧م، استولى عليها من نيسان لغاية تشرين الأول شيخ عربي من قـبيلة المنـتفق الـذي وضع الباب العالي نهاية مفاجئة لحكمه القصير. حصلت ايضًا حالة

---

(١) انظر للملحق رقم (٨)، قصة رومانسية من الخليج العربي، (المؤلف).

مشابهة في البصرة قبل وقت قصير من بعثة الفرات عندما استولى شيخ الزبير مؤقتا على مقاليد الحكم في المدينة.

تقع غرب شط العرب وعند نقطة شمال القرية على الفرات إلى جنوب البصرة، وعلى مسافة ليست ببعيدة عن النهر، مجموعة طولية من الأهوار، تفصل وادي النهر عن الصحراء العربية. يبدو ان هذه الأهوار قد تشكلت من المياه الفائضة للفرات الذي تنفجر ضفافه في وقت الربيع شمال القرنة محاولة مياهه ان تشق طريقها إلى البحر عبر قناة اخرى هي نهر صلاح (ربما يكون بالاكوباس Pallacopas) الذي يصب امام مدينة الزبير او البصرة القديمة. إن هذه الأهوار هي التي تعطي البصرة سمعتها في تفشي الحمى وانعدام الظروف الصحية، وهي سمعة لا تحملها ظلمًا. في نفس الوقت، اكدوا لي بثقة أن المدينة أكثر حمية مما كانت عليه سابقًا وهذا ربما يعود إلى استصلاح بعض الأراضي المحيطة بها. من المحتمل ان مياه الفرات في السابق بسبب تفرعه إلى عدد لا حصر له من القنوات وإيجاده ايضًا منفذًا ثانيًا إلى البحر عبر نهر صلاح (الذي ربما لا يؤدي عمله بشكل كفء هذه الأيام)[1] لم تكن تغرق البلاد كما هو الأمر حاليًا، ونتيجة لذلك كانت البلاد أكثر صحية مما هي الآن. إضافة إلى لعنة حمى الأهوار، تتفشى حبة العمر هنا كما في بغداد. يعاني الأهالي هنا أيضًا بشدة من الحصى وهذا ربما يعود إلى شرب المياه المالحة.

*　　　*　　　*

(١) يبين اينسورث الذي زار الزبير ان عرض نهر سعده او صلاح هو اربعين قدمًا، (المؤلف).

الفصل السادس عشر

الخليج العربي

المحمرة - الصناعة المحلية - صيد الأسماك - الشوستريون - التاريخ - الفاو - عبور العقبة - الخليج العربي - قرصنة - المناخ - الرياح - الصحة - بوشهر - سوق وإيتلي بنمط فارسي - وصف المدينة - لعبة القلي - الوصول للبحرين - المياه العذبة لحت البحر - صيد اللؤلؤ

بعد الساعة الخامسة مباشرة من يوم ٢٤ نيسان، كنا نبحر جنوبًا باتجاه البحر. وعند حوالي الساعة السابعة والنصف وصلنا قبالة مصب نهر الكارون. ينتصب على الضفة الشمالية من بيت حديث، هو مقر إقامة الشيخ مزعل وهو ما يسمى بشيخ المحمرة المستقل، وهو شخصية جذابة إلى حد ما، وعندما اجتزنا ذلك، اطلقنا قذيفة مدفعية كتحية له حيث اجيب علينا بمثلها ولكن بشيء من التاخير. قبل بضعة سنوات هاجم العرب باخرة بريطانية هندية، لهذا تؤدي مراكب هذا الخط التحية دائمًا كمقابل لتدخل الشيخ في الوقت المناسب. توقفنا مقابل مصب هذا النصر او بالأحرى القناة لأن هذه الفتحة مصطنعة، ولأن ربان السفينة قال ان لدينا مزيدًا من الوقت، طاطات راسي ودخلت في احد الأبلام وجنفنا باتجاه المحمرة التي تقع على بعد ميل عن شط العرب على الضفة اليمنى من الكارون. كانت بعض الزوارق الطويلة التي

شاهدتها في مدخل القناة هي زوارق من أغصان أشجار حقيقية، جاءت من بلاد فارس أو كما يقال أنها تصل إلى هنا بين فترة وأخرى وهي تبحر بمحاذاة الساحل قادمة من بومبي. إن هذه الأبلام مصنوعة من حزم من العيدان المتشابكة التي تشبه بدقة التصاميم السلتية التي نشاهدها على كوكبة صلبان كمبرلاند. كما تشاهد مراكب شراعية غريبة الشكل تمامًا، بعضها ذات مقفرة مرتفعة كسفينة إنكليزية قديمة. تصنع في المحمرة بعض من هذه الصناعات المحلية. تمارس مهنة صيد السمك بشكل واسع هنا بعضها بشكل منفرد وبعض منها مشترك وهناك أسماك تدعى (العنبر) وهي مفردة عربية تحمل نوعًا من التهكم كون السمكة رغم أنها لذيذة إلا أنها مكتظة بالعظام بشكل استثنائي، ويعتبر استخدم الشبكة الكبيرة هو الأمر المعتاد أكثر، إلا أنه تستخدم أيضًا شباك الصيد الصغيرة. وفي الصيف، تشاهد أسماك القرش بكثرة في مدخل الكارون وكثيرًا ما تتكرر حوادث عنه. وتتواجد هذه الأسماك صعودًا في دجلة حتى تصل العمارة. ومقابل المدينة شاهدت هيكل باخرة تجذيف قديمة تعود إلى أحد الشيوخ المتأخرين. كان هذا الهيكل خارج الماء وصدئ ويقبع على الضفة وهو بشكل تناقضًا غريبًا مع ما يحيطه ويعيد إلى الذهن مناظر مماثلة عند مصب نهر التايمز الإنكليزي.

توجد بساتين جميلة تمتد على طول الضفة الشمالية حتى تصل المحمرة، إلا أن المدينة نفسها تعتبر مكانا بائسا. فهي مبنية من الطين والآجر قذرة ومتسخة ونصف مهدمة وأسواقها ضيقة ومجهزة تقريبًا بالأسلحة فقط، ولا يبدو عليها علامة واحدة للترميم. ورغم أن المنطقة هي فارسية في الوقت الحالي، إلا أن سكانها هم بشكل رئيسي من العرب. يشاهد أيضًا عدد كبير من الزنوج وهناك بعض الشوستريين[1] وهم قوم

(١) انظر كرزن «بلاد فارس والمسألة الفارسية». (المؤلف).

غناث ذوي انوف كبيرة. لقد اعطيت تقييمات مختلفة لشخصية هؤلاء الناس. وجدهم لايارد انهم قوم اهل كرم ورحمة ولكن عند افتتاح نهر الكارون للملاحة النهرية، كان لربابنة شركة لنج مشاكل كبيرة معهم. على اية حال، يبدو ان لهم صيتا سيئا بإفراط على شط العرب. تقول الروايات، انه عندما خلق الله كل شيء وجد انه لابد من خلق مزيد من الرجال. لهذا اخذ دم كلب ودم يهودي وخلق من هذا المزيج الشرّ الشوستريين.

إن المصب الطبيعي والقديم لنهر الكارون هو في قناة بهمشير التي تجري بشكل متوازي مع شط العرب من المحمرة ثم تصب في البحر في نقطة شرق الفاو. لا يزال هذا المصب صالحًا للملاحة، إلا ان قناة الحفّار التي تربط الكارون بشط العرب تأخذ مقدارًا كبيرًا من المياه. من اللافت للنظر ان مياه نهر الكارون هي غالبًا ذات لون احمر خفيف.

يعتبر تاريخ المحمرة تاريخًا فريدًا. لقد ظهرت على او قرب الموقع الذي نقف فيه الآن مدن تدعى الإسكندرية وإنطاكية وشرش واستراباد[1]. نشأت المدينة الحالية الواقعة على خط الحدود بين تركيا وبلاد فارس، في عام ١٨١٢م، على يدي شيخ قبيلة المحيسن العربية وهي بطن من بطون قبيلة كعب الكبيرة. لقد اصبح هذا المكان الذي يطلق عليه إينسورث "سبب النزاع" بين الدولتين، حتى تم الاتفاق على عائديته إلى الفرس في اتفاقية الحدود. قام الأتراك بغزو وسلب المدينة في عام ١٨٣٧م، وقصفتها الحملة الإنكلو - هندية بقذائف مدافع المورتر المثبتة على اطواف طافية، حيث اندحرت الحامية الفارسية بسرعة. وقد حكم المكان عدد من الشيوخ العرب، تحت الحماية التركية، والحاكم الحالي هو الشيخ مزعل خان من قبيلة المحيسن ورئيس قبيلة كعب العربية، وهو يمارس السلطة حاليًا. يدّعي هذا الشيخ العربي الاستقلال

(١) شوستر هي مدينة الشوش الإيرانية المعروفة. (المترجم).

وان لـه الولايـة علـى منطقة كـبيرة شـرق المحمـرة. وهـو يقـوم بـدفـع إتـاوة سنوية إلى الحكومـة ويفـرض بنفسـه ضـرائب عـلى رعـايـاه. وهـو يشـعر بخـوف شـديـد مـن الأولى، ويقـال انها قد قامت باكثر من محاولة لقتلـه. إن وضعه يبدو شاذا نوعًا ما، إذ رغم انه يتمتع بالولايـة تحت حكـم الفـرس، إلا انه يؤكـد في نفس الوقت، استقلال قبيلته التي تسـكن المحمـرة. كمـا يرغـب الفـرس، الذيـن قـامـوا بتعيينـه كحـاكـم، في إبعـاده عـن طـريقهم بهـدوء، رغـم انهـم في وضـع لا يؤهلـهـم لاستبـدالـه في الوقـت الحـالي بحـاكـم جديد. ربما يكون آخر شيخ مستقل للمحمرة. هنـاك صورة لـه في كـتاب السيـد كـرزن "بـلاد فـارس والمسالة الفارسية"، حيث يظهـر فيها بانـه عـربي محـترم وسيـم ذو وجـه يوحـي بالـذكـاء وقـوة الشخصيـة. لـلمحمرة شهرة سيئة بانعدام الظروف الصحية فيها رغـم انـه مـن المحتمل انهـا ليست اكـثر من موانئ الخليج الأخرى. يقال ان المستنقعات تنتشـر حولـهـا، إلا ان بسـاتين النخـيل لا تمتـد إلى مسـافة بعـيدة شمـال الكـارون. يمكـن ممارسة لعبة جميلة فيصيد اسد او ايل اسمر في الرحلة إلى شوستر.

رغم بؤس المدينة الحالية، إلا ان موقعها ذو اهمية عظيمة، فهي تشـرف عـلى مياه انهـار الفـرات ودجلة والكارون الفارسي، ولابد ان مستقبلاً عظيمًا امامها. ولأنـه قد جرت الكـتابة مؤخـرًا بشـكل واسع عـن الطـريق الـتجاري الجديـد لـنهر الكـارون، لا ارى مـن الضـروري تـنـاول هـذا الموضـوع هنا. لقد تم افتتاح هذا الطريق للتجارة عام ١٨٨٨م، وقد وضعت شـركـة لـنـج وشـركـة بواخـر الخليـج وبومـبي بواخـر عـلى هـذا الطريق. وقد تخلت الأخيرة عـن هـذا العمـل باعتـبـاره خاسـرًا، إلا ان الأولى، رغـم انهـا لا تزال تحتفظ بـنـوع مـن خدمـة الـنقل في هـذا الـنهر، تفعـل ذلـك بما قد يعتبر انـه خسارة محققة. لقد استبدلت إحدى بواخرها الكبيرة بباخرة ذات عجلة تجذيف في مؤخـرتها كـانت عاملة في نهـر الـنيل. وعنـدما كـانت هناك، جرى ربط الأهواز بلنـج تجاري صغير. من المحتمل ان يقف العناد الفارسي لبعض الوقت في طريق اي تطور ناجح للتجارة.

كان النهر الممتد بين البصرة والبحر مملاً وخاليًا من المناظر الجميلة. فالضفات مستوية ومزروعة بشكل متواصل باشجار النخيل. إلا انه عميق وواسع وصالح لسير السفن من اي حجم عندما تجتاز العقبة في المصب. عند فترة بعد الظهر وصلنا الفاو وهي عبارة عن ثكنة صغيرة ودائرة جمارك ودار للحجر الصحي ومراكز تركية وهندو اوروبية للتلغراف. هناك ايضا عمودا يحمل ضوءًا في راسه وسارية علم. قام احد الركاب وهو طبيب إنكليزي غادر تركيا في طريقه إلى الهند، بالنزول إلى الساحل وعاد بتذكار في شكل علم للحكومة التركية، حيث قام بإنزاله عن قصد تحت انظار السلطات التركية ووضعه في جيبه كتذكار من هذه البلاد. وبعد ساعة، ابتعدنا عن البر، وارتطمنا بالعقبة الكبيرة التي تغلق مدخل النهر. وعند النظر إلى جانب المركب، يبدو كانه ساكنا لا يتحرك، رغم ان الرفاص يتحرك باقصى سرعته. إلا اننا كنا على اية حال نسير ببطء. وبعد ساعتين تمكنا من عبور العقبة، حيث شققنا طريقنا عبر وحل طري. يحصل هذا باستمرار لأن هناك ثمانية عشر او عشرين قدمًا فقط من المياه فوق هذه العقبة في حالة المد العالي، وعند الجزر يبلغ عمق الماء نصف هذا القدر. كانت ريح الشمال القوية "وهي ريح شمالية غربية" تهب في هذا الوقت، وربما ساعدتنا قليلاً، إلا انها جعلت اول تجربة لنا في الخليج شيئا كالمفاجاة، لأنه حالما خرجنا، فإن الرياح اصبحت باردة للغاية بحيث اننا لم نندم على جلب معاطفنا.

ربما يكون الخليج العربي الواقع بين خط عرض ٣٠° شمالاً و٢٤° شمالاً، فيما يخص شأنه التاريخي واهميته التجارية المستقبلية، غير معروف كثيرًا لدى الإنكليزي الاعتيادي من اي بحر آخر بنفس الحجم ونفس صلاحية المرور. وهذا يعود بالطبع إلى عدة اسباب وجيهة. فمناخه لا يتحمله الأوروبيون تقريبًا باستثناء مواسم معينة، رغم انه لا يقال انه يؤدي إلى مكان غير معلوم، إلا ان الأماكن التي يؤدي إليها الخليج غير مجهزة بوسائل الراحة المناسبة لرحلة اوروبية، بحيث ان السائح الاعتيادي يحاول

تجنبها وبذلك يفلت من الوقوع في شرك التخلف والتعصب الشقي كون التجارة حتى هذا الوقت لم تستطع خلق تطور كبير في المراكز السكانية.

شكل الخليج مستطيل غير منتظم ويمتد بشكل مائل بالاتجاه الجنوبي الشرقي من شط العرب إلى مضيق هرمز، حيث يبرز راس مسندم من الساحل العربي بشكل حاد باتجاه الشمال ليشكل النقطة الجنوبية للخليج. وجنوب هذا يتسع خليج عمان بشدة نحو البحر العربي، طول الخليج العربي حوالي خمسمائة واربعون ميلاً، إلا ان المسافة الكلية التي تبحرها البواخر البريطانية الهندية من بومبي إلى البصرة تقارب ألفي ميل. تقع على الساحل الشرقي منه ولايات عربستان وفارستان وباقي الولايات الفارسية الأخرى حتى كفيتر حيث تأتي بلوشستان وتمتد لتصل إلى الأراضي الإنكلو - هندية في كراجي. بينما يحتل الجانب الشرقي[1] بشكل تام الجزيرة العربية، التي تخضع أجزاء منها اسميًا إلى الحكومة التركية. وحقيقة الأمر ان الرخاء الذي يتمتع به الخليج يعود إلى النفوذ البريطاني.

في القرن الرابع قبل الميلاد، قاد نيرخوس، امير البحر في جيش الإسكندر، الأسطول المقدوني من جزر الأنديس إلى دجلة بغية دعم سيده الذي زحف عبر بلوشستان وجنوب فارس بعد حملته الهندية. في القرن السادس عشر، احرز البرتغاليون تفوقًا تجاريًا ظل قائمًا لمدة مائة عام.

لقد وصلت القرصنة في الخليج العربي إلى نهايتها عمليًا ويعود الفضل في ذلك إلى القوة البريطانية التي مارست دورها في الجزء الأول من هذا القرن. ولأن القراصنة يقيمون في الساحل الغربي من الخليج لم تكن التجارة المستقرة ممكنة طالما استمرت اعمال السلب. واعتبارًا من عام ١٨٠٥م ولغاية عام ١٨٢٥م تم تنفيذ اعمال التهدئة في الخليج، إلا انه لم يعم السلام حتى توقيع معاهدات عام ١٨٣٥م وعام ١٨٥٣م، حيث اصبح

(١) الصحيح هو الجانب الغربي، (المترجم).

الخليج آمنا فعلاً. يمكن معرفة الحجم الكبير الذي يمارس فيه هؤلاء القراصنة تجارتهم من خلال معرفة حقيقة ان عدد اسطولهم في عام ١٨٠٩م بلغ ثلاثة وستين سفينة كبيرة وثمانمائة مركب صغير، يعمل عليها تسعة عشر الف رجل.

تتم التجارة المحلية حاليًا بواسطة قوارب البغلة التي تتنقل بين الخليج والساحل الإفريقي والبحر الأحمر والهند. تختلف حمولة هذه المراكب من مائة إلى ثلاثمائة طن وهي مجهزة بشكل عام بصاري رئيسي وشراع مثلث الشكل وشراع آخر مثلث منصوب على الصاري الأقرب في مؤخرة المركب. تتطلب هذه المراكب تبعًا لحجمها طاقمًا كبيرًا، ورغم أنهم بحارة ممتازون في الرياح الاعتيادية إلا انهم غير قادرين على الإبحار بمواجهة الريح.

تم اقتباس الملاحظات التالية عن درجات الحرارة والرياح في الخليج من "دليل الخليج العربي" الذي نشر بتوجيه من المفوضين اللوردات في الإميرالية البريطانية عام ١٨٧٠م، والذي أعاره لي مشكورًا ربان الباخرة سملا.

تم قياس درجات الحرارة بالفهرنهايت على ظهر الباخرة وهي تمثل معدلها لأكثر من اربع سنوات، اما على الساحل، فمستوى درجات الحرارة يكون كبيرًا.

الشهر	المعدل كاقصى حد في الرابعة بعد الظهر	المعدل كادنى حد في الرابعة صباحًا	الشهر	المعدل كاقصى حد في الرابعة بعد الظهر	المعدل كادنى حد في الرابعة صباحًا
كانون الثاني	69	65	تموز	91. ½	89
شباط	67	63	اب	94	89
اذار	75	69. ½	ايلول	90	83. ½
نيسان	80.½	75	تشرين الاول	85. ½	81
مايس	85	81	تشرين الثاني	80. ½	76
حزيران	89.½	85	كانون الاول	74	70

ورغم ان هذه تمثل حالة مريحة جميلة للحياة في البحر، إلا انه لابد ان تكون الحرارة على الساحل وفي المدة المكتظة اكثر قساوة. إن التقييم الممتع الذي كتبه كاتب القرن الخامس عشر عبدالرزاق، والذي اقتبسه السيد كرزن في كتابه "بلاد فارس والمسالة الفارسية"، مثيرًا للضحك بشدة بحيث انه يستحق ان نعيد اقتباسه. وهذا يشير إلى طقس مسقط:

"إن الحرارة مرتفعة جدًا بحيث انها تحرق نخاع العظام، يذوب السيف في غمده كالشمع وتتحول الجواهر التي تزين قبضة الخنجر إلى فحم. وفي البراري يصبح الصيد في غاية السهولة، لأن الصحراء تكون مليئة بالغزلان المشوية".

في الخليج هناك امطار شتوية كاوروبا ويكون الشتاء احيانا قارسًا جدًا. يبلغ سقوط المطر في بوشهر ثمانية او تسعة إنجات بينما لا يبلغ في مسقط سوى ثلاثة إنجات ونصف.

الرياح السائدة عادة في شهور الصيف هي ريح الشمال الشمالية الغربية والتي تتجه مع انحناءات الخليج، وتحمل هذه الرياح غالبًا ذرات صغيرة من الغبار من بلاد الرافدين وقد حصل في العديد من المرات خلال الرحلة ان نجد شبابيك حجرات الباخرة والمنصة وحبال الأشرعة والصواري وهي مكسوة بطبقة سميكة منه.

تسمى الريح الجنوبية الشرقية في الشتاء (القوس) وهي تهب في كانون الأول إلى نيسان. وهي ريح عاصفة وممطرة. كذلك تكون الرياح الشمالية الشرقية في الشتاء ممطرة ايضًا وتسمى "الهاشي". وتتبع غالبًا الريح الجنوبية الغربية المسماة "الساحلي" رياح "القوس" وهي تهب بشكل عام لساعات قليلة ويصاحبها رعد وبرق.

إن السمة المميزة في الخليج هي انه لا يرافق الطقس السيئ احيانا اي تغير في مقياس الضغط الجوي. إلا أن هناك خلال الصيف انخفاضا كبيرا في الضغط الجوي.

قد يقال ان جميع موانئ الخليج لا تتوفر فيها الشروط الصحية، فهي في الواقع بالنسبة إلى الأوروبيين قاتلة إلى حد ما. فسرعان ما تلقي الإمدادات السيئة من المياه والنقص التام للصرف الصحي والحرارة المفرطة، بظلالها على كل من يحاول الإقامة فيها. تتفشى حمى الخليج وهو شكل متقطع وخطير من الملاريا في هذه الموانئ، ولا يمكن استعادة العافية إلا بالبحث عن طقس جديد. يعاني الأهالي بشدة منها. ينتشر البلاء المروع لحشرة غينيا[1] بشكل مؤلم في بندر عباس وباقي الموانئ الأخرى وهذا ربما يعود إلى المياه السيئة. يشاهد ايضا بكثرة مرض التفيل[2]. ويقال ان الكوليرا لا تغيب ابدا إلا انها تكون في اسوا حالاتها في البحرين.

في صباح اليوم التالي وجدنا الباخرة سملا تحت رحمة ريح الشمال العالية وبحر هائج يقودها نحو بوشهر، فبدلاً من البحر الهادئ والحرارة اللاهبة المتوقعة، كان المظهر العام يبدو اشبه ما يكون بطقس صيفي عاصف في خليج بسكاي. مع ريح كهذه كنا نتوقع أن نصل بوشهر باسرع من الاعتيادي إلا ان مصلحة النقل البريطاني الهندي في الخليج رغم حملها البريد لم تتاثر سرعتها بذلك، وامضينا اسبوعين كاملين بين البصرة وبومبي. وعند حوالي الساعة الثامنة شاهدنا جزيرة خرج التي يمكن الرؤية من خلفها قمم الجبال المغطاة بالثلوج في البر الفارسي. كان يشغل هذه الجزيرة في الجزء الأول من القرن الماضي والتي يسكنها الآن القليل من صيادي الأسماك

---

(١) هي حشرة خيطية طفيلية تنتشر في افريقيا الاستوائية، وجنوب آسيا. تعيش في الأنسجة الداخلية للإنسان، يمكن ان يصل طول الأنثى إلى ثلاثة اقدام. (المترجم).

(٢) هو حصول تضخم هائل في عضو من اعضاء الجسد. (المترجم).

والأدلاء، مركزًا هولنديًا. يروي كارسن نيبور في كتابه "رحلات في الجزيرة العربية"، التاريخ الموجز لهذه المستوطنة ابتداءً من بارون نيفوسين المدير الأول الذي نصّبه الشيخ مير ناصر، إلى السيد فان هوتنك المدير الثالث والأخير الذي طرده دون إبطاء مير مهنا خليفة مير ناصر لتدخله في السياسات الفارسية العربية.

وعندما اقتربنا من بوشهر خلال فترة الظهيرة، شاهدنا منظرًا رائعًا للجبال الفارسية وهي تنتصب خلف المدينة. القمة الرئيسية فيها هي قمة كوه هرجج، وهي قمة مهيبة يبلغ ارتفاعها ٦٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر وتليها على اليسار سلسلة رائعة أخرى. يقال ان هذه الجبال تبعد مسافة مسير ثلاثة ايام من بوشهر وتقع خلفها مدينة شيراز. يتم الرسو على مسافة ميلين في الميناء، ويصعب إلى حد ما الوصول إليها، حيث لابد من إجراء انعطافة كبيرة قبل الوصول. وعندما ابحرنا، اخذتني الدهشة بسبب خضرة البحر المفرطة، إلى حد لم أرَ مثله من قبل في اي مكان. تحتل المدينة الطرف الشمالي من حافة طويلة من الحجر الرملي، يبلغ طولها حوالي اثني عشر ميلاً ويظهر أنها ارتفعت عن البحر في العصور المتاخرة. عند صعود المد، تنفصل عن البر الرئيسي بواسطة البحر، وفي الأوقات الأخرى يفصلها عنه مستنقع ملحي. يبدو منظر بوشهر من البحر اشبه ما يكون إلى حد ما بمنظر الإسكندرية قبل ان ترتدي طابعها الأوروبي الحالي. ولأننا قضينا طيلة اليوم هنا، اجلت زيارتي إلى صباح اليوم التالي. وبعد أن ذهبت إلى الساحل بواسطة قارب البريد، امتطيت حمارًا، حيث يمكن استئجاره هنا كما في القاهرة، وطفت حول المدينة، في البداية ولكوني قد ابلغت أن في بوشهر حانوتا يمكن شراء سلعا أوروبية من مختلف الأنواع منه، ذهبت إليه بحثا عن قبعة شمسية وتبغ متحضر للغليون، وهو ترف لم ادخنه منذ مغادرتي البحر المتوسط. ولدهشتي الكبرى، نزلت في حانوت مجهز جيدًا بالأحذية الإنكليزية والمواد الغذائية

المعلبة والقبعات الشمسية وهو في الحقيقة عبارة عن سوق وايتلي ولكن بنمط فارسي حيث يمكن شراء كل شيء من علبة السيكار إلى قنينة مهدئ الآلام، كان السيد كلزار مالك الحانوت مؤدبًا للغاية، وقد امضيت ربع ساعة وانا استمتع في ممارسة ترف التبضع الأوروبي. يبدو غريبًا حقًا انه هنا في هذا الميناء الفارسي القذر والبائس، يستطيع تاجر مقدام ان يدير حانوتا يحتوي على سلع حضارية اكثر مما تحويه اسواق حلب وبغداد مجتمعة. بعد ذلك، امتطيت حماري وسرت على طول الساحل امام دار الإقامة البريطانية حيث يوجد حرس من الهنود المجندين كما في بغداد، بعد ذلك عبرت اللسان البري إلى الجانب الآخر وعدت من خلال السوق. وكان هذا اضيق وربما اقذر مكان رايته، ورغم اكتظاظه بالفرس والعرب الذين يتحدثون الفارسية، إلا انه ليس فيه الكثير مما يجلب المتعة إلى النفس. تمتلئ الحوانيت بقدر مناسب من سلع مانشستر والسكر وحلويات متقنة الصنع وتعتبر هذه هي السلع الرئيسية في السوق. اشتريت بعض ملاعق الحساء الجميلة المصنوعة من الخشب بقدر ضئيل من المال. كان الفتى الذي يقود حماري يتحدث بشيء من الإنكليزية، وكان الناس يحدقون نحو منظر رجل إنكليزي اقل مما يحدق اهالي حلب. وعلى اية حال، ورغم القذارة ذات الرائحة الكريهة، إلا انني شعرت انني اقرب إلى الوطن في سوق بوشهر اكثر من اي يوم آخر. البيوت مبنية بشكل رئيسي من الطين والحجارة وفي بيوت جميع افراد الطبقة الأفضل هناك شرف مزدوجة. ليس هناك سراديب كون الجو هنا رطبًا جدًا إلا ان العديد من البيوت مزودة بابراج خاصة تقوم بجمع الرياح وتوجيهها إلى داخل الغرف وتسمى هذه (الباجير). تكون الحرارة في تموز ولغاية تشرين الأول مرتفعة جدًا بحيث ان الأهالي ينامون على السطوح المستوية. لا يعتبر زي الأهالي كونهم عربًا اكثر منهم فرسًا، مميزًا كما هو في شمال البلاد. وقد شاهدت على طول الساحل وقرب سور البحر صفًا من مراكب الصيد المتقنة الصنع. ومن الجدير بالذكر، ان لقوارب بوشهر

اعلامها الخاصة فهي عبارة عن راية حمراء مع سيف على ذي الشفرتين مرسوم بلون ابيض في منتصفه. تمت استضافتي بكرم لتناول الغداء في المكتب المريح للشركة، حيث استطعت ان القي نظرة على خارطة بوشهر وضواحيها. يقع في بوشهر التي تبعد مسافة ستة اميال جنوب شبه الجزيرة المركز التلغرافي، تقع دار الإقامة الصيفية للمقيم البريطاني إلى الخلف في مكان يدعى سبزاياد. لا يوجد في هذا الجزء اي بيوت حاليًا ويشتهر بكونه مكانًا خطيرًا، إلا انه قد بنيت في هذا المكان مؤخرًا دور إقامة لعدد من الأوروبيين واشخاص آخرين. هناك ايضًا في هذا المكان آثار قديمة بشكل تلال تشغل مساحة مربع قطره ثلاثمائة ياردة. يقال ان التل الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدمًا فوق مستوى الأرض، محاط بخندق عميق من الجهة المقابلة للبر. كما توجد تلال اخرى في المنطقة المجاورة وقد اكتشفت فيها جرار وآجر عليه كتابات مسمارية. يعتقد ان هذه الآثار تعود إلى العصر البابلي او انها بقايا قلعة برتغالية. في عام ١٨٥٦م، احتلت المكان قوات بريطانية. إن بلاء بوشهر هي تجهيزات المياه. تبعد النوعية الاعتيادية من المياه وهي النوعية التي لا يجرؤ اي اوروبي على لمسها مسافة ميلي، والنوعية الأفضل على مسافة خمسة اميال باتجاه بوشهر.

عند وقوفي على شرفة مكتبة الشركة المريح، شاهدت في المحيط المجاور عددًا كبيرًا من الأولاد وهم يلعبون لعبة يبدو انها إحدى التسالي الرئيسية لفتيان الشوارع العرب في هذا المكان. إنها تسمى (القلي). ترسم دائرة على الأرض، يقف امامها أحد اللاعبين وهو مزود إما بثلاث عصي او بعصا مع كيس، يلقي فتى آخر من مسافة حوالي عشرين خطوة، عصا قصيرة او قطعة من العظام، بنية وضعها داخل الدائرة، بينما على اللاعب ذي العصا والكيس ان يبعدها عن الدائرة، على الأخير إيقافها باقصى ما يستطيع بالعصا او الكيس او جسده ثم ياخذها ويضربها بعيدًا باقصى ما يستطيع باحدى عصيه. ويفعل هو هذا بشكل عام بحيث انها تضرب الأرض وترتد بقوة

كبيرة عنها. وبعد ذلك، اينما تسقط العصا، على الرامي ان يسعى ثانية لقذفها إلى داخل الدائرة حتى لو وصلت بقربها او بعيدًا عنها. وعندما ينجح في هذا، على اللاعب ذي العصا والكيس أن يخرج من اللعبة.

يجري بيع الخيول في بوشهر بطريقة طريفة، فالمسافر الإنكليزي الذي يصل من برسيبوليس ويريد بيع حيوانه، ما عليه سوى ان يرسل على الدلأل، حيث يأخذ الأخير بالطواف في شوارع المدينة وهو يقود الحيوان ويصيح بشكل متواصل مرددًا مزاياه من اجل الحصول على عطاءات لشرائه. وفي الآخر يصل تحت شبابيك المكتب البريطاني الهندي، حيث يحصل على عطاء او عطاءين، وبعد قيادة الحيوان جيئة وذهابًا في الشارع مرددًا السعر الذي وصل إليه، يباع الحيوان في الآخر.

رغم وجودها كمدينة إسلامية قديمة في شبه الجزيرة، إلا ان ميناء بوشهر يعتبر ميناءًا حديثًا اسسه الشاه نادر في القرن الماضي. أوضح السيد كرزن ان الاشتقاق الشائع للاسم (ابو شهر) اي (ابو المدن)، هو اشتقاق غير صحيح،لأن إحدى الكلمات عربية بينما الأخرى فارسية. وبعد عام ١٧٦١م، اسست شركة الهند الشرقية مركزًا لها فيها. وسرعان ما اصبحت المدينة الميناء الأول في هذا الجزء من الخليج وتضاعف سكانها خلال هذا القرن الذين يقدرون الآن بـ (١٣٠٠٠) نسمة. خلال الحرب الفارسية استولت عليها القوات البريطانية في (١٠) كانون الأول عام ١٨٥٦م، واستمرت السيطرة عليها حتى انتهاء الحرب مع بلاد فارس في السنة التالية. وكالمحمرة، كان يحكمها خلال الجزء الأخير من القرن الماضي وبداية هذا القرن شيوخ عرب، إلا ان الفرس قد عيّنوا لبعض الوقت حاكمًا منتظمًا عليها، الذي كان يحمل في وقت ما وربما إلى الآن اللقب الخاص (دار كابيك) او (سيد البحر). هناك ايضا جالية أرمنية صغيرة، يوجد في كنيستها قبور وبعض الضباط الإنكليز الذين فقدوا حياتهم، خلال الحملة

الفارسية. لقد جرى تعزيز المدينة في السابق بابراج وسور متين على جهة الجنوب أو الجهة المواجهة إلى البر، إلا انه لم يبقى منه الآن سوى القليل.

لم تغادر بوشهر حتى الساعة الخامسة مساءًا كوننا قد تاخرنا قليلاً بسبب البريد. كانت ريح الشمال لا تزال تهب وهي باردة جدًا ومنعشة، بينما يشير مقياس الحرارة على المنصة عند الساعة التاسعة بعد الظهر إلى درجة معتدلة من الحرارة قدرها (٧٥°). سرنا بسرعة عبر الخليج ووصلنا البحرين قبل ظهر اليوم التالي مباشرة. كان القبطان يود المغادرة سريعًا ونتيجة ذلك لم اتمكن من النزول. لهذا كل ما رايته هو قفر رملي طويل تتخلله في بعض الأماكن بساتين نخيل ومدينتي المحرق والبحرين، اللتين يفصلهما البحر عن بعضهما عند حصول المد. تعتبر الأولى هي المركز الرئيسي لصيد اللؤلؤ الذي يمتد على طول الساحل العربي. ويمكن مشاهدة القوارب المستخدمة في هذه الصناعة، مكدسة خارج الماء على الجزيرة، حيث لا تجري اي عملية صيد قبل نهاية شهر مايس. كانت مياه البر في الموقع الذي رسونا فيه، الذي يبعد كثيرًا عن الساحل، ذات لون اخضر جميل وعند هدوء البحر، فهي صافية بشكل كبير. توجد الظاهرة اللافتة للنظر المتمثلة بعيون الماء العذب التي تنبع من قاع البحر، في العديد من الأماكن قرب الجزيرة ويغوص الأهالي للحصول على المياه كما يغوصون للحصول على اللآلئ ويملأون به قناني جلدية يحملوها معهم لهذا الغرض ثم يجري سحبهم إلى السطح ربما لم يتم العثور مطلقًا على إمداد المياه الكبير هذا لولا إغواء صيد اللؤلؤ للعرب الذي جعلهم يطوفون بشكل دائم عند قاع البحر. بالإضافة إلى محار اللؤلؤ غير المؤذي، يعج البحر ايضًا باسماك القرش وابي منشار التي على الغواص المسكين ان يحترس منها. كذلك شاهدت اعدادًا كبيرة جدًا من قناديل البحر والكثير من غربان الماء وهو نوع من طيور الفاق.

يجـري صيد اللؤلـؤ خـلال الفـترة من مايس ولغاية ايلول وفي البحرين هناك عدة آلاف مـن القـوارب الـتي تـتراوح حمولـتها بـين اربعـة إلى عشـرة اطـنان تعمـل خـلال هـذا الموسـم. يقـال ان ثـروة تصـل إلى مائـتين او ثلاثمائـة الف باون ترفـع سنويًا من البحر إلى الـبحرين وحدهـا. يـنزل الغـواص سـادًا اذنـيه بالشـمع وغالقًـا انفـه بـاداة اشبـه بملقـط الغسيل ومـثقلاً وزن قـديمـه، إلى الـبحر إلى عمـق لا يزيد عن ثلاثة عشر قامة. وعندما يجمـع محاراتـه، يسحب بواسطة حبل إلى السطح. اقصى فترة يمكن ان يمضيها الغواص تحت الماء هي دقـيقة ونصـف. تـاخذ معظـم اللآلـئ طـريقها إلى بومـبي. ويعتـبر النظام المروع، الذي يعيش فيه الغواصون المساكين، الذين يفنون صحتهم وقوتهم في حياة غير طبيعـية، بفقـر واعـتماد تـام عـلى تجار عـرب وهـنود انـذال، معروفًا على نطاق واسع. ولسـوء الحـظ، لا يُعـرف "قـانون المقايضة Truck"[1] في الخليج، وفي بعض الأحيان يتضور العرب البؤساء الذين يضطرون لبيع لآلئهم إلى سيدهم بالسعر الذي يريده ويستاجرون قواربهـم وتجهيزاتهم منه بمبلغ ابتزازي شنيع، جوعًا يتيمًا يجعل عملهم الآخرين من اصحاب الملايين. لا يوجد شكل للعبودية اكثر خسة من هذا في البلاد.

احـتل الـبحرين كـباقي الموانـئ الخليجـية الأخـرى في القـرن السـادس عشـر الـبرتغاليون، الذي طردهم الفرس في عام ١٦٢٢م. وبعد هذا التاريخ، كانت البلاد مصدرًا دائمًا للـنزاع بـين الفـرس وعـدد مـن الشـيوخ العـرب (مـن ضمنهم سلطان عُمان)، الذي استولى عليها بدوره ايضًا، تخضع عمليًا في الوقت الحاضر إلى الحماية البريطانـية.

* * *

(١) قـانون المقايضـة او Truck Act هو قانون إنكليزي يرجع اصلـه إلى ما قبل سنة ١٤٦٤م، وفحواه دفع اجور العمال سلعًا لا نقـدًا شـرط الشـراء مـن صـاحب العمل، ونتيجة انعدام العدالة فيه صـدرت عـدة قوانين (Truck acts) اخرها في عام ١٨٩٦م مهمتها تنظيم كيفية دفع الأجور للعمال. (المترجم).

الفصل السابع عشر

الخليج العربي

الجبال المحيطة بميناء لنكا - ميناء لنكا - إمدادات المياه - مضايق هرمز - موقع بندر عباس - المدينة - حرارة عظيمة - جزيرة هرمز - تاريخها - تقييم قديم - منظر جميل - السمكة الطيارة وثعابين البحر - السلاحف وأسماك اللولوح - بومبي - المغادرة نحو إنكلترا - طقس عاصف في البحر الأحمر

من البحرين اتجهنا نحو الشرق عابرين الخليج باتجاه ميناء لنكا اللورستاني. اخبرنا القبطان روبرتسن ان الرياح قد تنخفض سرعتها ويتبع ذلك ارتفاع درجات الحرارة، وهكذا جرى. وفي اليوم التالي تناولنا غداءنا وعشاءنا على مائدة في أعلى سطح مستوٍ للباخرة سملا (وهو ترتيب جميل مفيد في البحار الاستوائية)، ولم نشعر بالبرودة رغم وجود مروحة تدور في الهواء المفتوح. بعد الغداء، القينا نظرة جميلة على الساحل الصحراوي من لورستان. في البداية ظهرت سلسلة طويلة من الجبال الحمراء بعيدًا على يسارنا، وخلفها ايضًا تظهر سلسلة اخرى اكثر ارتفاعًا. عند الساعة الثانية والنصف، شاهدنا على يميننا جزيرة صغيرة جبلية نوعًا ما ويتضح انها غير ماهولة. وتسمى هذه (فارور). بعد ذلك اخذت سلسلة مهيبة يبدو انها بركانية تظهر على يسارنا، استطيع ان اشاهد اسفلها باستخدام نظارتي مدينة صغيرة، وفي احد اطرافها بستان

نخيل صغير. وهذه السلسلة هي جبال بستانة التي يبلغ ارتفاعها ١٧٥٠ قدم، اما الجبل مستوي القمة الذي نشاهده قبلها فهو جبل (تورانجه) ويبلغ ارتفاعه (٥١٥٠) قدم. يخيم على جميع الجبال ضباب كثيف، كون الجو في هذا الجزء من الخليج، رغم مظهر السواحل الشبيه بالصحراء، رطبًا بشكل مفرط ويتساقط الندى الثقيل المخضل كل ليلة. كما ان الضباب دائم الحدوث.

تبدو لنكا التي وصلناها بعد مسير اثنتي عشرة ساعة من البحرين واضحة جدًا من البحر. فهي تقع على نجد ساحلي وترتفع خلفها الجبال العظيمة كخلفية الصورة، ويبدو الصف الأبيض من البيوت والمنارة الوحيدة وقوارب الصيد من خلال الضباب الذي يغمرها أثناء إبحارنا باتجاه المرسى جميلاً جدًا. توجد في المرسى باخرتين شراعيتين إنكليزيتين عمرهما حوالي ستين عامًا، وهي الآن ملك تاجر عربي مقدام. وقد شعرت ان من الممتع معاينة الحالة الراهنة للغرف المرئية في وقت ما لهذه السفن القديمة. يبعد المرسى مسافة حوالي ربع ميل عن البر. ذهبت إلى الساحل مع موظف البريد ونزلنا قرب رصيف مسوّر صغير تقف فيه الكثير من قوارب البغلة خارج الماء لغرض الإصلاح، كما تجري هنا صناعة بعض منها ولكن بحجم اكبر، حيث تمارس تجارة ساحلية نشيطة مع لنكا. يبدو انه لم يبذل اي اهتمام بإجراءات الصرف الصحي هنا، حتى انها ادنى من اي ميناء خليجي آخر، وحالما نزلنا، صدمت انوفنا رائحة كريهة منبعثة من الساحل الذي تغمره في الحقيقة القذارة بكافة أصنافها. إنها قاتلة تمامًا. وقد تمشيت داخل شوارع المدينة وأسواقها. كانت الأخيرة ضيقة وغير منتظمة تمامًا، ويبدو ان السلع الرئيسية فيه هي الأسماك والحبوب والحلويات. وفي إحدى المرات شاهدت صفًا من القدور الصينية الصغيرة المستخدمة لحفظ الكمل، ربما جاءت هذه برًا مع الشاي بواسطة طرق القوافل، يعتبر السكان هجينًا من الفرس والعرب من قبيلة الجواسم القرصانية وبعضهم يرتدي عمامة من قماش محلي وهي كبيرة وجميلة.

نشاهد أيضًا بحارة وشحاذون زنوج وهم يتسكعون في الميناء الصغير ولا يضيفون قليلاً إلى جمال منظر المكان. وكانت تطوف أيضًا نساء، بزي مختلف تمامًا لما رأيته من قبل، وهن يرتدين خمارًا أشبه بالقناع مع فتحات فيه للعيون. قد يبلغ عدد السكان الكلي حوالي عشرة آلاف. إن المعالم في لنكا قليلة ومتباعدة، هناك جامع حديث صغير واحد مبني على الطراز البغدادي مع زخارف صغيرة من الآجر الملون. وقد شاهدت خارج المدينة على أحد الجوانب الكثير من المباني الغريبة ذات القباب منتشرة على سطح الأرض، وقد علمت أنها مستودعات مخصصة لغرض تجميع مياه الأمطار وهو المصدر الوحيد للمياه في لنكا، لأنه لا توجد فيها عيون. تم بناء القباب التي يبلغ ارتفاع بعضها أربعين قدمًا، بشكل غير منتظم، والغاية منها منع التبخر. يتميز هطول الأمطار في لنكا بغزارته وتجمع هذه البرك كما يسمونها خزينًا ضخمًا من المياه لاستخدامات المدينة. بعد هذا ذهبنا إلى دائرة البريد البريطانية التي يديرها موظف هندي. لقد أدى تأني هذا الشخص في إعداد حقائب البريد إلى تأخر البريد قبل أن يصعد على ظهر الباخرة.

يقال حتى الآن أن لنكا ينعدم فيها القانون وهي مكان غير آمن تمامًا للتجوال فيه، كانت في السابق بأيدي قراصنة الخليج العربي، وقد فقدت العديد من السفن الحربية لشركة الهند الشرقية في ملاحقتها لهذه الأشباح وسط مخاطر وجزر الخليج. كان يحكم المدينة حتى وقت متأخر شيخ عربي مستقل. ويقال أنه يمكن أن يقطع حامل بريد سيرًا على الأقدام المسافة من هنا إلى بوشهر في عشر إلى أربع عشر يومًا حسب الموسم في السنة.

استيقظنا مبكرين صباح اليوم التالي لنجد أنفسنا على مرأى من بندر عباس، الذي يعتبر دون شك المكان الأكثر إثارة للمتعة على الخليج العربي، لقد أصبحنا الآن تحت حرارة شمس حقيقية وقد صعد معظم الركاب للنوم على سطح السفينة، ولأن

حالتي الصحية لم تتحسن كثيرًا وأن تساقط الندى في هذه المنطقة من الخليج كثيفًا للغاية بحيث أنه يجعل كل شيء رطبًا خلال فترة قصيرة جدًا من الزمن، لهذا فضلت أن أبقى في حجرتي في السفينة، رغم أن الحرارة فيها تجعل النوم مهمة صعبة. في طقس مثل هذا لا يستطيع المرء في البحر تجنب أخذ إغفاءة طويلة على كرسي في المنصة تحت حرارة شمس النهار، لهذا لا يشكل النوم ليلاً ذات الأهمية كما في أوروبا حيث كل نهار هو نهار للعمل.

تقع بندر عباس أو كميرون كما هو اسمها القديم على خليج فسيح ممتد داخل الساحل الفارسي يبرز مقابله من الجانب العربي، شبه الجزيرة، يسمى أقصى امتداد لها رأس مسندم، وتسمى القناة التي تفصل الساحلين، مضيق هرمز. لا أعلم إن كنت مصيبًا، ولكن نظرة إلى الخريطة أو المخططات توحي إليّ أن هذه القناة التي تقطعها إلى النصف الجزيرة العربية وتنتشر فيها الجزر الصغيرة والكبيرة، هي ليست إلا تطورًا جغرافيًا حديثًا نسبيًا. من المؤكد أن هذه السواحل في وقت ما وقبل حصول ترسبات في المياه، كانت متحدة، ولا تمثل الجزر الناتئة من الساحل الفارسي سوى ربوات على هذه الأرض الفارسية - العربية. إذا ما صح هذا، فإن الخليج كان كبحر قزوين بحرًا مقفلاً باليابسة ولأنه ربما لم يكن في ذلك العهد لا آشوريين ولا فرس ولا عرب يحاولون البحث عن منفذ إلى الجنوب لغرض التجارة، فليس هناك طريق للقوافل أو قناة تقطع هذا اللسان البري الذي يفصل البحر الداخلي عن المحيط الواسع الذي يمتد إلى المناطق القطبية الجنوبية، والذي تغسل أمواج مدّه سواحل البلدان التي كانت ستصبح من البلدان الأغنى ربما في العالم كله.

يعتبر الوصول إلى بندر عباس، بطريقته الغريبة، ممتعًا تمامًا. فالباخرة، بعد أن تجتاز جزيرة القشم التي ربما يبلغ طولها سبعين ميلاً، تستدير شمالاً نحو المرفأ الواقع

عند أقصى نقطة شمالاً من الخليج الفسيح. وعندما تقترب من الصحراء الشاسعة، ترتفع الجبال المجدبة والوعرة بطريقة غير منتظمة على جميع الجهات. يقع على يمين المدينة نفسها جبل جيناو (ارتفاعه ٧٦٩٠ قدم)، وعند النظر من أعلى كتفه الأيمن يمكن مشاهدة جبل باخور المهيب الذي يهيمن على الخليج من ارتفاع (١٠٦٠) قدم. وأبعد قليلاً إلى اليمين يقع جبل شمال الذي يبلغ ارتفاعه (٨٥٠٠) قدم، بينما يقع على يسار جبل جيناو جبل خامر. تقع خلفنا منحدرات القشم التي استولى عليها في زمن ما البرتغاليون ولا تزال تحتفظ بسكان عددهم من عشرة إلى اثني عشر ألف نسمة. في عام ١٨٢٠م، وضعت قوة بريطانية هنا لمراقبة القراصنة من قبيلة الجواسم ومنذ عام ١٨٧٩م لا تزال قوة من الجنود الهنود مرابطة في المكان[1]. إن ما يمثل النفوذ البريطاني في الوقت الحاضر هو مستودع للفحم فقط. ونحو الخارج من جهة البحر وبالقرب من الميناء تقع جزر هرمز ولاراك، ونرى من هنا في الأولى التي لعبت دورًا مهمًا في تاريخ الشرق، حدثًا متعرجًا واطئًا وعند طرفها الجنوبي نشاهد لسانًا بريًا ينتهي بحصن برتغالي قديم. ونشاهد على اليسار قبل دخولنا الميناء قليلاً من الجزر الصغيرة قليلة الأهمية.

وجدنا في المرفأ الذي يبعد حوالي ميلاً وثلاثة أرباع الميل عن المدينة، باخرة الخط الفارسي راسية. تقع المدينة على أرض رملية مع واجهة على البحر يبلغ عرضها تقريبًا

---

(١) لدي تذكار طريف عن هذا الاحتلال الإنكليزي مكتوب على قرآن قديم جميل لا يزال يحتفظ بجلده الأصلي وقد كتب على الورقة البيضاء في أوله ما يلي، لقد وُجد هذا الكتاب على ظهر سفينة قرصانية تم تدميرها في الخليج العربي قرب جزيرة القشم من قبل الباخرة الحربية لصاحب الجلالة المسماة (عدن) يوم ١٠ كانون الثاني عام ١٨١٩م. لم يشر مقياس درجة الحرارة إلى أوطأ من ٦٤° رغم أننا في عزّ الشتاء.

ولأن الحملة لم تغادر بومبي إلا في نهاية عام ١٨١٩م، لهذا لابد أن يكون التاريخ خطأ كتابي والصحيح هو عام ١٨٢٠م، وهو خطأ شائع حتى في إنكلترا عند حلول سنة جديدة ويحصل في الجرائد أو التقاويم ولدى جميع الجهات. يمكن إيجاد تفاصيل متسعة عن الحملة في كتاب كرزن عن بلاد فارس. تاريخ كتاب القرآن هي ١٠٦١هـ.

ميلاً واحد. تقع على الطرف الشرقي منها المستنقعات المليئة بأشجار المانغروف الاستوائية. ورغم انها تعتبر محلاً لتجارة واسعة (كونها تمثل ميناء كرمان ومشهد التي تمتد منها الطرق التجارية إلى طهران بل وحتى كابل وهراة)، إلا انه لا يشاهد الكثير من المعالم في المدينة. هناك رصيف ميناء صغير ومناسب وسور بحري، وقد وجدت على الأول مدفعين قديمين من البراص ماركة (هوني سويت. جي. آر). وقد سمعت أخبار مختلفة عن هذه القطع الأثرية. يعتقد رجل إنكليزي، كان مقيمًا في بندر عباس وجاء معنا على ظهر الباخرة سملا، إنه قد تم جلبها من بوشهر، بينما قال فتى عربي كان واقفًا على رصيف الميناء، انها قد تم جلبها من مسقط. يقول السيد كرزن أن سلطان مسقط قد استولى على المدينة في نهاية القرن الأخير بفرمان صادر من الحكومة الفارسية، حيث أعطى خلال هذه الفترة وبموجب معاهدة، رخصة إلى الإنكليز لإقامة مركز فيها ونصب المدافع. وهو يرى أن هذه القطع القديمة قد جاءت إما استجابة إيجابية لطلبهم أو أنها قدمت هدية إلى السلطان.

كانت معظم الأسواق مغلقة لأن الوقت كان عيدًا أو احتفالاً، إلا أن الكثير من الناس الذين رأيتهم كانوا يبدون وكأنهم مخلوقات بدائية ذات ظفائر طويلة تتدلى على أكتافهم. كذلك يمكن مشاهدة البلوش. توجد في بعض البيوت المواجهة إلى البحر شرفات مزدوجة، ولدى العديد من أفراد الطبقة الأفضل (باجيرات) على سطوح بيوتهم. بينما كانت البيوت الموجودة داخل المدينة عبارة عن مباني طينية بائسة، وهناك أيضًا أكواخ من القصب تنتشر في الفسح المفتوحة. وإجمالاً، من الصعب تصديق أن بندر عباس هي المدينة الأكبر، وهي لا تزال المكان التجاري المهم على الساحل الفارسي. قمت بجولة على الأقدام داخل المدينة مع أحد أصحاب القوارب العرب. كانت الحرارة عظيمة وكان العرق ينضح من وجهي بغزارة. وكان الرمل الذي أسير عليه يلسع حذائي، وكنت كل مسافة بضع ياردات أجلس قليلاً لأستريح. كان المكان فرنا

حقيقيًا ومن السهولة تصديق من يقول أن هذا المكان هو المكان الأكثر حرارة في الخليج. كما أنه أيضًا رطبًا للغاية ويشاهد بكثرة ضباب البحر. إن الحمى منتشرة بشكل خطير هنا، ولا يستطيع الأوروبيون العيش طويلاً هنا. كما تنتشر أيضًا حشرة غينيا ومرض التفيل بكثرة، توجد في المدينة آثار سور قديم وأبراج، وقد أراني صاحب القارب الذي يتحدث العربية، بوابة على الجانب البري من المدينة تسمى (باب البالاو)[1]. ورغم أنه يجري التحدث بشيء من العربية، إلا أن الفارسية والهندية هي الأكثر شيوعًا.

تعتبر الصادرات الرئيسية لبندر عباس هي الفواكه والحبوب إلى مسقط والسجاد والصمغ بكميات كبيرة إلى بومبي وكذلك الملح الذي يستخرج ويجفف في هرمز. هناك أيضًا تجارة الواردات المعتادة لسلع البيع بالتجزئة. يغطي عدد السكان رقمًا متقلبًا جدًا، لأن الكثير من السكان يعودون إلى داخل البلاد عند درجات الحرارة المرتفعة، ولأنه أيضًا يعتمد على وصول ومغادرة القوافل، قد يصل عدد السكان إلى أقصى حد له في الشتاء ليصل إلى (١٠٠٠٠) نسمة وأدنى حد هو (٥٠٠٠) نسمة. يقول هاملتون في كتابه عن جزر الهند الشرقية أن الحرارة في شهر آب تؤثر كثيرًا في البحث بحيث "تصدر منه رائحة كريهة" وهي "مقيتة كرائحة حيوانات ميتة على اليابسة، وتقذف على الساحل كميات كبيرة من المحار بفعل موران البحر. إنها تفسد الذهب والفضة كماء آسن في جوف سفينة محكمة الإغلاق".

لم تسنح لي الفرصة لزيارة جزيرة هرمز العجيبة، وعليّ أن أقنع نفسي فقط بالنظر إلى حدودها المتعرجة وإلى ثلاث قمم بيضاء من سطح الباخرة. يعتبر هذا المكان

---

(١) ترى هل هي بوابة بلوشستان، (المؤلف).

بموجب جميع التقليرات غريبًا إلى حد كبير، رغم انه لا يوجد فيه سوى قرية صيادين مكونة من مائة بيت تقريبًا. لا يوجد فيه اي شكل من الحياة النباتية، ولا مياه عذبة، إلا انه يزخر بالملح والكبريت وخامات الحديد. تتكون قمتان من القمم التي نشاهدها من مسافة بعيدة من الكبريت، والقمة الثالثة من الملح. كما ان المكان يحتوي على العديد من القمم البركانية. يقول قبطان سملا الذي زار المكان انه يوجد في مكان واحد اكثر للناظر غرابة، حيث يمكن مشاهدة نهر واسع من الماء يصب في البحر وهو مغطى بطبقة متالقة من الملح، وفي وسطه ولكن دون ان تمتزج بمياهه، يجري تيار من المياه ذات اللون الأحمر القاني التي جاء لونها بفعل خامات الحديد. لا يزال حصن برتغالي وفنار موجودان حتى الآن ويقال ان الأول هو بناء عجيب من الحجارة المزينة.

تاسست هرمز في البداية في القرن الثالث على يدي احد افراد الأسرة الساسانية. قامت محلها مدينة عربية، اسسها امير عربي يدعى محمد درامكو الشهير. تقع المدينتان على البر الرئيسي، ولم يكد يبدا القرن الرابع عشر، حتى تاسست مدينة داخل الجزيرة بسبب غارات الأتراك على البر الرئيسي. تظهر هرمز من خلال وصف ماركو بولو الذي ارتحل في هذه الأنحاء في القرن الثالث عشر، إنها موجودة على الساحل وداخل الجزيرة، لأن الأخيرة تذكر بشكل خاص وقد تعتبر كولاية. لقد وصف البيوت الصيفية المبنية داخل الماء، التي يلجا إليها الأهالي عند ارتفاع درجة الحرارة وذكر ايضا "التوابل، واللآلئ، والأحجار الكريمة والملابس المطرزة بالذهب والفضة وجميع الأشياء الثمينة الأخرى من الهند". في ترجمة تاشارا او بالأحرى في تاريخ تورنشا، هناك العديد من الملاحظات الوصفية الممتعة. حيث نقرا عن "العيون الفياضة الثلاثة لماء صافي نقي، إلا انه مالح كماء البحر". وكذلك "هناك في احد اطراف الجزيرة ماء عذب قليل يستخدم لسقي بساتين الملك". ومرة اخرى: "تتوفر في الجزيرة الكثير من الحيوانات

كالغزلان ومخلوقات شبيهة بالمعز البري والذئاب وهي نوع من الثعالب والسلاحف والحمام وباقي أنواع الطيور المائية، ومن العجيب أنه لا يتوفر في الجزيرة ماء عذب، إلا أنه لا يعرف حتى الآن ماذا تشرب هذه المخلوقات. البعض يدعي أنها عطشى بشكل مفرط، فإنها تشرب المياه المالحة وآخرون اختلقوا خرافات ليس أقل من ذلك استحالة".

كذلك نقرأ لمحة عن السكان:

"معظم أهالي هرمز وسيمون وذوي أشكال جميلة، والرجال مؤدبون ومهذبون، والنساء جميلات.. وجميعهم مسلمون. بعضهم من الشيعة وآخرون من السُنة، بالإضافة إلى ذلك هناك العديد من المسيحيين البرتغاليين والأرمن والجورجيين واليعاقبة والنساطرة.. والهنود واليهود". في الصيف "تستنفد الحرارة العظيمة كل طاقة الإنسان بعرق مفرط".

في بداية القرن السادس عشر استولى دون ماثياس دي البوكورك على المدينة وأسس مركزًا برتغاليًا. كان الحصن الذي بناه، والذي لا يزال يمكن مشاهدته من المرفأ في بندر عباس ذا تصميم رباعي الأضلاع، مبني بشكل جيد ومعزز بخندق مائي. يقال أنه أفضل حصن برتغالي لا يزال قائمًا حتى الآن في الخليج، ولا يزال يوجد حول هذا الأثر عدد من المدافع القديمة. في عام ١٥٨٢م، ألقى البوكورك القبض على السيد رالف فيتش وتاجر من لندن وثلاثة من رفاقهما وهم في طريقهم إلى الخليج العربي قادمين من طرابلس وحلب وبغداد، وبعد أن تمت مصادرة شيء من بضائعهم تركوا لمواصلة سيرهم إلى الهند. وقد ترك لنا السيد فيتش في مذكراته عن رحلاته وصفًا ممتعًا عن هرمز في ذلك الوقت. فقد وصفها بأنها: "الجزيرة الأكثر جدبًا في العالم"،

واخبرنا ان هناك قلعة برتغالية فيها "نقيب تابع لملك البرتغال وبإمرته عدد كافٍ من الجنود، بعضهم بقي داخل القلعة والآخرون في المدينة". وهناك ايضا: "تجري هنا تجارة عظيمة لكافة انواع التوابل والعقاقير والحرير والأقمشة الحريرية ومنسوجات فارسية مزينة بالصور وخزين كبير من اللآلئ القادمة من جزيرة البحرين، والكثير من خيول فارس تصل إلى كافة انحاء الهند". كانت له نظرة عن الجمال النسوي، فرغم ان الجميلات يرتدين الحجاب دون شك، إلا ان تاجرنا المغامر قد وجد الوقت ليكتب. "تتزين نساؤهم بشكل غريب جدًا، فهن يلبسن على انوفهن وآذانهن ورقابهن وأذرعهن وسيقانهن العديد من الحلقات المزينة بالجواهر ومشابك من فضة وذهب في اذانهن وقضيب طويل من الذهب بجانب انوفهن. كانت آذانهن بفعل ثقل الجواهر مثقوبة بشكل واسع بحيث يستطيع المرء إدخال ثلاثة من اصابعه فيها"[1]. في عام ١٦٢٢ حاصر الإنكليز بالتحالف مع الشاه عباس هرمز وبعد حصار دام قرابة ثلاثة اشهر، استسلمت المدينة[2] وبعد ثلاث سنوات تم تسليم الساحل إلى الفرس بموجب معاهدة، لم تنتهكها حكومة البلاد بأدنى حد. وبعد ذلك مباشرة، قام نفس الشاه بتاسيس ميناء على البر الرئيسي، الذي كان في السابق قرية صيادين تحمل اسم كومبرون. (ويقال أن الاسم يعني قرية صيد الأربيان)، وهي تسمى الآن بندر عباس.

عند هذا الوقت كانت هرمز تبدو في اوج عظمتها، وقد وصفها السير توماس هربرت في عام ١٦٢٧ "البيوت فيها مؤثثة بالجلود المذهبة والنوادر الهندية والصينية،

(١) انظر نيكرتون (مجموعة الرحلات)، المجلد التاسع، ص٤٠٨، (المؤلف).

(٢) يقول هاملتون ان الحصار قد استمر اقل من شهرين، وقد تم التقيد بدقة بالمعاهدة لغاية عام ١٦٨٠، عندما فشل الإنكليز في تطهير الخليج من الأعمال العدائية، (المؤلف).

سوقها ثري وجميل وفيها كنائس رائعة وقلعة محصنة بقوة وبشكل منتظم"[1]. لا يزال بالإمكان مشاهدة آثار مستودعات المياه واجزاء الجوامع والمدينة. كان عدد سكان المدينة في وقت معين اربعون الف نسمة، والآن انخفض إلى ثلاثمائة فقط وهم يهاجرون إلى البر الرئيسي خلال موسم معين في السنة.

نهضت كوميرون والآن بندر عباس لتحتل مكان هرمز في التجارة حيث لم تنجح في ذلك سوى جزئيا. تم تاسيس مراكز إنكليزية وفرنسية والمانية ولا زال بالإمكان مشاهدة بقايا بعضها او كلها. كانت في نهاية القرن الماضي تحت حكم سلطان مسقط كما سبق ان ذكرنا، ولم يمض ربع قرن حتى حقق الفرس سيطرة تامة عليها.

غادرنا بندر عباس في مساء يوم ٢٩ من الشهر، ولأننا لا نذهب إلى مسقط، فإن رحلتنا إلى كراجي ستستغرق ثلاثة ايام. بعد هذا الميناء، تستانف البواخر البريطانية الهندية نشاطها بعد استعادة السيطرة على البحار البريطانية واخذت تسير بسرعة كبيرة نحو بومبي التي ستصلها في غضون حوالي ست وخمسين ساعة. وعندما ابحرنا خارج بندر عباس، كنت اعتقد انني سوف لن ارى منظرا جميلاً كهذا في اي مكان. حيث يلف ضباب ارجواني جبال جيناو والشمال والجزر وخلفها تضيء السماء بوهج برتقالي خفيف ينذر بانتهاء النهار. يمتد امام السفينة البحر الهادئ الذي يتلألأ بانعكاس غروب الشمس. إنها تبدو وكأنها ارض الجن او موطن السحر ولا يمكن ان يوجد شيء اكثر جمالاً إلى حد لا يوصف كهذا المكان. من الصعب تصديق ان مثل هذا المكان الجميل لا يمكن ان يكون صحيا. فعندما هبط الظلام، اضيء البحر بومضات متالقة لا حصر لها، كل واحدة تضيء لثانية ثم تختفي.

---

(١) انظر كرزن "بلاد فارس والمسألة الفارسية". (المؤلف).

خلال رحلة الثلاثة ايام إلى كراجي، شاهدنا من بعيد الساحل الفارسي والبلوشست في بعض الأجزاء نشاهد اكثر الحدود إثارة للدهشة فهي متعرجة ومسننة كحافة منشار وفي بعض الأماكن، تكون الأشكال مدهشة بشكل غريب، حيث هناك قمم كالفنارات ملتصقة بشدة مع بعضها البعض. وقد صادفنا اشياء غريبة من التاريخ الطبيعي. فقد شاهدنا ثعبان يمر بطول اربعة اقدام وجسم اصفر مع اشرطة داكنة وذنب سطح كسمكة. وهنا تعرفت لأول مرة بالسمكة الطيّارة، عندما شاهدتها لأول مرة كانت تهرب بعيدًا عن مقدمة السفينة، وقد رفضت ان اصدق ذلك معتقدًا انها مجرد طيور بحر صغيرة، حتى طارت احدها بشكل جميل وسقطت على ظهر السفينة، وبذلك تبدد وهمي. وفي إحدى الأيام شاهدت عددًا كبيرًا من هذه الأسماك وسمكة توتوج وسلحفاة كبيرة. كل ذلك شاهدته في ربع ساعة. كانت الأخيرة تدور بهدوء على بُعد خمسين ميلاً من اليابسة، ويتضح انها ذكر غير مهتم تمامًا بزوجته التي يبدو انها دون شك تستعد للتزاوج في المياه الضحلة للساحل البلوشستاني. اخذت الرطوبة والحرارة تزداد، واصبح النوم أسفل منصة الباخرة متعبًا للغاية، إلا ان الندى كان غزيرًا ومتواصلاً، بحيث من الصعب أن لا تبتل حتى الجلد عندما تجلس على المنصة وقت المساء. وفي يوم (٣) مايس، رسونا في مرفأ كراجي، وفي الآخر ساعود مرة اخرى إلى الحضارة الأوروبية. بهذا تصل قصتي إلى نهايتها. وبعد ايام قلائل، وصلت إلى بومبي، وعندما كانت تتجمع الرياح الموسمية، شعرت أن الجو حار بشكل غير مريح تمامًا. كانت قراءة مقياس الحرارة تتراوح بين ٩١ درجة و٩٨ في صالة الفندق، التي تعتبر في هذا الجو الحار الرطب لبومبي درجة عالية غير مريحة البتة. وبعد اسبوع، حيث شاهدت المعالم الرئيسية في تلك المدينة، اتخذت طريقي إلى الوطن ووصلت إلى لندن في (٨) حزيران، كان الشيء الوحيد اللافت للنظر خلال الرحلة هو الطقس غير الاعتيادي الذي واجهناه في البحر الأحمر. كانت الباخرة (دمشق) اجنبية، إلا انها

ذات صناعة جيدة ومجهزة بأكثر الوسائل جلبًا للراحة في كل المجالات إلا انها محمّلة تمامًا وواطئة في المياه. اجتزنا باب المندب في (٢٠) من الشهر، وفي يوم (٢١)، ازداد هبوب ريح معاكسة لاتجاه السفينة إلى ما يشبه العاصفة. وفي الليلة التالية اصبحت الريح اشد، وقد غمرت المياه جميع الركاب (وانا من ضمنهم) الذي كانوا ينامون على سطح السفينة واسرعنا في الدخول إلى غرفنا في السفينة ببجامات مبللة. وعند الصباح، تحولت إلى عاصفة تامة، واصبحت السفينة واطئة جدًا في المياه، واخذت موجات المياه المنكسرة على جوانبها تغمر باطنها من الأمام ومن الخلف. وقد جُرفت زرائب الأغنام والقوارب وفلتت الحيوانات، واخذت تضرب أعلى مقدمة السفينة ومنصّة الربان. وقد تهشمت ايضًا حظيرة البط وغرقت عدة طيور بينما اخذت الأخرى تسبح، وقد جرى بصخب نقل تجهيزات الطعام والمبيت إلى الصالة. لقد فاضت المنصات الأمامية والخلفية، وكان كل شيء في حالة لا توصف من الفوضى. في ليلة (٢٢)، اقام كل فرد داخل الغرف، وبما أنها كانت لا تزال حارّة بشكل غير مقبول، شغلت موقعًا بديلاً على منضدة الصالة حتى وجدت نفسي متدحرجًا بعيدًا عندما عدت إلى الأسفل. وقد اضطررنا لعدة ساعات ان نخفض سرعتنا إلى النصف، بحيث انه عندما كانت تدون الملاحظات في اليوم التالي، نجد اننا قطعنا مائة وثمانية وستون عقدة فقط. هدأت العاصفة في اليوم التالي. كان هذا طقسًا غريبًا نواجهه في البحر الأحمر، حيث كنا جميعًا نخشى من حرارته التي لا يصاحبها اي نسيم. وعلى العموم، على اية حال اعتقد ان الغرق هو بديل مقبول عن الشواء.

* * *

ملاحق

١. أبو نواس، مهرّج هارون الرشيد.

٢. رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة.

٣. تقرير هاملتون عن البصرة.

٤. قصة رومانسية من الخليج العربي.

٥. مقاييس وأوزان مضطربة.

أبو نواس، مهرج هارون الرشيد

لا تزال تتداول الكثير من القصص في الشرق عن هذه الشخصية، روى لي احد السوريين القصص التالية:

ابو نواس وآنية الحساء:

كان ابو نواس في احد الأيام ينتظر سيده الخليفة على العشاء. حصل ان اسقط على رقبة هارون قطرة من الحساء الحار. استدار الخليفة بغضب واستل سيفه وكان على وشك قطع راس ابي نواس، حينذاك اعمى المهرج عيون الخليفة بسكبه للمتبقي من محتويات الإناء على راس الخليفة. قال الخليفة: "أيها التعس لماذا فعلت ذلك؟ تكلم قبل ان تموت". اجاب ابو نواس: "يا سيدي إذا ما فقدت راسي لإسقاطي قطرة واحدة فقط من الحساء على رقبتك، فإن كل الناس ستقول انك سيد ظالم وغير عادل، ولكن إذا ما قتلتني لسكبي إناء حساء عليك، لا احد سيلومك، لهذا قلبت آنية الحساء على راسك".

ابو نواس والسيدة خالصة:

كانت هناك فتاة في منزل هارون الرشيد، وكان ابو نواس غيورًا منها لأنها اثيرة لدى هارون الرشيد. في احد الأيام اهدى إليها الخليفة عقدًا ثمينًا وهذا ما اثار المهرج بحيث انه كتب على بابها البيت التالي:

لقد ضاع شعري على بابكم   كما ضاع عقد على خالصة

وعندما قرات الجميلة هذا البيت، جرت والدموع في عينيها لتخبر الخليفة الذي جاء بغضب شديد للاحظة ذلك بام عينيه. خلال فترة غيابها، قام ابو نواس بتغيير معنى البيت وذلك بمحوه الطرف السفلي من الحرف (ع) في الكلمة (ضاع) وبذلك اصبح الحرف همزة بدلاً من العين وكما يلي:

لقد ضاء شعري على بابكم   كما ضاء عقد على خالصة

وبعد أن راى الخليفة هذا، وبخ خالصة لدعوتها إياه، لأنه لا يوجد شيء في البيت سوى الإطراء. إلا انه يبدو أن قدرة خالصة على التورية، رغم أن مشاعرها قد جرحت، لا تقل عن قدرة المهرج لهذا اجابت، "الآن ازيلت العين (وهنا لا تقصد الحرف)، لهذا يمكن فهم البيت".

ابو نواس والحمير:

حصل ابو نواس على رخصة من سيده لأخذ حمار واحد من كل رجل في الولاية يخاف من زوجته كنوع من الضرائب. وبموجب ذلك ارتحل إلى القرى، وطلب من كل رجل معروف بأنه يخشى زوجته حمارًا، وحصل على حمار من هنا وحمار من هناك حتى تكون لديه قطيعًا كبيرًا. وفي احد الأيام شاهد حراس بوابات المدينة غيمة كبيرة من الغبار للتصاعد من الأرض، وقال احدهم إلى الآخر: "عجبًا ما هذا؟"

ولكن عندما اقترب الحشد الذي أثار الغبار من المدينة، ادركوا انه ليس عدوًا كما كانوا يخشون، ولكنه ابي نواس وهو يسوق امامه قطيعًا كبيرًا من الحمير التي اخذها من الأزواج المسيطر عليهم من زوجاتهم في الريف المحيط. دخل ابو نواس المدينة واقترب من القصر، وتصاعد الغبار بشكل غيمة دخلت إلى الغرفة التي يجلس فيها الخليفة، مما جعل الخليفة يعطس. طلب الخليفة تفسير ذلك، وعندما ابلغ بانه ابي نواس، طلب حضوره امامه ليخبره كيف فعل ذلك. لهذا ذهب ابو نواس إلى الخليفة وبدا يشرح له تجربته قائلاً: "يا سيدي، هناك في القرية الفلانية سيدة رائعة الجمال، عليك ان ترسل عليها لتستقدمها إلى القصر. شعرها كجناح غراب اسود، عينيها كعيون غزال الصحراء، شفاهها خاتم سيدنا سليمان، وقوامها ممشوق". وهكذا استمر في الوصف بالتفصيل لمواطن الجمال والسحر لهذه السيدة لسيده. ولسوء الحظ وبينما كان المهرج مستمرًا في شرح مواطن الجمال، نظر الخليفة نحو الشباك المفتوح على سكن السيدات، وهناك راى العيون السوداء الدائرية للسيدة زبيدة، وهي تتلألأ بنظرة عدم رضا، بينما كانت تزم شفاهها الجميلة بكل شيء عدا الابتسامة التي يغرم بها هارون الرشيد. استدار سريعًا إلى ابي نواس وقال: "صه، صه، الا ترى السيدة زبيدة وهي تصغي إلينا، تحدث بشيء آخر؟" قال ابو نواس: "الآن يا سيدي، عليك ان تعطيني حمارين، لأنك ملك والواضح ايضًا انك تخشى زوجتك السيدة زبيدة".

* * *

رحلة بالبي من بغداد إلى البصرة

يعتبر كتاب رحلة جاسبارو بالبي من بغداد إلى البصرة في نهاية القرن السادس عشر، مهمًا لأنه يحتوي على أسماء اماكن لا تظهر في الخرائط الحديثة. انا لا ادعي بأنني عينتها:

في يوم ١٣ آذار عام ١٥٨٠م، غادروا من بغدات إلى البالسارا (من بغداد إلى البصرة). وركبوا على ظهر سفينة في دجلة وهو نهر يبدو كانه نهر اليلنوس (النيل)، ولم يكن خطيرًا باكتظاظه بالصخور او جذوع الأشجار كالفرات، وفي (الماكا) ينقسم النهر إلى قسمين، احدهما يصب في الفرات والآخر في البالسارا. القاطنون على الجانب الأيمن هم من العرب بينما على الجانب الأيسر فهم من "الكَرْجي". وفي يوم (١٨) دخلوا إلى (الكر). يوجد فيها الكثير من الأسود واللصوص العرب. وهناك ايضًا الكثير من مربي الثيران والأغنام والماعز. ومن هناك وصلوا إلى (انكاسرامي)، حيث على كل ملاح ان يلقي خبزًا قربانًا لقديس دُفن هناك. كان هواء دجلة والفرات في هذه المنطقة طيبًا، إلا انه بعدها تبدا تظهر من النهر رائحة كريهة مثيرة للاشمئزاز، وفي الليل يكون النهر خطيرًا بسبب تكوّن نوع من الدواسات فيه حيث تستدعي السفينة المرافقة الأخرى لإخراج

الأولى من الدوامة. وفي اليوم التالي وصلوا إلى (كاسال) وهي مقر إقامة (السانياك)، حيث يصب فيها نهر مروان الفارسي. وهنا يواجهون لأول مرة المد القادم من الخليج العربي. وبعدها بقليل في (كالاتيل) يغذون سيرهم عندما يرتفع المد، وإلا فإنه سيعيدهم إلى الخلف. السهول هنا ماهولة تمامًا. ثم دخلوا إلى (كورنز) وبعدها بقليل شاهدوا فرعًا من الفرات يلتقي بدجلة حيث يتمركز العديد من الجنود مع السانياك لمنع اللصوص الذين يقومون بالسرقة برفقة مئات الأشخاص. كان النهر هنا واسعًا كالنيلوس وماهولاً بشكل جيد (وهو في بعض الأماكن يشبه نهر البرنت). كان الجو هنا في بعض الأوقات حارًا جدًا بحيث يموت العديد بسبب الحر. وقد اصاب الإنهاك في هذه الرحلة اربعة اشخاص بسبب الحرارة وجلسوا لاستعادة نشاطهم لبرهة من الزمن، إلا ان ريحًا حارة قد تغلبت عليهم وادت بهم إلى الاختناق. في يوم (٢١)، وصلوا البصرة".

انظر نيكرتون "الرحلات"، المجلد ٩، ص٢٩٦.

لابد أن الماكا التي يتفرع منها النهر إلى فرعين تشير إلى شط العمارة أو الحي، الذي يتفرع من كوت الإمارة. ربما تكون (الكر) هي الشاهرية المؤشرة في خريطة كيبرت إلا أنه ليس لدي مزيدًا من المعلومات عنها. ربما يكون القديس هو علي الشرقي او الغربي. لابد أن يكون نهر مروان الفارسي هو أحد مصبات نهر الكرخ. وتشير حقيقة أن المد يشاهد لأول مرة إلى مكان ضريح عزرا. (كورنز) هي بالطبع القرنة.

* * *

تقرير هاملتون عن البصرة

في كتاب رحلات القبطان الكسندر هاملتون، تقرير عن البصرة، يحتوي الكثير من الأشياء المتعة التي قمت باقتباس بعضها بتصرف. طبعت رحلاته في المجلد العاشر من كتاب نيكرتون "مجموعة الأسفار والرحلات"، لندن عام ١٨١١م، تحت عنوان "تقرير جديد عن جزر الهند الشرقية، ملاحظات وإشارات القبطان الكسندر هاملتون الذي امضى وقته هناك للفترة من ١٦٨٨ إلى ١٧٢٣م، وهو يتاجر ويسافر برًا وبحرًا إلى معظم البلدان والجزر التي تنشط فيها التجارة والملاحة بين راس الرجاء الصالح وجزر اليابان".

"تقع الباسورا (البصرة) في اقصى شرق الممتلكات التركية، تبعد حوالي ميلين من نهر الفرات الشهير وفيها نهر صغير يجري عند أطرافها على الجانب الغربي ويفرغ مياهه في نهر الفرات. تبعد هذه المدينة حوالي ثلاثين فرسخا من البحر ويزعم انها بنيت على يدي الإمبراطور تراجان ولها شرف ان تكون موطن ولادة إمبراطور روماني آخر هو فيليب المشهور بالعربي، ولكنها بنيت في البداية على طول ضفة النهر، ولا زال

بالإمكان مشاهدة آثار أسوارها القديمة من النهير المذكور إلى الجنوب بفرسخ واحد من ضفاف الفرات الذي يصب مياهه عن طريق أربع أو خمس مصبات في الخليج العربي، وهي غير صالحة لسير سفن الشحن عدا تلك القناة التي تقود إلى البصرة. تستمر القناة داخل المدينة لأقل من ميل واحد بعرض صالح للملاحة، وتستمر بنفس العرض لغاية مصبها.

يزخر النهر بالأسماك، إلا أنها ليست طيبة باستثناء سمك (شابل) صغير بحجم سمك الرنكة (السردين) هناك أيضًا أعداد كبيرة من الطيور المائية البرية كالأوز والبط والتم والحذف والكروان والزو وتعج الحقول بطيور الحجل من مختلف الأنواع والزقزاق والحمام والشنقب واليمام والقبّرات الكبيرة التي يتميز لحمها بأنه طيب للغاية وأصواتها ممتعة للأذن. هناك أيضًا الطيور الكواسر كالعقبان وأنواع وأحجام عديدة من الصقور، طيور الحدأة، والغربان السوداء والبيضاء، ومن الجدير بالملاحظة أن الغربان السوداء تعيش في الجانب العربي من النهر بينما البيضاء في الجانب الفارسي وإذا ما تطفل أحدها على مكان الآخر، فإنها تبدأ بالصياح حتى تبعد هذا الطائر وتعيده إلى موطنه.

هناك كميات كبيرة من السلاحف الصغيرة في النهر، إلا أنه لا أحد يأكلها لأنها محرمة في الشريعة اللاوية التي يلتزم بها المسلمون كثيرًا فيما يتعلق بالطعام. هناك أيضًا أنواع عديدة من الحيوانات البرية. حيث يوجد الخنزير البري بأعداد كبيرة ولحمها طيب ولذيذ إلا أنه لا يوجد حيوان سمين بينها، وغالبًا ما يأتي الفلاحون إلى المدينة لدعوة المسيحيين لقتلها لأنها تسبب دمارًا كبيرًا لمزروعاتهم. وإذا ما قَتَلَ مسيحي أيًا من هذه الحيوانات، فإنه يأخذه إلى بيته على ظهر بغل أو حمار مقابل مكافأة صغيرة، بالرغم من وجود أمر في القرآن يحرم لمس لحم الخنزير.

لدى الأهالي الكثير من الماشية السوداء، البرية والأليفة، وذات حليب جيد، إلا انهم لا يصنعون منه إلا جبن رديء، ولا يستخرجون منه الزبد لأنهم يستخلصونه من ذيول الأغنام، ويستخدمونه في مطابخهم بدلاً من الزبدة، ولا يستخدمون الشاي لاستهلاكه مع الزبدة الطازجة. بينما تعتبر القهوة، التي تستهلك على نطاق واسع، رفيقاً دائماً لغليون التبغ الذي تدخنه السيدات إضافة إلى الرجال. وفي الصحراء التي تقع بالقرب من المدينة، هناك جمال برية وخيول وحمير وماعز واسود ونمور وكوجر وثعالب، والتي يتم اصطيادها من فوق ظهور الخيول بالسيف والرمح وعلى الأقدام بواسطة بنادق خفيفة. ولديهم الكثير من الفواكه اللذيذة كالرمان والخوخ والمشمش والسفرجل والزيتون والتفاح والأجاص والدراق والأعناب الحلوة المذاق كعصير قصب السكر وكحولها ضئيل جدًا بحيث انه لا ينتج النبيذ ولا الخل. إلا ان الأكثر فائدة الأغزر إنتاجًا من فاكهتهم هي التمور التي تغذي وتطعم ملايين البشر الذين يجعلون منها غذاءهم اليومي، وهم يعتنون بها بطريقة عجيبة. تصدر البصرة سنويًا إلى البلدان الأجنبية اكثر من عشرة آلاف طن من التمور، مما يُوظف الكثير من البحارة لتصديرها، بالإضافة إلى توظيف الكثير من الفقراء في جمع وتعبئة هذه التمور في اوعية من الحصران المصنوعة من أوراق أشجار النخيل وبالمنل في تجفيفها. اشتريت حوالي (١٦٠) باون من التمور اللينة بمبلغ اثنين او ثلاثة من الباونات الإسترلينية واحيانا تكون ارخص من ذلك.

كانت البصرة لسنوات عدة بأيدي الفرس الذين شجعوا التجارة كثيرًا، وهذا ما جذب العديد من التجار من البلدان الأجنبية للاستقرار هناك وخاصة من سُراة في الهند. ولكن في عام ١٦٩١م، اجتاح وباء الطاعون المدينة وقتل اكثر من ثمانين الف شخص من سكانها، وهرب المتبقي منها، بحيث أنها بقيت خالية من السكان في السنوات الثلاث التالية لذلك، واستوطنتها الحيوانات المتوحشة التي طردها في الآخر من المدينة

العـرب المحيطين بها حيث سيطروا عليها لقـرابة اثني عشر شهرًا وبدورهم اخرجهم الأتـراك منها، حيث ظلت تحت سيطرتهم لغاية هذا اليوم، إلا ان تجارتها اكثر ضالة ممـا كانـت علـيه في زمـن سـيطرة الفـرس علـيها والسـبب في ذلـك هـو ان الأتــراك متعجرفين مع التجار الأجانب.

يوجد الكثير من اليهود في البصرة وهم يعيشون على السمسرة والصيرفة، إلا ان الأتـراك يـبقون هـذه الشـريحة مـن الـناس بمستوى ادنى لأسباب سياسية. هنالك ايضًا حوالي مائتين من المسيحيين من اتباع الكنيسة اليونانية، إلا انه لا يوجد قساوسة لهذه الطائفـة بيـنما تـتمركز هـناك بعض البعثات التبشيرية الرومانية. لم يكن رجل الدين اليوناني مهتمًا بكسب مهتدين جدد، وهي لا تـتحمل مخاطـرة الاستشهاد في سـبيل رعايـة اتـباعها، لـهذا لم تـبقِ اي كـاهن في البصـرة. ولكـن عـندما كـنت هـناك كـان يشـرف على تلك الكنيسـة ثلاثـة مـن القساوسـة الـرومان مـن الرهبـنة الكرملية. كان هـؤلاء الأنـذال المتظاهرون بالتقوى خزيًا على المسيحية لأنهم قد جعلوا من كنيستهم حانـة مستغلين تسامح الحكومة معهم اكثر من المسلمين في القضايا الأخلاقية، واساءوا استخدامها لأغـراض دنيـئة في بيع العرق الذي يقطروه من التمور ويجلبون حور الجنة لاستخدامها مـن قـبل زبائـنهم. يحـرم عـلى المسلمين بتاتا شرب الخمور أو تقطير النبيذ بموجـب شـعائرهم الديـنـية والمدينة، لأن حرارة الشمس والتربة الرملية الجافة تخلق في ادمغـتهم قدرًا من سرعة الغضب بحيث انه عندما تزداد سخونتهم بفعل شربهم لنبيذ قـوي، فـانهم يصـبحون عصـبيي المـزاج ومؤذيـن لأحدهـم الآخـر، وبـنوبات الجـنون قـد يجـرحون او يقـتلون بعضـهم، لقـد كـانـت الحكومـة باسـتمرار تؤنـب هـؤلاء القساوسـة الأوغـاد لإساءتهم استـعمال التسـامح المـنوح لـهم، ولكن دون دوى لأن تجارتهم رابحة.. ولكـن عـند مشاجرة بـين اثـنين مـن الـبحارة السكارى حيث جمع احدهم بشكل خطير بسكين وتحـول الآخـر بسـبب الخـوف مـن العقـاب إلى الإسـلام كـونـه مسيحي برتغالي،

ارسل الباشا ضابطًا وعددًا من الجنود لدخول الكنيسة وجميع المباني الملحقة بها مع أوامر بتهشيم الجرار ومعدات التقطير مع المتبقي من القناني الجاهزة، وسكب كل العرق الموجود على الأرض، حيث جرى كل ذلك حسب الأوامر، وعند التفتيش عثر الجنود على ساعة فضية جميلة وحوالي اربعمائة دولار اسباني، حيث حملوها معهم، التمس القساوسة من الباشا إعادة الساعة والمال، إلا انه أجابهم أنهم قد وعظوا كثيرًا عن الزهد بالثروات الدنيوية، وإذا ما جعلهم جنوده يمارسون ما وعظوا به فعليهم ان يشكروا الجنود ويتركون هذا المال الحقير في الأيدي التي تعترف بحبها له، وتعرف جيدًا كيف تستخدمه اكثر من القساوسة، وهكذا طردهم مع تهديد بعقوبة أشد في حالة ارتكابهم لإثم آخر. إلا ان حلاوة الكسب الدنيوي سرعان ما جعلتهم ينسون التحذير الذي وجّهه الباشا إليهم، وعادوا ثانية كالكلب إلى قيئه لتجارتهم القديمة في إفساد المسيحيين واليهود والمسلمين والوثنيين بالخمور واعادوا نصب معدات التقطير لهذا الغرض مرة أخرى.



قصة رومانسية من الخليج العربي

لا تـزال هـناك فسحة مـن الرومانسية في الخليج العـربي يمكـن ملاحظتها مـن خلال القصة التالية التي ظهرت في صحيفة (التايمز) بتاريخ ٤ تشرين الأول، عام ١٨٩٢:

تحتوي الصحف الهندية التي جاء بها بريد هذا الأسبوع قصة جديرة بالاهتمام عـن حطام سفينـة وعـوز. كـان على ظهر الباخرة سملا التي وصلت بومبي من الخليج العـربي في ٢ ايلـول، شـقيقين اسمهمـا لافي وهمـا مـن ماهي. كانا يعملان في نقل البضائع مـن جزيـرة إلى اخـرى من جـزر سيشـل ويستخدمان لـهذا الغـرض مركـبا شراعيًا ذا حمولـة حوالـي (٢٥) طـنًا، حيـث اجـرى رحلـة واحـدة فقـط. في يـوم ٢١ حزيـران، غـادر المركـب ميناء فكتوريا وعلى ظهره ستة اشخاص جلهم من الفرنسيين في رحلة بحرية قصيرة حـول الجزيـرة ولديهـم مـؤن تكفـي لأربعـة أيـام فقط. وبعد مغادرتهم مباشرة، واجههـم طقـس سـيئ حـال دون رسـوّهم إلى الـبر. بعـد اربعـة أيـام مـن مغادرتهم الميناء، قلعـت قـوة العاصفة شـراع السـارية الأمـامي. وبذلـك جرفـتهم الـرياح إلى اعـالي الـبحار، وابتعدوا عـن خط سير البواخر. قاموا بتقسيم الطعام والمياه إلى حصص صغيرة واخذوا يتـناولونها بـالدور وهـم يراقـبون ويحـاولون إبقـاء انف المركـب عاليًا في الماء. وبعد اليوم التاسع عشر نفـذت مؤنهم. شرب اكثر من واحد منهم ماء البحر، وبعد سبعة ايام من

نفاد المؤن توفي احدهم من الجوع والعوامل الجوية. وبعد يومين توفي آخر، ولكن في اليوم الثالث شاهدوا اليابسة. جرى توجيه القارب نحو الساحل، حيث غرق بعد ذلك. وبعد نزولهم إلى البر مباشرة توفي الثالث بسبب الجوع لفترة طويلة. خلال الوقت الذي امضوه في البحر، لابد انهم قد ساروا مسافة لا تقل عن ١٣٠٠ ميل في قاربهم المفتوح، لأن المكان الذي نزلوا فيه هو راشور او راس مدروكة وهو مكان قفر على الساحل العربي. وبينما كان الناجون الثلاثة يبحثون عن شيء من الفاكهة او المياه، ذهشوا لرؤيتهم بدويًا قادمًا نحوهم، قام بدلاً من إساءة معاملتهم كما كان متوقعًا، بتقديم التمور والمياه إليهم. شرب الثلاثة الماء بنهم والتهم الإخوان لاڤي التمور، وهي اول وجبة لهم منذ احد عشر يومًا، إلا ان الإجهاد كان كبيرًا على رفيقهم الثالث حيث توفي بعد ذلك بقليل ليصبح الميت الرابع منذ ان بدات الرحلة. وبعد ان وجدهم البدوي غير قادرين على المشي، وضعهم على ظهور جماله ورحل بهم إلى مسافة قصيرة إلى مكان معين في الصحراء وجد فيه شجرة وارقدهم تحتها. بقيا هنا لمدة ثلاثة او اربعة ايام محاولاً معرفة من اين جاءوا. كان الحديث غير ممكن معهم، ولكن بعد فترة ذكر كلمة مسقط، حيث اشار الأخ الأكبر انهم يودون ان يذهبوا هناك، كونه يعرف ان هناك مثل هذا المكان على الخليج العربي. وفي اليوم الرابع من الإقامة في الصحراء، وبعد أن استعادوا جزءًا من قواهم وضعهم ثانية على ظهر جماله وانطلق بهم ماشيًا على قدميه. وبعد رحلة دامت اثنان وعشرون يومًا اوصلهم إلى القنصل البريطاني في مسقط، حيث تحدثوا له عن مغامرتهم. اعطى القنصل إلى البدوي الصديق مكافأة نقدية كبيرة. وبعد البقاء في مسقط لثلاثة ايام، تم استدعاء باخرة سملا وتم إركابهم على ظهرها وإعطاءهم اجرة السفر إلى بومبي. جرت إعادتهم على نفقة الحكومة إلى جزر سيشل عن طريق عدن".



مقاييس وأوزان مضطربة

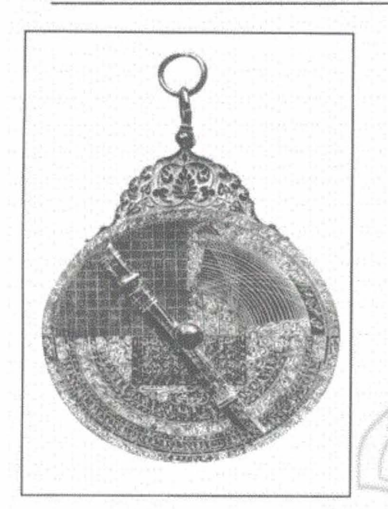
لقد سبق ان ذكرت العملة المتداولة المربكة في بغداد. يبين التقرير التالي حالة الأوزان والمقاييس:

اقتبست صحيفة هيئة التجارة من صحيفة غرفة تجارة اسطنبول تقريرًا مثيرًا للغرابة عن الأوزان والمقاييس المستخدمة في بغداد والبلاد العربية الخاضعة للأتراك. لم يجر تبني النظام العشري المتري، الذي صدر به قانون في تركيا عام ١٨٧٠م، من قبل سكان بغداد، حيث تستخدم هناك كما في باقي اجزاء الإمبراطورية الأوزان والمقاييس القديمة. لا يعرف الأجنبي الذي وصل البلاد حديثا شيئا عنها لفترة طويلة ويكون عرضة للخديعة من قبل الخدم واصحاب الحوانيت. لهذا، عليه، على سبيل المثال، ان يعرف انه عندما يتحدث الطباخ معه عن اوقية من اللحم، فعليه ان يفهم انه يقصد اوقية كبيرة، لأن الخبز واللحم والزبدة والرز والخضراوات والفواكه وباقي الأطعمة تباع باوقية بغداد الكبيرة التي تساوي حوالي اوقيتين ونصف من اوقيات اسطنبول. ومن جانب آخر، قد يبيع البقال الذي يعتبر نفسه متقدمًا بضاعته بأوقية اسطنبول. يباع القمح والتمور بالطغار المكوّن من عشرين وزنة التي تعادل حوالي (٧٨) اوقية في

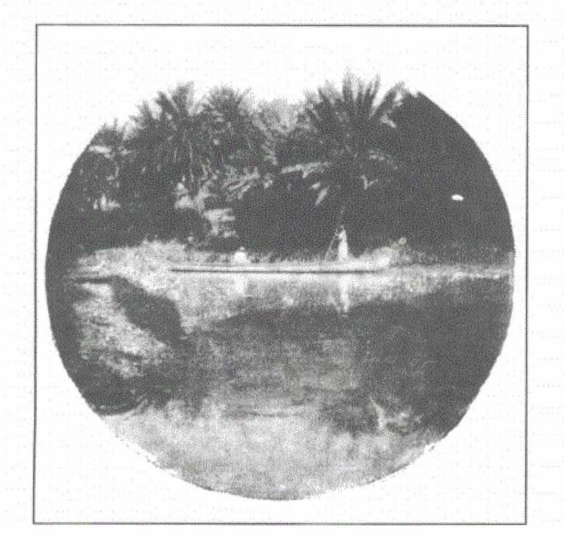
حين يباع الخشب والقير والجص... الخ. فيستخدم الطغار المكوّن من (٢٠) وزنة ذات الـ (٥٠) أوقية اسطنبولية. وبالنسبة إلى الصوف، يشيع استخدام المن البغدادي الذي يعادل حوالي ست أوقيات بغدادية أو (١٢) أوقية اسطنبولية. يزن الجواهري مجوهراته بالمثقال الذي يعادل واحد ونصف درهم. تباع المنسوجات حسب نوعها، اما بالبك الحلبي الذي يعادل (٢٦,٢٥) إنج او اليك البغدادي الذي يعادل (٢٩,٥) إنج أو اليك الفارسي الذي يعادل (٤٠) إنج، وبالنسبة إلى الفراء الفارسي فإنهم قبل قطع القطعة التي اشتروها، يتاكدون دائمًا من ان القياس كان صحيحًا وذلك بإجراء العملية التالية: يأخذون باليد اليسرى احد أطراف الذراع ويضعونه قرب الأنف ثم يمدون الذراع الآخر بأقصى ما يستطيعون. وهذا الطول يجب ان يتناسب مع ذراع شاه. تستخدم ايضًا بعض العادات الخاصة في وزن بضائع معينة، على سبيل المثال، يجري عدّ الجوز. وبعد وزن البضاعة بالمن ذي الست أوقيات فإنه لغرض الحصول على الوزن الصافي للمن، يتم إنقاصه من (١٢) إلى (١٠) وتقلل النتيجة ايضًا من (٣١) لـ (٣٠) وما يتبقى يتم تحويله إلى القنطار بمعدل (٣٠) مَنْ للقنطار الواحد، ويتم التعاقد على السعر على اساس القنطار. من العسير فهم اصل وسبب هذا الحساب الغريب. يباع النبيذ الذي يأتي من ديار بكر وكركوك والذي يستهلك في هذا المكان بالوزن اي بالأوقية الاسطنبولية. يباع الحليب احيانا بالوزن ولكنه يباع بشكل عام بالقنينة ونصف القنينة، ولا اهمية لحجم القنينة سواءًا كانت صغيرة ام كبيرة حيث تجري تسوية الفرق بإضافة كمية كبيرة أو صغيرة من مياه دجلة حسب الطلب.



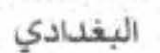
صور وخرائط



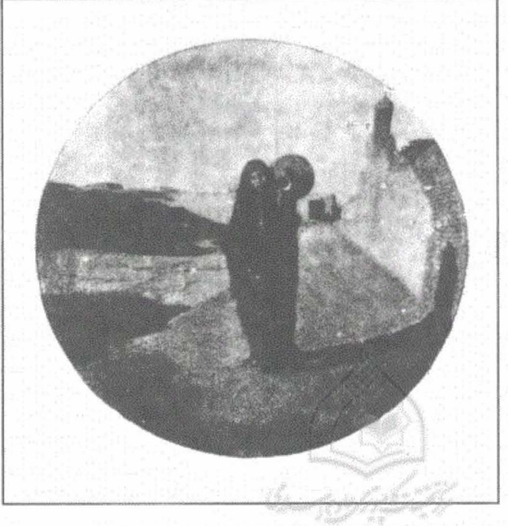

اسطرلاب فارسي (بوجهين)

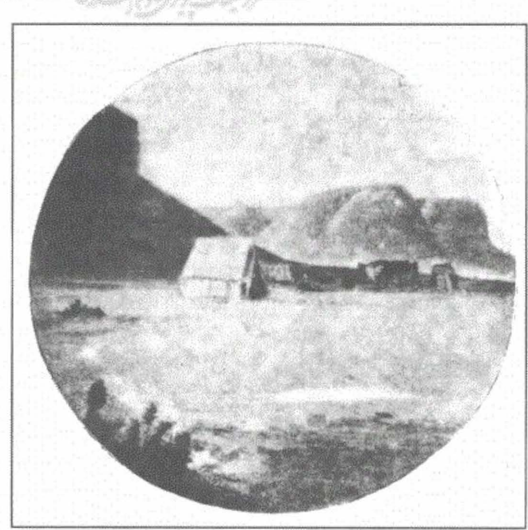


بلام في البصرة

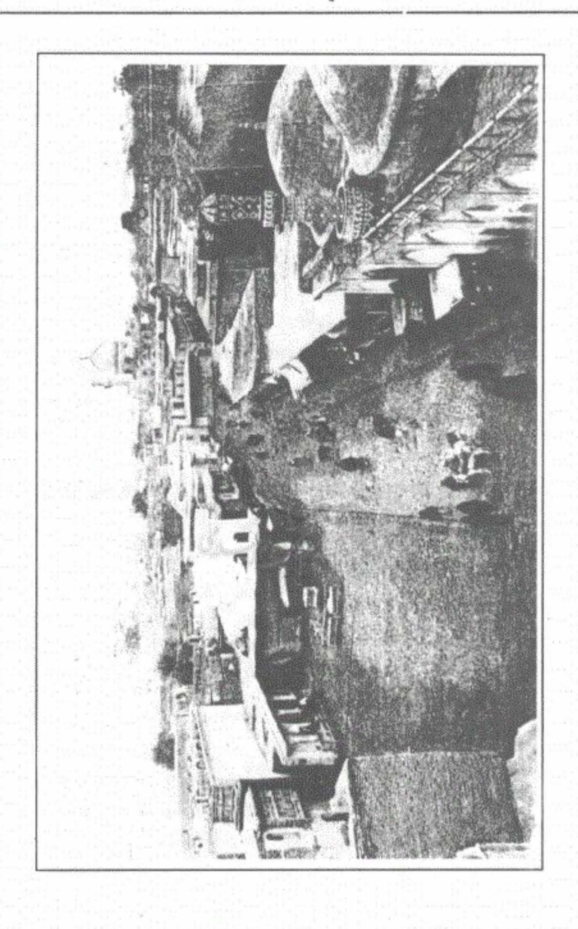


البغدادي

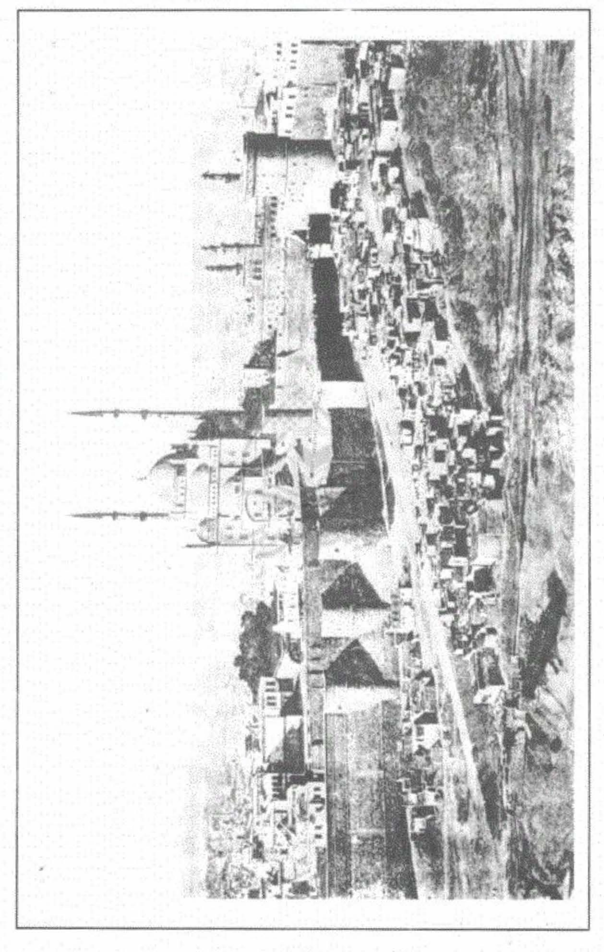




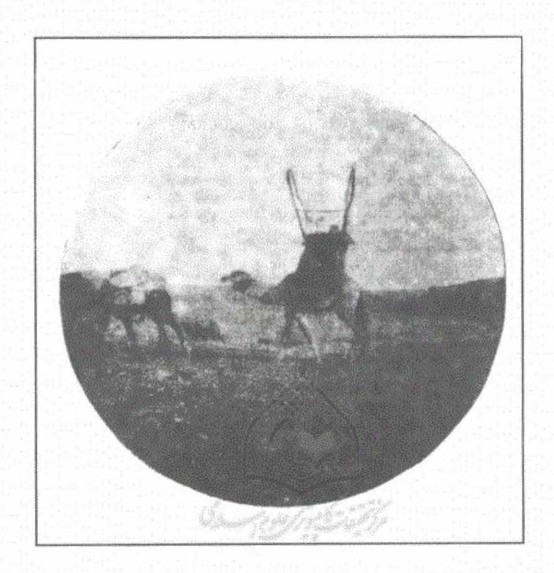
مخيمي



شارع في بغداد



القاهـرة



الهودج

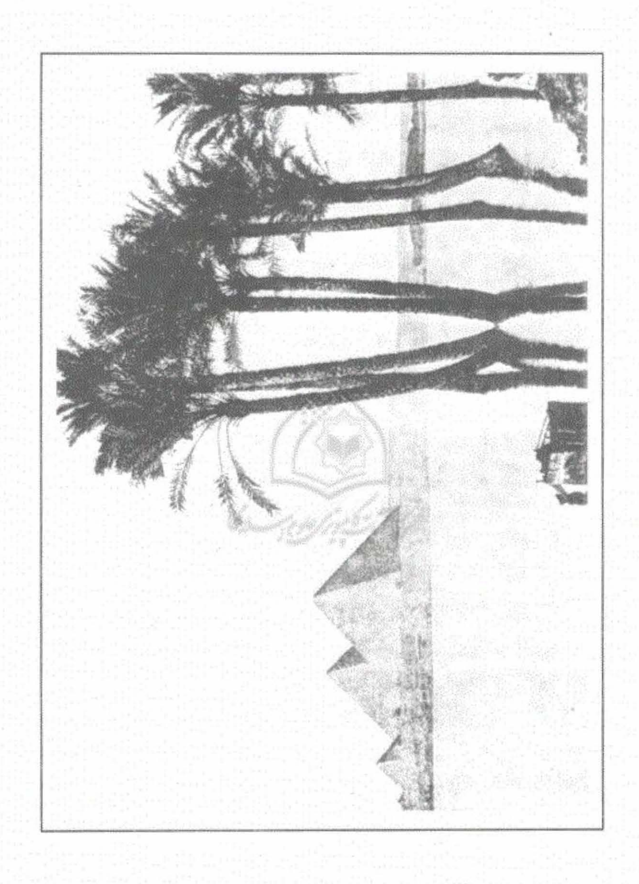


فارس من عنزة

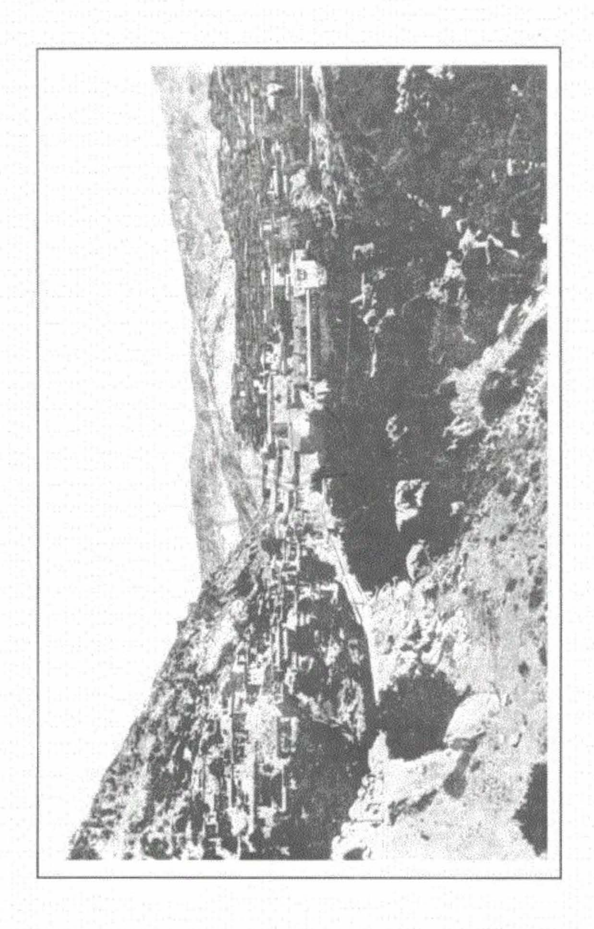
ناعورة في عنه



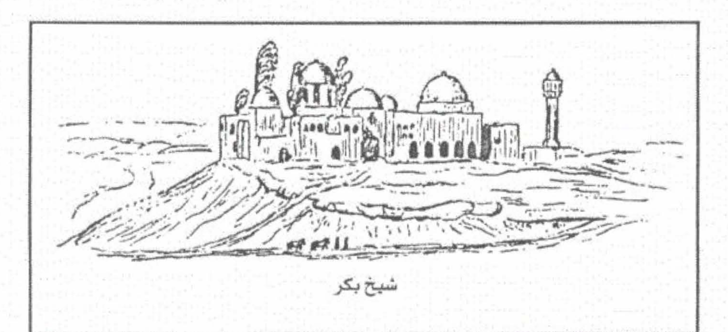
موسيقيون متجولون على الطريق إلى حلب



نخيل وأهرامات

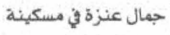


بيـلان

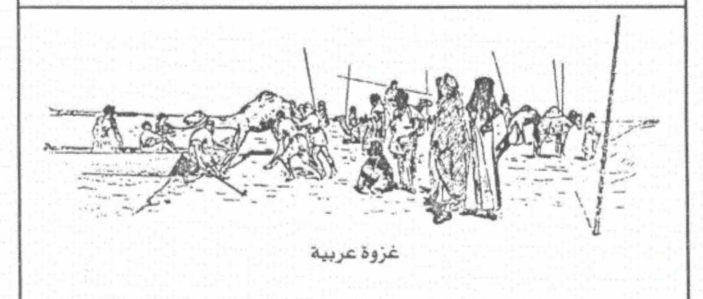


شيخ بكر

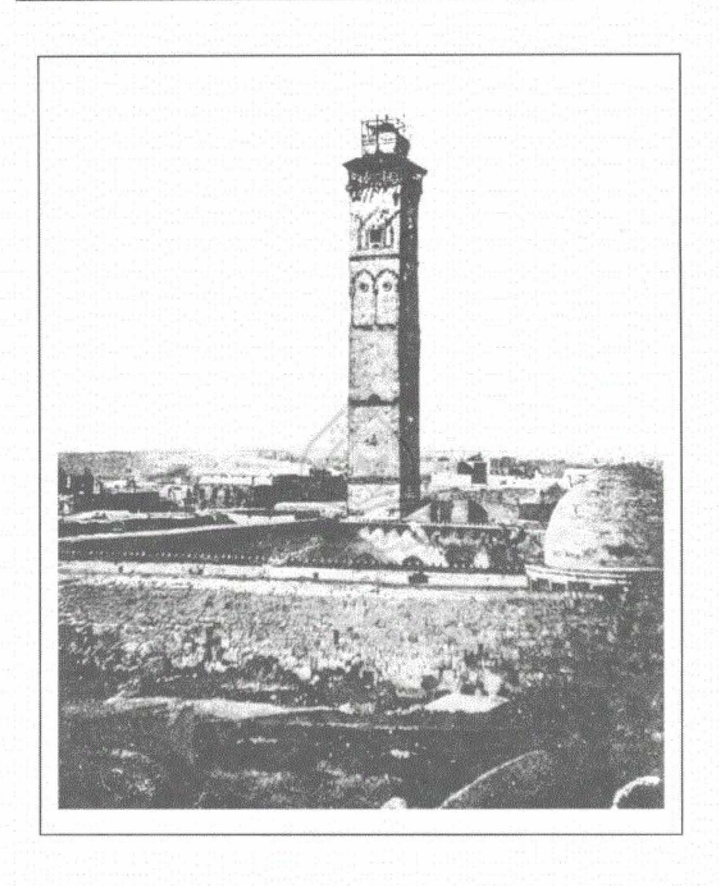




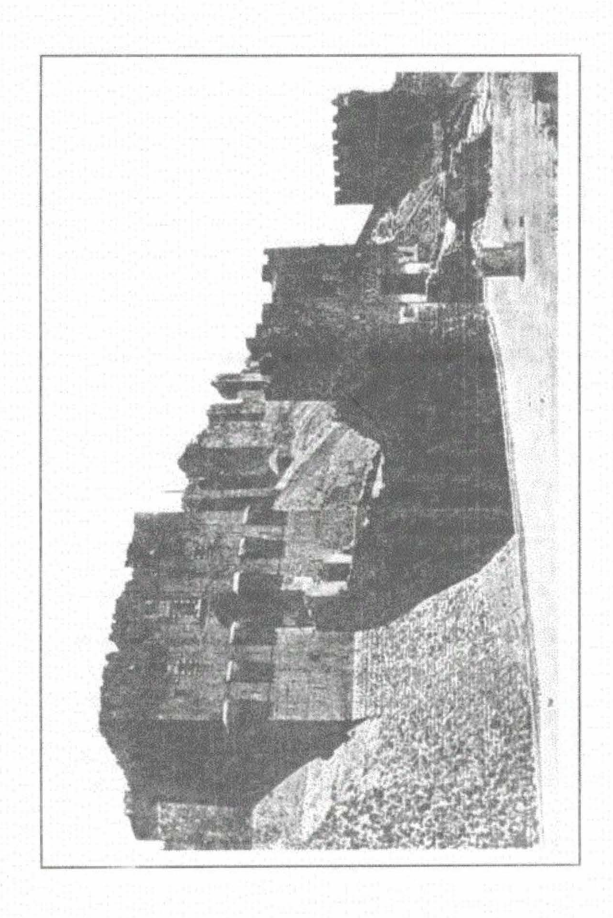
جمال عنزة في مسكينة



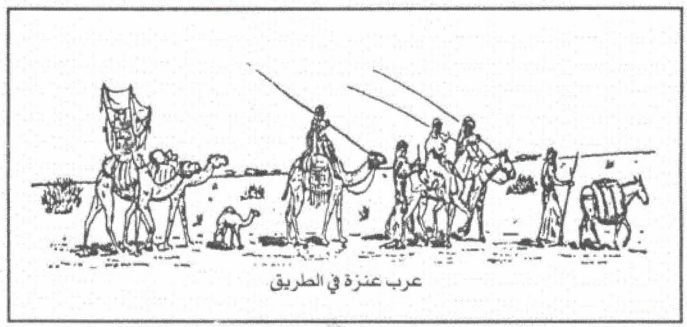
غزوة عربية



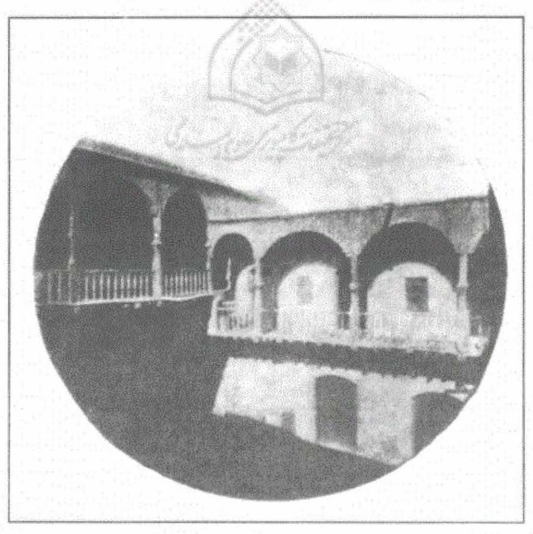
جامع زكريا في حلب



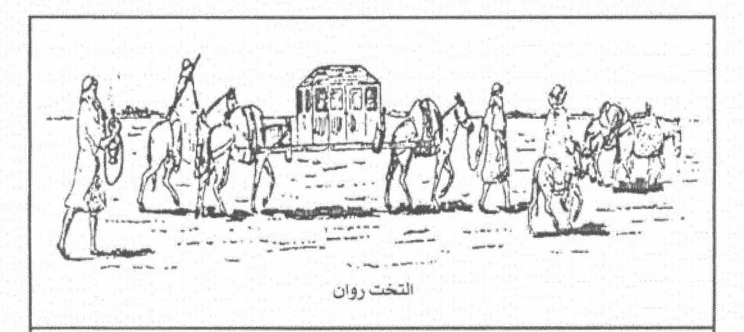
مدخل قلعة حلب



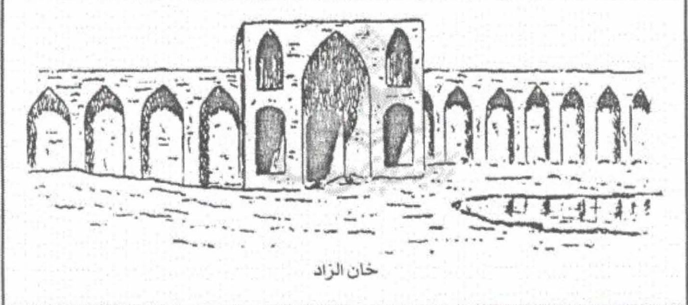
عرب عنزة في الطريق



خان في الدير



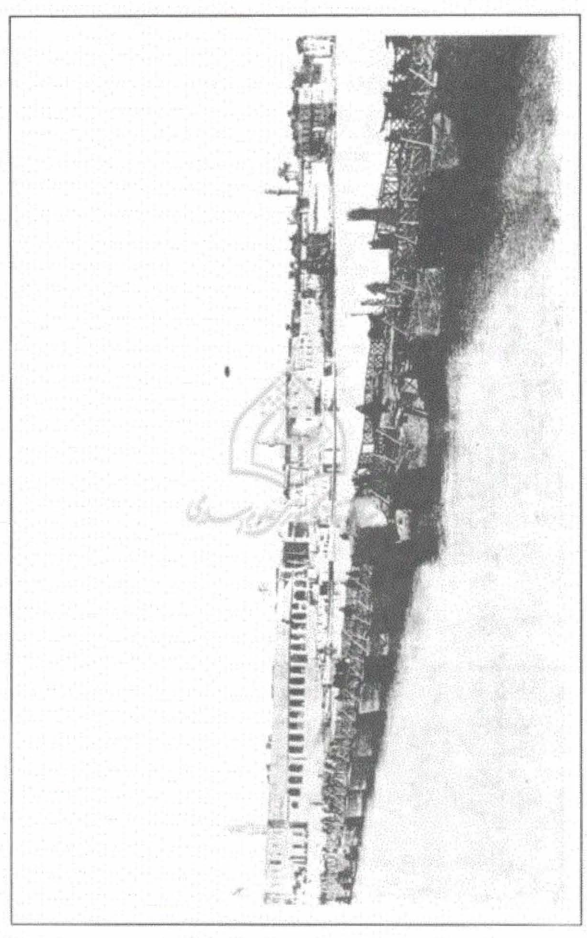
التخت روان



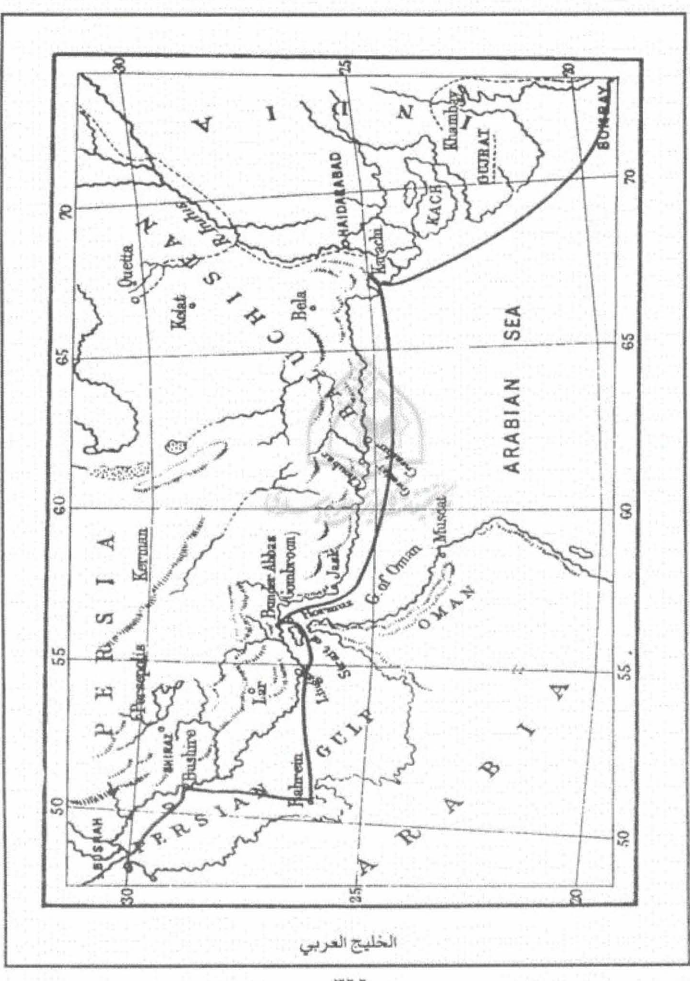
خان الزاد



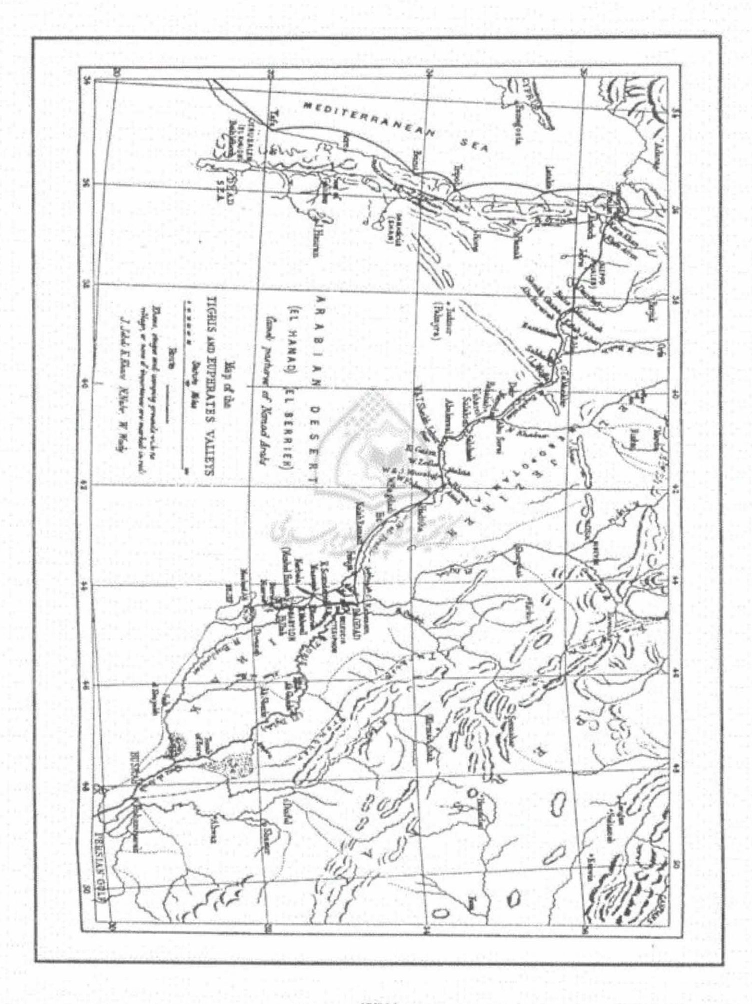
حجاج فرس في المسيب



بغداد وجسر القوارب، من الضفة الغربية



الخليج العربي


MEDITERRANEAN SEA
ARABIAN DESERT
Map of the
TIGRIS AND EUPHRATES VALLEYS
PERSIAN GULF